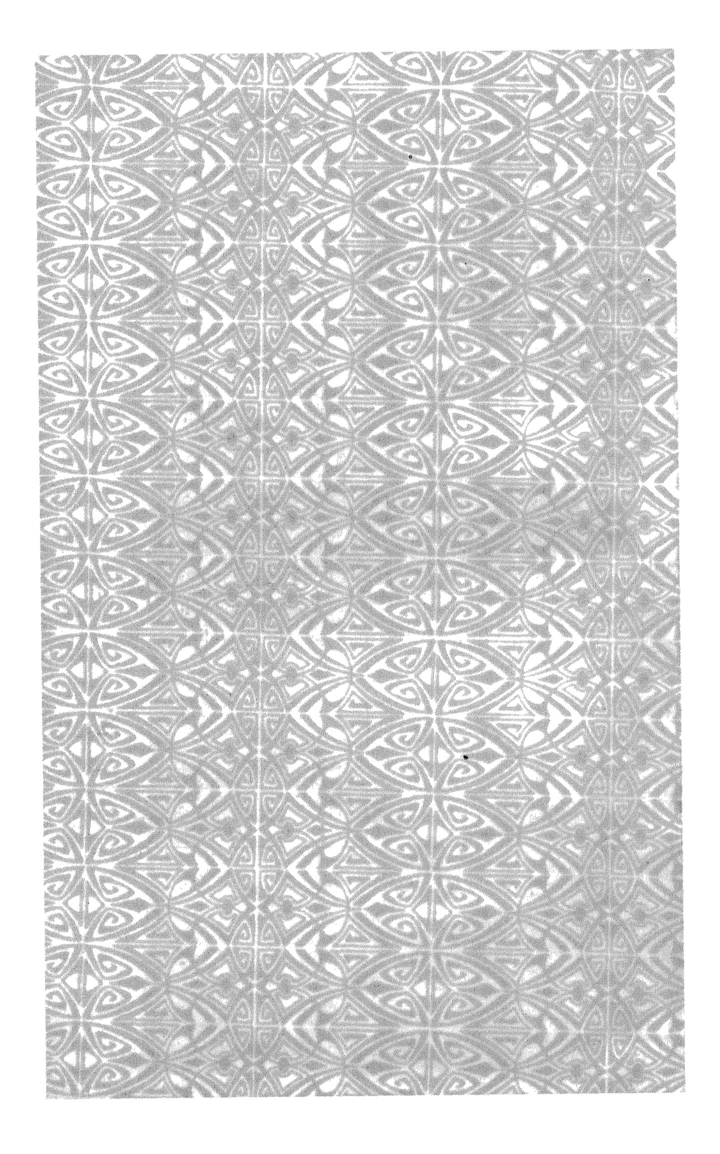
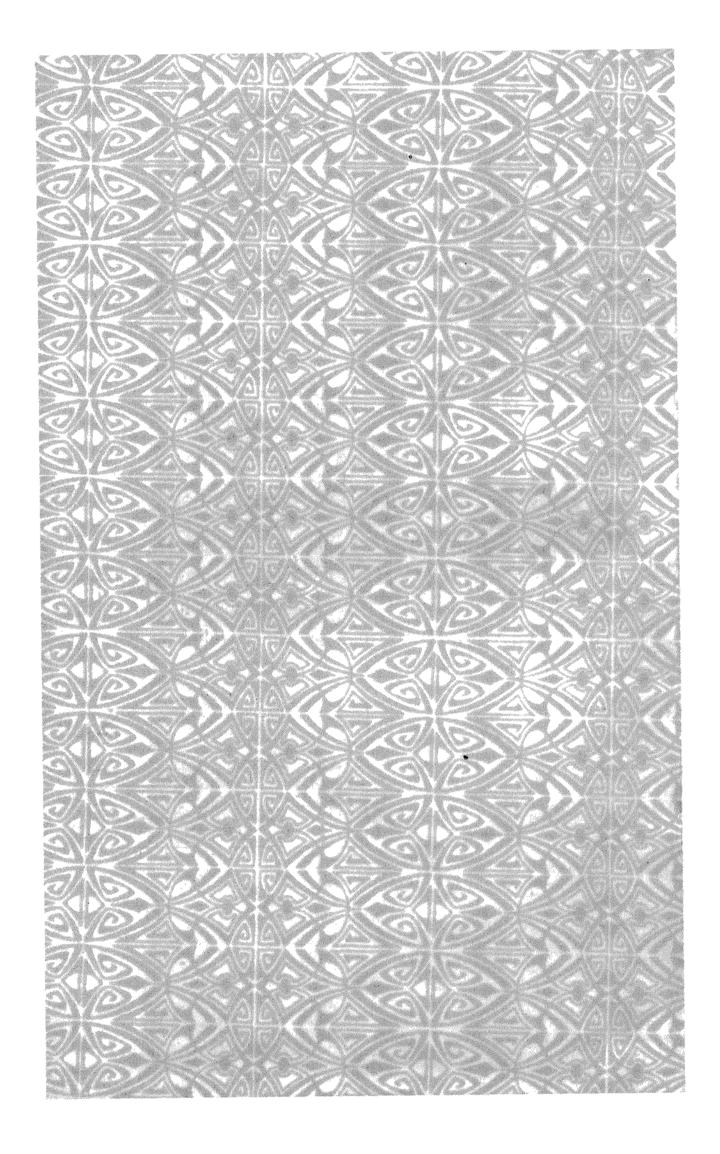
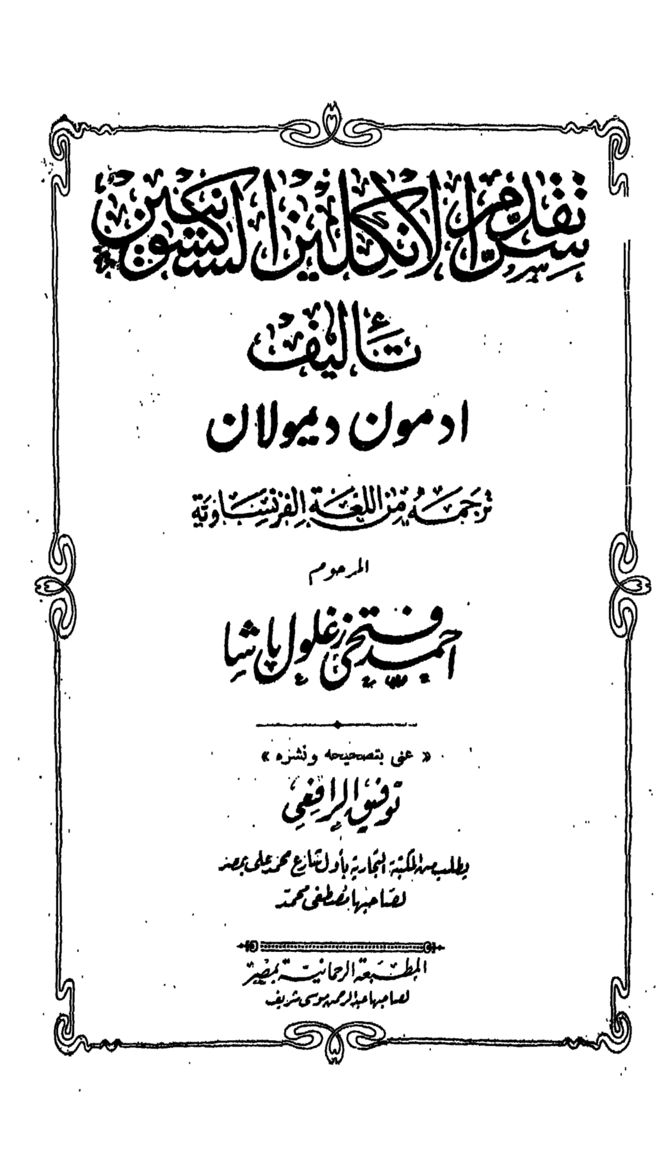








سر تقدم الانكليز السكسونيين

تأليف

ادمون ديمولان

ترجمة من اللغة الفرنساوية

المرحوم

احمد فتحي زغلول باشا

« عني بتصحيحه ونشره »

توفيق الرافعي

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الامين وعلى آله وأصحابه والتابعين

ظهر بفرنسا فى شهر افريل سنة ١٨٩٧ ميلادية كتاب ألفه موسيو أدمون ديمولان وسماه سر تقدم الانكليز السكسونيين بحث فيه بحثاً دقيقاً عن أحوال الامم الفرنساوية وقارن بين التربية فيها وفى المانيا وبينها فى انكلترة واستدل على ضعف أمته بفساد التربية فيها واستشهد على فضل الامم الانكليزية السكسونية بتربيتهم ونشأتهم وما ألفوه من العادات والاخلاق. وغرضه من بيانه هذا حث الامة الفرنسوية على العدول عن تقاليدها فى التربية والتعليم وادخال الاصلاح فى المدارس حتى تؤدى الغرض المقصود منها وهو تخريج رجال قادرين على العمل الصحيح غير معتمدين الا على أنفسهم ولا يطلبون سعادتهم الا من كدهم واجتهادهم

والمؤلف رجل ظل السنين الطوال فى عزلة لا يكاد يشعر به أحد من قومه وأنشأ مجلة شهرية سماها (العلم الاجتماعي) مضى عليها الى يوم نشر الكتاب اثنتا عشر سنة ولم يكن لها من الشهرة أكثر مما لغيرها من المجلات العلمية ولكنه كان فى عزلته يركب الصعاب فى البحث عن أحوال أمته ويطيل

النظر فى أسباب تأخرها عن الامم الانكليزية السكسونية ويجمع مواد كتابه من كل شاردة يعز نوالها ويسعى وراء الادلة التى يؤيدبها رأيه من النظر فى الحوادث ونتائجهـا والعادات وآثارها والاخلاق وما يترتب عليها

وقسم كتابه الى ثلاثة أبواب بحث فى الباب الاول منها عن نظام المدارس عند أمته والامتين الاخيرتين وأعرب عن نتائج ذلك النظام فى كل أمة منها. وقارن فى الثانى بين الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى معيشتهما الخصوصية فتكلم عن المسكن والملبس والصنائع والحرف والزواج والمواليد والوفيات وتأثير ذلك فى الامة من حيث الثروة العمومية والزراعة والصناعة والتجارة. وخصص الباب الثالث للكلام عليهما فى حياتهما العمومية فقارن بين أهل السياسة فى البلدين وفرق بين مجلسى النواب فيهما وأفاض فى بيان مزايا الحرف المستقلة والصنائع الفنية كما أطال فى ذكر مضار أهل الحرف الادبية كالاطباء والمحامين ووكلاء الدعاوى والموثقين وأهل الصحافة وأرباب الجرائد إذا كان الصوت صوتهم فى سياسة الامة وأجهز على مذهب الاشتراكيين بساطع البرهان وأقوى الحجج وفند أقوال أصحابه تفنيداً يخضع له المكابرون وخاض فى الكلام على معنى الوطن والوطنية فردهما الى معناهما الصحيح بعد ان بين المعانى الفاسدة التى أخطأ غلاة الوطنية فى فهمها من هاتين الكلمتين ودل على الفرق الموجود بين أمته وبين الامم الانكليزية السكسونية فى ادراك معنى التكافل والتعاون من بعض الافراد لبعضهم وأرشد الى أحسن أحوال الاجتماع لتحصيل السعادة فى هذه الدار. وهذا الفصل الاخير كله حكم بليغة ودرر ثمينة وختم الكتاب بالكلام على الدين

وتأثيره فى النفوس وفعله فى سعادة الامم بصلاحه وشقائها بفساده وتخلص الى ذكر الحوادث الجديدة التي أخذت تبدو فى الامة الفرنساوية مما يدل على أنها سائرة نحو التقدم شاخصة الى التحول من حالة سيئة الى حالة راضية

ويمرّ القارىء على الكتاب من أوله الى آخره فلا يجد فيه دليلا خطابياً أو حجة غير معترف بها لأن المؤلف أردف كل قول بدليله المنتزع من الحوادث الصادقة والمشاهدات الصحيحة مما لا يدع مجالاً للشك أو محلا للاعتراض

فلما فرغ من تأليفه ورمى به بين القراء من قومه كان كشعلة من النار أصابت وقوداً جافة فالتهمته لساعتها وسرى لهيبها فى جميع الاندية والبلدان غير ان الناس لم يشتغلوا باطفائها بل كل يذكيها ويصليها لانها نار هدى وسلام

وحقيقة ما نشر الكتاب حتى اشتهر وعظم شأنه وتهافت الناس على تلاوته وأقبل الجموع على مطالعته وقامت له قيامة المدرسين واشتغل بالبحث فى أبوابه كبراء الكتاب والمدققين وتلقفته الجرائد فشرحته وذيلته وقرظته وانهالت على صاحبه المراسلات تترى من كل ناحية يسأله أصحابها أين المدارس التى يشير اليها والسبيل الى تربية أبنائهم على غير تربية آبائهم ولم يمض الا القليل من الايام حتى ترجم الكتاب الى لغات عديدة فقرأه الانكليز والالمانيون والاسبانيون والبولونيون . وها نحن اليوم نزفه الى قراء العربية يتهادى فى أحاسن معانيه ورفيع مبانيه

هذا كتاب لم يترك منقصة فى تربية الأمة الفرنساوية إلا أذاعها ولا خلقاً سيئاً أو عادة سافلة إلا ندد بها لذلك اشتد وقعه فى قلوبهم وضربوا

بأيديهم على جيوبهم ولكنهم مع ذلك لم يلوموا المؤلف بل عظموه ولم يعنفوه بل احترموه وعرفوا أنه مخلص يحب أمته ويطلب لها النفع والفخار فما منهم إلا من أكرم مثوى الكتاب ورأى فيه تذكرة لأولى الألباب وأجلس صاحبه حيث يجلس الحكماء وأحله حيث تحل العظماء وسألوه أن يكون قائد حركة التعليم والهدى بهم الى الطريق المستقيم فجاءه أرباب الغنى واليسار يقدمون له الاموال ويعدونه بالنفس والنفيس وامتاز من بينهم ثلاثة عشر رجلا من سراة القوم عقدوا معه شركة واشتروا على مسافة ساعتين من مدينة باريس قصراً مشيداً وحديقة أنيقة وأرضاً فسيحة تبلغ الاربعة والعشرين فداناً واستخدموا المهندسين وأرباب الصنائع والحرف فى أعداد القصر مدرسة والبستان ميدان تمرين والغيط موضعاً للتجارب والاختبار فقام كل واحد بما عهد اليه وأعلن عن افتتاح المدرسة فى شهر اكتوبر سنة ١٨٩٩ للطالبين

وألف مسيو ديمولان كتاباً آخر سماه (التربية الجديدة) ظهر فى السنة الماضية ذكر فيه ما كان من أمر كتابه الذى تقدمه للقراء وضمنه نظام المدرسة الجديدة وبين الفرق بين التعليم الذى يقصده وبين التعليم الذى يجرى عليه قومه وجاء فيه على ذكر بعض الرسائل التى كتبت اليه من جميع الطبقات وكل الجهات وأهداه الى صديقه موسيو (جول لومتر) عالم من أرباب الافهام وكاتب نابغة بين أهل الاقلام قدر كتاب سر تقدم الانكليز حق قدره وساعد كثيراً بخطبه وقلمه على إذاعته ونشره

ولاجل أن يعلم القراء ما كان للكتاب من التأثير نلخص بعض شذرات

مما نشرته الجرائد وبعض الرسائل التي كتبت الى المؤلف .

قال موسيو (جورج رودوناخ) في جريدة (باتروبوت دي بروكسيل) « ظهر كتاب في فرنسا عظم اشتهاره وكان له تأثير كبير في تلك البلاد عنوانه سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه موسيو ادمون ديمولان وقد اشتهر هذا المؤلف بكتابه دفعة واحدة فانا عرفناه منذ زمان مكباً على العمل بصبر وسكون وحضرنا مجلسه عند (لا پلى) مؤسس العلم الاجتماعي وكان أكبر تلامذته وهو الذي كان يحيي مجلسه بأحاديثه ويفيد الحاضرين بمعارفه وينسيهم الوقت بما يحكى من الحوادث وما يشرح من الحقائق فلما رحل أستاذه عن هذه الدار انزوى هذا الرجل ونسيه أكثر العارفين به وصار اسمه لا يرد على الألسنة إلا ضمن الحديث حتى اننا كنا نتساءل عنه ونقول لعل ديمولان لم يك من الناجحين مع ما ظهر منه أولا من غزارة المادة وعظيم العرفان . وبينما الناس يتناسونه واذا به قد ظهر ظهور القمر في الليلة الظلماء بكتابه سر تقدم الانكليز السكسونيين الكتاب الذي امتحن فيه المؤلف وجدان الأمة الفرنساوية فجاء يبرهن على ان زمان السكر بالزهو قد انقضى وقام العلماء والكتاب يدلون على مواقع الضعف ويشعرون الأمة بما أصبحت في حاجة اليه ولم يأت موسيو ديمولان في مقابلته بين الفرنساويين وبين الانكليز السكسونيين إلا بالوقائع الثابتة والمشاهدات الصحيحة واختار المقابلة بين الماديات فليس كتابه كتاب مذهب يريد نشره ولكن كتاب أفكار تؤيدها الحوادث والمشاهدات . فالارقام فيه ناطقة بلسان فصيح والاحصاء ينتج النتيجة من نفسه ويدل على الاصلاح الذي ينبغي » اه .

وقال موسيو (درومون) فى جريدة (ليبر پارول) :

« كثيراً ما سألنى بعض الشبان أى كتاب يقرأون . وانى أجيبهم الآن عليكم بكتاب من الكتب الرئيسية اختبر فيه مؤلفه حالة الأمة اختباراً دقيقاً اقرأوا كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين فقد بحث فيه موسيو ادمون ديمولان عن مزاج الأمة الانكليزية وبين أسباب انتشارها العجيب فى الدنيا ودل على علة سيادتها بين الأمم تلك الأمة القوية القادرة التى تلجىء أكبر مبغضيها الى الاعجاب بها والاعتراف بفضلها » اه .

وقال موسيو (ديلاهي) فى تلك الجريدة أيضاً :

« انى فرغت من قراءة كتاب موسيو ديمولان ووعدت نفسى بقراءته مرة ثانية لانه جمع شيئاً كثيراً ولكنى لا أنتظر تلك الفرصة لانشر ما وجدته فيه من المادة الغزيرة والعلم الكثير وليس لنا نحن أصحاب الجرائد من الخدم إلا أن نقرأ كتاباً يكون مؤلفه قد أعمل الفكرة فى فصوله قبل أن يكتبها وهو نادر فى هذه الايام ثم ننشره بين الناس .

« يوجد في إحدى زوايا باريس أربعة شبان أو خمسة لا تفتر لهم همة عن البحث والتنقيب ولا يعرفون الملل من العمل مهما كان شاقاً قد أفادوا وحدهم فى العشر سنين الأخيرة أكثر مما أفاد ذلك القطيع الذى يتألف من أعضاء مجلس النواب ومجلس الأعيان ولهم مجلة شهرية لا يعرفها ولا بالاسم إلا القليل النادر من ذلك القطيع مع أنها كنز أعظم فائدة من مجموعات تلك المجالس التى غصت بمذكراتها وخطبها تحت حكم الجمهورية الثالثة » الى أن

قال « ان كان فى ديمولان شيء يوجب الاعجاب فهو حسن مقصده وسلامة ذوقه رجل ما قصد إلا استخلاص الحقيقة مما غشيها من الألفاظ والجمل والأوهام التى اعتاد الناس عليها وقد توصل بحسن أسلوبه الى احياء حقائق كانت نسياً منسيا . ملأ كتابه علماً وأسنده الى الوقائع الصحيحة وأعمل الفكرة قبل أن يكتب وكل الناس معترف بأنه مصيب فى تخلصه الى السؤال عن سبب سقوط فرنسا وجوابه بانه سوء التربية . وليست المسئلة الاجتماعية الامسئلة التربية فكما تكون الآباء تكون الأبناء وكما تكون الابناء تكون الرجال وكما تكون الرجال تكون الامة . وموسيو ديمولان لاينكر هذه الحقيقة ولكنه أراد الدلالة عليها ببيان معنى التربية الاجتماعية الصحيحة وقد دل بمقارنته بين الامتين الفرنساوية والانكليزية السكسونية فى التربية والمعيشة البيتية وقوة الانتشار والمعيشة العمومية والسياسة على ان من البديهيات ما ينساه الناس ويجهلونه جهلا كلياً

« وأجمل فصل فى الكتاب على ماأرى هو الذى عقده لبيان أحسن الحالات لنوال السعادة وهو الذى يحلولي النقل عنه » ثم أخذ الكاتب ينقل عن ذلك الفصل ما حوى من الحكم

ولما انتشرت هاتان الجملتان في تلك الجريدة تهافت قراؤها على مطالعة الكتاب ونقلت جرائد الازياف ما كتب الفاضلان وعلقت عليه من الشروح والاقوال ما لا يحصى وكلها تمجد الكتاب وتعظم الذى أهداه

وقالت جريدة (لاريبوبليك فرانسيز)

« جاء كتاب ذلك المؤلف العظيم الشأن بمسئلة شغلت الافكار فى

هذه الايام ألا وهى السر فى انتشار الامة الانكليزية السكسونية ذلك الانتشار العجيب . ولقد كان الناس يشعرون بوجود تلك الافضلية الا أن موسيو ديمولان أتى لها بالبراهين العقلية والحجج العلمية » اه

وكتبت جريدة (السكوكارد) مقالة طويلة ختمتها بقولها « ينبغى لصادقي الوطنية أن يطيلوا النظر فى هذا الكتاب وأن يشكروا موسيو ديمولان على هديته » اه

وقالت جريدة (لوپتى پاريزيان) بعد الفراغ من الكلام على فصل التربية « تلك افكار حقة صحيحة يجب الالتفات اليها بالنظر الى حالتنا الحاضرة »

وقالت جريدة (لوپوپل فرانسيه) « ذلك كتاب يثير الخاطر وان كان كله جداً وهو لذيذ وان كان قاسياً » اه

ونشر موسيو (باربيزيو) جملا فى يوم واحد فى جرائد (لاپيه) و (لوپي) و(سوڤرنتيه ناسيونال) و (لوليبيرال) و (لوكونستيتسيونيل) و (ليتندار) أجمعت على مدح المؤلف ووصف الكتاب بانه «مفيد مؤيد بالشواهد ربما حملنا على التحلي باخلاق الامة الانكليزية السكسونية » اه

ونشر موسيو (لوسيان ديكاف) مقالة طنانة فى جريدة (ايكو دي پارى) منها « هذا كتاب شديد الوقع لولا ان قراءته واجبة على كل رب عائلة وكل مشتغل بالتربية والتعليم » ثم ختمها بقوله « ان كتاباً حوى تلك المسائل كلها لجدير بالاذاعة والاشتهار فكلنا فى حاجة الى معرفة سر تقدم الانكليز السكسونيين والاصدق فينا قول (پرودون) « أوروبا حبلى بثورة اجتماعية ولكننى أخشى أن تموت قبل أن تضع حملها » اه

وقال موسيو « فرنسيسك سارسى » فى تلك الجريدة مختتما كلامه على الفصل المتعلق بالمقارنة بين تشكيل مجلس النواب الفرنساوى ومجلس النواب الانكليزى ما نصه «ذلك الكتاب مفيد جداً لما حواه من الافكار الجديدة أو التى وضعت فى قالب جديد وللناس فائدة كبرى فى معرفة ما اشتمل عليه من الحقائق فان المؤلف عالم حكيم » اه

وبعد أيام عاد الكاتب المشار اليه الى الكلام على ذلك الكتاب فى جريدة (رابيل) وبدأ مقالته بهذه الجملة «لقد هاج كتاب موسيو ديمولان عامل الهوس فى نفسى وقد تكلمت عليه قبلا ولا بد من العودة اليه لاننى لا أعرف كتاباً أحسن منه فى الغرض المقصود لمؤلفه » اه

ولم يكتب أحد كلمة ضد الكتاب الا واحداً من النواب ومع ذلك فانه اعترف بافضلية الانكليز السكسونيين والالمانيين وعلل ذلك بشدة الاقدام وكبر الهمة ولعله من أولئك الثلاثة والاربعين نائباً الذين قال فيهم موسيو ديمولان انه لم يجدلهم طائفة أو حرفة يلحقهم بها [1]

ولم يمض الشهر الثانى على نشر الكتاب الا وقد طبق صيته الخافقين وتناولته الايدى فى المشرقين وكتبت عنه الجرائد الالمانية والتليانية والانكليزية والامريكية وغيرها بلهجة تمجد الكاتب وتمدح الكتاب

ولما نشر موسيو ديمولان كتابه الثانى (التربية الجديدة) صدره بكثير من الرسائل التى وردت عليه أثر انتشار كتابه الاول ومن الفائدة أن نقتطف البعض منها:

---

(١) راجع جدول تشكيل مجلس النواب فى فرنسا

كتب اليه صاحب معمل صناعى فى مديرية (سين اواز)

« أنارجل من أهل الصناعة وقد انتهزت فرصة السفر فطالعت كتابكم ولاحاجة بى أن أذكر لكم مقدار استفادتى منه الا أنه ألقى الحيرة فى أمرى من جهة انى صانع ووالد ابنين فى العاشرة والحادية عشر من عمرهما وأنا أكتب اليكم هذا الخطاب تحت تأثير الاعجاب بالفصل المتعلق بنظام التربية فى المدارس الانكليزية أتوجد مدارس فى فرنسا على هذا النحو قد جمعت العلم والعمل والرياضة والمعيشة البيتية حتى أسارع الى وضع ابنىّ فيها الى أن يشتدا فأرسلها الى احدى المدارس الانكليزية » اه

وكتب اليه صاحب معمل فى (هيرولت) :

« لما طالعت كتابكم عقدت العزيمة على ارسال ابنى الى احدى المدارس التى وصفتموها وهو الآن فى الثانية عشرة وقدسافرت لاشاهد مدرسة (بيدال) بنفسى فاعجبنى نظام التعليم فيها وكان ذلك من مؤكدات رغبتى فى ارسال ابنى الى انكلتره . نعم سيكون الامر صعباً علينا وبالاخص على والدته لاننا نسكن فى جنوب فرنسا ولا يتيسر لنا أن نراه إلا فى المسامحات الكبيرة غير أن تربيته أعز وأبقى » اه

وكتبت اليه سيدة من (تولوز) :

« لعلكم لا تعجبون من أن احدى الوالدات تكتب اليكم لتسألكم بعض المعلومات عن المدارس التى وصفتموها وجعلتم كل مشتغل بمستقبل أبنائه يعرف قدرها ومزاياها فكل من أمعن النظر فى الفوائد التى تنجم عن التعليم فيها يندب عدم وجود مثلها فى البلاد الفرنسوية . لى ولدان ولكن

يعوزهما الاقدام والهمة الذاتية التى هى شرط النجاح فى هذه الايام وهما صغيران وتربيتنا التى استولت على زمام الاطفال واستغرقت كل أوقاتهم لا تترك وقتاً يكون لهما فيه فكر ذاتى أو تصور شخصى ولا تؤدى الى الغرض الذى أقصده فيهما ولوانى أثق بمدرسة (بيدال) من الجهة الدينية لما تأخرت عن ارسال ابنى اليها وأرجو سيدى عفواً اذا أكثرت من السؤال فأنتم الذين شرفتمونى الى الاستفهام اذ كشفتم القناع للآباء والامهات الفرنساويين عن سبل وطرائق يجب على الكثير منهم أن يسلكوها وكثير يود سلوكها » اهـ

وكتبت اليه سيدة :

« أبنائى ثلاثة وأنا أشتغل بتربيتهم كل الاشتغال وانى لمحزونة لمخالفة التربية التى يتلقونها فى المدرسة لافكارى على خط مستقيم ترى الطفل مشغولا على الدوام بالامور العقلية فلا يكاد يتفرغ هنيهة لامور الحياة العملية وعلى التحقيق ليس له من وقته يسير يمكنه من الرياضة والتمرينات الجسمية التي تقوّم الجسم وتشد الاعصاب لهذا أتشوف الى أخبار التعليم وأتتبع خططا تعديل طريقته بكل اهتمام

ولقد يتولانى القنوط عند ما أشاهد ابنى الاول الذى بلغ الثانية عشرة من عمره متخمشاً لا يقدر على مساعدتى فى أى أمر عملى قليل الهمة ضعيف الارادة ولكنى أُأثّم فى ذلك المدرسة والواجبات الكثيرة التى تطلب من الاطفال وقد دللتمونى بكتابكم على أنه يجب علىّ أيضاً أن أعد نفسى من الآثمين إذ صحيح أنى ووالده كلما أردنا الخوض فى موضوع مهم أو فى

عمل من الاعمال المفيدة. ننتظر حتى لا يكون الاولاد معنا ولو اتفق لاحدهم انه اشترك معنا فى الحديث أو تطرف الى الخوض فى كيفية معيشتنا أو تطاول فسألنا عن أمر لم يدركه فيها رددناه فى الحال على عقبه بألفاظ كهذه : ليس هذا مما يعنيك – اشتغل بواجباتك – من كان في سنك فلا يعول عليه – اخرس

« وقد اجتهدت فى تلقين أبنائى المبدأ الآتى : ان الاطفال يضايقون الناس فيجب عليهم اذا كانوا فى غير بيتهم أن يكونوا بحيث لا يشعر بوجودهم أحد من الحاضرين . وقد كافأتنى احدى صديقاتى على اجتهادى بهذه الجملة : ان أبناءك اعلى تهذيب عظيم

« سيدى لقد هديتنى ببعض أسطر من كتابك الى أننى ضللت السبيل وذكرتنى بذلك القول الذى لست أذكر أين قرأته « اذا عاملت ابنك معاملة الرجال لا يلبث أن يصير رجلا » وعلى العموم أسلم معك ان الامهات الفرنساويات عقبة عظيمة امام الافكار التي قمتم أنتم وموسيو (بونڤالو) بنشرها وان بناتهن لا يصلحن زوجات للمستعمرين والزوجة الحقيقية التى أتمنى وجودها فى القرن المتمم للعشرين هى التى تكون صديقة زوجها وشريكته ورفيقته وهى التى لا تقتصر على كونها والدة أبنائها المحترمة بل تكون أليفتهم ومرجع سرهم قد عرفت الحياة واختبرت كل أمورها لا لتوافق على كل أمر بل لتفهم كل شىء ولن يجب علينا أن ننسج على منوال تلك الرومانية التى قيل فيها (أقامت فى بيتها وبرمت مغزل صوفها) اه

هذا ولم تقتصر حركة الافكار التى أحدثها هذا الكتاب على الجرائد

والرسائل بل تعدت بعد انتشاره أيضاً الى المشتغلين بالتعليم وظهرت فى خطابات رؤساء الامتحانات والذين تولوا توزيع الجوائز والمكافآت السنوية على تلامذة المدارس ومن تمام الفائدة أن نأتى على طرف من ذلك

قالت جريدة (الطان) وهى أكبر الجرائد الفرنساوية وأنفذها رأيا

« قرأنا خطب توزيع المكافآت فى هذا العالم والذى استوقف نظرنا فيها هو اتفاق الخطباء جميعاً من غير موعد بينهم فى الارشادات والنصائح التى ألقوها على التلامذة فلم نرَ هذه المرة فى خطبهم ما جرت به العادة من تمجيد التعليم المعروف ومدح الطرق المألوفة والاطراء بنتائج الامتحانات ولا ما كنا نسمعه منهم من الجمل الطويلة والقول الموشّى فى الادب وقواعده ولكنهم أجمعوا تقريباً على الخطابة فى موضوع العمل والحث عليه وامتداح خصال الرجولية الحقة وتعظيم شأن فضيلة الاقدام والهمة الذاتية ولم يقفوا عند ذلك بل امتدحوا الجرأة والتزاحم

« هـذا موسيو (رنى ميلمى) مبعوثنا في تونس قد هنأ نفسه بما شاهد من تقدم التمرينات الرياضية وترك تلك الطريقة الوحشية فى التعليم التى ما كان يلتفت فيها لغير الرأس حيث يهمل الجسم أي اهمال

« وهـذا موسيو (بولسون) يرفع راية المجد والفخار لاصحاب الارادة الصادقة ويشير الى أن أول واجب فى التربية هو تكوين الرجال بالمعنى الصحيح

« وهذا موسيو (هنات) يحكم على طريقة التربية التى ترجع الى أن الحكومة وصية على الافراد بالرداءة والفساد ويدعو الشبان الى اعتناق

الحرف المستقلة وان كانت مما يقتضى المخاطرة والمجازفة

« وأولئك غيرهم كثيرون من الخطباء يحادثون شبيبتنا فيما وراء المستعمرات من الخيرات وما ينال النازح اليها من المعيشة المستقلة وبسطة اليد مما يؤدى أيضاً الى زيادة ثروة الوطن ويعلى شأنه ويشد أزره »

« وعلى هذا فقد ظهر اليوم فى الأفكار رد فعل الماضى وانعطفت الاميال الى التمثل بالانكليز وهى حركة من شأنها أن تدخل الفرح فى قلوب محبي الوطن فعلينا أن نقابل تلك الفصاحة الحربية بهزة فرح في النفوس وأن نرى فيها تحذيراً ووعداً ورجاءً

وخطب موسيو بنى دى جولفيل فى مدرسة (كوندورسى)

(يجب عليكم فى مساعدة الضعفاء أن تكونوا أقوياء فقولوا ولا تخشوا أحداً ان التكافل في الوجود نوعان صحيح وفاسد. طيب وزدىء. أما الأول فهو أن يعمل الرجل لغيره ما استطاع وهو التكافل الحق فاتبعوه واعملوا به جهدكم. وأما الثانى فهو أن ينتظر الواحد كل شىء من غيره وهو تكافل لا خير فيه ولا قيمة له وان كان له أحزاب ومعجبون فاحذروه واجتنبوه ولا يعولن الواحد منكم فى نفسه على غيره بل ليكن اعتماده أولا على نفسه وهمته وارادته وصبره وجلده ومثابرته على العمل بذاته وعودوا أنفسكم على الارادة » اه

وقابل موسيو (فاجت) في مدرسة شارلمان بين الحرف اليدوية وبين الحرف الادبية وبرهن على ان الاولى ليست أقل فضلا ولا شرفاً من الثانية

إلا أن الكاتب الذى اهتزت لقلمه الافكار وانحازت لصوته الاميال وتم بقوله النصر لكاتب سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه هو موسيو

(جول لومتر) وهو الذى أهداه المؤلف كتابه الثانى (التربية الجديدة) قال فى جريدة الفيجارو وهي أيضاً من أهم الجرائد الفرنساوية وأكثرها انتشاراً «ما أصاب كتاب موسيو ديمولان على النفوس. ولكن يجب ان يقرأه الناس ويشربوا ذلك الكأس الذي ملئ بالحسرات. ان الذى يقوله موسيو (ديمولان) كنا نعرفه أونشعر به ولكنه حدد المطالب وجمع بين شتان جمعاً محكماً. والذى يستخلص من هذا الكتاب الذى يقنع القراء بقدر مايحزنهم هو أفضلية الأمة الانكليزية السكسونية من حيث أحوالها الاجتماعية وسياستها وتجارتها وماليتها وأخلاقها وآدابها مقابل ضعفنا ومسكنتنا وعدمنا فى الوجود لان أفضلية هزلياتنا وأفضلية طهاتنا لن تنجينا من الوهدة التى نحن فيها. ولقد يجوز أن تكون أفضليتنا الفنية لا فائدة فيها

«ومن سوء الحظ لا يمكننا القول بأن الزمان قلب فاليوم مر وغداً حلو لاننا أمة اتكالية كل واحد من أفرادها يعتمد على البقية والانجليز السكسونيون أمة استقلالية لا يعتمد الواحد من قومها إلا على نفسه والنتيجة من هذا خطر علينا»

ثم أخذ الكاتب يسرد أفكار المؤلف ويؤيد استنتاجاته الى أن قال:

«ذلك ما يجده القراء مفصلا ومبرهناً عليه بأقوى الحجج فى كتاب موسيو ديمولان مضافاً الى كثير غيره كله حق وكله لا يوجب العزاء ولا يؤدى الى السلوان»

وبعد ان جارى المؤلف فى مقدمة الكتاب وأتى على ذكر انتشار الأمة الانكليزية السكسونية ختم مقالته بما يأتى:

« ليس لنا إلا أن نحمل ما فاتنا من الفضائل التى كثرت فى أمة الانكليز السكسونيين فنساعد على نمو الهمة الشخصية ونعوّد أهلنا على الاعتماد على أنفسهم وعلى ذلك الاقدام والعزيمة والاهتمام

« يلزمنا آباء يعتقدون كل الاعتقاد انه لا يجب عليهم لابنائهم إلا التربية بشرط أن تكون حقيقية قويمة

« يلزمنا شبان يعتقدون كل الاعتقاد أنهم هم الذين عليهم لانفسهم تحصيل رزقهم بأنفسهم فى الحياة الدنيا

« يلزمنا شبان يعقدون الخناصر على أن يطلبوا من الزواج رفيقاً لا مهراً جزيلا

« يلزمنا حكومة ترجع اختصاصها الى الحد الادنى وتقلل عمالها الى الحد الادنى وترد بذلك الشبان الى المهن المستقلة التى تقتضى الهمة الذاتية والاقدام والعمل

يلزمنا حالة اجتماع يكون فيها الموظف والسياسى ومن لا عمل له أقل اعتباراً من الزراع والصناع والتجار

« يلزمنا ان نلغى دروس اللغات الميته من مدارسنا الابتدائية وأن نلغي جمعية المعارف ذاتها ان لم تلغ جمعيات العلوم وان نلغي مدرسة الهندسة وجميع مدارس الحكومة وان نلغي طريقة الانتخاب التى يتساوى فيها صوت العظيم بالحقير والجاهل بالعالم والزراع باهل البطالة والكسل وأن نلغى ثلاثة أرباع الموظفين وان نلغى ذلك النظام الادارى الذى أسسته الثورة وأيدته الامبراطورية الاولى

« إني لاأرى ضرراً من إلغاء هذا كله وان كنت أراه صُعباً

« يلزمنا اقصاد الاموال التي نصرفها على الجيوش فانها تجلب علينا الخراب والدمار والغاء الخدمة العسكرية التي تأخذ من حياة شباننا ثلاث سنين ولا تنمي روح الهمة فيهم الا يسيراً وان نكتفي كما تكتفي انكلتره بجيش لايزيد عدده على مائة ألف أو الولايات المتحدة بجند لا يزيد عن ستة وعشرين ألفاً

« يلزمنا أن نلغي تلك الحجة المادية الى الدفاع عن الوطن والطموح الى الاخذ بالثار من قاهرينا

« يلزمنا أن ننسى انكسارنا الذي أضعفنا وجعلنا نخجل في كل آن

« يلزمنا ان نبدل نفوسنا

« ياقوم هل تعرفون وسيلة نوجد بها الهمة والارادة من حيث فقدنا ونجعل اللاتيني أو السلتي الضعيف انكليزياً سكسونياً من الجبارين

« وبعد هذا فعليكم بما يسري الهم عنكم لعل صاحب الكتاب الذي اشتد وقعه قد بالغ وغالى

« ياقوم لا ينفعكم اعتقادكم بانكم أمة خير تطلب الخير للناس وبان الانكليز السكسونيين أمة اختصاص وخداع وبان الدولة الالمانية انما تعيش من فوائد نصرها عليكم

« ياقوم لاينفعكم غير اصلاح حالكم فاعملوا ان كنتم في الترقي راغبين» اه

ثم كتب ذلك العالم الشهير رسالة أخرى وكانت الاولى قد أجهزت

على الطبعة الأولى من الكتاب ويقول صاحب التزامه انه اضطر الى طبع الثانية على عجل فقد كان يطلب منه فى اليوم الواحد مايزيد على مائة نسخة ورددت جميع الجرائد صدى هاتين المقالتين ونشرتهما جرائد الاقاليم كلها على التقريب ولكل واحدة منها قول يشجع على اقتناء هذا الكتاب ويؤيد ما اشتمل عليه من النصائح والمبادئ

هذا هو الكتاب الذى نهدى اليوم ترجمته الى الناطقين بالضاد عموما والى المصريين خصوصاً لمطابقة الوقائع التى دونت فيه عن الامة الفرنساوية لما هو حاصل فى بلادنا ولاتفاق البلدين فى كثير من العادات والاخلاق والافكار التى عنى المؤلف ببيان جهات النقص فيها اللهم الا أن الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا

ووجه الشبه هذا هو الذى اخترناه سبباً فى طلب الاذن من المؤلف واليك نص مابعثنا به اليه بعد الديباجة

لما قرأت كتابكم النفيس « سر تقدم الانكليز السكسونيين» أثر عندى بما رأيته من الشبه الكلى بين أمتى وأمتكم فأخلاقنا أخلاقكم وعاداتنا عاداتكم والفرق بيننا وبينكم ان العيوب عندنا كبيرة جداً ، ولا شك فى انه سيكون لكتابكم هذا من التأثير مايرجع بالفائدة على الامة الفرنساوية لذلك رأيت أن نقله الى اللغة العربية يفيد أهل بلادي أفهل تسمحون لى بترجمته

وقد تفضل حضرته فأجابنى على طلبى فى ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ بما يأتى

« أخذت خطابكم بعد عودتى من غيبة قصيرة وقدسررت جداً من حسن ظنكم بكتابى وفى اعتقادى ان بلدكم تستفيد من تلك الافكار مثل بلدى فأنا أصرح لكم بكمال الارتياح أن تترجموه الى اللغة العربية »

ويحتاج سر تقدم الانكليز السكسونيين فى مطالعته الى دقة نظر وروية حتى لا يفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته وهو تنبيه الفكر الى أسباب مانحن فيه من التأخر والانحطاط

ومن المقرر ان ميلنا الى مطالعة المؤلفات التى من هذا القبيل ضعيف حتى فى هذه الأيام وان المشتغلين بنشرها أشقى العاملين فان الواحد منهم قد ينتهب أوقات العمل فيها من سويعات نومه ولحظات راحته ويتحمل من المتاعب مالا تقدر قيمته ثم لا يستعيض عن تعبه بلذة ان الناس يقرأون ماأهدى اليهم فيرتاح لكونه كان لقومه من النافعين

لكن الذى لا يأخذ الامور بظواهرها بل يطلب الحقيقة انى وجدت، يعلم أن انزواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة ومللهم من العلم بما يجرى فى الوجود من تقدم الامم بترقى المعارف واتساع نطاق التربية والتعليم لم يكن ناشئاً عن بغضهم للعلم أو نفورهم من القائمين بنشره وانما هو مسبب عن طول زمن الترك الناشىء عن الضعف العام الذى ألم بروح الشرقى منذ أجيال طويلة حتى أمات ملكة حب الاستطلاع وجعل النظر فى أحوال الامة خصوصاً وأحوال الامم عموماً قاصراً على مايحس احساساً ماديا فلا يتحرك الفكر الا من جانب الشعور الجسمانى على ان تحركه انما يكون لمجرد التوجع والتحسر أو لمجرد الابتهاج والفرح الوقتى ثم لا يلبث أن يرجع الى

السبات العميق فيذهل عن أمتـه وعن نفسه ويصبح كما أمسى بل أقل عزماً وأكثر هماً

ذلك ما أصاب الأمم الشرقية واستحكم فى عقولنا حتى عم الفتور وصار كأنه حالة فطرية فحسبناه خلقاً من أخلاقنا وعـددنا من يخرج عن حالتنا هذه مبتعداً عن المنهج القويم ومارقاً عن تقاليد الامة وعاداتها ومهيناً لها فيما ترى التمسك به من موجبات كمالها . خصوصاً اذا جاءنا بما يكشف القناع عن المصائب المتولدة من ذلك الخمول ويبين وجه الضرر فيما نحن فيه من الانزواء وندّد بما اعتقد — كما هو الصحيح — انه أصل الشقاء ومجلبة العناء من أخلاق تخالف الغرض من الحياة وطباع تبعد باصحابها عن محجة النجاة ومعتقدات يقوم فيها الوهم والخيال مقام حقيقة الحال . تلك عادة المرء ان كلت همته ووهن عن القيام بما وجب كان أقرب الى الغضب دفعاً لمؤثر يؤلمه وانتقاماً من نصوح يدب على موضع الألم فتتأثر النفس مع فقد القدرة على نفى أسباب التأثر ويصير المخاطب كمن شدوثاقه وانهالت عليه السياط فلا هو قادر على تحمل آلامها ولا هو يجد من وثاقه فكاكا فيكتفى بالصياح والاكثار من النواح وتمتلئ نفسه بالحقد على ذلك المسىء اليه فى نظره فيبيت نفوراً منه لا يسمع له قولا ولا يعي عنه فعلا

هذا هو السبب فى الاقبال على مطالعة القصص والخرافات والتهافت على اقتناء التافه من المؤلفات والتسابق الى حفظ كتب المجون والروايات والنفور من القول الجد وهجر النافع واغفال المفيد وفيه تعليل واضح لكثرة انتشار كتب المجون والهزيان وقلة كتب العلوم الصحيحة فان الاولى لا تطالب

شيئاً من همة القراء ولا تشغل محلا من مدركتهم ولا يتكلفون أكثر من النظر الى الاحرف ليحصلوا منها صورة فى الذهن تضحكهم أو يدركوا واقعة تعجبهم ثم ينقضي الوقت بسلام وغطاء الادراك الحقيقى مقفل عليه. ولان الثانيـة تقتضي امعان النظر وتستوقف الفكر وتنساب فى النفس فتحدث فيها من التأثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه الى العمل أو ينبهه الى الواجب عليـه . فان كان من أهل الهمم الساقطة — وهو الغالب — وجدته يشعر بثقل الواجب المطلوب منه ومتى أحس من نفسه العجز عن القيام به أسرع الى طرح الـكتاب واشتغل عن العمل بالتعنيف والعتاب وربما أوقد النار وأحرق الـكتاب كما فعل بعضهم فى العام الماضى بترجمة كتاب الاسلام ظناً بان احراقه ينجيه من وصمة الخمول الذي انغمس فيه

تلك حال تسوء عقباها وتدعو الى أسوأ منها وقد أحدثت عندنا من انحلال الاخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه فى جميع مشاعر الأمة وتقاليدها

هذه المجتمعات أصبحت معـدومة فى منازلنا حتى بين أهل الحرفة الواحـدة بل صار هؤلاء أشد الناس نفوراً بعضهم من بعض فجهل كل واحد سبيل أخيه وغابت عنـه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه وضعفنا بتفرقنا وسهل على المزاحم أن يفوز بيننا فوزاً مبيناً. نعم يوجـد عندنا مجتمعات كثيرة في هذه الايام ولـكنها حول الـكؤوس والاكواب أو فى ميادين الملاهى والالعاب

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها فى كل يوم إلا سافر

فلان وعاد فلان ونشكر فلاناً ونحذر فلاناً وهكذا وكله راجع الى ذلك الحال الذى استولى على الأمة فجملها لا تقبل إلا ما يوافق الكسل ويلائم عدم الحركة فى كل شيء . أما ماكان فى تلك الجرائد مما يرشد الى فضيلة أو ينبه على رذيلة أو يوضح حقيقة فحظه حظ كتب الجد من جعلها خلف الظهر والاستعاضة عنها بما لا يفيد

لكن على قدر فقدان الشعور العام فى الأمة يجب العمل على تنبيهه وبمقدار اعراضها عن النافع ينبغى السعي فى حملها على الرغبة فيه

ومن الحقائق أن الأمة لا تنهض من رقدتها ولا تهب من سباتها إلا اذا خلصت من قيودها وفارقتها الامراض التى تنهك قواها وتحط من عزيمتها

ولا يتيسر للامة أن تتخلص من آلامها وتبرأ من أمراضها إلا اذا عرفت أسبابها وأحاطت بموجبات الضعف فيها

فأول واجب على من يطلب مصلحة أمته أن يبين لها مواضع الضعف الملم بها حتى اذا تم تشخيص الداء سهلت معرفة الدواء

وليس من ينكر أننا متأخرون عن أمم الغرب واننا أمامها ضعاف لا نستطيع مغالبتها ولا يسعنا أن نفوز ببغيتنا مادمنا ودامت على هذا الحال

نحن ضعاف فى كل شيء تقوم به حياة الامم متأخرون فى كل شيء عليه مدار السعادة .

ضعاف فى الزراعة وهى الأس المتين الذى تقوم به حياة الامم والشعوب فلا مطمع لرجل لا يحصل عيش يومه ولا حول لامة لا تجد ما تقتات منه وبالزراعة تأمن الامة غائلة الشقاء المادى فتتمكن من النهوض الى الحياة

الادبية وطلب الكمال ، ونحن لا نعرف حتى اليوم من أصولها غير شق الارض بقطعة من حديد مركبة فى كتلة من الخشب يجرها ثوران ورمى البذور كما كان يرميها آباؤنا ثم انتظار الربح بعد ذلك من وراء الكسل والانكماش ، وأهل الارض يستحدثون لاصلاح الاراضى كل يوم جديداً ويخترعون من الآلات ما تتضاعف به الهمم وتشتد به الايدى ويؤلفون الشركات للقيام بما يعجز عنه الافراد من جلب المياه وتصريفها وجمع الحاصلات وبيعها وغير ذلك مما جعلهم يشتغلون الصخر ويستنبتون الجبال ، والزراعة عندنا حليفة الانحطاط فالفلاح هو ذلك المسكين الذى اقتفى أثر أبيه القديم فى عمله ولم يجدد بعده طريقة ولا صنفاً فاكتسى أردأ الملابس وتغذى بأخس المأكولات وقضى حياته فى أدنى المساكن، وهو أبو الجهالة المحقر المرذول فلا نزال نقول عن أنفسنا اذا أردنا أن نبالغ فى ذم أحدنا بالجهل انه « فلاح »

ضعاف فى الصناعة لاننا أهملناها وجهلنا طرائقها فأصبحنا وليس منا إلا الفعلة والحمالون ومنفذوا ارادة الاجنبي ، نشقى ليسعد ونموت ليحيي هذه المعامل الفسيحة والمصانع العظيمة التى أقيمت بين بيوتنا كلها للاجنبي واذا زرتها وجدتها تنقسم الى أقسام مختلفة بحسب طبيعة العمل المطلوب وفى كل قسم رئيس من الافرنج والكل بعد ذلك مصريون ، هذه المبانى الناهقة والقصور الشامخة شيدت كلها بيد المصريين لكنهم كانوا فى تشييدها من الاجراء يعملون بمشيئة الاجنبي ولفائدة الاجنبي

أدخل بيت عظيم من عظمائنا أو بيت شيخ من علمائنا أو بيت راهب من

رهباننا أو بيت حقير من اجرائنا ثم أعد ما فيه من أنواع الاثاث والامتعة وانظر إلى بنائه وما يتركب منه ووزع كل شيء على صانعه وابحث عن يد المصري فيه لا تجدها الا في قطع الاحجار ورصها وما بقي كله من آنية طعام وموائد وأخشاب وأطالس وحرائر وبسط وحديد ومقاعد ومصابيح وأكواب ومفاتيح وألوان وملابس ومطابخ وكل شيء صنع الاجنبي

ضعاف في التجارة فلا نعرف منها غير أن الرجل منا يشتري الصفقة من المخزن الكبير ويجلس بها في حانوته الصغير حيث يفتحه متأخراً ويقفله قبل المساء ويتحادث مع جاره طول النهار واذا جاءه طالب أجلسه مكانه وبالغ في مؤانسته واكرامه بما ينقضي به الوقت والرجل ما اشترى والتاجر ما استفاد . وهو يحسب من التجار ذوي المكانة والاعتبار مع أنه لا يعرف أين تصنع بضاعته ولا من الذي جلبها اليه ولا ثمن مادتها الاولى ولله الآخرة والاولى ، لذلك ضرب الاجنبي على أبواب التجارة وأحاطها بسور من علمه وهمته فاستأثر بصادراتها واختص بوارداتها وأنشأ الشركات توسعاً فيها واستخدم الوطنيين سماسرة لا يكسبون من كدهم الا اليسير

ضعاف في العلم اللهم الا علم مداره جهل حقائق الاشياء في الوجود اما المفيد منه فقد اقتصرنا فيه على ما يختص بعلاقة الانسان مع ربه والباقي منه أخرجنا عن معناه الصحيح وحكمنا عليه بالاعدام وشهرنا المشتغلين به حتى أمتنا روح التقدم وأطفأنا مصابيح العرفان في الاذهان ، أين منا المؤرخ والنباتي والطبيب والكيماوي والمهندس والطبيعي والاديب والمنطقي واللغوي وعالم الاخلاق والحكيم والفلكي وعالم الزراعة وغير هؤلاء نعم

نحن لا نعدم نفراً منهم ولكنهم قليلون بدليل انه لو كان عندنا منهم عدد يكفينا لما وجد الاجنبي بيننا على هذه الكثرة التى نشاهدها لانه ما كان يجد عندنا ذلك المرتزق الفسيح

ضعاف فى العزيمة فلا يبدأ الواحد منا فى عمل الا وقد أدركه الملال وأحاط به الفشل فترك عمله وتقهقر فرحا بسلامته واذاقام أحد منابمشروع يقتضى المعونة لبيت دعوته من كل مكان حتى اذا آن أوان الشروع فى العمل هرب كل واحد من ناحية وأصبح صاحبه يندب الوقت الذى قد أضاعه فيه بل ربما وجد فى نفسه ارتياحاً أيضاً لانه كان قدعرضها لامر يجر اليه ضرراً بل ان تلبية النداء أصبحت معدومة لكثرة ما كان من الفشل والخذلان فماتت بذلك روح الطلب واستولى الخمول على كل الطبقات وانفرد أولو العزيمة بمثل هذه المشروعات

ضعاف فى الالفة والمودة فكل يوم ترى الاصحاب أعداء والاصدقاء متنافرين وأهل العلم متباغضين متحاسدين

ضعاف فى النخوة والشعور الملى والجامعة القومية فالعظيم منا يهان والكبير ينتابه الزمان وأمثاله ينظرون اليه فرحين بمصيبته مستبشرين بنكبته أو آسفين من بعيد بحيث لا يسمع لهم صوت لمعونته والاصاغر يشمتون جهلا أو انتقاماً وما درى العظماء ان ذل الواحد منهم ذل لهم أجمعين ولا حسبت الطبقات النازلة ان زوال الطبقات العالية من الامة بمثابة زوال الروح من الجسم لانها سياج الاخلاق ومرجع صيانة العادات ومشخص الامة فى حياتها وشعورها ولا حياة لقوم لا يشعرون

ضعاف فى الخيرات فما أثقل طلب الاحسان على أغنيائنا والموسرين

ضعاف فى طلب حقوقنا فالرجل منا يسلب حقه ويهان ملكه وهو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

ضعاف فى اداء الواجب علينا فكل من أقام فى عمل يهرب منه ، ان كان رئيساً استعمل الرئاسة فى البطالة واتخذها شعاراً لعدم العمل ورمى أعماله على مرؤسيه وان كان مرؤساً طفق يندد بالرئيس ويقول كان يجب عليه أن يعمل كذا وكذا ولقد أخطأ فى كذا وكذا وعاقبونى لأني قمت بالواجب ولكنهم قوم لا يعقلون

ضعاف فى الاعتبار بالحوادث فنحن ننسى كل شيء وقد يكون النسيان حاصلا فى زمن التذكير لذلك نقع فى الخطأ بعينه كل يوم

ضعاف فى حفظ ما ترك الآباء فكل يوم تشرق الشمس على بيوت دمرت وأملاك نفر من أيدى وارثيها فتتلقفها أيدى عرفت مكان الضعف منا وتنبأت بزوال النعمة عنا فتربصت بنا ريب الزمان

ضعاف فى التحصيل فالرجل يولد ويتربى ويهرم ويموت وقلما تراه قد حافظ على ما كان فى يده والنادر هو الذي يزيد عليه شيئاً يسيراً

ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة فهى التى نطالبها بحفظ حياتنا وخصوبة أرضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا . هى التى نطلب منها أن تربى الابناء وتطعم الفقراء وترزق العجزة وتنفى أسباب البطالة وتحفظ الاخلاق وتلم شعث العائلات وتجمع أشتات القلوب، هى التي نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا وتقويم ما اعوج من سيرنا

وسيرتنا ورد هجمات المزاحمين عنا والسهر على مصالح كل واحد منا ، فاذا تأخرنا فى عمل من تلك الاعمال باهمالنا رميناها بسوء الادارة واتهمناها بحب الاثرة والقينا عليها تبعة خمولنا كلها

لاريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل فانما الحكومة وازع لا يكلف إلا ما اقتضته طبيعته وشأن الحكومات فى الأمم تأييد النظام وحفظ الامن وإقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاهدة بعضهم بعضاً على ما يضمن حرية التجارة ويشجع أهل الصنائع والحرف كما تقتضيه المصالح المشتركة وعلى قدر ما تسمح به الممكنات . وبالجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه إلا الامر العام مما يدخل تحته جميع الناس ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه

وعلى الامة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام وتنتهز فرصة الامن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها وتطلب الكمال فى زراعتها وصناعتها وتجارتها وفى نشر المعارف وإحياء العلوم وفى أداء الواجب والمحافظة على الحقوق وهذا هو الذي أهملناه حتى أضعناه

تركنا الزراعة فى انحطاطها والصناعة في تأخرها والتجارة فى كسادها وصار كل الذي نطلبه من التعليم لابنائنا وظيفة فى الحكومة يعيشون فيها عيشة الانكماش جرياً على سنة الآباء وما درينا أن الزمان يتقلب وأحوال المعيشة تتبدل وان وظائف الحكومة أصبحت آخر الحرف كسباً وأشدها تقييداً لحرية العمل وأقلها مشجعاً على الهمة والإقدام لانحصار مزاياها فى ذلك الراتب الزهيد الذى لا يفى فى الحقيقة بجميع حاجات الانسان في

حياته بعد ان كانت مصدر الثروة وموضع الراحة والامل ومظهر الأبهة والفخار وعنوان الشرف والاعتبار

ولما قفل باب التوظف خصوصاً فى وجه العطلة والذين أضاعوا وقتهم فى اللهو واللعب ظن الناس كلهم ان أبواب الرزق كلها أقفلت فى وجوههم وظهرت فى الوجود نشأة جديدة نراها فى الغدو والرواح مجتمعة في القهاوى ومنتشرة فى الطرقات وهى أعلم الناس بطرق التخريب وأسرعهم الى الانصباب على تمزيق ثروتهم وتبديد ما جمع الآباء، وأصبحت الشبيبة أقل استمداداً الى العمل الذى يعود على الامة بالخير وينهض بها الى التقدم والترقي

هكذا انصرفنا عن مصالحنا وأضعنا الوقت فيما لا يفيد حتى أحدقت بنا المصائب وضاقت علينا أرضنا

مصائبنا جهل بما احتجنا اليه واهمال لما يعول فى حياة الامم عليه وتمسك باهداب أحلام قد أشرقت عليها شمس الحقيقة فبددت غياهبها إلا من عقولنا وبرهنت على بطلانها إلا فى خيالنا فكان من وراء اصرارنا على التعلق بهذا الخيال أن تربع الاجنبي بين ربوعنا وانفرد بمصالح دارنا وصرنا نتردد عليه لنخدمه وهو يتردد فى قبولنا لكثرة ما أهملنا أنفسنا وقلة ما اهتممنا بصوالحنا وطول غيبة الصواب عنا

بذلك ازددنا ضعفاً على ضعف فاصبحت شؤوننا فى أيد غير أيدينا وذهبت أموالنا الى غير أهلينا مما لا يشفق علينا ولا لوم عليه لانه استفادها بجده من خمولنا واكتسبها بكده مما أضعفنا واستخدمنا فى منافعه جزاء ما أهملنا منافعنا. ولانه رجل ثقفته العلوم وهذبته التربية الصحيحة فانمت فيه

الادراك واستنارة بصيرته وقويت ارادته واشتدت عزيمته وعلم ان الحياة لاتقوم إلا بالمثابرة على العمل والسعى المستمر فى طلب الكمال ومن سنن الله فى خلقه أن يسود العلم على الجهل وأن تعلو القوة على الضعف وان يبدد النور الظلمات . وعلم ذلك الرجل نور انبعثت أشعته وراء عزيمته تضىء جوانب الجهل فمالت من الغرب الى الشرق وانكشف الستار عن رجلين أحدهما عالم مقدام ومدرك همام عزيز الجانب بهمته ورفيع الشأن بفطنته والثانى جاهل قد استولى الجبن عليه فاستكان لحكم الزمان وأنّ تحت أثقال الخمول

هذا هو الداء الذى نتألم منه وتلك هى الامراض التى تنهك جسم أمتنا وبديهى أن معرفة الدواء صارت سهلة على القراء .

دواءنا التربية وسلامتنا فى نشر المعارف والعلوم فعلينا بها بما بقى فينا من الشعور وما ترك لنا من الاختيار فى العمل قبل أن يتم الانحلال ويتعذر علينا القيام نعم لا أنكر أن النداء بوجوب التربية والتعليم يشعر بان المنادى بعيد عنهما ومثل هذا النداء لا يروق للذين تمكنت من قلوبهم الأثرة وحب الذات وصار أحب الناس اليهم من يهش لهم ويبش فى وجوههم وان كان أقلهم رحمة بهم وحنانا عليهم - وكلنا ذاك الرجل - لكن الذى يسعى وراء الحقيقة ويطلب النفع لقومه مضطراً الى التخفيف من تلك العزة الباطلة والاقلاع عن حب ذاته وعدم الاسراع الى النفور من النداء حتى يتبين صوابه من خطائه ويميز بين ضاره ونافعه . . . . . .

وحب الأثرة هذا هو الذى جعل كتاب حضرة صديقى الفاضل قاسم بك أمين (تحرير المرأة) الذى نشره فى الشهر الماضى لا يروق فى عين بعض

القراء لانه يدعوهم إلى ترك عادة تأصلت فى النفوس وعدت من الاعتقادات ونسبت غلطاً الى الشريعة السمحاء وليست منها في شيء من الاشياء مع أن المؤلف جمع فى كتابه من شوارد الافكار ورفيع الاقوال ما يعجب به كل محب لخير الأمة طالب لنفعها ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال النساء وعدم تربيتهن وتعدى الرجال على حقوقهن فكان ذلك النفور من كتابه لمجيئه على ما يخالف ما ألفته النفوس وارتاحت اليه

ولعل سر تقدم الانكليز السكسونيين لا يسلم من مثل هذا الانتقاد ولكنما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى

غرضى من ترجمة هذا الكتاب تنبيه الافكار الى حالتنا التى نحن فيها ومقارنتها بحالة الامة الفرنساوية لنوقن بعد علمنا بما هى عليه من التقدم والعمران وبما بلغته من الدرجات الرفيعة فى العلم والحضارة والعرفان انها احتاجت وهى على تلك الاحوال الى اصلاح شؤوننا لتضارع غيرها من الأمم فنحن أحوج منها الى التعليم وأشد افتقاراً الى التربية وأعوز الناس الى الاشتغال بما ينفعنا فى هذه الحياة ، كما انى أقصد الفات الاذهان الى أن الزمان يمر بالاقوال والأمة لا تحيي إلا بصالح الاعمال واننا أولى الأمم بالجد فى تحصيل سعادتنا فبقدر التأخر ينبغى شد العزائم وتقوية الهمم وادامة السهر فى العمل حتى نفوز بحظنا من هذه الدنيا

كذلك أريد أن تميل الافكار الى اطالة النظر فى أحوال الأمة الانكليزية التى تحتل البلاد والى ان عمال الاحتلال هم قوم من ذلك الجنس الذى ألف هذا الكتاب لبيان السر فى تقدمه وسيادته فى الوجود .

وهم ماداموا فى بلادنا يجب علينا أن تقارن بين أحوالهم وأحوالنا وعاداتهم وعاداتنا ومعارفهم ومعارفنا وهمتهم وهمتنا وحركتهم وحركتنا واقتدارهم واقتدارنا وكفاآتهم وكفاآتنا وحولهم وحولنا وثروتهم وثروتنا ، يجب علينا أن تقارن بين هـذا كله وبين ذلك كله لاننا مضطرون الى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم فى جميع أمورنا حتى إذا صح نظرنا وعرفنا الامر على حقيقته وتشبعت نفوسنا بما هو واقع لا بما نتخيله من غير تبصر وروية اهتدينا الى واجبنا القومى وعلمنا ان كان مجرد القول يجدينا نفعاً وهل الاجدر بنا دوام الاسترسال مع الامانى التى لامرجع لها من عملنا وكدّنا أم إطالة التفكير فى الحوادث التى تجرى علينا لتعين الصالح لنا من الضار بنا ولنقصد باب النجاة فندخل منه ولا نبتغى عنه من ذلك الخيال بديلا

غرضى من ترجمة هذا الكتاب أن يكون مرآة يرى القراء فيها أمتين عظيمتين ودولتين فخيمتين تتنازعان اقتسام الوجود قد سبقت احداهما الاخرى فلما رأت هذه تأخرها جعلت تفكر فى أسباب تلك الافضلية وقام العقلاء فيها وأرباب الاقلام يخبرونها بأسباب ضعفها ويرشدونها إلى سبل الاصلاح فلم تنفر من هذا النداء بل أجابت الدعوة شاكرة مرشديها وثارت مذعورة فى طلب الكمال والتشبه بجارتها . وأخلق بنا أن نتعظ بأعظم منا ونتمثل بمن بيننا وبينه في العلم والتهذيب والقوة والسلطان والهمة والاقدام مابين الارض والسماء ، ثم نأسف على زمن قضيناه فى التمنى وننفض غبار الاوهام ونلتمس اصلاح شؤوننا بأنفسنا ولانحجم عن سلوك طريق الكد والعمل فهو الذى فيه الحياة ودونه الموت الصحيح

غرضي من ترجمة هـذا الـكتاب لقومي هو غرض المؤلف من نشره على قومه لذلك يجمل بي أن أستعير في البيان عبارته حيث يقول

« ان الحيـاة ليست لعباً ولهواً وانمـا هي مغالبة دائمـة ضد المتاعب والمتاعب لا تحصى والمتاعب متجددة في كل آن ولن تنالوا النصر في هذا الجهاد إلا إذا جعلتم كل اعتمادكم على أنفسكم لا على غيركم إذ كل ما يمكن لاهليكم وأصدقائكم ومحبيكم وجيرانكم وحكومتكم أن يساعدوكم به أقل في الحقيقة بكثير مما يمكنكم أن تساعدوا به أنفسكم بأنفسكم إذا عولتم عليها ولم ترجعوا في أموركم إلا اليها

هذا غاية الحكمة ومنتهى الرأي الصواب فاتبعوه ان كنتم للسعادة طالبين

إنمـا رجـل الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدنيا على رجل

أحمد فتحي زغلول

مصر في أول صفر سنة ١٣١٧ — ١٠ يونيه سنة ١٨٩٩

مقدمة المؤلف

للانكليز السكسونيين أفضلية لاشك فيها لان كل انسان يشعر بها ويقدرها قدرها ومن أكبر الدلائل عليها ما يجده كل واحد عند ملاقاة الانكليزى من التهيب والحذر والغبطة أحياناً

نحن لا نكاد نخطو خطوة فى العالم إلا وجدنا الانكليز امامنا ولا نرى بنظرنا الى أملاك قديمة إلا رأينا العلم الانكليزى يخفق عليها وقد احتل الانكليزى السكسونى الاماكن التى كانت لنا فى أمريكا الشمالية من كندا الى لويزيان وفى الهند وفى موريس التى كانت جزيرة فرنساوية قديمة وفى مصر وهو الآن يشرف على أمريكا بكندا والولايات المتحدة وعلى أفريقيا بمصر ورأس الرجا الصالح وعلى أسيا بالهند وبرمانيا وعلى الاقيانوس بأوستراليا وزيلاندا الجديدة وعلى أوروبا وعلى العالم بأجمعه بمتاجره وصنائعه وسياسته والخريطة التى رسمناها فى أول الكتاب يدل بأجلى بيان على ما لهذه الامة من القوة على الانتشار فيخيل انها تريد أن تقوم مقام المملكة الرومانية في سياسة الدنيا

لغير انكليز من الامم مستعمرات كفرنسا والمانيا وايطاليا وأسبانيا إلا أنها مستعمرات تنحصر منافعها على الخصوص فى الموظفين فنرى سلطتها العسكريه ممتدة فى تلك الاقاليم ولكنها لا تأهلها ولا تغير من أحوالها ولا تعود على الاقامة فيها كما هو شأن الانكليزى السكسونى وللروسيا والصين

أملاك شاسعة إلا أن غالبها خراب وقد لا يدخلها التمدن إلا بعد زمن طويل أما الامم الانكليزية السكسونية فانها بلغت ذروة التمدن الفعال الذى يترقى على الدوام وينبسط فى جميع الارجاء فلا يكاد ذلك الجنس ينزل بمكان مهما كان من الارض إلا بدله وأدخل فيه بسرعة عجيبة أقصى ما وصلت اليه الامم الغربية من التقدم والترقى وقد تفوتنا فى ذلك غالباً تلك الامم الحديثة حتى أنها تسمينا بالدنيا القديمة تسمية تشعر باحتقارها لنا ونحن فى الواقع نظهر بجانبها من القدماء . انظر الى مافعلناه فى كاليدونيا الجديدة وأملاكنا فى الاوقيانوس وانظر الى مافعلوه فى اوستراليا وزيلاندا الجديدة وقابل بين مافعله الاسبانيون والبرتغاليون فى أمريكا الجنوبية وبين مافعله الانكليزي السكسونى فى أمريكا الشمالية تجد الليل والنهار

ولنا على هـذه الافضلية دليل قاطع فى الاحصائيات الرسمية التى تنشرها شركة قنال السويس فقد كان عدد المراكب التى مرت فى القنال مدة سنة واحدة كما يأتى

مراكب فرنساوية ١٦٠

مراكب المانية ٢٦٠

مراكب انكليزية ٢٢٦٢

وعندى انه لا يكفى بيان هذه الافضلية والنداء بها على منابر النواب أو صفحات الجرائد واظهار الغيظ مشيرين بقبضة اليد الى الانكليز كما تفعله القواعد من النساء الغضابى بل الواجب أن ننظر الى الامر من حيث ضرورة الاستعداد له كباحث يرتاض الحقائق بتأن وامعان حتى

يصل الى معرفة أسبابها لان حاجتنا هى فى الواقع اكتشاف السر فى انتشار تلك الامة وتقدمها فى المدنية والعمران لنهتدى بذلك الى معرفة الوسائل التى أدت اليه

والغرض من هذا الكتاب هو البحث عن تلك الاسباب لانى أرى ان حياتنا ومستقبل أبنائنا متوقفان عليه

مقدمة الطبعة الثانية

قول

﴿ فيما يدعى من أفضلية الالمانيين ﴾

أبدأ بشكر الصحافة والقراء على حسن قبولهم هذا الكتاب الذى انتهت الطبعة الاولى منه فى بضعة أيام وعرضى فى هذه الطبعة الجديدة أن أجيب مقدماً على اعتراض عساه يخطر بالبال وهو من المعلوم ان التجارة الالمانية عظمت منذ خمس عشرة سنة حتى احجمت امامها التجارة الفرنساوية فى جميع الجهات وأضاعت جميع المراكز التى كانت تشغلها واحداً فواحداً وقد يخطر ببال المتأمل فى هذا التقدم التجارى انه ربما يخشى منه أيضاً على تقدم الامم الانكليزية السكسونية فى التجارة

ويكفى للاجابة على ذلك أن نوضح الفرق بين الاسباب التى توجب قوة الانكليز السكسونيين وكنه هذه القوة وبين علة قوة الالمانيين، وانى

اقتصر هنا على بيان مقدمات هـذه المسئلة وتوضيح عناصرها وأشير على كثير من الشبان الذين حضروا درسنا فى العلم الاجتماعى أن يتوجهوا فى هذا الصيف الى المانيا ليشاهدوا حالة تلك البلاد بأنفسهم

تكثر الجبال فى القسم الجنوبى من المانيا كما تكثر الرمال والمستنقعات والجدب فى الشمال ولذلك كان أهلها على الدوام من الفقراء المتعودين على التدبير في حاجاتهم والبساطة فى معيشتهم والا كتفاء بالاجر القليل ففضيلة البساطة المشهورة عن الالمانيين هى فضيلة ألجأتهم اليها طبيعة بلادهم وذلك مما يضعف من شأنها ولقلة أجور الفعلة وقلة حاجات تلك الامة انحصرت المصنوعات الالمانية بحكم الطبيعة دائماً فى الاشياء المستعملة عند العموم ذات القيمة الزهيدة وهى حالة تستلزم فى الحقيقة تأخر أمتها إلا انها صارت الآن مزية عند الالمانيين لسبب خارجى على انها لن تدوم أبداً ، وبيانه ان اتساع نطاق وسائل النقل سهل الوصول الى البلاد الجديدة أو المتأخرة فى التمدن ومكّن من الاختلاط بالأمم البسيطة أو الهمجية فكثر عدد الذين يشترون البضائع العادية الرخيصة ووجدت الامة الالمانية سوقاً جديدة لمبيع سلعها واستفادت من ذلك على قدر أموال تجارها واقتدارهم فى الصناعة والبيع والشراء ولكنها فائدة صغيرة لقلة رأس مال كل تاجر على حدته وضعفه منفرداً - وطلباً للزيادة مال التجار إلى عقد الشركات فجاءت لهم عوناً على نشر متاجرهم وتوسيع نطاقها وتوفر المال لديهم فاقاموا الاسواق الكبيرة لعرض متاجرهم ومعرفة الانواع التي يكثر الطلب فيها

وهـذا عمل نستفيد منـه علماً لدلالته على أن الشركات تسد جزءاً

عظيماً من النقص الذى ينشأ عن طبيعة الاماكن والعمل والتربية التى تزيد فى الشخص قوة الميل إلى الاشتراك اكثر مما تهيئه إلى العمل بنفسه سنبينه فى هذا الكتاب ، إلا أن الشركات لا تزيل النقص وان خففته ولذلك فهى لا تفيد الالمانيين إلا حيث تسهيل العمل دون أن تحدث فيهم ما احتاج اليه كل فرد من القدرة الشخصية التى تمكنه من التقدم فى الصناعة والتجارة بنفسها ولنا على ذلك ما جاء فى رسالة نشرت حديثاً فى المانيا عن تجارة تلك الامة فى بلاد الترنسفال وبعث سفيرنا المركيزدى نواي بنسخة منها إلى وزير التجارة مما يدل على تأخر التاجر الالمانى منفرداً عن التاجر الانكليزى السكسونى كذلك قال كاتب الرسالة « يحتاج التاجر الالمانى إلى مساعدة حكومته وإلا احاط به الفشل كما أصابه فى منافسته مع الانكليز أولا فالالمانى يخرج إلى العمل برأس مال صغير ثم هو على ما به من إقدام قليل الصبر غالبا » ولعله قال قليل الوسائل لان الالمانى صبور « فلا ينتظر النجاح بل تنحل عزيمته اذا خاب مرة فى مساعيه أما الانكليزى فانه يعلم أن النجاح معقود بأطراف المثابرة» ولديه من الوسائل ما يساعده على الانتظار « وفى الالمانيين عيب خاص يحيط مساعيهم غالباً فى « الترنسفال » وهو جهلهم بحركة الاسواق فيأتون ببضائع لا طلب لها يضاف الى ذلك عدم اعتنائهم بربط المتاجر وتغليفها » وهذا يدلك على مقدار تمكنهم فى علم الاقتصاد المشهور عندهم قديماً «وجهلهم بطرق التسفير وعدم التفاتهم إلى اختلاط الاجناس فى أسواق تلك البلاد ، ومن أسباب عدم نجاح التجارة الالمانية اختيار العمال ممن لا خبرة لهم بالتجارة وحاجات البلاد.

التي يعملون بها ثم عدم اطلاق صراحهم في العمل كما ينبغي »

ويعلم القارئ من أقوال صاحب الرسالة وهو الالماني ان الالمانيين وان توصلوا بالشركات الى توسيع نطاق تجارتهم حتي خيل انهم يهددون تلك القوة العظيمة التي امتاز بها الانكليز فى التجارة والصناعة لا يتيسر لهم ان يلحقوا ضرراً صحيحاً بهؤلاء

ذلك لان طريقة الانكليزي السكسونى فى التجارة والصناعة تختلف عن طريقة نظيره . فالانكليز السكسونيين انما استولوا على الاسواق فى الدنيا بأنفسهم وجدهم الشخصى من غير مشاركة غيرهم لهم فى العمل ولا مساعدة الحكومة وبالجملة فانهم توصلوا الى ذلك بواسطة أحوالهم الاجتماعية التي ألفنا هذا الكتاب فى بيانها ، وبديهي ان أفضلية الرجل الذى يأتى بنفسه من الاعمال مالم يأته غيره مع الاستعانة فيه إلا ناقصاً لاتحتمل الشك ولا تحتاج الى الدليل وهذا هو حال الانكليز السكسونيين بالنظر الى غيرهم ومهما اجتهد الالمانيون وبالغوا فى نشر متاجرهم فى أسواق الدنيا فانهم لن يسبقوهم بل تبقى لهم تلك الافضلية لان الفضل الذاتى أثبت قدماً من الفضل المكتسب وكل انكليزى تاجر كبير بنفسه وصانع عظيم بعمله فلا خوف عليهم من صناع لا قوة لهم إلا مجتمعين ومن تجار لا حول لهم إلا مشتركين

ثم انه يجب على التجار أن ينوعوا تجارتهم وعلى الصناع أن يتفننوا فى صناعتهم حتى تكون المتاجر والمصنوعات موافقة لرغائب الناس وطلبات الشرائين بحسب الزمان والمكان فى كل آن ومعلوم انه يصعب على الشركات

التجارية والصناعية مهما قوى نظامها أن تتكيف بحسب الظروف لما يوجد بينهما وبين بعضها عادة من تخالف المنافع وحصول المنافسة فالخلف لازم لطبيعة الشركات وهو السبب فى اختلالها وهنا يثبت ان العمل قد يخالف العقول وان كان سديداً

ان الشركات الصناعية لا يمكنها أن تقاوم هذه البيوتات الانكليزية السكسونية لاجتماع أزمتها فى قبضة رجل واحد أو رهط من الرجال متحدين فى المنافع ذى رأس مال طائل ولهم من الدراية مايفوق الوصف مما هو طبيعى فى تلك الأمة التى يسهل عليها أن تدور مع أحوال التجارة كلما رأت ان الكسب قد وقف لتتجه فى طريق جديد ، وبرهانه انه لما أحس الانكليز بغارة التجارة الالمانية صاحت جرائدهم بأصوات التحذير كما هو الواجب على كل حارس أشد تيقظاً من حراسنا وذلك يدل على شدة حذرهم وقوة التفاتهم لما عساه يهدد ولو من بعيد أفضليتهم العظيمة فى التجارة والصناعة . ولقد أخطأنا فى فهمنا ان ذلك الصوت نذير الدمار صاحوا به لكى ينجو من يتمكن من النجاة ولا يجوز ان يجول هذا بخيالنا لان الفرق بين مائتين وستين مركباً ألمانية تمر فى السنة بقنال السويس وبين ألفين ومائتين واثنتين وستين مركباً انكليزية لا يخفى على من تأمل

على ان الصناعة الالمانية لم تتقدم فى الاسواق على الصناعة الانكليزية كما قدمنا إلا فى السلع الاعتيادية ذات الثمن الزهيد ولما رأى الانكليزى انه لا يمكنه صنع مثلها بمثل ثمنها فى بلاده حيث الاجور مرتفعة حول نظره الى صنعها فى بلاد أخرى تقل فيها حاجات الاهالى فاتخذ فى تلك البلاد

بيوتا تجارية ولا يخفى ما للانكليز من سهولة التوطن فى البلاد الاجنبية وانى أود أن يرتاح ضميرى فتلين تجارة فرنسا وصناعتها كما لان الانكليز فيهما

ويفضل الانكليزى الالمانى بأمرين مهمين لابد أن يتغلبا فى المستقبل

الاول ان الالمانيين على العموم ما عدا سكان (هنفر ووستفالى) الذين يلحقون بجنس الانكليز السكسونيين قليلوا الهمة فى الزراعة فهم حضريون يفضلون الهجرة للتجارة عنها للاستعمار والزراعة فلا يتأصل نوعهم فى البلاد كما يفعل الانكليزى السكسونى ، ومن هنا جاء انهم كلما التقوا به يبتلعهم هكذا يصير المهاجرون من الالمان فى أمريكا الشمالية سكسونيين بسرعة عجيبة فلم يتكلم الجيل الثانى منهم إلى الانكليزية ويصبحون انكليزيين فى عاداتهم وطباعهم انهم يتعجلون فى هذا التحول فيختارون حتى من الاسماء ما يوافق أسماء الانكليز ، وهذا هو السبب فى ان الجرائد التى تصدر بالالمانية لاتثبت قدمها فى الولايات المتحدة الاقليلا لان قراءها ينحصرون فى المهاجرين الوافدين قريباً من البلاد الالمانية ، وبينما طلاب المصنوعات الانكليزية يكثرون لزيادة عدد المستعمرين منهم فى جميع أنحاء المسكونة وانتشار جنسهم فى الاصقاع كلها يقل عدد طالبى المصنوعات الالمانية لتحول المانيين عن الزراعة واستحالتهم الى انكليز سكسونيين طوعاً لما فى هؤلاء من شدة المقاومة وقوة التغلب

وثانيهما شكل الحكومة التى وجدت فى البلاد الالمانية عقب قيام الامبراطورية لانا ذكرنا فيما سبق كيف ان المانيا القديمة توصلت على فقرها بعملها واقتصادها الى بث روح الانتشار الصناعى والتجارى فى هذه الازمان

وقلنا ان ذلك راجع الى ما فطرت عليه تلك الامة من المزايا الحقيقية التى بقيت كامنة فيها الى أن ساعدت الظروف على نموها نمواً فجائياً وتلك الظروف هى اتساع نطاق وسائل النقل وتسهيل طرق المواصلات. فتقدم الامة الجرمانية فى عصرنا هـذا ناتج عن المانيا القديمة أما الامبراطورية الالمانية الجـديدة فانها لا تنتج غير انتشار الجندية والادارة ومذاهب الاشتراكيين كما هو مشاهد الآن ما دامت على نظامها الحالى ، ولا يخفى ان تلك النتائج لا تقترن بسعادة الامم التى توجد فيها وثروتها ، ألا ترى انه لم يكن عندنا أيام لويز الرابع عشر ونابليون غير الداءين الاولين ولقد ذهبا بنا الى أسوإ الاحوال ، وكـذلك كان شأن البلاد الاندلسية أيام الملك شارلكان وفيليب الثانى

ومن لوازم تلك النظامات فى أول الامر انها تمثل الامة بمظهر القوة السياسية والاجتماعية لانها تجمع بسرعة جميع العناصر الحية التى تكوّنت شيئاً فشيئاً تحت ظل النظامات السابقة في قبضه رجل واحد ، وذلك هو الزمن المجيد الذى كان للبروسيا أخيراً كما كانت عليـه الاندلس وبلادنا فى الازمان الغابرة ، غير ان اجتماع قوى الامة الحية فى يد واحدة يؤدى مع الزمن الى ضعفها كلها وتعطيل منفعتها فتنحل وتصير عقيمة وحينئذ يستولى الدمار والانحطاط على الامة، واذا استمرت الامبراطورية الالمانية فى الطريق التى وصلت منها « والظاهر انها تستمر » فانها لا تنجو من نتائجها وعلى الالمانيين أن يعجلوا الاستفادة من فضائلهم الاولى فينشروا تجارتهم ويكفوا عن ملامنا على تأخرنا فانما نحن السابقون وهم بنا لاحقون ، والخلاصة ان

الامة الانكليزية السكسونية تعظم وتتقدم بما لافرادها من الاعمال المفيدة المتجددة على الدوام وبما لها من حكومة نفسها بنفسها والامة الالمانية القديمة تفقد كل يوم فضائلها الاولى التي كانت أساس قوتها الاجتماعية ولا تزال تمدها الى الآن وسببه الافراط في السلطة السياسة ، وقد توخيت تمييز المانيا القديمة من المانيا الجديدة في هذه المقدمة لان كلامي في الفصل الثاني من هذا الكتاب راجع كله الى هذا الاخيرة وأريد أن لا يتلبس الامر على القراء ، وسنبين في هذا الفصل كيف يسعى امبراطور المانيا كما اعترف هو بنفسه الي اعدام المانيا القديمة وإيجاد المانيا الجديدة بواسطة تنظيم التعليم على مثال الامة البروسيانية

الباب الأول

﴿ الفرنساويون والانجليز السكسونيون في المدرسة ﴾

يظهر الفرق بين انكلترا والامم الغربية الاخرى منذ عهد المدرسة وهو فرق كبير إذا عرفناه سهلت علينا معرفة السبب في أفضلية الانجليز السكسونيين

كل أمة تنظم التربية حسب طبيعتها وعلى مقتضى أخلاقها وعوائدها ثم التربية نفسها تؤثر على الهيئة الاجتماعية وسيقف القارئ على بيان ذلك بما تقدمه له من الشرح على التربية في فرنسا والمانيا وانجلترا وبعد ذلك

نخصص مطلباً رابعاً نبين فيه تغيير الاحوال فى هذه الايام ونأتى على ذكر الطريقة التى يجب أن نتبعها فى تربية أبنائنا حتى يكونوا على درجة من الاستعداد تناسب الازمان الحاضرة التى أصبحت تخالف الازمان القديمة من جميع الوجوه

الفصل الأول

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنساوية رجالا ﴾

اذا سألت مائة شاب فرنساوى عقب خروجهم من المدرسة أى صنعة يريدون أن يشتغلوا بها أجابك ثلاثة أرباعهم انهم يتطلعون الي التوظف فى الحكومة فاغلبهم يطمع فى الانتظام فى الجندية أو القضاء أو النظارات أو المديريات أو المالية او السفارات أو المصالح الاخرى كمصلحة القناطر والجسور والمعادن والدخان والمياه والغابات والمعارف والمكاتب العمومية ودور المحفوظات وغيرها ، ولا يميل الى الصنائع الحرة فى العادة منهم إلا الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بإحدي المصالح الاميرية

ولما كانت الوظائف فى الحكومة معدودة عمدت الى طريقة الاختيار بقدر مالديها من الوظائف الخالية ، وطرق الاختيار ثلاثة الامتحان والوسائط ومراعاة الانساب والاحساب الا أن الوسائط والانساب لا يعوّل عليها إلا نادراً والامتحان هو القاعدة العمومية : لذلك أصبح النجاح فيه الشغل

الشاغل لجميع شبابنا فان مستقبلهم متوقف عليه وانحصر فكر العائلات فى إيجاد الوسائل التى تمكن أبناءها من هذا النجاح وهكذا تولدت فى أذهان الفرنساويين أهمية المدارس لانها الواسطة الوحيدة التى توصل الى تلك المطامع وتجعل الانسان مركزاً فى أمته وعنى القائمون بأمرها الى جعل نظامها بحيث يساعد على هذا النجاح وهم معذورون لان أهالى التلامذة لا تعتبرها إلا بقدر من ينجح من طلبتها فى الامتحانات السنوية ، والمدرسة التى يقل عدد الناجحين من متخرجيها تنحط درجتها ويهجرها التلامذة حتى صار الفوز فى الامتحان علة حياة المدارس الفرنساوية

ولا سبيل الى تهيئة الطلبة للامتحان إلا بانهاك قوى المتعلم حتى يتحصل فى زمن يسير على تعليم سطحى يتناول جميع العلوم المطلوبة فى الامتحان

فأما قلة الزمن فلسببين ، الاول ملاحظة السن المقرر قانوناً للدخول فى بعض الوظائف وقد لاحظت الحكومة فى تحديده تقليل عدد الطلاب الذى يزداد كل يوم وجعل الامتحان صعباً ، والسبب الثانى تعجل الشبان على التوظف لكى يترقوا سريعاً قبل وصولهم للسن المحدد للتقاعد

ولا شك فى أن التسرع فى الزمن والاكثار من المواد يجعلان التعليم سطحياً إذ كلما زاد عدد المتعلمين كثرت العلوم الواجب تعلمها وزادت صعوبة الامتحان ولم يعد فى إمكان الطالب مهما بلغ من العقل والذكاء أن يتقن تلقى تلك العلوم كلها وأصبح يكتفى منها بتصفح أوراقها ، ولو أن المعلمين أنفسهم تقدموا إلى الامتحان مع طلبتهم لعجزوا عن الاجابة على كثير من المسائل وخيف عليهم من الخذلان ، ولو كان الغرض من هذه الطريقة ايداع

المعلومات الحقيقة فى أذهان التلامذة وتربية ملكاتهم العقلية لرسخت التعاليم عندهم غير انه لا نتيجة لها ولا يقصد بها إلا تشحيذ الذاكرة ، لذلك قلنا ان التعليم لا يدوم الا قليلا فلا يكاد التلميذ يجتاز الامتحان إلا وقد أدركه النسيان ، والناس لا يرون فى هذا ضرراً لحصول الغرض المقصود اذ يكفى أن يكون الطالب مستعداً لجواز الامتحان فان وفاه حقه صار كل مرغوب بعده من الكماليات ، فيه يحصل التوظف وهو منتهى الآمال ، وعلى هذا يتبين لك أن الامتحان أصبح السبب الوحيد فى تكليف التلامذة مالا يطيقون ومن أجله أيضاً وجد نظام انقطاع الابناء عن أهليهم وسكناهم بالمدارس ليلا ونهاراً وهو النظام المعروف عندهم (بالداخلية)

وقد احتاجوا الى ذلك لاعتماد الفرنساويين فى تربية أبنائهم على المدرسة توصلا الى النجاح فى الامتحان حتى ينالوا وظيفة فى الحكومة ، وصعوبة الامتحان على ما قدمنا تقتضى طرقاً مخصوصة في التعليم ووسائل تجهلها العائلات وان لم تجهلها فانه لا يتيسر له استعمالها ولا أن تراقب العمل بها ومن جهة ثانية فانهم يخافون أن يضيع الوقت ويخشون من اشتغال أبنائهم بما يلهيهم عن الغرض المقصود ان لم يبتوا فى المدارس .

ومما لا شك فيه ان هذا النظام ملائم لذلك الغرض كما ينبغي أي انه يهيئ الطلبة الى الوظائف الملكية والعسكرية ، وبيانه ان الموظف الحقيق هو الذى يجب عليه أن يتناول عن ارادته ولهذا وجب أن يتربى على الطاعة ليسهل عليه تنفيذ أوامر رؤسائه من غير مناقشة ولا نظر فيها لان المطلوب منه أن يكون آلة فى يد غيره ، والداخلية من أعظم البواعث على هذه التربية

لان المدرسة نظمت على نسق ثكنة عسكرية يقوم الطلبة فيها من نومهم على صوت البوق أو رنة الجرس وينتقلون مصطفين بالنظام من عمل الى آخر ورياضتهم تشبه الاستعراض العسكرى فهم لا يخرجون من الدرس إلا فى رحبات داخل البناء عالية الاسوار ويتمشون فيها جماعات جماعات كأنهم لا يلعبون ، وليس لهم من الزمن مايستريحون فيه من عناء الدرس والمطالعه فلهم نصف ساعة فى الصباح وساعة بعد طعام الظهر ونصف ساعة بعد العصر ومعدل خروجهم من المدرسة يوم واحد فى الشهر ولا يتيسر للعائلات زيارة أبنائهم اكثر من مرتين فى الاسبوع مدة ساعة على الاكثر فى مكان مخصوص مزدحم بالموجودين بحيث يسمع بعضهم بعضاً ، ومن الواضح ان هذا النظام يضعف فى الشاب قوة العمل الاختيارى ويوهن الهمة والاقدام كما أن من شأنه أيضاً إزالة ما قد يوجد بين الطلبة من تفاوت الانساب لان الدائرة التى تدور على الجميع واحدة فتجعلهم فى الحقيقة آلات معدة للعمل الذى يقصده منها ، ومما يزيد فى سهولة انقيادهم وحسن طاعتهم كون النظام التى تربوا عليه لا يؤدى الى تربية الفكر والتعقل بل الطالب يتناول مسرعاً كثيراً من المواد سواء أحكم تعلمها أم لا ولا تشتغل من ملكاته إلا الذاكرة فكما أنه يتلقى التعليم من دون نظر فيه تراه ينحنى من غير تردد أمام الاوامر التى تصدر له من رؤسائه فى المصالح التى يوظف فيها ولا غرابة فى هذا الفن فان مصدر ذلك التعليم وتلك الأوامر واحد فى الحقيقة وهى الحكومة ، وكأنى بهم يقولون له : أيها التلميذ ان الحكومة قد علمت مبادئها فصرت اليوم موظفاً تتلقى أوامرها ، ومرجع الصفتين واحد

كما ترى

وأول من التفت إلى جعل المدارس أماكن لتربية الموظفين نابوليون الاول ، ففى القرن السابع عشر والثامن عشر كانت « الداخلية » نادرة ولم تعم الأيام الامبراطورية الاولى ، فلما أسس نابوليون الاول مدارس الحكومة جعلها قاعدة عمومية لانه ماكان يتيسر له أن يدير السلطة الكلية التى جمعها فى يده إلا بكثرة عدد الموظفين ووجب من ذلك الحين على الحكومة أن تلاحظ تربية الشبان الذين تضطر الى استخدامهم فمالت بالطبع إلى تقرير المبادئ التى توافق مصلحتها وتعويد الطلبة عليها قبل نمو الادراك الحقيق فيهم حتى تتوصل بذلك إلى الغرض المقصود وهو اضعاف همتهم وتعويدهم على الطاعة والاشتراك فى الاحساسات والتجانس فى الافكار وبالجملة فانهم ينشأون على ما من شأنه محو الانانية فى الانسان ، وقد سرت الحكومات التى جاءت بعد الامبراطورية الأولى على اختلاف أشكالها فى ذلك النهج وهو الذى تبنى عليه اليوم سياسة البلاد فلم ينقص عدد الموظفين ولم يضعف جمع السلطة فى اليد العليا بل زاد ذلك من أول هذا القرن ونشأ عنه اتساع نطاق التعليم السطحى كما انتشر نظام الداخلية فى المدارس .

ذلك هو النظام الذى يتربى عليه السواد الاعظم من الفرنساويين رجاء الفوز فى الامتحان الذي يفتح لهم باب الوظائف في الحكومة ، غير أن نجاحهم ليس على قدر أملهم فكلهم آمل وليس الكل موظفين ، ويصبح الذين سدت أبواب الحكومة فى وجوههم مضطرين الى طلب

العيش من باب آخر ، وهنا يجب النظر فيما اذا كان نظام المدارس الحالى وافياً بالغرض المقصود من تربية الرجال على مبادئ الارتزاق من غير الحكومة أم لا كما انه صار وافياً بتربية الموظفين ، وهذه مسئلة كبرى ينبغى الالتفات اليها

ومن المعلوم انه لا يتيسر للإنسان أن يحصل معيشته إلا اذا كان ذا ارادة وهمة وكان متعوداً على الاعتماد على نفسه ، والنظام الذى شرحناه لا يساعد على تربية هذه الكلمات بل انه يضعفها ويميتها ويعوّد العقل على انتظار المراكز المجهزة من قبل حيث لا يكافه التقدم فيها إلا أن يكون صبوراً لا أن يكون صاحب عمل اذ الترقى فى الجيش وفى مصالح الحكومة انما يحصل بالاقدمية والاستصناع وكل الذى يجب على الطالب أن يعمله هو الدخول فى الخدمة ، ومتى استقر فى وظيفته يترك نفسه فينتقل بحكم العادة من وظيفة الى أخرى ، ومن كان هذا شأنه قل أن يكون شجاع النفس ذا قلب يميل الى التعب حباً فى الحياة وينبغى أيضاً لمن يطلب الرزق بنفسه أن يكون شاباً لان الشبوبية تسهل للانسان اجتياز العقبات التى تصادفه بالطبع فى بداية العمل أيًا كان ، ثم هى لازمة على كل حال لمن يريد أن يتعلم صنعة من الصنائع ، وطالب التوظف فى الحكومة مضطر الى البقاء بغير كسب حتى يبلغ الحادية والعشرين أو الخامسة والعشرين وربما كانت الثلاثين وأكثر منها ، فاذا ضاع أمله فى الاستخدام أمسى وقد سدت أمامه أبواب حرف كثيرة ولات حين اعتناقها بفقد وسائلها ثم الحِرَف فى الغالب صعبة المثال قليلة النفع فى أوائلها ولا تنس ان الطمع يشتد فى الانسان كلما

تقدم فى العمر ، وكلما زاد الطمع صعب نوال المطلوب ، وهكذا يفوت الوقت وتتعاقب الأعوام وتزداد الصعوبات والمرء واقف بين الاقدام والاحجام

وليست الشبوبية بكافية وحدها بل لابد معها من أن يكون فى الشباب استعداد وميل للصناعة التى يطلبها وان يكون على معلومات تليق بها اذ لا يصير المرء من أرباب الزراعة أو الصناعة أو التجارة دفعة واحدة بل كلها أعمال تقتضى التدرب ولا تنال إلا بالعمل واقتفاء أثر الآباء والأجداد

ونظام مدارسنا لا يهيء إلى مثل تلك الاعمال بل انه يبعد المتعلمين عنها لانه يغرس فيهم الاعتقاد بأفضلية الوظائف فى الحكومة ، وكثير ممن لا حياة لهم الا بالزراعة أو الصناعة أو التجارة يندهشون عند ما يسمعون أبناءهم يوم يخرجون من المدرسة يقولون انا لا نريد أن نحذو حذو آبائنا ، وما للدهشة موجب فان المدرسة قد بغضت اليهم صنائع آبائهم حتى صار الناس لا يلومون الشبان على فرارهم من المهن والصنائع الجارية مع كونها أشرف الاعمال وأنفعها ، ومن يرجعون منهم اليها بعد خذلانهم فى الامتحان لا يعملون فيها الا عن قهر واضطرار على غير استعداد ولا ميل ، فهم يدخلونها وشروط النجاح غير متوفرة لديهم

ومع ما تقدم فان نظام المدارس عندنا يهيئ المتخرجين منها الى عملين آخرين غير التوظف فى الحكومة وهما الاستخدام فى المصالح الحرة واعتناق الحرف الادبية ، فاما كونه يهيئ الى الاستخدام فى المصالح الحرة فظاهر لما بين مصالح الحكومة والمصالح الحرة من الشبه فان هذه لا تطلب من مستخدميها استقلالا فى العمل ولا قوة فى الارادة ولا اجتهاداً أكثر مما

تلك ، وهى مثلها في ضمان المعيشة ، والتقدم فيها محقق بطبيعة نظامها وان كان بطيئاً ، فان لم ينجح فى الامتحان يركض نحو تلك المصالح حتى كثر عدد الطلاب وتعذر عليها أن تستخدمهم جميعاً ، وكذلك كثر الميل إلى الاحتراف بالحرف الادبية لان نظام المدارس من شأنه أن يوجد عند الطلبة معلومات عامة لكثرة عدد المواد التي يدرسونها فيخرج الطالب منها وهو على اعتقاد تام بأنه عالم بكل شيء لانه مرّ على كل شيء وفى وسعه أن يتكلم عنه أو يكتب فيه فيصير رجلا أديباً من أى صنف كان ، على أنه مضطر للالتجاء إلى تلك الحرفة فان المدرسة لم تحسن تربيته أو أنها جعلته غير صالح لان يكون ذا صنعة مستقلة غيرها ، ومما هو مشاهد للعيان أن نظام التعليم عندنا يربى أذهان الذين يحترفون بتلك المهنة على كيفية مخصوصة وهى ضعفهم فى البحث فلا يكاد الواحد منهم يجيد النظر فى مسئلة إلا قليلا ، لكنهم من ذوى الاقتدار التام فى التخيلات والحكم بالاستقراء الناقص مما يقرب إلى الخطأ أكثر منه إلى الصواب ومن أحسن ما يستدل به على ذلك مطالعة (جريدة المطبوعات) التى تنشر كل يوم ما يؤلف من الكتب الادبية فى فرنسا إذ يتبين أن المؤلفات التى تقتضى وقتاً وعناء تقل يوماً فيوما ، والذى يؤلف منها هو في الغالب تقل من كتب متعددة على شكل كتب دائرة العلوم لا مؤلفات شخصية وضعها صاحبها بعد إطالة الفكر وامعان النظر ، بل تلك رسائل مطولة سهلة التناول ، والغرض منها جمع عدة مسائل بكيفية تسهل الوقوف عليها ولم يعد يوجد فى فرنسا من مؤلفى الكتب الشخصية وقرائها إلا عدد يسير ، ومن هنا جاء أن ملتزمى طبع الكتب يحجمون عن

طبعها اذ زادت عن مجلد واحد أو مايقرب منه ، وليلاحظ أن هذا الضعف وعدم القدرة على درس المسائل كما ينبغي ليس ناشئاً من طبيعة الامة الفرنساوية بدليل الفرق بين مؤلفات القرنين السابقين وأول القرن الحالى وبين المؤلفات التي ظهرت منذ أربعين سنة ، بل مرجع هذا الضعف صيرورة التعليم سطحيا فى المدارس لعلة الامتحان ، ومتى تعود الفكر على الاخذ بظواهر الاشياء ، وأن لا يطالع الانسان الا فى كتب صغيرة ، وأن يكون سريع الفهم لاقويم الحكم ، وأن يكثر من الاحاطة بعدد كبير من المسائل فى أقرب وقت تشبهاً بواضعيها من غير تأمل استحال عليه أن يجيد البحث لصيرورته غير قادر عليه ، ويزداد هذا الضعف بمقدار زمن ذلك التعليم السطحى ، وأشده عند طلبة المدارس العالية فهم يفضلون غيرهم بقوة الذاكرة وسرعة الخاطر وسهولة فهم المراد وهى الملكات التى عنى بتربيتها فيهم وكان سبباً لنجاحهم فى الامتحان ، إلا أن عجزهم يظهر إذا طلب منهم أن يعملوا عملا من وظائف تلك الملكات التى ارتفعت صورة وانحطت حقيقة والخلاصة أن وظيفة المدارس عندنا في هذه الايام قد انحصرت فى تربية الموظفين ولم تعد صالحة لغيرها وبعدت الشقة بينها و بين مايجب لتربية رجال حقيقين

الفصل الثانى

﴿ وفيما اذا كان نظام التعليم فى المدارس الالمانية يربى رجالا ﴾

من نكد الطالع انه لايدوم لنا موضع رجاء ، كأنما روح خبيثة سلطت على كل عمل نرجو الفلاح منه ، وقد حان الحين على المدارس

مضى علينا زمن لم ندخر ثميناً إلا بذلناه فى سبيلها حتى بلغ اعتناؤنا بها درجة العبادة ، والسبب فى هذا الاهتمام انه لما انتصر علينا الالمانيون ظننا ان علة انتصارهم تقدم مدارسهم فاكثرنا من مواد التعليم وزدنا عدد المدارس وبذلنا النفيس حتى أصبحت أماكن التعليم قصوراً عالية وعم الاهتمام جميع أفراد الأمة ثم صيرنا التعليم مجاناً ثم اجبارياً على جميع الناس ، فدخل المدرسة ابن الفلاح وابن الحضري ومقتنا كل من ارتاب فى نفعها ، وكانت الافكار متجهة الى تقليد الالمانيين فى كل شيء فأخذنا عنهم نظامهم العسكرى وجاريناهم فى أساليب التعليم وطرق التربية وعلم أصول اللغات الذى اشتهروا فيه بتعمقهم وسفسطتهم اعتقاداً منا بانه لاتقوم لنا قائمة إلا اذا تعلم أطفالنا متون اللغة اللاتينية ، هكذا كان رأى المدرسين وفى أثرهم جميع الفرنساويين

ولم يمض زمن طويل حتى انقلب هذا الاعتقاد وقال أهلوه انهم كانوا فى رأيهم مخطئين وأجمعوا فى البلدين على عدم فائدته كما كانوا على استحسانه من قبل مجمعين

أما عندنا فبدأ المتأملون يهمسون برأيهم فلما وضح الامر جهروا بان

المدارس لم تأت بالفائدة التى كانت تنتظر منها ، وان الاكثار من مواد التعليم قد أوجب ضعف المعلومات ، وان عدد الناجحين فى الامتحان يميل كل يوم الى النقصان ، واستشهدوا بالوقائع والارقام ، وقال المتطرفون ان توسيع نطاق المدارس كان سبباً فى كثرة من لا صناعة لهم ومن لا قدرة فيهم على العمل ، وان فى ذلك خطراً عظيما ، وصدرت هذه الاقوال فى مبدإ الامر عن قوم لا علاقة لهم بجماعة المعلمين ورجال الحكومة فلم يلتفت أحد اليها وظنها الناس تحاملا على المعلمين ، وما كان إلا قليل حتى قام رجال التعليم فى فرنسا ومنهم الرؤساء العظام كوزراء المعارف ورفعوا أصواتهم بتلك الشكوى وصاح بعضهم فى صحن مدرسة السربون [1] انه لا بد من ادخال الاصلاح على نظام التعليم ، وان الحال يقتضى التعجيل بلا مهل ، ولولا ان الالمانيين كانوا يضجون فى برلين عاصمة بلادهم بمثل هذه الشكوى لظن الناس ان صراخنا من قبيل ماعرفنا به من حب التغيير وسرعة الانتقال بين حدى التفريط والافراط ، وناهيك ان صاحب الشكوى الالمانية هو الامبراطور نفسه ، وكانت النتيجة أن اتفق البلدان على الجهر بان نظام المدرسة لم يأت بما كان ينتظر منه بعد ان كانا يطنطنان بانه لا فضل فوق فضله

ولافادة القراء نذكر لهم خطاب امبراطور المانيا [2] لعرفوا السبب فى شكواه ويقف على الذى يريد من المدارس فى بلاده وطريقة التعليم التى يميل اليها ويتبينوا ان كان فى الامكان تحقيق أمانيه

---

(١) هى اكبر مدرسة جامعة وفيها مركز الجمعية الكبرى للتعليم (٢) هو خطاب القاه الامبراطور غليوم الثانى على جمعية المعارف الالمانية منذ سنتين

خص الامبراطور القسم الاول من خطبه بشرح هذه الجملة « ان المدارس لم تعطنا ما كنا نرجوه منها » ومن رأيه ان المدرسة لم تنجح فى التعليم نفسه أى فى إيجاد المعارف فى الاذهان ، « قال ما كنت فى احتياج لاصدار الامر الذى تفضل حضرة الوزير بذكره لولا ان المدارس لم تصل الى الدرجة اللائقة بها ، وليعلم عنى أنى ما قصدت بالشدة واحداً من الناس ، ولكن فكرى موجه الى نظام التعليم نفسه وأقول ان المدرسة لم تأت بما كنا ننتظره منها ، وسببه الخطأ في أمور كثيرة ثم أخذ يندد بالتعليم وبالمواد التى يجرى فيها والطريقة المتبعة وبدأ بفن تعلم اللغات الذى كانوا يبنون عليه آمالا كثيرة معتقدين انه سيصير علماً يكون من أكبر الاسباب فى تضلع الطلبة من علوم الأدب فقال « ان الامر المهم الذى يجب الالتفات اليه هو ان مدرسى اللغة وجهوا جل اهتمامهم إلى مادة التعليم وإلى التعليم نفسه منذ سنة ١٨٧٠ لكنهم لم يلتفتوا إلى تربية الاخلاق والنفوس على ما يحتاج اليه فى هذه الاوقات وانك ياحضرة المتشار هنزبيتر وأسألك العفو فيما أقول « من علماء اللغات ذوى الخيال ، غير انى أرى الامر وصل الى حد لا يجوز أن يتعداه » .

ويرى القارىء من ذلك ان الامبراطور شديد على النظام اشتداده على موضوع التعليم وهو اللغة اللاتينية التى اعتبرت الى الآن أساساً لكل تعليم فان الالمانيين يفتخرون بعلماء تلك اللغة منهم افتخارهم بعلماء اللغات الاخرى وقد آن أوان انصرافهم عن هذا الخيال قال ملكهم « يكثر الناس أيها السادة من الاعتراض فيقولون ان اللاتينية لازمة لتعويد المرء على مطالعة اللغات

الاجنبية الى غير ذلك من الاقوال ، على انى أيها السادة كنت أيضاً أتعلم اللاتينية وأعرف كيف كان يكتب التلميذ درسه فيها ، كان الواحدمنا ينال الدرجة الرابعة فى درسه الالمانى وهى الدرجة المتوسطة فى الغالب وينال الدرجة الثانية فى اللغة اللاتينية وهى درجة عال ، ولوكان الامر بيدى لعاقبته بدل المدح والثناء ، إذ من الواضح انه ليس هو الذى كتب درسه اللاتينى بنفسه بل انه لم يوجد واحد فى الاثنى عشر كتب درسه بغير معين ومع ذلك كانت كلها ملحوظة بعين القبول والرضا ، هكذا كان يتعلم الشبان تلك اللغة على انه لما كنا فى المدرسة الابتدائية ما كان الواحد منا ينال الدرجة المتوسطة فى كتابته على (مينا برنهلم) أوعلى (ليسنج) [1] إلا بالمشقة والعناء لهذا أقول تباً للدرس اللاتينى انه يضايقنا ويضيع علينا وقتنا »

ثم انتقل الى الكلام على خيبة التعليم من جهة العملية أعنى من جهة تكوين الرجال وأعدادهم للنجاح ، وهو أهم قسم فى خطابه ، وعلى كل حال فانه توسع فيه كثيراً وكان ناظر المعارف شرح فى خطابه الافتتاحى فكرة الامبراطور وبحث فيما اذا كان ينبغى للأمة الالمانية « ان تبقى أمة تفكر وتصورات تبحث عن راحتها في مخيلتها مع ما حصل من التغيير فى حالة البروسيا وألمانيا » وقال بان ذلك لم يعد فى الامكان « إذ قد اتجهت انظار الأمة الى الخارج بل ومالت الى الاستعمار » وهو قول واضح لا ابهام فيه يدل على ان الغرض مساعدة انتشار الأمة الالمانية واعدادها إلى مشاركة الأمم الاوروباوية فى الاستيلاء على العالم ، لذلك أشار الوزير الى وجوب

(١) اثنان من رجال الادب الالمانيين ولد الاخير سنة ١٧٢٩ وتوفى سنة ١٧٨١

العدول عن طريقة التعليم فى المدارس العالية المتبعة الآن ، واشتد الامبراطور فى الكلام على كيفية التعليم فقال « ألاحظ أولا أن الغرض من كلامى توجيه الافكار خاصة إلى طريقة التعليم والتربية التي يجب علينا اتباعها فى تهذيب شبيبتنا حتى تكون مطابقة للضرورات الحالية التى أوجدنا فيها مركزنا بين الامم وقادرة على احتمال متاعب التزاحم فى الحياة » هاقد نطق الامبراطور بما كان مكنونا يريد اعداد الالمانيين إلى التزاحم فى الحياة وجعلهم رجال عمل قادرين على التحصيل ومقاومة مزاحميهم من الامم الاجنبية فى البلاد الخارجية ، وقد أخفقت مساعى المدارس فى هذا الموضوع لانه لا يخرج منها الا قوم لا حرفة لهم أو لا أهلية فيهم أو أنهم لا يقدرون على غير الاشتغال بتحرير الجرائد ، ومنهم من أنهك الدرس قواه فصار أعشى وأمسى ضعيف القلب فاتر العزم فى أى عمل يحتاج اليه ، ذلك ماصرح به الامبراطور فى كلامه قال مبتدئاً بتكليف التلامذة فى التعليم فوق طاقتهم مما أضعف أبدانهم وحط من قوة الارادة فيهم ما يأتى «وإذا رجعنا إلى أوقات التعليم رأينا من الضروري تغيير ساعات العمل الذى يكلف به التلميذ فى بيته اذ يذكر حضرة المستشار (هينزيتر) أن شكوى العائلات وعدم رضاهم عن الطريقة المتبعة الآن موجودان منذ كنت أنا بمدرسة (كاستيل) الابتدائية وأن تلك الشكوى بلغت مسامع الحكومه فأمرت بتحقيقها وتبين منها أنه كان يجب على كل تلميذ أن يقدم لناظر مدرسته فى كل صباح شهادة بمقدار الساعات التى قضاها فى تحضير دروس اليوم الثاني بمنزله أما أنا فكنت أشتغل سبع ساعات كما يشهد به حضرة المستشار يضاف اليها

ست ساعات فى المدرسة وساعتان فى الاكل والباقى من اليوم معلوم »
وهو فى الحقيقة تكليف شديد لم ينج الامبراطور من اضراره إلا باستعمال
طرق لا تتيسر لجميع الناس كما قال « ولولا أنى كنت أركب جوادى
وأنطلق حراً فى غير الاوقات لما عرفت شيئاً من أحوال الدنيا » .

نعم ركوب الخيل يخفف ضرر الافراط فى الدرس ولكنه لا يكفى
لمعرفة أحوال الدنيا ، ومهما كان فى قوله من مواضع الانتقاد فانه أصاب
منشأ الضرر وحث على وجوب ملافاته فقال « وأرى من الواجب مداواة
هذا الداء فقد بلغ السيل الزبى أيها السادة ولاقبل لنا على ترك الحال كما هى
إذ جاوزنا الحد الذى ينبغى لنا الوقوف عنده وأتت المدارس بما فوق طاقة
البشر وتخرج منها من المتنورين ما زاد على المطلوب زيادة لا تحتملها الأمة
ولا تطيقها الافراد » هذا كلام يخالف رأى الذين يزنون عظمة الأمم وقوتها
بقدر عدد المتنورين من رجالها ، قال الامبراطور « وقد أصاب البرنس
بسمارك فى قوله ان لنا من حائزى الشهادات صعاليك ، لان السواد الاعظم
ممن رشحهم الجوع وعلى الخصوص حضرات أرباب الجرائد من متخرجى
المدارس الذين لم يفلحوا » أما قوله « ممن رشحهم الجوع » فجاف وأما قوله
« لم ينجحوا » فصواب من بعض الوجوه قال . «وفى هذا من الخطر ما لا يخفى
لان هذا الافراط الذى بلغ حده قد جعل بلادنا شبيهة بأرض غصت
بالمياه فلم تعد تحتمل السقاية من جديد ، لذلك لن أسمح من الآن بزيادة
عدد المدارس العالية إلا اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة أما الآن
فعندنا منها عدد يكفينا) وهذا القول أيضاً يخالف رأى الذين يزنون

عظمة الأمم وقوتها بقدر عـدد مدارسنا ، ومما هو جدير بالنظر أن الذي يقيم هذه القيامة على المدارس ليس متبربراً ولا جهولا خرج من غابات جرمانيا ، بل هو ثمرة من ثمار أكبر تقدم وصلت اليه المدارس فى الدنيا وناشئ فى البلاد الالمانية التى اشتهرت بالاجتهاد والتمكن من العلوم والتعمق فيها

ردد الامبراطور الكلام فى آخر خطابه على مضار طريقة التعليم الحالية بأجسام التلامذة فقال « وماالذي نرجوه من رجل لا يرى الأشياء بعينيه فقد قلّ الابصار بين تلامذة المدارس حتى بلغ الاعشون منهم أربعاً وسبعين فى كل مائة ، ومع أن غرف التدريس فى مدرسة كاسيل مذ كنت فيها كانت نقية الهواء اجابة لرغبة والدتى ولم يزد عددنا على واحد وعشرين تلميذاً كان منا ثمانية عشر يلبسون العيون الصناعيه (نظارات) وقد تولاني الفزع من ذلك وأؤكد لكم أن كثيراً من العائلات قدّمت عرائض لا تحصى شاكية من تلك الحال وراجية توجيه أنظاري اليها ، ولما كان أمر ذلك راجعاً الىّ لانى أبو الوطن فمن الواجب علىّ أن أعلن للناس بان تلك الحالة لن تدوم أيها السادة لا ينبغى أن ينظر الناس الى الدنيا بعيون من الزجاج بل بأعينهم الطبيعية ، وأنا أعدكم بأنى سأوجه الافكار نحو ماذكر »

والذى يتلخص من ذلك كله أن المدارس لم تنجح في التعليم العملى كما حبطت مساعيها من الجهة العلمية

ثم أنها لم تأت بالمراد أيضاً من جهة ثالثه وهى الجهة السياسيه وهى أهم الجهات التى تلام على النقص فيها ، إذ لا يخفى أنه كان ينتظر من المدارس توجيه أفكار الشبان الى الخطه السياسية المطلوبة ، وهذا الامل هو الذي

مال بالاحزاب عموماً والحكومات خصوصاً الى رئاسة المدارس والقبض على زمام التعليم فيها لاعتقاد الكل يقيناً انها أنجح الوسائل فى الوصول الى الغرض المقصود فلا يختلف فى ذلك اثنان ، تلك هى العلة فى اشتداد الخصام بين الاحزاب على المدارس وطرق التعليم فيها وما يجب تعليمه حتى صارت فى البلدين فرنسا والمانيا من أهم الوسائل التى تستعمل للفوز فى الانتخابات ، وقد كثر اختلاف الاحزاب على قوانينها حتى سنت كل بلد قانوناً مخصوصاً تحرت فيه حكومتها تأييد النظام الذى يوافق مصلحتها فأصبحت فى يد الحكومة تقلبها كيف تشاء ولعب الامبراطور بالمدارس الالمانية كما لعبنا بالمدارس الفرنساوية من غير معارض ولا منازع

ومن المستغربات بعد هذا أن يقول الامبراطور نفسه اليوم ان المدارس لم تأت بما كان ينتظره منها سياسياً وهو أعلم من غيره بما يقول

ولقد بدأ رجال السياسة عندنا يقولون مثل ذلك القول لان عدداً غير قليل من الاغلبية وهو الاكثر فطنة وذكاء يجاهرون بانهم لم يستفيدوا من المدارس ما كانوا يرجون ويشيرون بالعدول عنها ويلاحظون بان عدد الذين نفروا منهم بسبب القوانين التى سنوها لها أكثر من الذين استمالوهم بواسطتها

ثم أفصح الامبراطور عن الذى كان يرجوه من المدارس سياسياً فقال « ولو أتت المدارس بالفائدة المقصوده منها لقاومت أحزاب الجمهورية، أقول هذا عن خبر وعلم لأنى كنت فى المدارس وعالم بما يجرى فيها » وقوله هذا يطابق قول الفئة القليلة فى مجلس النواب الفرنساوى بالتمام أيام كان الامر بيدها فى البلاد ويطابق أيضاً قول الاغلبية الحاضرة لانها كانت ترى وجوب

الاستظهار على الحزبين الملوكي والديني بواسطة المدارس وهذه المطابقة تدل
على ان الافكار واحدة فى الجهتين وصيغ القول متحدة والغرض واحد
هو اتخاذ المدارس سلماً للتسلط السياسى ، ولنرجع الى خطاب الامبراطور
لنتبين حقيقة مراده قال « كان من الواجب على المدارس أن تلتفت الى
المطلوب منها كما ينبغى فتنشر فى الأمة تعليما يجعل الشبان الذين من سنى
أى الذين قاربوا الثلاثين على صفات تسهل لهم أن يهيئوا من أنفسهم ما أنا
محتاج اليه من المعدات والوسائل فى خدمة الدولة فأتمكن من الاشراف
على حركة البلاد فى وقت قريب » والحق يقال ان الملك لم يسلك فى خطابه
سبيل الابهام بل قوله واضح صريح ، يريد أن تعدله المدارس عمالا
وأعوانا يتمكن بهم من الاستيلاء على زمام الحركة فى بلاده ، هذا هو رأيه
في التعليم ، وهذا هو الشأن الذى يريد أن يكون للمدارس ، وليس لنا أن
نبحث فيما اذا كان رأيه مقبولا عند المدرسين والعائلات في تلك البلاد ،
ثم أشار الي أن المدارس لم تقم بالواجب فقال « ولم تأت المدارس بما ذكر
وليس من زمن نجحت فيه مدارسنا في جميع أدوار حياتنا الوطنية وساعدت
على تقدمنا إلا سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ففى ذلك الحين كانت
المدارس البروسيانية والمكاتب مودع فكر الوحدة الالمانية ثم سرى هذا
الفكر منها فى جميع الناس وشخص الكل الى غرض واحد وهو إعادة
الامبراطورية الالمانية واسترداد بلاد الالزاس واللورين غير ان تلك الحركة
بطلت من سنة ١٨٧١ لما أعيدت الامبراطورية ونلنا ما كنا نرجوه فوقفنا
عنده وكان من اللازم علينا الآن أن نعلم الشبان طريق المحافظة على ما

كسبنا ، ولكننا لم نعمل شيئاً بل أخذت الافكار منذ حين تتحول عن هذا المبدأ ، أقول هذا لانى فى مركز يمكننى من النظر فيه وقد اشتغلت به وعلمت انه ناشىء عن التربية » ثم بحث الامبراطور عن السبب فى ذلك وقال انه ناشىء من طرق التعليم ومواده وشدد النكير كما تقدم ذكره على أحزاب اللغات وبالاخص اللغة اللاتينية فوجه قوارص الكلام الى المدارس الذين يقولون بأن وظيفة المدرسة انما هى تدريب العقول وأردف تعنيفه بقوله « وليس من الممكن أن يستمر العمل على هذا المنوال » ولو التفتنا الى ان الامبراطور أمير البروسيانى ساد على قومه بقوة الصلاح وان أمة البروسيا لم تتوصل الى ابتلاع المانيا كلها و تنظيم القوة العسكرية التى بيدها الامر فى (برلين) بواسطة ذلك التدريب العقلى وانه لا يكفيها وحده فى حفظ ما نالته حكمنا بأن الامبراطور مصيب فى قوله وسلمنا له اعتباره تدريب العقول آلة ضعيفة فى الحكم والسيادة وجاريناه فى أن المدارس لم تعطه ما كان يرجوه منها سياسياً كما خابت من الجهتين العلمية والعملية

وعلى هذا يكون الاخفاق فى المدارس حاصلا من جميع الوجوه ولا بد من اصلاح هذه الحال فالامبراطور مصمم على ذلك ومن الواجب ان تثنى جميع الارادات أمام اراذته لانه الملك

فاما رأيه فى اصلاح التعليم من الجهة العلمية فبسيط يرجع إلى ابطال اللغة اللاتينية من جميع المدارس إلا الخصوصية وهى التى لا يميل الى الاكثار منها لقوله « لن أسمح من الآن بزيادة عدد المدارس العالية الا اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة أما الآن فعندنا منها عدد يكفينا» والمدارسة

الخصوصية هى التى يتعلم فيها أبناء الطبقة العالية فى الامة أو المدرسون ، ورغبته فى إبطال اللغة اللاتينية صريحة لا تقبل التأويل كما دل عليه بقوله « تباً للدرس اللاتينى انه يضايقنا ويضيع علينا وقتنا ومن الواجب أن نبحث للتعليم عن أساس غير هذا الاساس الذى عاش عدة قرون لانه انما كان يفيد فى تعليم القسس والرهبان أيام القرون الوسطى مع قليل من اللغة اليونانية »

وليس من غرضنا أن نطيل القول فى اللغة اللاتينية وكونها لازمة فى المدارس أم لا وفى استحسان الطريقة المتبعة فى تعليمها أو تقبيحها وكونها لا تنتج فائدة كبرى وانهم أفرطوا فيها إلى حد يستغرق من الزمن ما يزيد على الحد الذى لا ينبغى ، ونكتفى هنا بان نلاحظ للقراء ان الاصلاح الذى يقصده الامبراطور سلبي مرجعه حذف شيء موجود فى المدارس الآن

وأما رأيه في الاصلاح من جهة العملية فعلى خلاف ما تقدم وهو الذى وجه اليه كل اهتمامه لانه يريد تربية الشبان على المبادىء التى تمكنهم من احتمال متاعب التزاحم فى الحياة وتساعد على انتشار الأمة الالمانية فى أنحاء المسكونه وتعينها على أن تسبق فى ذلك الأمم المنتشرة فى الدنيا وبالجملة فانه يريد تربية العقل على العمل واجتهاد حتى يكون المتخرج من المدارس عالماً بما يجرى فى الوجود ، وقد تقدم ان الامبراطور آسف لكونه لم يصل إلى معرفة ذلك إلا وهو راكب جواده

أما الطريقة التي يراها لازمة للوصول الى غايته فما لا يخطر على بال أحد ومثله فى رأيه مثل رجل يحاول تعليم الطفل المشى فيشد ساقيه شداً متيناً أو كالذى يريد أن يطلع تلميذه على مشاهد الكون كلها فيحبسه فى

مكان ضيق مسدود المنافذ بحيث لا تبصر عيناه من خارجه شيئاً ، فلا فرق بين هذين المعلمين فى تعليمهما وبين الامبراطور فيما يريده من النظام لمدارسه وهو من المستغربات ، لكن حتى أكون صادقاً فيما أقول أذكر للقراء نص عبارته فى هذا المطلب قال « يجب أن تكون اللغة الالمانية هى الاساس لجميع التعاليم الاخرى ومتى نجح التلامذة فى امتحانها التحريرى كان ذلك دليلا على ذكائهم ومقدار استعدادهم ، أما تعلم اللغة اللاتينية فانه يضيع علينا من الوقت ما نحن محتاجون اليه من اللغة الالمانية »

وليلاحظ ان الامبراطور لا يريد بهذا تعليم الالمانيين لغتهم الالمانية فقط بل هو يريد أن لا يتعلم الالمانيون شيئاً إلا ما كان ألمانياً حتى لا يدخل بينهم شىء أجنبى من أى نوع كان ، قال « ولقد يفرحنى ان لو استعملنا كلمة المانية للدلالة على مداولاتنا هذه بشأن المدارس بدل الكلمة الفرنساوية التى نستعملها الآن فلنقتصر على اللفظ الالمانى الذى يدل عليها » ولقد يحمل هذا العداء حتى فى الالفاظ على شدة وطنية الامبراطور

ثم انه أفصح عن غرضه من المدارس بقوله « انى أريد أن يعرف الالمانيون تاريخ بلدنا وخططها وقصصها معرفة حقيقية اذ يجب علينا أن نبتدىء بمعرفة الدار التى نسكنها » والدار التى يعنيها ليست البلاد الالمانية المعروفة منذ القدم بل هى الدار التى شادها ملوك البروسيا وضموا اليها طوعاً أو كرهاً جميع الامة الالمانية ، وعليه فالتاريخ الذى يشير اليه هو تاريخ الزمن الذى نهضت فيه الأمة البروسيانية فادخلت تحت سلطتها رويداً رويداً جميع البلاد الالمانية حتى يتيسر للشبان الذين يتلقونه أن يتربوا منذ

نعومة أظفارهم على محبة النظام الحالى والاعجاب به ، هـذا هو مراد الامبراطور كما صرح به فى قوله « لما كنت في المدرسة ما كان التلامذة يذكرون (المنتخب الكبير) إلا كالخيال ولم يكن لحرب السبع سنين ذكر في درس التاريخ كما أهمل حرب سنة ١٨١٣ إلى سنة ١٨١٥ مع أن معرفته لازمة لكل شاب المانى ، ولولا الدروس الخصوصية خارج المدرسة لما عرفت من ذلك شيئاً » إلى أن قال « مع أن فى تعليم ذلك أهمية عظمى ولا موجب للتضليل على شباننا بتوجيه الملام على حكومتنا والاعجاب بما عند الاجنبي

هذا غاية فى الصراحة فليحرزه السامعون يريد الامبراطور أن لا تشتغل أفكار أمته بأجنبي عنها فلا نعرف ما يجرى فى البلاد الاخرى وان تصير معجبة بالحوادث التى أوجدت وحدة المانيا إذ هى الامر المهم ، وبهذا التضييق على الافكار ينقطع التنديد بالحكومة وتتغير أفكار الشبان فى الزمن الحاضر إلى أحسن منها كما يشاء الامبراطور ، ولا شبهة فى أن أفكارهم تتغير إذا لم يتعلموا من التاريخ إلا ما اختص بشجاعة البروسيا لان فى ذلك ابعاداً لهم عن الاشتغال بالمانيا القديمة وماضيها الطويل ولكي لا تبق شبهة فى مراد الامبراطور من التربية العملية قال « أيها السادة انى فى حاجة إلى الجند فلابد لى من نسل قوى قادر على خدمة البلاد ولهذا ينبغى إدخال نظام المدارس الحربية فى المدارس العالية » ولعمرى أن هذه التربية لا تجعل الشبيبه الالمانيه قادرة على احتمال الحياة الحقيقية وكسب عيشها اليومى حيث لا موجب للقتال ولا محل للنزال بل الغرض الارتزاق

وما ذلك النظام هو الذى يربى الرجال ويهيئهم الى الاعمال المفيدة ويولد فيهم قوة الارادة التى تناسب حركة الترقى الشديد فى عصرنا هذا ، وكيف تكبر عزائمهم وهم لم يتعلموا غير النظام الالمانى حيث يسود النظام العسكرى فى المدارس ، انما الواجب تثقيف عقولهم وتوسيع نطاق تهذيبهم وتدربهم على جميع الاعمال النافعة التى تساعد الأمة على نشر سيادتها الاجتماعية لا العسكرية حتى تسبق غيرها من الأمم التى لم تبلغ شأوها فى التقدم، ولكنهم يريدون أن يضعوا فوق أعينها عيونا لا تمكنها من النظر فى أحوال الأمم الماضية ولا في حركة الامم الحاضرة الا ما كان المانيا ، فلا ترى من هذا المشهد العظيم المفيد الا تاريخ البروسيا وهو يسير ولا تعرف للفوز معنى الا ما كان بحد المرهفات وأفواه المدافع لا الذى يكتسب بالجد والمثابرة والهمة والارادة ، وكأنى بالامبراطور يريد أن يجعل جميع الأمة الالمانية فى حالة بعض فقراء الهند الذين يقضون حياتهم فى مشاهدة مادون بطونهم معتقدين أنهم ينالون بذلك تمام السعادة إذ هو يريد أن لا تعرف أمته غير طرف واحد من هذا العالم الشاسع وأن يحجب عنها كل شيء سوى ذلك

وانا نترك الفصل في امكان تحقق هذا الخيال الى الامة الالمانية نفسها غير أنا نستفيد منه لنعرف موضع النقص عندنا وما منا من يجهل اعجابنا بأنفسنا واعتقادنا بأن أمتنا أكبر الأمم وفى مقدمتها حضارة وتمدنا وان كل شيء لدينا أصله الثورة الفرنساوية ، ثم تنقل هذا الاعتقاد إلى أبنائنا غير شاعرين باستمرار الزمان فى تقدمه من دون اشتراكنا في حركته

ثبت اذن ان الاصلاح الذي يشير اليه الامبراطور عقيم الفائدة من

الجهة العلمية قليل النفع من الجهة العملية فلنبحث عن فائدته من الجهة السياسية علنا نراه يؤدى الى الغرض المقصود والالذهبت أمانى الامبراطور أدراج الرياح خصوصاً اذا لوحظ انه لا يقصد من سعيه كله فى الحقيقة ونفس الامر الى المنفعة السياسية أو مايتصوره كذلك بدليل قوله «ومن الواجب علينا الآن أن نعلم الشبان طريق المحافظة على ماأحرزناه ولكننا لم نعمل شيئاً من هذه الجهة بل أنا أشاهد منذ حين فى الأمة خصوصاً الى الميل عنه »

وعلى هذا يكون غرض الامبراطور من ذلك النظام هو التغلب على هذا الميل الذى يخشاه ولكن أمانيه لا يمكن تحققها إلا اذا كانت المدارس كما يريدها ، وهى ليست كذلك لان غاية ما يريد استحداثه هو الزيادة فيما جرت عليه أمته من قبله تحت رعاية أسلافه و بأمرهم ، وهم أيضاً كانوا يقصدون الغاية التى يرمى عليها وهى اكبار شأن الدولة البروسيانية واعلاء كلمتها وقد جرب ذلك بنفسه

لذلك ندد رجال المدارس فى برلين على خطابه وأجمعوا على اظهار أسفهم واستيائهم من اللوم الذى وجهه اليهم وقالوا « انهم كانوا يعتبرون على الدوام ان أقدس واجب عليهم هو غرس محبة الوحدة الالمانية فى قلوب تلامذتهم واعدادهم لحفظ النظام الاجتماعى الحاضر ومقاومة أهل الثورة ومن يسعى بالفساد» ومع كون هذه الطريقة لم تجد نفعاً باعتراف الامبراطور نفسه تراه يميل الى تعزيزها والزيادة فيها ، ولن ينال ما يرجوه منها بل من المحتمل القريب جداً انها تؤدى الى عكس ما يتمنى لأنها تزيد فى ضعف

أهلية الأواسط من الناس وفي عدم قدرتهم على تحصيل عيشهم من الصنائع الحرة ، فتضعف فيهم قوة التزاحم في الحياة والانتشار في الخارج ومباراة غيرهم من الأمم التي سبقتهم في معرفة مقتضى أحوال المجتمع الانساني ، ومعلوم ان المدارس التي يريد الامبراطور تنظيم طرق التعليم فيها هي التي يدخلها أبناء الأواسط في المانيا ، أما عدم أهلية تلك الطبقة من الناس في الأمة الالمانية فقد برهن عليه موسيو (بوانسار) في الجزء التاسع من مجلة (العلم الاجتماعي) صحيفة ٤٦٨ تحت عنوان (الالمانيون خارج بلادهم وطموح الحكومة الامبراطورية الى الاستعمار) وأبان أن أهل الطبقة المذكورة يفضلون الوظائف العسكرية والادارية والحرف الادبية على الصنائع الحرة المفيدة أي التي تستفيد منها الأمة والافراد كسباً كبيراً ، فاذا زيد أيضاً في ضعف تلك الطبقة من هذه الجهة زاد الضنك وعظم اشتداد الحال إذ ليس في قدرة الحكومة الالمانية أن تتكفل بمعيشة جميع الذين يخرجون من مدارسها بعد ان أبعدهم ذلك النظام عن وسائل الكسب الحقيقية فتضيق دونهم ثكنات العساكر ومصالح الحكومة مهما تشعبت فروعها ، ثم هم يرجعون طبعاً باللوم عليها وينسبون خيبتهم اليها ، تلك سنة الأمم لا يشذ عنها ولا ينفر من حكومتها الا الخائبون ، وحينئذ يزداد النفور ويشتد حرج النفوس الذي تظهر علاماته الآن للامبراطور

وفيما تقدم أكبر برهان على فساد نظام الحكومات التي يتولى الملك فيها النيابة عن الافراد في جميع الاعمال حتى التي هي من خصائصهم ، وأعظم عمل تختص به الأمة والافراد دون الحكومة هو التربية ، وما من

مرة تولته الحكومة الاساءت العاقبة من جميع الوجوه ، تلك حقيقة سيعلمها الامبراطور كما عرفها قوم سابقون

هذا وفي يقيني ان الامبراطور يستغرب كثيراً إذا قرأ ما تقدم من كلامي لما هو عليه أو ما علم عنه من اعتقاده بأن النظام الذي يريد ادخاله في المدارس هو الذي يفتح للأمة الالمانية باب التقدم الذي اتجهت نحوه الأمم في هذا العصر وأنه هو النظام الذي يليق بمستقبل الايام ولا يحسبني القارىء مبالغاً فيما أسنده اليه فهذا ختام خطابه قال « نحن في زمن انتقال الأمم من حالة إلى أخرى وفي استقبال فريد جديد ، وقد كان من خصوصيات القياصرة أسلافي على الدوام أن يسبقوا إلى معرفة تقلب الزمان ويتبصروا الحوادث المقبلة وينهضوا في مقدمة الكل رغبة في توجيه حركة الامة نحو الغرض الجديد ، واني قد عرفت مسير الافكار الجديدة وأدركت الغاية التي يرمي اليها هذا القرن المنصرم ، لذلك حولت عزيمتي كما فعلت أيام اشتغالي بالنظامات العمومية إلى تربية الشبيبة الالمانية على نظام جديد يفتح أمامها أبواباً لا بد لنا من الدخول منها لنصل الى التقدم المقصود لاننا إذا لم نفعل ذلك اليوم ألجأتنا الضرورات اليه بعد عشرين عاماً »

ومن المدهشات أن ينطق بهذا اللسان ملك عرفناه يقف بالتعليم في المدارس عند معرفة الوقائع الحربية التي انتصر أسلافه فيها ويقضي على التربية العلمية الحقيقية قضاءه المبرم ويجعل جميع الاجيال المستقبلة من أمة كبيرة غير قادرة على احتمال ذلك التزاحم في الحياة الذي طنطن بذكره وأطنب في الكلام عليه.

على أنه لا موجب للدهشة لان القائل رجل بروسيانى وبلاد البروسيا قسم صغير من المانيا وقد تكاد تكون كأمم المشرق فهى آخر أمة دخلت فى عداد الدول الاوروباوية العظمى كما فى اصطلاح السياسين ، وما صارت أمة كبيرة إلا بعد جمع الأمم الاخرى فهي أشبه برجل ولد متأخراً عن أقرانه بربع ساعة وليس في إمكانه أن يستعيض عن هذا التأخير ، فالبروسيا متأخرة عن غيرها من أمم الغرب بقرنين كاملين ولا يزال أهل نهر (سيرى) على بعض العوائد التى كانت مألوفة أيام الملك (فيليب) الثانى و (لويز) الرابع عشر كأنهم لم يشعروا بان الارض قد ضمت أجسام أولئك الملوك الفخام من زمن مديد فبادوا وبادت حكومتهم وانطوت سياستهم كما أنهم لا يزالون يعدون ما مضى مستقبلا يرجونه

وحيث أن البحث دائر على المستقبل والتزاحم فى الحياة ومساعدة الامة الالمانية على الانتشار فى الخارج والمنافسه مع الامم التى تستولى على الدنيا فمن المفيد أن نعرف الطريقة التى اتخذتها تلك الأمم فى تربيه أبنائها واعدادهم لهذا الحرب الجميل حتى تكون لها الارجحية فى جميع البلاد على غيرها وسيرى القراء أن السبيلين مختلفان

وبينما أنا أكتب هذه السطور إذ دخل علىّ أحد الاصدقاء زائراً وهو رجل له ولد يريد أن يربيه تربية تمكنه من التزاحم فى الحياة وكسب عيشه بنفسه فلا يود له أن يكون موظفاً فى إحدى مصالح الحكومة وهو نادر عندنا والخلاصة أنه يريد أن يربى ابنه تربية عملية ارادة صحيحه لا كما يريد الامبراطور ، وهى التربيه التى يستحسنها كل انسان ولا يعمل بها

إلا القليل ، وكان لهذه الغاية تحصل على نظامات عدد من المدارس الاجنبية فاعجبه واحد منها وهو الذى قدمه الي ، فلما تصفحته رأيت من الفائدة تلخيصه للقراء مستعيناً فى ذلك بما علمته بنفسى عن المدرسة المتعلق بها

المدرسة الانكليزية أنشأها صاحبها لتعليم الشبان طرق الارتزاق فى غير بلادهم والتمكن من اجراء تلك الاعمال الزراعية التى مهدت للامم الانكليزيةالسكسونية سبل الاستيلاء على العالم شيئاً فشيئاً وجعلتها تفضل من سواها ، وهى توافق غرض الامبراطور إلا أنها لا تنسج فى التعليم على منواله

وأما النظام المذكور فهو رسالة صغيرة يطالع القارىء فى أولها قولين حكيمين أحدهما عن (جون ستيوارت ميل) وهو « مما لا شبهة فيه الآن بالنظر إلى أحوال الأمم الحاضرة ان الاستعمار هو أنجح الوسائل فى استعمال الاموال المدخرة فى خزائن الأمم الغنية القديمة » والثانى عن (فوستر) وهو «تزداد حاجة الناس الى الهجرة كل يوم ولا فرق فى ذلك بين الغنى والفقير»

ويتبين منه ان الغرض من المدرسة تتميم ما نقص من التعليم فى المدارس الاخرى للشبان الذين يحتاجون إلى تربية خصوصية ، ولا يغيب عنا ان التربية فى المدارس الانكليزية على العموم هى تربية عملية كما ينبغى ، وان التزاحم فى الحياة الذى قرأناه فى خطاب الامبراطور هو الغاية من تلك التربية ، وان بين رؤساء المدرسة وجميع المستعمرات الانكليزية مراسلات يقفون بواسطتها على ما يحتاج اليه التلامذة فى المستقبل فلا يقدمون على أمر إلا وهم به عالمون ، وقد أفادت تلك التربية كثيراً من متخرجى المدرسة

فساعدتهم على تحصيل رزقهم في البلاد الاخرى ، ثم بين واضع الرسالة
موقع المدرسة والحقه برسم بنائها تتميا الفائدة ، وهى موجودة فى الريف
وكان ذكر ذلك من قبيل تحصيل الحاصل لولا أن جمعية الزراعة العامية
الفرنساوية تسكن فى وسط مدينة باريس الجميلة ، وبناؤها قائم على مرتفع
يحيط به البحر وأحد الانهار من جهة ويمتد من الجانب الآخر سهل
منزرع ، وهذان شرطان يعوّدان التلامذة على الهجرة والاستعمار وتحمل
اتعابهما أكثر من جمعهم فى المدارس بالمدن الالمانية ، وذلك السهل منقسم
إلى أجزاء تسهيلا لتجربة طرق الزراعة وغرس جميع المزروعات على اختلاف
أنواعها فهذا قسم العزبة ، ثم قسم الالبان ، فمكان تربية الطيور المنزلية ،
فالمعامل ، ومخازن المراكب وغيرها ، ولكى يحافظ التلامذة على دينهم بنى
لهم معبدان على مقربة من المدرسة

أما موضوع التعليم فيدل على ان المدرسة عملية محضة وانه لا اشتغال
لاصحابها بالسياسة بل هم منصرفون الى تسليح التلامذة بجميع المعارف العلمية
التى يحتاج اليها ، وان أعظم مكان فى المدرسة مخصص لتطبيق العلم على العمل
لا كما هو حاصل فى جمعيتنا العلمية الزراعية ، وان الغرض من تدريس
العلوم هو شرح ما يشتغل به التلامذة من الاعمال ولدى المدرسة عدد
من أهل الزراعة والصنائع لتعليم طرق الاستعمار ، وان أهم عمل هو
الزراعة ، لذلك يأتى التلامذة بأنفسهم جميع أعمالها وعندهم من آلاتها ما
كمل صنعه ، وباستعمالها تعرف قوة كل واحد منهم ، وهناك دوجة تبلغ
أربعين ألف متر مربع تزرع فيها الفواكه المختلفة الانواع والخضر باجناسها

ونشاهد فيها التجارب لانماء الزرع بقدر ما يصل اليه الامكان ، ولهم اعتناء خصوصى بتربية النحل لما فيه من الفوائد فى المستعمرات إذ يخرج منه العسل والشمع وهما سلعتان نادرتان فى تلك الجهات وقيمتها عالية ، وفى هذا السهل قسم تغرس فيه أنواع الاشجار ويتعلم التلامذة كيفية تغذيتها وطرق تربيتها وهو عمل لازم لمن يريد استيطان (كندا) أو (استراليا) ولهم عناية لا مزيد عليها بتربية الماشية لضرورتها فى أغلب المستعمرات لانه يبدأ عادة فى الاستعمار بتربية المواشى ، فعندهم سبعون حصاناً ومهراً من أحسن الانواع وكلها من الخيل المستعملة في المستعمرات ثم أنواع من الاثوار والغنم والخنزير والطيور ، ويتعلم التلامذة طبائعها وفائدة كل نوع منها ويقضون طول السنة فى اختبار أحوالها وتنويع استعمالها مع المكلفين بخدمتها وفى معمل اللبن خمسون بقرة من أجود نوع ، والعمل على أحسن طرز تشاهد فيه أنواع طريقة صنع اللبن وما يخرج منه بحسب البلاد الباردة والحارة وفى المدرسة مدرسون للطب البيطرى حتى لا يحتاج المستعمر فى غربته الى غيره لتمريض ماشيته ، ويتلو العلم تطبيقه على العمل ، ويقضون وقتاً كل يوم فى ركوب الخيل وان لم يكونوا فى حاجة مثل امبراطور المانيا إلى هذه الرياضة ليقفوا على مجري الاحوال فى الدنيا ، وانما هم يعلمون ان الخيل أحسن واسطة للمواصلة فى البلاد الجديدة وانها أحسن طريقة لتفقد الاملاك الواسعة ، كذلك لهم وقت لتعلم فن مساحة الاراضى وأخذ موازينها وطرق اصلاحها وريها وصرف المياه الفضلة عنها ، ولتمام استقلال كل واحد تراهم فوق ذلك يتعلمون بعض الصنائع العادية فاتخذت المدرسة معامل

عدة ، هذا للبناية وطرق الحديد وفيه تصنع آلات الزراعة كلها واصلاح مافسد منها وتطبيق الخيول ، وذاك معمل التجارة وصنع العربات واصلاحها وصناعة الخشب وإقامة المساكن والبيوت منه ، وذلك معمل البراذع والسروج ، والتلامذة يتعلمون كل ذلك كما يتعلمون العوم فى البحر والسباحة فى النهر والتجذيف والملاحة وصنع القناطر القائمة واتخاذ الروامص وغير ذلك ، وفى المدرسة أحد رجال خفر السواحل منوط بحفظ المراكب وتعليم التلامذة مايتعلق بها حتى انه يعلمهم كيف يجمعون بين طرفى الحبلين من دون أن يعقدوهما ، ولقد يلذ لى هذا البيان لانه يدل على شدة التفاتهم إلى مايحتاجه الانسان عملا واعتنائهم بتعليمه كل شىء وتعريفه بانه لاشىء غير مفيد

ويجب عليهم أن يعرفوا طرفاً من فن الطب على قدر ما يحتاج اليه فى المستشفيات النقالة المعروفة بشركة (صان جان) وجمعية مساعدة الغرقى وكيف يربط العضو المكسور والمرضوض ويرد المخلوع ويوقف النزيف وتضمد الجروح وتعالج الحروق وغير ذلك من العوارض الاعتيادية حتى يكونوا على علم بتعريض أنفسهم ومعالجة غيرهم

ولقد توسع صاحب المدرسة فى شرح ما بيناه من الاعمال الزراعية والعملية لكونها الشاغل المهم فيها ولان الغرض منها تربية رجال يعملون فى الخارج لاتعليم أناس يتربعون فى مقاعد المصالح ، لذلك جعل الكلام على القسم العلمي فى آخر الكراسة واختصر فيه لانه كما قدمنا عبارة عن شرح مايشتغل به التلامذة من الاعمال ، فلايطلبون العلم وحده إلا ساعتين اثنتين

فى اليوم (وليس فى هذا افراط كما ترى) يلتى فيهما ناظر المدرسة ومعلموها دروساً فى علم الزراعة وعلم طبقات الارض والمعادن والنباتات وفن الغابات والمساحة والعمارة والطب البيطرى وغير ذلك ، ثم يتلى عليهم من الكتب الواردة من حكومات المستعمرات ما تهم معرفته

ويجد المطالع فى آخر الكراسة خمساً وعشرين صورة تمثل مبانى المدرسة والطلبة يشتغلون فيها بالاعمال التى سردناها ، وانى لآسف على عدم تمكنى من نقلها فى هذا الكتاب لان صورة أولئك الطلبة وهم يعملون بتلك المدرسة تلقى فى النفس شعوراً بانهم من أمة ذات همة وإقدام ميالة إلى العمل الحقيقى قد تعودت احتمال المتاعب فلا تخشى العناء ، فهي تعمل بجد فى عمل جد لا يعتمد الانسان فيه إلا على نفسه بعد الله

ومما يزيد الفائدة من مشاهدة أولئك الشبان انهم ليسوا من الفقراء الذين قد لفظتهم الايام فالتجأوا إلى الهجرة بدافع الفقر ، ولكنهم كما جاء فى الرسالة نفسها أبناء عائلات غنية أو تقرب من الغنى أعنى من أواسط الناس الذين يريد امبراطور المانيا ادخال الاصلاح بينهم ، على إن أجرة التعليم في تلك المدرسة كافية فى اثبات ذلك لانها ألفان ومائتان وخمسون فرنك فى السنة إلى أن يبلغ الطالب سبع عشرة سنة ، وألفان وسبعمائة فرنك إلى عشرين سنة ، وثلاثة آلاف ومائة وخمسون فرنك إلى مازاد عن ذلك ، وقد كان فى قدرة ذلك الشبان أن يطلبوا الرزق فى بلدهم بلا تعب ولا عناء غير انهم لم يرضوا لانفسهم مثل هذا العيش بل فضلوا عليه ما يقتضى الكد واستعدوا الى مغالبة الصعاب فطرحوا بأنفسهم

فى المستعمرات ونزحوا الى البلد الاقصى

وللرسالة ملحق يدل على أن أولئك الشبان انما يعتمدون على أنفسهم دون سواها وهى خطب كبار القوم الذين حضروا حفلة توزيع الجوائز فى السنة الماضية بتلك المدرسة التى هى من مبتكرات الهمم الشخصية كما هو الشأن فى أغلب المنشئات الانكليزية ، وقد جعل أولئك الكبراء هذه المدرسة تحت حمايتهم وأكثرهم من الذين اشتغلوا بالاستعمار أو المشتغلين به إلى الآن، ويجد القارىء فى خطبهم تحذيراً للشبان من الصعوبات التى هم قادمون عليها وتنبيهاً لهم الى وجوب مغالبتها بقوتهم الذاتية ومن الغريب ان قولهم هذا لا يثنى من همم أولئك الطلبة بل انه يزيد فيهم روح الغيرة . ذلك لان تصور الصعوبة يثير عزيمة الاقوياء كما يثبط همة الضعفاء ومن كلام اللورد « كنونسفرد » اليهم ما يأتى « يجب عليكم ان تقسوا على أنفسكم فان أمامكم من المتاعب ما لا بد لكم من التغلب عليه وربما هلك زرعكم وماتت ماشيتكم فلا تنحل عزائمكم أمام المصيبة بل قوموا كما يقوم الشجاع وغالبوا تلك الحوادث واسعوا فى تعويض ما خسرتم » ، ذلك حقاً هو التزاحم فى الحياة ، وكأنى بهذا القول نشيد تترنم به الجموع يوم تقوم الأمة سائرة نحو افتتاح العالم لا كفتح البروسيا ، وقال السير « جراهام برى » وهو الوكيل العام فى مستعمرة فكتوريا « انكم تجدون فى جميع أنحاء المسكونة أرضاً يخفق عليها العلم البريطانى ، فلكم أن تسيروا من أقاليم كندا الباردة الى نواحى أفريقيا الحارة أو الى بلاد أوستراليا ، وحيثما وجدتم ترون العلم الذى يقاوم الحروب وعواصف الرياح منذ ألف عام ،

واليوم يومكم ، فافقهوا الخطة التي يجب عليكم اتباعها ، وتبينوا ما أردتم من الاعمال قبل الشروع فيها ، واتخذوا لكم في ذلك سبيلا معروفاً ولا ترددوا في أمركم بل كونوا شجعاناً ذوى إقدام وجد واحتمال ، على أنى لا أظن أن شاباً انكليزياً تقعد به الحاجة وأمامه مستعمرات كثيرة كلها مفتوحة الابواب اليه ومعول نجاحه فيها عليه ، لست الآن شاباً مثلكم فقد مضى أربعون عاماً من يوم أن سافرت وما كنت أملك من المزايا ما أنتم تملكون ، كنت غريباً قليل المال لا خبرة لى بالمسائل الفنية ولا صديق في البلاد التى قصدتها ، ومع ذلك قد وصلت الى رتبة الوزير الاول في تلك المستعمرة وترأست ثلاث مرات على سلطة التشريع فيها »

هذا واذا ذكر القارىء ان ذلك التعليم ليس قاصراً على شبان مدرسة واحدة بل هو عام في الأمة بتمامها ، والغرض منه الاستعداد لذلك التزاحم في الحياة ، وعلم أن الذى ينتشر في الخارج هو تلك الأمة بتمامها صاحبة تلك التربية القوية الفعالة ، تجلت أمامه الاحوال كما ينبغى ، وعلم لمن المستقبل ولمن الدنيا ، واختار لابنائه التربية الانكليزية السكسونية لا التربية الالمانية ان أراد أن يدرأ عنهم طوارىء الايام ، وكيف يتأتى أن يعيش الشاب الالمانى بجانب ذلك الرجل الجبار الذى تربى تلك التربية التى شرحناها وهو إنما تلقى في احدى المدارس الالمانية تعليما قاصراً على تمجيد الحكومة البروسيانية والجندية البروسيانية فلا يعرف من تخطيط الارض إلا البروسيا ، ولا من التاريخ إلا البروسيا أو تاريخ ملوكها ، ولا يعرف شيئاً من حالة الدنيا الخارجة لاحتجابه عنها ، ولا كيف تكون مزاولة الاعمال الحرة

ثم ألقى به فجأة بعد هذا فى إحدى الاقاصى كأنى بك أيها القارىء وقد عرفت أى الرجلين أعدا المستقبل الذى قضت به حالة الدنيا الجديدة على الأمم القديمة وأيهما يكون ذا الهمة فى الاعمال العظيمة التى لم تعد من خصائص الملوك بل من لوازم الأمم كما قال امبراطور المانيا

ها قد بينت لك نظامين أحدهما صادر من أقوى ملك ، وينتسب الثانى الى بعض الافراد ؛ ولعل الملك العظيم لم يفطن إلى أن أحسن طريق فى تشجيع الأمة وتحريضها على العمل الذاتى انما هو أن ينسحب الملك لان الهمة الشخصية تبتدىء حيث ينتهى تداخل الحكومات

الباب الثالث

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الانكليزية يربى رجالا ﴾

لو أردنا تلخيص المسئلة الاجتماعية فى صيغة صغيرة لقلنا ان مرجعها التربية إذ المراد بحل المسئلة الاجتماعية هو تعويد الشخص على حب الاحوال الجديدة فى العالم وكلها تطلب أن يصير المرء قادراً على الارتزاق بنفسه لان الوسائل القديمة التى اعتاد الناس على استعمالها صارت غير مفيدة ولا وافية بالمراد ولا شبهة فى أننا صائرون الى زمن يتم فيه التغيير الذى تبدوا لنا اشاراته سواء كان فيه سعادة لنا أو شقاء وليس الحرج الذي نشعر به آتياً إلا من التناقص بين وسائل تربيتنا المؤسسة على طريقة تقادم عهدها وبين ما تقتضيه ظروف الحياة الجديدة ، فانا لا نزال نربى رجالا لا يصلحون

إلا الجمعية قد اقتضى نحبها ، ومن الصعب ان نعدل عن تلك التربية ، ولست أدري ان كان القراء يشعرون بما أقول بالنظر لانفسهم ، غير انى شاعر به فى نفسي فأحس انى رجلان ، رجل ردس علم الاجتماع ورأى ما يجب فعله ، ورجل حبس فى دائرة تربيته الاولى ورزح تحت أثقال ماضية فهو غير قادر على العمل بمقتضى علم الاول وان أتى عملا فهو صعب وناقص ، كان رأسى دخلت فى نظام التربية الاستقلالية التى تقوّى الهمة الذاتية وظل جسمى محجوراً عليه فى نظام التربية الاتكالية التى تضغط عليه ، ومن هنا جاز علينا قول (فيرجل) الشهير « ان من الصعب ان يتحول الانسان عن تربيته الاولى » ذلك لان الأمم قسمان : فمنها من تربت على الاتكال وهو عبارة عن ميل أفرادها إلى الاعتماد على الهيئة أو الحزب من عائلة وعشيرة وقبيلة وحكومة وغيرها لا على أنفسهم ، وأكبر مثال لتلك الامم هو الشرق ، ومنها من تربت على النشأة الاستقلالية أى ان كل فرد منها يعتمد على نفسه لا على الجمعية ، وأعظم مثال فيها هى الامم الانكليزية السكسونية

إلا أن ما صار صعباً علينا وغير ممكن فى السن الذى وصلنا اليه ليس كذلك بالنظر إلى أبنائنا لانهم لا يزالون كالعود الاخضر يسهل تقويمه والتعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، واذ قد حكم علينا بالاقامة على شاطئ النهر وجب أن نمد اليهم يد المساعدة كى يعبروه ، ذلك هو أكبر الاعمال بالنظر للآباء فى هذه الاوقات فمن لم يفعله فقد أهمل أول واجب عليه ، ولا بد أن يعاقب على اهماله فى أبنائه ، أما أنا فقد عقدت النية على آدائه

بالنسبة لابنائى ، ولهـذا انتهزت فرصة وجودى المرة الاخـيرة ببلاد الانكليز واختبرت أحوال التربية هناك من جهتها العملية ، وهاأناأعرض نتيجة اختيارى على اخوانى آباء العائلات الفرنساويين لعلهـم يستفيدون منه كما أفادني

يجتهد الانكليز أكثر منا فى اصلاح تربية شبانهم على الدوام مع أن التربية الانكايزية توافق حالة الحياة الحاضرة أكثر من تربيتنا والنجاح فيها عندهم أكثر من النجاح عندنا ، لذلك ترى فيهم رجالا أكبر همة وأقدر فى الاعتماد على أنفسهم وهم متقدمون علينا فى التمشى مع تقلبات العصر الجديدة فيشعرون أكثرمنا بوجوب الاستعداد لما تقتضيه ، وهي تقتضى على الخصوص تربية شبان قادرين على الارتزاق بأنفسهم مهما صعبت متاعب الحياة وتنوعت ظروفها ، ومن أجل هذا كان منهم رجال ذوو عمل وعزيمة لا موظفون أوأديبون لايعرفون من الحياة إلا ما تعلموه فى الكتاب وهو فى الواقع شيء يسير ، أما الثمرة التى يطلبها الانكليز فانها توافق كل الموافقة ظروف التقلبات الاجتماعية فى عصرنا هذا ، وتلك الثمرة هى الرجال

دار الحـديث ذات يوم فى (ادمبرج) بينى وبين أحـد المعلمين فى مدرسة (دونديه) على التعليم فى انكلترا فقال لى «غداً سيخطب رجلالعلك تستفيد منه في مدرسة (صوميد ميتنج) وهو مؤسس مدرسة فى داخلية البلاد ومديرها واسمه الدكتور (سسل ريدى) وقد اندهشت فى اليوم الثانى لما تعارفنا ببعضنا ، فعهدى بنظار المدارس والمعلمين عندنا ان لهم زياً مخصوصاً : ينمقون لباسهم ويختارون الالوان الداكنة ، ويفضلون الرداء

الطويل حتى تلوح عليهم علائم الاحتفال والترفع كرجل مقتنع بانه ذو سلطة روحية يريد أن يظهرها ، يمشون ببطىء متهجمين ، ويكثرون فى حديثهم من القواعد والجمل التى تليق بتربية عقل الشبان ولبهم ، وقد بلغت منهم الأنفة منتهاها لكني وجدت الرجل الذى قبض على يدى بشدة على خلاف ذلك بالمرة ، فهو أشبه برجل يزاول الاعمال الشاقة طويل القامة نحيف الجسم قوي العضلات ، تركيب يوافق جميع الأعمال التى تقتضى سرعة الحركة واللين والاقدام ، بلباس يوافق تلك الصفات كانه سائح انجليزى ، فقد ارتدى ثوباً (سترة) صغيرة من الجوخ رمادى اللون فى وسطها حزام ، ثم سراويل قصيرة ، وشراباً طويلا ينثني تحت الركبة وحذاء متيناً ، وعلى رأسه قلنسوة صغيرة وقد وصفته لأن هيئته تمثل المدرسة التى سأشرح حالها للقراء ، فالرجل مثال العمل بالتمام

ولما كان اليوم الموعود وهو يوم السبت حيث الدروس معطلة ركبت مع الدكتور (ريدى) فى احدى العربات المخصصة لنزهة أعضاء تلك المدرسة ، وقضى مسافة الطريق ووقتاً كبيراً من النهار يشرح لى حالتها ونظامها ويجيبنى على ما كنت أسأل عنه ويسألني عما أريد ، ومما قاله لى (أن التعليم الحالى لم يعد موافقاً لظروف الحياة العصرية فانه يربى رجالا هم أليق بالماضى منهم بالزمن الحاضر ، واكثر شباننا يقتلون قسما كبيراً من وقتهم فى درس اللغات المندثرة ولن يستعملها النزر اليسير منهم فى حياته إلا قليلا ، وعلى العكس من ذلك يكادون أن يمروا كالخيال فى تعلم اللغات العصرية والعلوم الطبيعية ثم يمضون على جهل تام بجميع ما تجب معرفته

فى الحياة الحقيقة أريد استعمال الاشياء والوقوف على منفعتها فى الهيئة الاجتماعية ، كذلك تحتاج العابنا الى الاصلاح كما يجب اصلاح طرق الشغل فان الافراط فى العمل حاصل كالافراط فى الدرس ، غير ان الاصلاح صعب لخضوع مدارسنا الى تأثير المدارس الكلية التى تأخذ طلبتها من تلامذتنا ، وتلك المدارس الكلية غير متمكنة من نفسها شأن جميع المجتمعات القديمة ، كأن عاملا خفياً يحوم فوق رؤوس نظارها ومعلميها ولا أراه إلا تمسكهم بالتقاليد القديمة والعوائد السابقة وهى أشد قوة من القوة نفسها) ولما سألته وكيف حينئذ يتأتى لمدرستكم أن تغير هذا التعليم أجابنى (أن غرضنا هو الوصول الى تربية جميع الملكات الانسانية على نسبة واحدة إذ يجب أن يصير الطفل رجلا كاملا حتى يكون قادراً على الوصول الى الغرض المقصود من الحياة ، لذلك ينبغى أن لا تكون المدرسة وسطاً صناعياً لا يخالط فيه الطالب الحياة إلا بالكتاب ، بل ينبغى أن تكون وسطاً عملياً يقرب بين الطفل و بين طبيعة الاشياء وحقيقتها بقدر الامكان ، فلا يتعلم العلم وحده بل يصطحب العلم بالعمل إذ هما أمران يجب أن يكونا متلازمين فى المدرسة كتلازمهما فى الخارج حتى اذا خرج الشاب فى الحياة لا يخيل له أنه يدخل فى عالم جديد لم يتأهب اليه وحتى لا يصبح فى حيرة لا يدرى أين قبلة الاعمال ، ذلك لان الانسان ليس عقلا مجرداً عن المادة بل هو عقل يلازمه الجسم ، فيجب أن تعم التربية همته وارادته وقوته المادية ومهارته اليدوية وخفته فى حركاته) وكلما أوغل الدكتور ريدى فى حديثه ازددت الماماً بالغرض الذى قصده من مدرسته ، غير أنى لم أقف عليه تماما

لذلك طلبت منه أن يبين لى كيف يشتغل الطلبة فى يومهم ساعة فساعة ، ولما أحرزت جوابه ووعيت بيانه وضح لى المراد وأدركت حقيقة نظام تلك المدرسة وسأذكره فيما بعد ، ثم انتهى بنا المسير إلى كنيسة (دونفرملين) وخرجنا منها إلى منزل أحد الموسرين لتناول الشاى اسمه موسيو (هنرى بيفردج) وهو من قرآء مجلتنا (العلم الاجتماعى) ومن المواظبين على سماع درسنا منذ ثلاث سنين وقد رغب إليّ أن أقيم عنده الى موعد شروعى فى القاء خطبى يوم الاثنين صباحاً ، فسألته إذا كان يعرف شيئاً عن مدرسة الدكتور (ريدى) فأجابنى أنه زارها وأنه سيرسل ابنه الأول اليها بعد شهرين وعمره الآن ثلاث عشرة سنة وأنه لم يكتف بزيارتها بل كتب إلى كثيرين يسألهم رأيهم عن تعليم أبنائهم فيها فأجمعوا على استحسانها وفوائدها ، ثم قدم إلى رسائلهم واليك نصها

سيدى العزيز !

مكث ابنى سنة ونصفاً فى مدرسة (ابوتصولم) وكان عمره خمس عشرة سنة ، وقد ازداد عقله فيها أكثر مما ناله فى المدارس الاخرى وترعرع جسمه ، وزكت أخلاقه ، وسررت جداً من نتيجة تعلمه ، أما الدكتور (ريدى) فرجل قوى الاستقلال ، ولد مربياً ، وعندى ان طريقة التعليم فى تلك المدرسة ومبادئها جيدة ، وكان ابنى يحبها ويميل الى أعمالها وأظن أن جميع التلامذة مثله ، وهى كاملة من الجهة الادبية ، وفى اعتقادى أنكم لا تجدون أحسن منها لتربية نجلكم

وهذا كتاب آخر

سيدى العزيز

رداً لخطاب حضرتكم المتعلق بمدرسة (ابوتصولم) أعد نفسى سعيداً باجابتكم على مسألتكم

لنا فى (ابوتصولم) ولدان قد حسنت صحتهما جداً فيها ، وجاءنا منهما خطاب يخبرنا بأن الثلاثة الاشهر الاولى انقضت بهدو وأنهما ممتعان بالراحة والهناء ، وقد توفرت فيها شروط الصحة فى المعيشة ، ويتعلم التلامذة كفاية حاجاتهم بأنفسهم ، وأن يكونوا على استقلال تام ، وأرى أن التربية الأدبية فى تلك المدرسة رفيعة ، وأن التلامذة ينتخبون باعتناء وبين المعلمين والطلبة حرية تامة فى المعاملات ، واتفق أن أحدهم أقام عندنا فسحة العيد فاندهشنا من عدم التكليف بينه وبين أنجالنا ، ولهؤلاء شغف بأساتذتهم وقد تقدم نجلنا البكرى تقدماً سريعاً فى التعليم أما الثانى فتأخر إلا أنه ذو تيقظ أكبر من ذى قبل وصار الاثنان أكثر نشاطاً ، فنى المدرسة مجال فسيح لتربية الانانية الشخصية

وليس فيها تعليم دينى مخصوص فقط تتلى الصلوات فى الصباح والمساء وما خلا ذلك يذهب التلامذة إلى كنيسة الابرشية إذ نحن من مذهب الجماعة ويرتاح أولادنا بذهابهم إلى معبدهم ، وفى عزمنا أن نرسل نجلنا الثالث فى تلك المدرسة لكنه لا يزال صغيراً لان عمره ثمان سنين ونصف

وهذا خطاب آخر

سيدى العزيز

أجيب حضرتكم بكل ارتياح على سؤالكم على مدرسة (ابوتصولم)

لان ابنى فيها منذ سنة ، وحالته مرضية وهو يستفيد كثيراً، ولا بد أنكم عرفتم شأن المدرسة من نظامها،وهي لا تهتم بالتعليم المدرسى المشهور ، إلا أنها تعتنى باللغات العصرية و بكل ما يفيد الشبان فى حياتهم ، ولها اهتمام عظيم بالصحة و تربية الأخلاق ، وأطعمتها جيدة متنوعة تخالف الاطعمة التى تقدم عادة فى المدارس ، والمبادىء التى ذكرت فى النظام يعلمها بغاية الضبط والاحكام رجل امتاز بالعقل والاقدام ، ذو ميل خصوصى الى تربية الشبان ، أما عدد طلبتهم فخمسون ، ولذلك يعتنى بكل واحد منهم على حدته،ولم أمكث فيها سوى يومين ،غير انى أعجبت كثيراً بما شاهدته من المعيشة الراضية ، ولم أجد فيها نقصاً الى عدم تعليم التوراة المقدسة ولعلك لا ترى ذلك عيباً أما موقعها فصحي قد كملت فيه وسائل الراحة ومدرسوها على جانب من الظرف والعلم الوافر لان الدكتور «ريدى» يختارهم من ذوى الاخلاق الفاضلة والفضائل الكاملة لكي يبثوا حب الخير فى التلامذة وكثير منهم ماهرون فى فن الموسيقى اه

فلما قرأت هذه الرسائل وأخذت حظى من محادثة موسيو «بيرفردج» عولت على اختبار الامر بنفسى واليك ما وصلت اليه

افتتحت مدرسة الدكتور «ريدي» فى شهر اكتوبر سنة ١٨٨٩ بمدينة «ابو تصولم» من أقليم «دربيزير» وهى واقعة فى الخلاء وسط حقل زراعى هو من أعظم وسائل التربية فيها وليس حولها مدن كبيرة ومع كونها قريبة العهد فان أحد المتخرجين منها وهو موسيو «بادلى» أنشأ مدرسة على مثالها فى جنوب انكلترا باقليم «صوصكص» فى مدينة «بيدال» و بين

يدى الآن مقالة نشرت فى « مجلة المجلات » تحت عنوان « تجربتان » « أبو تصولم » و « بيدال » وصف فيها صاحبها هاتين المدرستين وأضاف الى الوصف صوراً تمثل ما احتوتا عليه وقد توجهت الى مدرسة بيدال مرتين وشاهدت بنفسى نظام التعليم وحركة الاعمال فيها

ليس من شبه بين هاتين المدرستين وبين مدارسنا الكبيرة الكثيرة المجردة عن الظاهر بل هما أشبه شيء ببيتين خلويين من بيوت الانكليز يشعر فيهما الانسان بالحياة الحقيقية لا الصناعية وعليهما سيماء البيوت العائلية لا مظاهر سكنات العسكرية أو ديار السجون يكتنفهما الهواء والضوء والخلاء والخضرة لا الرحاب الضيقة المحصورة بين المبانى العالية، وهذه الهيئة الخارجية تحدث فى الانسان شعوراً بان المقام هناك لذيذ إذ ليس من موجب يقتضى أن تكون المدرسة فى بناء خشن ثقيل ، فاذا دخل الانسان فى تلك الدار طابق شعوره الواقع فغرفة الاكل عائلية صرفة ذات منظر بهيج مقبول آنيتها لطيفة ومائداتها مفروشة بالقماش الابيض واثاثها نقى مزخرف وفيها آلة طرب « بيانو » وصور وتماثيل وكراسى مما يدل على الاعتناء بالجمع بين النافع والمقبول ، ومن يقابل بينها وبين عنابر الطعام القبيحة فى مدارسنا يتبين له من هذه المقارنة وحدها الفرق بين طريقة التعليم فى المدرستين

ومما يزيد هذا الشعور حسناً وقبولا اشتراك المعلمين وناظر المدرسة وزوجته وبناته مع الطلبة على المائدة كأنهم جميعاً عائلة واحدة وبهذه الواسطة لا يشعر الطفل أنه انتزع من الحياة الحقيقية لانه لم ينتقل الى عالم صناعى جديد بل خرج من منزل الى منزل مثله بلا تغيير ، وصحيح ما جاء

فى كراسة نظامها من أنها « منزل كامل لا مكان يقتصر فيه على التعليم »
وإذ قد عرفت الظرف فلنشرح المظروف وأرى أنه ينبغى الابتداء بذكر
ساعات العمل فى اليوم ثم نرجع بعد ذلك إلى التفصيل

دقيقة	ساعة	
١٥	٦	قيام من النوم «وفى الشتاء الساعة السابعة» وفطور خفيف
٣٠	٦	رياضة جسمية واستعمال السلاح
٤٥	٦	ألدرس الاول
٣٠	٧	صلاة
٤٥	٧	فطور وهو غذاء كامل من بيض ولحم وغيره يعقبه اصلاح أماكن النوم وكل تلميذ يعد سريره بنفسه
٣٠	٨	الدرس الثانى
٤٥	١٠	طعام خفيف فان كان الوقت صحواً اشتغل التلامذة بالرياضة الجسمانية فى الخلاء عارين عن الملابس بطناً وظهراً
١٥	١١	الدرس الثالث
٤٥	١٢	الحمام أو عوم فى النهر بحسب الفصول
	١	طعام الغذاء
٣٠	١	تمرين بآلات الطرب
٤٥	١	ألعاب وأشغال فى البستان والزراعه أو رياضة بالمشى على القدم أو الدراجة
	٤	اشتغال فى المصانع والمعامل

دقيقة	ساعة	
	٦	تناول الشاى
٣٠	٦	غناء ومذاكرة روايات مضحكة وموسيقى ورقص وغير ذلك
٣٠	٨	طعام العشاء ثم الصلاة
	٩	نوم

وأول شيء يلاحظه القاريء فى هذا البيان تنوع الاعمال فى ساعات النهار ، ويؤخذ منه أن ادارة المدرسة تخشى تكليف الطلبة فوق جهدهم ، ورغبتها فى تربية جميع الملكات على السواء ، لذلك يقترن التعليم العلمي بالتعليم اليدوى والتعليم الصناعى ، وينقسم بين الاعمال كما يأتى :

دقيقة	ساعة	
	٥	أشغال عقلية
٣٠	٤	تمرينات جسمية وأشغال يدوية
٣٠	٢	أشغال صناعية ورياضات عادية
	٩	نوم
	٣	أكل وخلو عن العمل

فالمجموع أربع وعشرون ساعة

وليس فى يوم الاحد عمل ما بل يقضيه الطلبة كما يشاؤون وبالجملة فان اليوم ينقسم الى ثلاثة أقسام : الصباح وعمله عقلى وبعد الظهر وعمله يدوى فى الغيط أو المصانع والمساء وعمله الفنون والموسيقى والرياضات العادية ولنبحث فى كيفية استعمال كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة لنقف على نتائجه

أما التعليم العقلى فمداره على القواعد الآتية (تقريب المسميات من أسمائها بحيث يتعود الفكر على الانتقال من المادة الى معقولها وتربية الطلبة على استعمال ماتعلموه والرغبة فى التعلم لفائدة أنفسهم من دون تحريض عليه بمكافأة أو امتياز) ومما اشتهر فى انجلترا وفى الولايات المتحدة بأمريكا ان طريقة التعليم التى يحث فيها التلميذ على العمل بالمكافأة والتمييز معيبة لانها تجعل الغيرة أساس التقدم بدل تأسيسه على محبة الواجب وهى طريقة تولد فى الانسان احدى الرذائل ، والواجب فى تربية الاطفال وجعلهم رجالا أن يعاملوا معاملة الرجال ، فيستفزهم المربى بمخاطبة وجدانهم على قدر الامكان وقد أخبرنى الدكتور (ريدى) أن هذه الطريقة لا تضعف من رغبة الاطفال فى العمل بل تقويها لانها ليست متعلقة بمكافأة أو امتياز بل راجعة إلى العمل نفسه إذ يجب أن لا يفهم الطفل أن المكافأة أو الامتياز هو الغرض النهائى من التربية وأن الحياء مقامرة أو ارضاء لشهوة التفاخر والاعجاب

وانى أخشى أن يندهش الفرنساويون من مطالعة ما تقدم لان طريقة التعليم عندنا مناقضة لتلك الطريقة على خط مستقيم ، غير أن الطريقة التى شرحناها مقول بها من كثير من معلمى الانكليز الذين وصلوا فى تربية الرجال الى درجة عالية ، والامريكانيون على هذا الرأى أيضاً كما أخبرنى به موسيو (بول بيرو) فى خطاب أرسله الىّ جاء فيه أن مدير مدرسة القديس (بول) فى مدينة (مينيزونا) كتب اليه ضمن رسالة ما يأتى (انا لانعطى جوائز لتلاميذنا ولا نطلب منهم أن يكتبوا مقالات أبد

نعم قد يتفق أنهم يبحثون جميعاً فى موضوع واحد غير انى عند ما ألقى عليهم
نتيجة عملهم أجعل كلامي بحيث لا يتبين واحد منهم من هو أحسنهم عملا
بل أقول له ان عملك هذه المرة أحسن من عملك فى يوم كذا أو أقل منه
لأنى أعتقد أنه لا يليق أن يرى الطفل نفسه أرقى من غيره بل ينبغى
أن يعرف انه يتقدم عما كان عليه هو منذ أسبوع) ولهم فى تعليم اللغات
العصرية اعتناء عظيم وطريقة تخالف ما جرى عليه غيرهم ، وليس من
المدهشات أن أقول انا نتعلم اللغات ولكننا لا نعرفها ، فمن البديهى أن طريقة
التعليم عندنا سيئة ويظهر لى ان طريقة موسيو (ريدى) اضمن للوصول
إلى الغرض المقصود ، فيبدأ فى التعليم باللغة الانكليزية مدى السنتين
الاوليتين أى من العاشرة الى الحادية عشرة ، ثم يختار الكلام السنتين
الثانيتين بالفرنساويه ، ثم تستعمل اللغة الالمانية سنتين ثالثتين ، ولا تقرأ
اللغة اللاتينية إلا بعد ذلك ، وكذلك اللغة اليونانية لمن أرادها من الطلبة
ومن الواضح أن هذا التعليم بتلك اللغات المختلطة لا ينتج الثمرة المقصودة
إلا اذا كانت الطريقة المستعملة عملية ترجع بالنظر الى اللغات الحية الى التكلم
أولا وحفظ النحو ثانية على قدر اللازم فى الاستعمال ؟ وهى طريقة جهلها
مدرسو اللغات غالباً مع انها طبيعية لان الطفل يبدأ بتقليد أبويه فى الكلام
من غير عناد ولا التفات ويتمكن من استعماله وهو شيء غير يسير ، فلى
أربعة أطفال سن أكبرهم تسع سنين ، وكلهم يتعلمون الالمانية على هذه
الطريقة بواسطة الكلام مع احدى المربيات ، وأراهم يتقدمون فيها تقدماً
سريعاً فانهم بعد أربعة أشهر صاروا يتكلمون بتلك اللغة في ألعابهم ، ومن

العجيب أنه صاروا يستعملونها في خصامهم وهم اليوم يتعلمون نحوها بواسطتها كما يقرأون النحو الفرنساوى باللغة الفرنساوية ، وقد اتيت بهذا المثال الحاضر بين يدى لابرهن على طريقة التعليم فى المدرسة الجديدة ان كان هنالك احتياج للدليل ، ولكى لا ينسي التلاميذ اللغة التى تعلموها فى اشتغالهم بغيرها وجب أن يتكلموها ساعات معدودة فى النهار ، كذلك هم يتعلمون علم الحساب فبعد أن يقرأوا القواعد يطبقونها على العمل كأن يكلفوا بصنع شىء يحتاج الى التنسيب بين أجزائه ، ومن ذلك اشتغالهم بالمساحة وتعطى اليهم مصاريف العزبة والبستان والمصنع والالعاب وأدوات الكتابة والمعمل الكيماوى والرسم والمأكل وحطب التدفئة ليحسبوها ويفصلوا كل شىء عن الآخر ، ومن الظاهر أن هذه الطريقة تجعل الدرس مقبولا إذ تتبين فائدته لكل طالب ، فيتعلمون من الارقام كيف يديرون حركة المنزل و يتولون إدارة المصنع أو المتجر . . وهكذا يصيرون رجالا عاملين متصفين بما تقتضيه معيشة الاجتماع

و يبنى تعليم العلوم الطبيعية على النظر الذاتى وهو سهل لان المدرسة قائمة فى الخلاء فلا يتعب الطلبة فى جميع العناصر من جماد و نبات وحيوان ويتعلمون كيف يعيش الحيوان كما يتعرفون عاداته ويفرقون بين أجزائه الخارجية قبل ان يعرفوا أعضاء الداخلية وهيكله الخفى . ويعرفون شكل النبات وتركيبه قبل معرفة أقسامه وانواعه ، واسماء النجوم ومظاهرها قبل قوانين حركاتها ، ويتوصلون الى ذلك كله بالرياضات التى قدمنا ذكرها وبهذه الواسطة يصير العلم طبيعياً عندهم فيقفون عليه كما ينبغي و يقبلون

عليه اقبالا ويدخل أذهانهم بسهولة ثم يرتسم فيها ارتساماً ، ويخرج الطالب من الدرس ميالا الى الاكثار من معلوماته حتى بعد خروجه من المدرسة لان فائدته ظاهرة لديه لا كالميل الذي يشعر به المتعلم على طريقتنا إذ يتولاه الملل غالباً

وتقرب طريقة تعليم التاريخ من الطريقة المتبعة عندنا فى تعليم العلم الاجتماعي ، فيجتهد المعلم فى بيان الفائدة منه بتقريب العلل من معلوماتها و بيان مداولات الوقائع لا فى تعبئة الذاكرة بالحوادث والتواريخ كما يجتهد فى بيان النسب بين طبيعة البلاد وسياستها وتقدم تجارتها ، ويبدأ بتعلم التاريخ الانجليزى ثم بمقتطفات من التاريخ العام ، فيتعلم الطلبة من تاريخ اليونان أصول الامم الحاضرة ، ومن تاريخ الرومان مثال حكومة عظمت فيها السلطة وكانت من أكبر المساعدات على انتشار الامة في الخارج ، ثم التعليم واحد لجميع الطلبة حتى يبلغوا الخامسة عشرة وبعد ذلك يختلف لكل واحد بحسب العمل الذى يتوخاه بعد اتمام درسه ، وهم يريدون أن يكونوا مدرسين أو من أرباب الحرف الادبية أو موظفين أو الزراع أو الصناع أو التجار أو المستعمرين وكل واحد يجتهد فى العلم الذى يوافق ارادته ، وفى ذلك من التسهيل واللين فى التعليم ما تعظم فائدته مما لا يضطر معه جميع المتعلمين الى قراءة درس واحد لا يفيدهم أجمعين ، وهنا يقال أن التعليم مقصود لمنفعة الطلبة لا أن الطلبة خاضعون للتعليم

وخلاصة القول يدور محور التعليم على الجمع بين العلم والعمل والغرض منه تحصيل المعارف النافعة فى الحياة

ولتلقى الدروس التى بيناها ثلاثة أوقات كلها فى الصباح وما بعد الظهر من النهار مخصص إلى الاعمال اليدوية والرياضات الجسمية ، هكذا يربى الجسم بعد العقل ، ولاشك فى أن الآباء من الفرنساويين يندهشون كثيراً من القسم الاخير لان تربية الجسم عندنا فى غاية الاهمال فقد رأيت أخيراً تلميذاً عمره تسع سنين من طلبة مدرسة « سانيسلاس » الخارجين يشتغل طول النهار فيها ثم يذهب الى البيت منكبا فى المساء على درسه الى الساعة التاسعة أو العاشرة ، وهو تكاليف مضر بالصحة وغير مفيد فى تحصيل العلم ، وسببه وهم البعض بأن التلميذ يحصل من العلوم على قدر الزمن الذى يشتغل فيه

ويقضى الطلبة من الساعة الاولى والدقيقة الخامسة والاربعين الى الساعة السادسة بعد الظهر مشتغلين فى البستان والزراعة والمصانع والرياضة بالمشى على القدم أو الدراجة ، والغرض من ذلك كما هو مذكور فى الكراسة « انما التربية الجسمية والاحاطة بالاشغال الصناعية وفائدتها وتشجيع العزيمة على المشروعات وتقدير العمل الذى تمت مباشرته ليكون كل واحد عارفاً ما يأتيه بنفسه أو ما يكلف بملاحظته من الاعمال ، ولما كان فتور العزيمة عن العمل اللازم فى الحياة ناشئاً فى الغالب من ضعف الجسم وجب أن يتريض التلاميذ فى كل يوم على الاعمال الجسمانية والاشغال اليدوية فانها تزيد فى تقوية الهمة وانعاش الجسم والتخفيف من تأثره مما هو لازم للافراط فى الدرس وعدم الحركة »

وقد لاحظوا فى ذلك اختيار الاعمال ذات الفائدة العلمية حتى يكون

الطالب غير بعيد عن شواغل الحياة الحقيقية فكاد ان يكون الطلبة هم الذين بنوا مدرستهم ونظموها وهم الذين صنعوا القسم الاكبر من الاشياء التي يتمتعون بها فيها كما فعل « روبانسون » في جزيرته

كان البستان أيام افتتاح المدرسة مملوءاً من الحشائش الرديئة ، والعزبة مفعمة بالانقاض ، فأصلح الطلبة كل شيء ، ثم احدثوا الطرق ، ونظموا المصارف ، وطلوا الحواجز بالقطران ، ودهنوا الاخشاب والمحلات بالالوان واتخذوا ميداناً فسيحاً للالعاب ، وصنعوا كثيراً من أثاث البيت بما تعلموه في المصانع من أنواع النجارة ، واتفق أن رجلا من رجال العزبة مرض ثلاثة أيام فقام الطلبة بأعماله وملاحظة الماشية ، ومال بعضهم الى اقتناء جواد فاشتروه من السوق وعلمهم المتقدمون عنهم ركوبه وقيادته

ويزداد العمل مدة الصيف في البستان والعزبة كما تتغير الالعاب ، ولا يلهي التلامذة بأخذ صور الاشياء بواسطة الآلة « الفوتوغرافية » أو بالرياضة على الدراجة إلا في أوقات الفراغ ، وقد شاهدت من صنعهم مائدة ودولاباً وآلة للنزول في جوف الماء وبيتاً للبط وآخر للحمام ومظلة كبيرة من الخشب « عنبر » ومركبين تامتين وثالثة غير تامة وغير ذلك

وبينما أنا أكتب هذه السطور وردعلى كتاب من موسيو « بيفردج » يخبرني بأنه ذهب بابنه الى المدرسة ويحكى ما رآه فيها فاقتطفت من كتابه ما يأتي » لما وصلت إلى المدرسة وجدت عدداً من الاطفال مشتغلين بطلاء آلة لعب صنعوها بأنفسهم في السنة الماضية ، وقد شرعت المدرسة في اقامة قنطرة على النهر المجاور لها وعرضه من ثلاثين متراً الى أربعين قوائمها من

البناء حتى تصير متينة وسيقوم التلامذة بجميع تلك الاعمال وشاهدت واديا صغيراً مغروساً بالاشجار يمتد من أرض المزارع الى مبانى المدرسة الموجودة على مرتفع عظيم يعلو عن النهر بمائة قدم تقريباً ، وفى وسط ذلك الوادى غدير صغير من الماء قد اتخذ التلامذة فيه حياضاً صغيرة جمعوا بينها بطرق ضيقة وقاموا بجميع ما استوجبته من الاعمال ولم يستعينوا ببناء إلا فى حالة الضرورة المطلقة ، وعولت المدرسة على توسيع بنائها حتى يسع مائة تلميذ وهو اكبر عدد يرى الدكتور « ريدى » امكان قبوله ليتمكن من ارادته كما ينبغى ، وقد شرع التلامذة تمهيداً لذلك فى مقاس الارض وتخطيط البناء ، ويوجد على مقربة من المدرسة معمل كيماوي ومصنع للنجارة يشتغل فيهما الطلبة تحت إدارة موسيو « هيرنومان » الذى رأيتموه فى « ادنبورج » بأعمال متنوعة لأنفسهم وللمدرسة ،ومن نيتهم فى الثلاثة أشهر القابلة أن يعلموا التلامذة صناعة الخشب على طريقة «لويد» التى شاهدتموها مدة وجودكم هنا ، وليس فى داخل المكان شىء من الزخارف التافهة غير أساس الغرف قد استجمع موجبات الراحة كلها ثم انى شاهدت على وجوه الطلبة وهم يتناولون طعام الضحي علائم الهناء والعيشة الراضية فاجتمعوا حول ست موائد صغيرة يرأس كل واحدة منها أحد المعلمين وأنشدوا دعاء الطعام بهمة واشتياق ورأيت بينهم وبين معلميهم حرية تامة واطمئناناً كاملا ومن عادة هؤلاء أن يمشوا مع الطلبة وقت التريض ويعاملوهم كأنهم أخوة أكبر سناً لا باعتبار أنفسهم قوماً ممتازين وهم يتحرون على الدوام استعمال الالفاظ المألوفة عندهم وقد ينطقون أحياناً

بما يألفه الطلبة عادة من كلمات العامة ولا فرق بينهم وبينهم الارداء يلبسونه علامة على انهم من العلماء ، وللدكتور « ريدى » شغف بتعويد التلامذة على الاشغال الخارجية لذلك ينتدبهم فى مهمات جسيمة كأن يرسلهم الى البيوت المالية ليأتواله بالنقود منها وغير ذلك وظاهر أن غرض موسيو « ريدى » من هذه الاعمال الجارية والاشغال اليدوية ليس قاصراً على تعليم الطلبة ، مالا يكتسبونه بالدرس والمطالعة بل يتناول تربية أجسامهم وتقويم صحتهم واعدادهم الى التغلب على متاعب الحياة ، وله اعتناء فى الوقوف بنفسه على ما يحصلونه من ذلك كله فمن كلامه ما يأتى « لقد أردنا ان نقف على تقدم الاطفال وترعرع أجسامهم حتى نعرف جودة غذائهم وموافقة أحوال معيشتهم لصحتهم ، لذلك تقارن بين تقدم جسم كل واحد منهم مدة وجوده فى المدرسة ومدة وجوده فى المسامحة ولو انا رأينا تقدمه فى المدة الثانية أعظم منه فى الاولى لتبينا أن حالة المعيشة عندنا سيئة ، نعم أن الموازين التى نزنهم بها لا تدل على مقدار ما اكتسبوه من الخفة وسهولة الحركة غير أنه يهمنا أن لا يكون كسبهم من هذه الجهة مضعفاً لاجسامهم وقد دلتنا تجاربنا على أن النتيجة حسنة » ويلى هذا بيانان احدهما فى الوزن والثانى فى الطول يعلم منهما القارىء ما كسبه التلميذ فى المدتين ويرى أن مدة المدرسة راجحة على زمن الاجازة ولا غرابة فى هذا فان نوع المعيشة فى المدرسة من أحسن ما يطلب لتربية الاجسام قال موسيو « ريدى » « وتدل هذه الارقام من أول الامر على أن مدرستنا تعتبر من جهة تغذيتها وملبسها وحالة معيشتها معمل يتخرج منه رجال أشداء أقوياء ، فالامراض

عندنا قليلة حتى دوار الرأس والزكام إذ من طريقتنا تعليم الشبان ان الرجل ينبغي أن يكون فى صحة تامة وان الامراض انما تنشأ عن الخطأ والجهل والافراط فى الشغل وعدم ترتيبه أو من الفساد . ولذلك نجتهد كثيراً فى تعويدهم على حب النظافة والتمسك بالعوائد الصحية » ولكل طالب أناء ماء بجانب سريره ، وقد ذكرت هذه الجزئية لاقابل بين تلك المدرسة وبين مدارسنا حيث لا يستعمل الماء إلا بالتقتير والتدقيق الكلى كأنه من جملة الزخارف ، كذلك نحن نقتصد فى الهواء كما نقتصد فى الماء ، أما فى « أبو تصولم » و « بيدال » فان الطلبة ينامون في غرفة فتحت منافذها حتى فى الشتاء

إلى هنا بينا كيف يقضى التلامذة وقتهم من الصباح إلى الساعة السادسة بعد الظهر وهو وقت تناول الشاى وبقى ثلاث ساعات حتى يأتى موعد النوم وهذا عملهم فيها

قال « بونالد » فى تعريف الانسان «الانسان عقل تخدمه الاعضاء» وقد علمت كيف انهم فى تلك المدرسة استخدموا الصباح لتربية القسم الاول وما بعد الظهر لتربية الثانى ، إلا أن الرجل يزيد على هذا التعريف بكونه مدنياً بالطبع لا محيص له عن الاجتماع ، فينبغي أن تكون تربيته موافقة له ، والاجتماع يطلب من المرء أن يكون مهذب الاخلاق حتى يكون أنيس العشرة مقبول المسامرة بين أمثاله وقد خصصت تلك المدرسة الساعات الثلاثة الباقية لهذه التربية قال موسيو « ريدى » « من غرضنا أن نعود الشبان على ماينفى عنهم الخجل وسوء الحركة ويدعوهم إلى الارتياح

من الاجتماع بأكبر منهم سناً ، لذلك يجتمعون كل مساء فى غرفة واحدة مع سيدات المدرسة والزائرين ، وقد نظمت تلك الغرفة على مثال منتسق تستريح له النفوس وانتخب اثاثها والصور والتماثيل التى فيها لهذا الغرض » فاذا أقبلت الساعة السادسة تحولت المدرسة إلى بهو يتسامر فيه الحاضرون ويلعبون بآلات الطرب وأهمها الموسيقى ويترنمون بالاناشيد ويمثلون المضحكات ويقيمون المراقص والملاهى ، جاء فى الكراسة « ان الموسيقى من أهم اشتغالاتنا فلنا فى كل أسبوع ليلة موسيقية وفى كل ليلة ألعاب على «البيانو ولذلك تأثير عظيم في التلامذة ولهم أيضاً كثير من آلات الطرب الاخرى وآلات الرسم والتصوير » وقد بنى التلامذة ملهى لتشخيص الروايات لانهم لا ينظرون إلى هذه الألعاب كأنها رياضات بسيطة بل يعدونها من أعظم وسائل التربية ، ولهم ليلة فى كل أسبوع يقرؤن فيها مؤلفات « شكسبير » ، وقد تألفت جمعيتان منهم للمناقشة في المسائل المختلف عليها ، ولهم جريدة تسمى « مجلة المدرسة » ينشرون فيها أخبارها وحوادثها مصحوبة بصور وفيها قسم للادبيات ، ويقول صاحب الكراسة ان الغرض منها تربية الملكات الادبية والفنية وتمثيل المدرسة فى أذهان التلامذة كأنها عالم تام صغير ، ومما يزيد فى نمو الملكات الفنية دار للتحف شرع فى تأسيسها وقد وجد فيها نسخ من صور أكابر المصورين وتماثيل وأثاثات جميلة وغير ذلك ، ثم ينتهي اليوم بالصلاة كما بدأ إلا أن المدرسة ليست تابعة لمذهب مخصوص من مذاهب «البروتستانت» فهم فيها غير مقيدين بطريقة دون أخرى ولا هم لهم بما يسمونه « الاعتراف» ويقتصرون فى صلاتهم فى المعبد

وقبل الطعام على تلاوة بعض آيات التوراة ونشيد بعض الالحان والاستغاثة ببعض التضرعات الادبية الدينية العمومية

وللتلامذة من يوم الاحد فسحة يعبد كل واحد منهم فى الكنائس القريبة من المدرسة على حسب قواعد مذهبه الخاص ويذهب الكاثوليك منهم لسماع القداس فى كنيسة قريبة .

واليك ما جاء فى الكراسة مختصاً بالدين « الدين شأن خطير فى الحياة فوجب أن تكون ممزوجة به ، غير أنا لا نعلمه التلامذة كأنه جزء منها بل باعتباره كلاً منتظماً ينتشر فى الذات كلها وان اختلفت المذاهب وتشعبت الطرق ، فيجتمعون ربع ساعة فى الصباح ، ومثل ذلك فى المساء ليشتغلوا بالدين ويتوجهوا إلى ربهم باشارات ظاهرة »

تلك هى المدرسة وذلك هو نظامها ، وهى تجربة أراها مفيدة للغاية لانها تدل على ميل الافكار إلى اختيار طريقة فى التعليم توافق مقتضيات الهيئة الاجتماعية فى الاعصر الحاضرة وهى تخالف كل المخالفة جميع الطرق المألوفة فى غيرها لما هى عليه من التعليم العملى وافراغ جهدها فى تربية الرجل من جميع الجهات والوصول بملكاته إلى الممكن من التقدم وإنماء قدرته وعزيمته وهمته إلى الحد المستطاع ، وفى هذا ميل إلى التربية الاستقلالية التى تنتشر الآن في جميع أنحاء المسكونة

يجب فى العالم الجديد تربية جديدة يشب المرء فيها معتمداً على نفسه لا على الجمعية أو حزب من الاحزاب فينظر في عمله الى المستقبل ليكون هو قبلة حياته التى تشخص اليها ويهمل الماضى فلا يربط أعماله بما كان يقتضيه

وبينما كنت ذات يوم أحادث صديقاً لى بهذه المدرسة قال لى « انها لتجربة مفيدة غير اني أرى فيها عيباً هو ان نظامها داخلى » والداخلية كما هى عندنا فى البلاد الفرنساوية نظام مضر فى الحقيقة بالتلامذة جسما وعقلا لانها تجعل المدرسة ثكنة تحشد المئات من الاطفال فى أماكن ضيقة وفى نظام اشتدت مقتضياته وذلك أدعى الى اضعاف الهمم وأولى بتربية العساكر والموظفين منه بتربية عزيمة الافراد واطلاق الصراح لما فيهم من القوى وما فطروا عليه من الاقتدار ، لكن من الخطأ الواضح عدم التمييز بين هذه الحال وبين التى شرحناها فلا جامعة بينهما إلا في الاسم ، ومن الواجب من التحرز من الالفاظ لانها تطلق غالباً على مسميات لاشبه بينها فعدد الطلبة فى تلك المدرسة محدود لا يزيد اليوم على الخمسين ولن يزيد فى المستقبل على المائة كما صرح به الدكتور « ريدى » لعلمه ان الزيادة عن ذلك تعيق سير التربية ، ثم انهم لا يخرجون من عائلاتهم إلا ليدخلوا فى عائلة أخرى وهى عائلة ناظر مدرستهم التى تقاسمهم الحياة فى المأكل والمقام ، فحياتهم فى الواقع حياة عائلية على مثال أوسع ، ثم انقطاعهم عن عائلاتهم أقل منه عندنا لان اجازاتهم أكثر من اجازاتنا ومدتها أطول : يسامحون سبع أسابيع فى الصيف وأربعة فى الميلاد وثلاثة فى الربيع وبذلك يقيم التلامذة بين عائلاتهم ثلاثة أشهر ونصفاً فى السنة على مرات متعددة ويظلون ذاكرين عوائدها وتقاليدها

لكل نوع من أنواع الجمعيات تأثير خاص فى طريقة التربية وهو الذى تنتزع منه الأمة نظام مدارسها

فنها الجمعيات الاتكالية العائلية وتمتاز بانضمام عدد من تلك العائلات الى بعضها فى منزل واحد ، وهو المثال الذى تأخرت فيه أغلب الامم الاسيوية وأمم الشرق الاوروباوى ، هناك لا يعتمد الاطفال على أنفسهم فى كسب حياتهم بل اعتمادهم على جمعيتهم العائلية حيث يبقون فيها لتقوم بحاجاتهم أو يرجعون اليها ان أدركتهم الخيبة فى طريقهم ، ومن كان هذا شأنه ضعف شعوره بالحاجة الى التعليم الشخصى فيهبط ذلك التعليم الى أسفل الدرجات وربما اقتصر فيه على معارف العائلة مستعينة بنصائح أحد رجال الدين ، ومن المعروف ان شأن المدارس فى تلك الجمعية غير خطير ففيها مثال التربية المحصورة فى العائلة والموكول أمرها الى العائلة

ومن الجمعيات الاتكالية الحكومية ، ومميزها قيام الحكومة مقام العائلة التى انعدمت فتنحصر آمال الشبيبة فى وظائفها الادارية ، والعسكرية وهذا شأن أغلب الامم الغربية الاوروباوية وأخصها فرنسا والمانيا ، وينبغى للطلبة فى نوال تلك الوظائف أن يفوزوا فى امتحان تزداد صعوباته كل يوم تخلصاً من تكاثر الطالبين ، وإذ ذاك تحول المدارس وجهتها الى طريقة جديدة فى التعليم فتكلف الطلبة ما لا طاقة لهم على احتماله وتطلب من الذاكرة حفظ المعقولات من غير نفقة ، فما الغرض من التعليم ، تربية رجال قادرين على احتمال متاعب الحياة بل المراد إعداد الطلبة للمحاضرة في الامتحان ، وأعظم المدارس نجاحاً فى ذلك هى التى اختارت نظام الداخلية لانها تضحى كل فائدة إلا ما قصد به الامتحان كأنما حياة المرء تنتهى بالامتحان فيجتهدون في توصيله اليه بتكليفه ما لا قدرة له عليه ، ومن

فائدتهم أنه يوجد فى المدرسة الواحدة خمسمائة تلميذ أو ألف أو أكثر من ذلك لان المعلمين لا يعتنون بكل واحد على انفراده كي يصير رجلا كاملا يقوم مقام رب عائلة ، وعليه ليس للاختلاط فائدة وليس أحسن المعلمين فى تلك الاحوال أكثرهم علما أو أكملهم وقاراً أو أبعدهم نظراً بل أحذقهم فى حشو رؤوس التلامذة بكثير من المواد فى أقرب وقت ممكن وأكثرهم خبرة بطرق النجاح فى الامتحان وأدوارهم بطرق المتحن وأخلاقهم

والنوع الثالث هو الجمعيات الاستقلالية ومثالها الامم الاسكنديناوية والانجليز السكسونية ، وتختلف مدارس هذا النوع عن مدارس النوعين السابقين ، هنالك لا يعتمد المرء على العائلة لانحلالها ولا على الحكومة لقلة وظائفها وعدم انحصارها فى يد واحدة بل كل اعتماده على نفسه وهمته وإقدامه

ومن هنا وجب أن يكون الغرض من التعليم تربية تلك الملكات كلها حتى يكون مفيداً للرجال فى أعمالهم وأن تكون المدرسة قريبة الشبه في نظامها من الحياة الخارجية على قدر الامكان ، وهى لا تصل الى تلك الدرجة إلا اذا كانت صغيرة وعدد تلاميذها غير كبير وأولى في المدينة أن ينام الطلبة فى بيوتهم ليلا وفى الريف أن يقيموا فى المدارس على الدوام ، وينبغى فى هذه الحالة الاخيرة ان تكون حالة المعيشة فيها شبيهة بمعيشة العائلة كى لا ينفصل الطفل عن عاداته في بيت أبيه

ومن هنا يتبين انه لا يكفى تقسيم المدارس بحسب كونها داخلية أو خارجية بل تلاحظ أنواع كل من القسمين فلكل نوع نظام مخصوص

ومعيشة ممتازة ونتائج على حدتها

ويؤخذ مما قدمناه ان السبب فى عدم إمكاننا اصلاح مدارسنا على النحو الذى شرحناه هو حالتنا الاجتماعية أى أخلاقنا التى تدفع الشبان نحو الامتحان والوظائف التى تؤدى اليها ، وقد يظن البعض أن نظام تلك المدرسة لا يفيدنا إلا من قبيل العلم به وهو خطأ لانا نعلم انه لما كان عدد التلامذة قليلا كان أمل النجاح فى الامتحان مع الاجتهاد كبيراً ، ولكن الاحوال تبدلت وتزاحم الشبان على الوظائف وجرت الطبقات الوضعية من الأمة على مثال الطبقات الوسطى حتى صار لكل وظيفة مائة طالب فلا يجد الطالب بعد الامتحان باباً يدخل منه على الوظائف بل سوراً منيعاً بعيد المنال وليس من الحكمة حمل الشباب على مناطحة هذا السور ، لذلك أخذ المتأملون يخففون من احتقارهم للمهن الحرة غير انها يجب لها صفات لا تنتجها تربيتنا الحالية كما هى من ثمرات تلك المدرسة التى بينا نظامها

الفصل الرابع

﴿ كيف ينبغي أن نربي أولادنا ﴾

اعتدنا معشر الفرنساويين فى ايجاد مرتزق لابنائنا على اعمارهم بشىء من المال نجمعه بالاقتصاد ثم نتبع ذلك بالبحث لهم عن زوج أو زوجة متناسب فى الثروة ، وبعد ذلك نجتهد فى إنالتهم إحدى الوظائف العمومية

متى تيسر ، وقد قامت العقبات هذه الايام فى سبيل النجاح بهذه الواسطة لانخفاض فائدة النقود فبعد ان كانت خمسة فى المائة صارت أربعة ثم ثلاثة وصار من المتعذر جمع المال اللازم للابناء ، وقد كانت هذه الصعوبة خافية عنا الى هذا اليوم لوفرة المال عندنا فانك تسمع الناس من كل جانب يقولون ان فرنسا بلدة غنية لديها كثير من الاموال وهو صحيح بدليل ان أكبر سوق للنقود يوجد فيها غير انه لسوء الحظ ليست وفرة المال من عمل الأمة خاصة بل سببه أحوال عرضية لا تدوم طويلا وتلك الاحوال فى الحقيقة من أمارات الانحطاط لا من علامات التقدم والرخاء

فمن تلك الاسباب الاقتصاد فى النسل إذ لا شبهة فى أن عدد الفرنساويين يقل سنة عن سنة فقد دل التعداد الاخير على ان الوفيات تزيد على المواليد وهى حالة نادرة إلا أنها اليوم خاصة بفرنسا حتى جعلتها فى مؤخر الأمم ومن هنا أى من قلة عدد الذرية يكثر المال لان الرجل الذى يصرف ستة آلاف فرنك فى السنة لتربية ستة من الاولاد لا يصرف إلا ألفاً فى تربية ولد واحد ويقتصد خمسة آلاف في كل السنة ، وللفرنساويين ميل شديد الى هذا الاقتصاد لذلك تراهم أكثر مالا من الأمم التى يكثر فيها عدد أفراد العائلات ، وهذا من الاسباب التى جعلت فى فرنسا أكبر سوق للنقود

ثبت اذاً أن لقلة الاولاد دخلا فى وفرة المال ، وهناك سبب آخر هو تباعد الفرنساويين عن المهن الجارية وهربهم من الزراعة والصناعه والتجارة فلا يميل اليها الا القليل والكثير يفضل عليها الوظائف الادارية

لهذا اجتمع الاطفال كلهم حول مدارس الحكومة حيث يضيع مستقبلهم في جوانبها ، فكل من كسب درهما أو درهمين من الزراعه أو الصناعة أو التجارة يمسى ويصبح مفكراً فى الخروج من مهنته وفى تربية ابنه ليكون ضابطاً فى الجيش أو موظفاً في الحكومة أو من الكتاب وأهل الأدب وعليه فالفرنساوى لا يدير ما جمع من المال بنفسه بل يدخره حتى يرمى به فى أسواق البيع والشراء المالية «البورصة» وهكذا كان هرب الفرنساويين من الحرف والصنائع موجباً لزيادة المال المخزون ، إلا أن هذه الاسباب التى تدعو الآن الى وفرة المال تؤدى أخيراً الى النقص فيه سنة بعد الاخرى وتنتهى بضياعه فى زمن يتخيلون أنه بعيد ، فكما أن نقص الاطفال يزيد فى الاموال فانه من جهة أخرى يضعف القدرة على الاعمال فان كان للرجل ستة أولاد لزمه أن يشتغل كثيراً وكثرة شغله تزيد فى ثروة الامة ، فان لم يكن له إلا ولد واحد قل عمله وضعف تأثيره فى انماء الثروة العمومية ، وكذلك اذا خرج الطفل من عائلة كبيرة العدد قل أمله فى ثروة أبويه وعول فى رزقه على نفسه فيزداد إقدامه على العمل وتكبر فيه الهمة بخلاف ما لو خرج من عائلة هو وحيدها فانه يجعل كل اعتماده عليها ولا يعول على نفسه إلا قليلا ، وزاد على هذا أن نفورنا من الصنائع ذات المكاسب وأن سهل لنا أن نلقى بجميع ما اقتصدنا من المال فى الاسواق المالية يبعدنا عن منابع ذلك الاقتصاد إذ لا مصدر للثروة العمومية إلا الزراعة والصناعة والتجارة وقد نسينا أن غيرها من المهن والحرف دخيل ليس بالاصيل وأن مرجعها كلها إلى تلك المنابع الثلاثة

وربما قال بعضهم أن تلك الحالة تدوم لنا بدوامنا فنجيب بأن ذلك غير مأمون وعلى كل حال فمن المحقق أنها لا تدوم لاطفالنا ، ألا ترى أن كثيراً من أولئك الشبان التعساء لا ينجحون اليوم فى الامتحان لكثرة عدد الطالبين مع ازدياد عدد الوظائف الى حد الافراط فهم أشبه بالظمآن يرى السراب فيظنه ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ، وليت شعرى ماذا يفعلون بعد ذلك كما لست أدرى ما الذى فى امكانهم أن يفعلوه

وما الذي أهلتهم اليه تربيتهم فى العائلات والمكاتب والمدارس غير الحرف الادبية والمصالح العمومية والوظائف الحربية ، كم قالوا لهم أنها أشرف الصنائع وانه لا يليق بهم سواها لا فرق فى ذلك بين عائلات الطبقة الوسطى وعائلات الدرجة السفلى حتى صار كل الناس يذكرون ذلك في القصور والحوانيت والمدن والارياف وأصبح كل شاب يحلم بالوظائف فى الحكومة وأمسى على باب بعض الوظائف آلاف من الطالبين كما تشهد به التقارير الرسمية وظل أولئك التعساء يتقلبون على جمر الانتظار وقد غصت بهم رحاب المصالح وملأوا جيوبهم من رسائل التوجيه وجعلوا يندبون حالهم وينتحبون ولا يحجمون عن أمر إلا استعملوه الالهم الارجوعهم الى أنفسهم وطلبهم الرزق بعلمهم مما ربما كان أوفر حالا وأعظم ثمرة ومما هو بلا شك أدعى الى الاستقلال وأولى بحفظ الكرامة ، وماعدولهم عن ذلك الا من خوف الخيبة لذلك فضلوا التردد على الوظائف مهما صغرت وأن ردوا ، وطال عليهم أمل الانتظار وظنوها حالة يحسدون عليها فطالب الاستخدام يلتحق بالمستخدمين فى رأى هذه البلاد التى سادت فيها

الوظائف وأسفاه وان ذابت مرارته من الانتظار على مقاعد الحجاب وصغر المطلوب وعز النوال ، كذلك هم يعدلون لكونهم لا يقدرون على تلك الصنائع المستقلة لان تربيتنا الفرنساوية كما بلغت الممكن من تخريج الموظفين قد وصلت الى العدم فى تربية الرجال المستقلين ممن لهم همة وقدرة على مغالبة متاعب الحياة ؛ فلا يليق شبابنا لغير تلك الوظائف التى يكونون فيها تابعين ويفرحون لكونهم يتناولون بلا عناء فى آخر كل شهر راتبا معدوداً ويعرف كل واحد منهم مصيره قبل دخوله فى الوظيفة وانه اذا بلغ من العمر كذا صار وكيلا لرئيس واذا بلغ كذا صار رئيساً لأحد الاقلام ثم اذا بلغ كذا تقاعد وأخذ المعاش ، ولا يجهل من تلك الأزمان الا زمن الموت ، وظاهر انه لا يمكن حصر دائرة الحياة فى حدود أشد ضيقاً من هذه الحالة

ويستخلص مما تقدم انه ينبغى لنا التنويع فى تربية أبنائنا اذا أردنا أن يكونوا قادرين على حياتهم فى الازمان التى استهلت مستعدين لمقاومة سوء الحال الاجتماعى الذى قد فتحت أبوابه

الحرج الاجتماعى اليوم عام ولابد معه من وضع مسئلة التربية موضع النظر والتفكير ، والحقيقة التى يجب أن نتخذها قاعدة للبحث فيها هى ان طريقة التربية المستعملة الآن لم تعد صالحة فى الغرض المقصود منها وانه لابد من العدول عنها لانه لا نجاح فيها ، ألا ترى ان الرجل يأتى كل شىء يعتقده مفيداً لابنائه ولا يهمل شيئاً مما أفاده هو ومع ذلك لا يصل ابنه الى ما وصل اليه حتى أصبح الآباء المجدون ذو الافكار ممن حسنت تربيتهم واستقامت عشرتهم يتساءلون وهم حيارى كيف يربون أبناءهم

ويجعلون لهم مرتزقاً ، هذا خذلان لا نتخلص منه ومهواة لا نتحرز منها إلا بالعلم الاجتماعى ، نقول ذلك لان الخذلان موجود فالناس تحمر وجوههم من هذه الحال ثم يغضبون ثم يرون الجو مظلماً ويقولون ان روحاً خبيثة انتشرت فى العالم وان الناس جبنوا فتركوا المبادىء الصحيحة ثم يشتد الغضب فيصخبون ولكنهم يبقون على ما كانوا عليه معتقدين انه هو الذى يجب الرجوع اليه فيخيبون خيبة كاملة

أما العلم الاجتماعى فهو أكبر اعتدالا وأصدق مقالا يختبر الحوادث ويقارنها ببعضها ويميز أشكالها ويعلم الناس ان العالم منتقل من حال الى حال أحسن منه غير موقف بل دائمى ، وهذا الانتقال يفصل الدهر الى قسمين ماض ومستقبل وهو الذي يريهم أسباب الحرج الحاضر ووجهته وغايته وانه حرج لا يشابه غيره من بعض الوجوه

فمن تلك الاسباب تغير طرق الكسب والمواصلات على الدوام أعنى تغير طرق المعيشة لان العامل كان فى الماضى يعمل فى مصنع صغير أو فى بيته أو بيت المصنوع له وكان المقبلون على سلعه قليلين لا يخرجون عن أهل قريته وكان صنعه فى الغالب يدوياً أو بآلات صغيرة وكان طرق العمل واحدة يتلقاها الخلف عن السلف وكان الجديد فى الصنع معدوماً أو نادراً ولم يكن من مسابقة الا بين المتجاورين لان طرق المواصلات كانت قاصرة لا تساعد على تسفير المصنوعات الى البلاد القاصية وجلب غيرها منها وكانت المنافسة ضعيفة لما ألفوه فى ذلك الزمن من وضع النظامات التى لا تجعل للتزاحم محلا حيث تقررت طرق العمل وتحدد عدد

المعلمين والمتعلمين وغير ذلك ، وبالجملة كانت الافكار متجهة الى المحافظه على طرق المعيشة المألوفة ، ومن أجل هذا كانت التربية موافقة لمقتضيات الزمان تعلم الشبان ما تعلمه آباؤهم وتهيئهم الى ما عرفه الماضى من الاعمال وبقيت كذلك تنتج النتائج الحسنة زمناً طويلا ، أما الآن فقد تغيرت الازمان وتبدلت أحوال الاجتماع الانسانى وصار العامل يشتغل فى مصانع كبيرة بآلات ضخمة ويبيع سلعه فى طرفي المسكونة وكل يوم يزداد عدد الطلاب وطرق العمل تتغير فى كل حين تبعاً لتقدم العلوم ، وقام الجديد مقام التقليد والاتباع واشتدت المزاحمة ووجب على الصناع تفادياً من شرها أن يبحثوا دائماً عن طرق تمكنهم من اكثار سلعهم أو تحسينها أو تخفيض أثمانها ، وتحولت المعيشة من هدو واستقرار الى حركة وتجديد واختراع ، ومن أهم ما تجب ملاحظته انه ليس فى وسعنا اختيار احدى الحالتين لان الحالة الجديدة صارت ضربة لا مفر منها

ومعلوم ان تغير طرق المعيشة يستلزم تغيير حالة العالم بأجمعه ، ومن هنا تولدت المسئلة المعروفة الآن بالمسئلة الاجتماعية وهى عبارة عن البحث فى وسائل الحياة

والسبب فى ظهور هذه الحالة الجديدة ظهور العلوم الطبيعية التى لم يقف العلماء عند منتهاها بل هى لا تزال فى مباديها كما يراه ويشهد به كل انسان ، فمن ذلك الحين انحدر المجتمع الانسانى فى طريق تبدل أحواله المادية انحداراً لا يقاوم وانحلت الجامعة بين الحاضر والماضى لما اعتاد هذا من البقاء على حالته الاولى ولما اضطر اليه ذاك من ايجاد الوسائل التى تمكنه

من استخدام تلك التقلبات في فائدته ورفع مضارها عنه والفرق بين الزمنين كالفرق بين الجندى الذي يحارب من داخل الحصن والجندى الذي يحارب فى البيداء وهو فرق جسيم كلى ، وليس بصحيح انه نتيجة ميل الناس الى الشر فى هذه الازمان وجبن طباعهم كما هو رأى من لم يتدبر الحوادث ويتفقه الاحوال بل هذه حالة مادية جديدة فى العالم قضت بها القدرة الالهية بما هدت اليه من العلوم الطبيعية التى من خصائصها التقدم والترقى ، وما على المرء إلا أن يكون بحال تطابق هذا التقدم فان فى ذلك مصلحته بل ان هذا صار من واجبه

قلنا ان العلم الاجتماعي يوضح أسباب الانحطاط كما انه يبين الغاية التى يسوق الناس اليها وهى واضحة

يسوق الانحطاط الناس الى حالة جديدة غير التى هم فيها ، فلن يتأتى لامرء أن يعيش محصوراً فى دائرة محدودة ولا أن يعتمد فى معيشته على غيره ممن تعود الآن على مساعدتهم ولا على الاسترسال مع العوائد التى ألفها بين قومه لان الوسط الذى يعيش فيه مائل أيضاً الى التمزق والانحلال بتأثير ذلك التغيير المستمر فى حاجاته المادية كما أشرنا اليه ، والرجل اذا تربى فى وسط مخصوص حتى صار يعتمد عليه فى جميع أموره لا يستطيع البقاء اذا فسد ذلك الوسط بل انه يتغير بتغيره ومن هنا وجب أن يكون الغرض من التربية تعويد الانسان على الاعتماد على نفسه فى حياته فلا يحتاج فى طلب الرزق لغيره وأن يكون قادراً على أن يدور مع الزمان كيف يدور ، وهى الآن لا تنتج إلا التمسك بالوسط الذي نشأ فيه

والاستعانة بعائلته وطلب المساعدة من معاشريه والاتكال على بعض الصنائع العرضية كالمتوظف فى مصالح الحكومة أو الاحتراف بالاعمال الهينة التى لا تكلفه جداً ولا كداً

وبالجملة لا فائدة اليوم من التربية اذا اقتصرت على تعليم المرء أن يعيش فى وسط مخصوص كالعائلة أو أهل المدنية أو السياسة ، وانما هى تفيد اذا علمته ان تكون ذاته الوسط الذى يتكل عليه فيتمكن من استعمال قواه فى جميع الاحوال كما خلقه الله

وهذه التربية مخالفة لما جرت عليه الأمة الفرنساوية من أول هذا القرن الى يومنا هذا ، فترى الآباء اذا تكلموا عن أبنائهم يكررون هذه الكلمات « ما عليهم إلا أن يعملوا عملنا — كفى بالمرء أهله وأصحابه أن يتقدم ويترقى فى الحياة — يلزم لاولادنا أن ينالوا وظيفة فى الحكومة كأن يعينوا فى المحاكم أو الجيش أو الادارة لان الرزق هناك معروف مأمون فلا نخشى عليهم من المحن فيها — لنا من الثروة ما يدرأ الحيرة عن أبنائنا فسنترك لهم كفايتهم متى عينوا فى وظيفة بمرتب مضمون وتزوجوا بمن يأتيهم بمهر جزيل » ومثل ذلك من الافكار التى نعرفها كلنا وربما وردت على ألسنتنا

غير انها لم يعد لها فى الخارج معنى صحيح ولن تكفى العائلة ولا تنفع الاصحاب والوظائف والمهر عامة الناس لانفسهم ولاولادهم ، وليس للانسان إلا ما سعى وأن يكون قادراً بنفسه على كفاية نفسه مستعداً بذاته على اقتحام مصاعب العيش ومغالبة صروف الحياة ، وهنا الصعوبة كل الصعوبة لان الناس لم يتعودوا ذلك ويجهلون أى طريق فيه يسلكون ، على ان الفائدة

عظيمة فلا ينبغي اغفالها اذالتربية الجديدة التي يستصعبها الناس تربي الرجل على فضيلة الاعتماد على نفسه وتخلق فيه من الشجاعة ما يساعده على مقاومة تقلبات الاعصر الحاضرة ، والفرق بيننا من حيث اعتمادنا على أهلنا وأصدقائنا وبين الأمم التي تربت افرادها على القيام بشؤون أنفسهم بجدهم وعملهم كالفرق بيننا من حيث قوة التغلب وقابلية الاستظهار وبين تلك القبائل المتوحشة التي تدخل في ديننا تبعاً لدخول رؤسائهم فيه

تلك هي أسباب الانحطاط في التربية وغيرها ، وهذه وجهته وغايته ولا بد لنا من تخطى هذه العقبة طائعين أو مكرهين ، ولا بد من العمل على نقيض ما نحن فيه الآن

في التجارب هاد يرشد الى الطريقة المثلى لنوال الغرض الذي ندعو اليه ، فيها أمان من التخبط والزلل ، ومعلوم انه لا تجارب عندنا لان كل شئ في بلدنا يجرى على نقيض المطلوب ، وجب اذن أن نستعير تجارب غيرنا من الامم التي اجتازت هذه العقبة ، وصارت تربى شبانا قادرين على العمل بأنفسهم من دون احتياج الى أهليهم أو أصدقائهم أو حكومتهم ، وتلك الأمم موجودة لا ينكرها إلا الذين ليس لهم أعين يبصرون بها وهي التي أصبحت تغير على الدنيا وتستخرج مجهولاتها وتستعمرها وتقصى عناصرها الدنيا القديمة في تقدمها وتأتي هذه المعجزات كلها بقوة الهمة الشخصية وسلطان رجال لا يعتمدون في عملهم إلا على أنفسهم ، ولنا في المقابلة بين مافعله رجل التربية الجديدة في أمريكا الشمالية ومافعله رجل التربية القديمة التي لا تزال تربيتنا من سوء حظنا في أمريكا الجنوبية ما يكفي للاقناع بصحة قولنا

الفرق عظيم كما بين الابيض والاسود فأهل الشمال قد بلغوا فى الزراعة منتهاها وحازوا من الصناعة والتجارة أقصى المراتب ، وفى الجنوب أمة أقعدها الخمول واستولى عليها الارتخاء وفترت عزائمها داخل المدن وفى مصالح الحكومة وفى الاشتغال بالثورة السياسية ، فى الشمال ترى المستقبل مشرقاً وفى الجنوب ترى الماضى مولياً ، نعم قد تولى ذلك الماضي وأصبح رجال الشمال الأشداء الاقوياء يهبطون إلى أمريكا الجنوبية التى ساء بختها وجعلوا يضعون أيديهم على أعظم مواقع الزراعة التى أماتها الكسل الاندلسي أو البرتغالي فأصبحوا قابضين على السكك الحديدية والبيوتات المالية ومعامل الصناعة الكبرى ومحال التجارة العظمى

كنت أتحادث في هذا أيام المعرض العمومى فى باريس مع رئيس قسم جمهورية « ارجنتين » فخبرنى بغارة الانكليز وأخيه « اليانكى » وكان محزوناً يتأسف ويشدد النكير على غيره شأن الضعيف على الدوام لان القول أسهل من حمل النفس على الجد حتى تساوى الاقوياء ، على ان أولئك الذين ينافسونهم لم يتعودوا على غير هذا الاجتهاد والدأب المستمر فهم أمم لا يخاف فتيانهم عيشة التزاحم والتنافس ، وما حفظت تلك الأمم قوتها الادبية والدينية إلا بتمسكها بأنابيبها واعتمادها على نفسها ، نعم ليس الدين متيناً فيهم كما هو فى الكنيسة مثلاً غير أنهم أقل عداء للدين بكثير منا معشر الفرنساويين ، والسر فى ذلك شعور كل فرد منهم بأن تبعة عمله راجعة اليه دون سواه

وليس هذا بغريب لان المرء في الجمعيات القديمة كان يعتمد على وسطه

ويتبعه قوة وضعفاً وسعة وضيقاً اكثر مما كان يعتمد على نفسه وهمته وارادته الخاصة ، وذلك الوسط اما ان يكون العائلة أو الداخلية فى المدارس او الفرقة العسكرية (ألاى) أو المصلحة التى هو موظف فيها أو السياسة وهكذا ، وكانت اللحم التى تربط بها حياته فى الافكار والمعتقدات والتقاليد السياسية والعوائد الاجتماعية والدينية خارجة على ذاته لا مستمدة منها ، فهو يفكر أو يعمل على هذا النحو أو على ذلك لانه رأى الوسط الذى عاش فيه يفكر هكذا ويعمل هكذا ، ومتى انفرط عقد نظام هذا الوسط ذهب كل فرد على أم رأسه لا يدرى أين يضع قدميه لانه انما كان يقوم بذلك الوسط ، ولقد كان الوسط فى الهيئة القديمة قوياً متيناً مقوماً لجميع الافراد وان ضعفت منهم العزائم وانحلت الارادة ، وكان بين الوسط وأفراده تفاعل هذا يقوي ذاك فكان المجموع متمكناً فى وجوده كالبيت العتيق لا يزال قائماً لارتكازه على المنازل التى تجاوره ، غير أنه لا يلبث ان يلبى داعى السقوط إذا هدمت تلك المنازل ، وعليه ينبغى الحذر منها

هـذا هو الذى كان من أمر وسطنا الاجتماعى القديم فانك ترى اليوم بقاياه بعد ان تهدم منثورة فى جميع الارجاء ، وما كنا مستعدين لنخرج منه ونستعيض بغيره عنه ، لذلك ضل رشدنا و بقينا نطلب المعونة من الملاجىء التى تعودنا الحياة تحت حمايتها كالعائلة والطائفة والحكومة الجمهورية فى نظر قوم أو الملوكية المقيدة فى نظر آخرين ومن الكنيسة ومن كل شيء إلا من أنفسنا وقد ملأنا الفضاء بالعويل بدل ان ننظر الى

الامم التى لا تعتمد على غير همة الافراد الذاتية فتقلدها وتحذو حذوها كما يفعل الرجال

واذا أردت الوقوف على معاملة تلك الامم لابنائها فاليك البيان :

أولا لا يعتبر الرجل فيها ان الابناء ملك له وجزء من ماله متمم لذاته كأن الاب يعيش فى بنيه بعد وفاته بل ينظرون اليهم بصفتهم أفراداً مصيرهم الى الاستقلال عنهم ، ولذلك لا همّ للآباء الا تعجيل هذا الاطلاق المحتم على النحو الاكمل ولا مرجع لابوتهم إلا هذا ، فلا يحملهم حبهم لانفسهم على ابتلاع ابنائهم وإلصاقهم بجانبهم وتعويدهم ما اعتادوا واتخاذهم حاشية يتلذذون بالنظر اليها ويرتاحون لطاعتها وقلة متاعبها ، اما نحن ففى ميلنا لابنائنا جزء عظيم من حب الذات وان كانوا مستوراً بستر جميل فانى رأيت وكلنا رأى كثيراً من الناس رغبوا عن الزواج بعد ما رغبوا فيه لان الزوجين لا بد أن يقيما فى مدينة غير التى يسكنها الوالدان وما ظنك بما لو وجب ان يقيما فى بلاد أجنبية ، والسبب فى هذا شدة حب الوالدين ولعمرى لست أدرى ان كان يراد بهذا الحب منفعة الآباء أو مصلحة الابناء

ثانياً من عادة أولئك القوم أن يعاملوا أبناءهم منذ نعومة الاظفار كأنهم رجال كل واحد منهم قائم بذاته مستقل عمل سواه ، وبهذه الواسطة يصير كل واحد منهم رجلا كبيراً وذاتاً حقيقية إذ لكل امرىء من دهره ما تعودا أما نحن فنعامل ابناءنا كالاطفال وهم صغار وهم كبار وبعد ان يصيروا رجالا لاننا تعودنا ان نعتبرهم اطفالا لعلة انهم اطفالنا

ثالثاً يلاحظ الآباء فى التربية حاجات الامة المستقبلة فى الحياة غير

ملتفين الى ما اقتضاه الماضي ودرج عليه الجيل المتقدم ، فلا ينصبون انفسهم أمام أبنائهم مثالا يمشون عليه ولا يشخصون الوسط الذى عاشوا فيه ليتبعوا خطواتهم فيه ، أما نحن فنجرى فى التربية على نسق أشراف السنين الأخيرة من القرن الماضي حيث كانوا فى أول القرن الحالى يربون أولادهم على تقاليد الزمن القديم وعلى ما كان لهم فيه من المنزلة الممتازة والثروة التى فرت من بين أيديهم والبلاط الملوكى الذى كانوا يمرحون فى جوانبه وآثار ليس فيها اليوم فائدة لكونها عفت وأصبحت خيالا

رابعاً لتلك الأمم عناية كلية بصحة الأبناء وتربية قوتهم الجسمانية الى الحد الممكن انماء لهمتهم المادية لا كما نفعل نحن من الاقتصار على الاعتناء بالصحة ثم نضحيها فى الدرس والمطالعة ونهكها بالامتحانات ولوازمها والاقامة فى المدن وما يتبعها ، وهم لا يطلبون تلك القوة بالافراط فى الرياضة البدنية أو اجهاد الجسم بما يؤدى فى الحقيقة الى ضعفه أو التفنن فى الحركات الجمنستيكية وانما هم من ذوى الحذق فى معرفة لوازم الاجسام

على اننا اليوم نحاول طرق ادخال الرياضة الجسمية الانكليزية فى مدارسنا لنعتاض بها على الجمناس المضر عندنا وليس هو الا أثراً من آثار التفنن الجديد فى التربية لا فائدة فيه وليس من حاجة صحيحة اليه ولكننا نحافظ دواماً على الوسط الذى يحدق بنا أنى وجدنا ، ولا نجهل ان قومنا لم ينجحوا على الدوام فى استعمال الرياضة الانكليزية عندنا لانهم يضيفون اليها كما هى عادتهم فى كل شيء كثيراً من الخلاعة والاعجاب كما لا نجهل انهم ينظرون اليها كأنها وظيفة ادارية يشددون فى تنظيمها وترتيب أوقاتها

وأعمالها وأن كثيراً من التلامذة يميلون اليها هرباً من الدرس والمطالعة ، غير ان هذا المثال الناقص يدل على أصله ، ومما لا شك فيه ان تلك الالعاب تلائم نمو الجسم كما ينبغي وتساعد كثيراً على تعويد النفس السكون فيصير صاحبها متمكناً من ذاته وهذا شرط لابد منه لمن طلب النجاح

خامساً يعود الآباء أبناءهم في تلك الامة منذ الصغر على الاشتغال بالأعمال الماديه فلايخافون ان يتركوهم وحدهم يروحون ويغدون ويكلفونهم ببعض الاعمال أو ببعض المأموريات التي تليق بسنهم ويقصدون أحياناً انهاتكون فوق ذلك ، وهي عادة يستغرب منها الفرنساويون اذاذهبوا الى بلاد انكلترا أو الولايات المتحدة كما يستغرب الانكليز من استغرابنا اذ يرون ان الامر الذي يدهشنا طبيعي وهو في اعتبارهم أحد عوامل التربية والتعليم وأن الغرض منه أولا وبالذات تكوين الرجال لا مجرد المتنورين والموظفين ، ولولا أنني أخشى من أن خجل القراء عندنا لخبرتهم انهم لا يفرقون في هذه التربية بين البنين والبنات الا قليلا فالدواعي واحدة بالنظر الى الفريقين ، ومع ذلك فان تقليدهم في هذاالباب من غير أن يستعد الوسط لقبوله يضر اكثرهم مما يفيد فهو عندهم أكثر فائدة وأقل ضرراً مما هو عندنا ، والمقام لا يحتمل أن أوفي البيان حقه في هذا الموضوع فربما جر الايضاح الى اكثر مما يراد

سادساً يعلم الآباء عادة أبناءهم صنعة يدوية لان تلك الامم لا تحتقر تلك الصنائع ذلك الاحتقار العظيم الذي نجده من نفوسنا بل انهم تخلصوا منذ زمن طويل من هذا الوهم الذي اضر بنا اكثر من مائة كسرة

فى مواقف القتال فلا يعتقدون بان من الصنائع ما هو شريف ومنها ماهو وضيع بل يرون كما هو الاصح ان الناس رجلان كفوء وغير كفوء ، وانهم عامل وكسول ، هكذا يصير ابن (اللورد) زراعاً أو صاحب مصنع أو تاجراً ولا ينقص مثقال ذرة من شرفه ومنزلته لان الامر عام فى أمته ، أجل هنالك صنعة يحقرونها ويعدونها أدنى من البقية ألا وهى صناعة الموظف والمشتغل بالسياسة وهم ينتقدونها من الجهتين الاولى انها صناعة لا يربح صاحبها كثيراً إلا فى الوظائف الكبرى ، الثانية أنها تفقد الرجل حريته ، ومن هنا يرى القارىء ان التربية الانكليزية السكسونية تميل قبل كل شىء بالانسان الى الحرية والاستقلال لذلك قلّت تلك الصناعة فى بلادهم وهى فى بلاد انكلترا موكولة فى الغالب الى الذين من أصل (سلتى) أو ايرلندى أو ايقوسى أو من بلاد الغال ويشغلها الارلنديون والألمانيون أصلا فى الولايات المتحدة وقد قرر صديقى موسيو (بول روسيه) هذه الحقيقة بأجلى بيان فى كتابه (الحياة الامريكية) الذى ألفه بعد زيارته للولايات المتحدة لاستطلاع أحوالها على طريقتنا

ولشدة الميل الى تعليم الاطفال صناعة يدوية تجدهم يتعلمون الكثير منها بالتدرب والاستعمال وذلك لا يتأتى عندنا بغير المدارس ، مثاله ان الرجل عندهم يصير مهندساً بالشغل فى المصانع لا بالدرس فى المدرسة وليست النظريات لديهم الا متممة للعمل فى جميع الصنائع والحرف ، ونحن على العكس من ذلك نحتقر بالعلم العمل ، ودليله ان جمعيه تقدم الزراعة عندنا تقيم فى مدينة باريس وهى مع ذلك لا يتخرج منها إلا موظفو

نظارة الزراعة وان من المنتميات أن تنتقل أيضاً مدرسة البحرية فى تلك المدينة

سابعاً يسبق الآباء أبناءهم على الدوام فى معرفة جميع البدئيات النافعة شأن الأمة التى تهتم دائماً بالمستقبل وتهمل الماضى وتلتفت الى الصنائع الجارية التى يتقدم التفنن فيها كل يوم لا الى الوظائف الادارية التى لا تغيير فيها ولا تبديل وتبنى آمالها فى النجاح علي قوتها الذاتية لا على الوسط باواعه وهذا هو الاستمداد الذي ولد فى الانكليزى السكسونى اشتغاله المستديم بملاحظة الوقائع المادية بعد تحقيقها تحقيقاً صحيحياً ، وقد يرتبها كما ينبغي وانما غرضه أن يجتمع اليه منها ما عساه يحتاج اليه في كل شأن من شؤونه ، وهذا هو الذى يطلبه من قراءة جرائده التى تشبه جرائدنا كما يشبه النهار الليل . لأن الغرض من جرائدنا تسلية النفس كما يقولون والجديدة منها تتوخى اثارة النزعات السياسية وهى طريقة أخرى للتسلية والنتيجة واحدة هى قتل الوقت بلا جدوى ، أما جرائدهم فانها تقصد الافادة مع الاختصار والاجادة ، وهى قليلة الخوض فى النظريات والاكثار من العموميات ، وكلها محشوة وقائع تحكي وقائع وتخبر عن وقائع

ولو لم يكن لدينا من المعلومات ما عليه الصحافة فى الأمتين لكفى ذلك موضحاً للفرق بينهما

إذا علمت هذا علمت من غير دهشة الى محادثة الرجل لابنه تدور عندهم على الامور الحقيقية النافعة فلا يقضون وقتهم فى ذكر من يتحرى الجديد فى لباسه وزيه واعادة ما ملئت به المجالس الباريسية وتكرار حوادث

الزمن القديم زمن الهناء والصفاء ، بل حديثهم التزاحم في الحياة وقدرة كل فرد على كفاية حاجاته لنفسه

ثامناً لا يستعمل أولئك الآباء سلطتهم على أبنائهم فى الظاهر الا قليلا بل يدخرونها للاحوال العظيمة الاستثنائية ، ذلك لانهم يعتبرونهم مستقلين عنهم كأنهم رجال كما قدمنا ولا يتأتى أن يربى الرجل مقهوراً على الدوام تحت سلطة غيره ولو كانت السلطة أبوية ، وعليه فانهم يرون أن التربية الحقيقية المثمرة هى التى تكون بالتدريب والتدريج ، لذلك تراهم يستعملون الايماء والنصح أكثر مما يستعملون القسر والامر مظهرين فى ايمائهم ونصحهم انهم مجردين عن المنفعة ولا يجعلون أمرتهم باعثاً الى العمل بمقتضاهما بل يتركون الولد يفكر فيهما ويتدبرهما حتى يعتقد انهما صواب فيجرى عليهما

تاسعاً وهو أهم الوسائط وأنجحها وقد اخترناه ختاماً علم الابناء بأن الآباء لا يتحملون نفقتهم بعد تربيتهم ، أما الفرنساويون فكل يسأل صاحبه ماذا تريد أن يكون ولدك فيجيبه سأجعله قاضياً أو موظفاً ادارياً وهكذا وما هذا الا لاعتقاده أنه يكون والداً حقيراً اذا لم يتدبر مستقبل ابنه ويهتم باستنباط الحرفة التى يحترف بها على حسب ما يراه صواباً نافعاً ثم يبالغ فى حنوه فيتجرد عن قسم من ماله ليمهر أولاده ، لكن الآباء من الانكليز والامريكان لا يمهلون ابناءهم بل على كل جيل ان يحصل حاجات نفسه بنفسه ، وعلى العكس منهم يجب على كل جيل سابق عندنا ان يوجد أسباب الرزق الذى يليه واليك ما يترتب على ذلك من النتائج

لزيد من الناس ثلاثة أولاد أو أربعة أو خمسة فيجب عليه أن يهيء ثلاثة أموال أو أربعة أو خمسة بخلاف ثروته الخصوصية قبل أن يبلغ الاولاد رشدهم أعنى فى مدى عشرين سنة حتى لا يهزأ به الناس ولا يسقط الابناء عن درجتهم فى الهيئه الاجتماعية والا لما وجد سبيلا لزواجهم فانهم لا يتزوجون إلا بأموالهم ، وهو فى عمله هذا يشبه أهل الليمانات الذين يعملون فى الاشغال الشاقة أو كمن يقدم الذنب قبل الرأس ؛ وليس من يجهل أن الآباء الفرنساويين قد أهملوا الرأس والذنب معاً وعد الواحد منهم نفسه من السعداء بولد واحد أو اثنين

كنت أقرأ أخيراً رسائل فرنكلان فوجدته فى خطاب لوالدته يتكلم عن أحد أولاده وكونه غير متهم بتحصيل ما يقوم برزقه معتمداً على ثروة أبيه فقال « سأزيل عنه هذا الخيال وسيعلم من حالتى وما أنفقه كل يوم اننى لن اترك له شيئاً لكن الرجل منا يرتعد إذا رأى انه لن يترك ما يرثه عنه الابناء وينضب رحمة واشفاقاً وننسى ان الاب الانكليزى السكسونى الذى لا يترك شيئاً لاولاده يعطيهم فى الحقيقة أكثر ما يعطى الوالد الفرنساوى لاولاده ، يعطيهم ما نهتم به نحن ولا نصل الى تحقيقه ، يعطيهم همة فى العمل وقدرة على طلب الرزق وعزيمة يلقى بها زمانه ثابت الجأش وهو ما لو وجدناه لاشتريناه بأغلى الأثمان ومالا يفيد المال الذى نجمعه بالكد والنصب الا لاطفائه واماتته فى نفوس أبنائنا لا نتاق الحقيقة نجاهد فى سبيل الاقتصاد ونعيش كالصعاليك و نتخذ العقم شعاراً لكى نسهل على أولادنا ان لا يعملوا شيئاً ولكيلا يعملوا الا

القليل مااستطاعوا ونظن بهذا أننا جعلناهم على المستقبل آمنين ، غير أننا إذا التفتنا إلى ما حولنا رأينا أن تسعة أعشار الذين يتقدمون على غيرهم ويحوزون قصب السبق فى كل شيء وينجحون النجاح الحقيقي فيما يزاولون من الأعمال يخرجون من صفوف الواصلين بأنفسهم ، أولئك الذين غالبوا الزمان فغلبوه وناجزوا كل صعب حتى استظهروا عليه وانسابوا بهمتهم في المجتمع الانسانى فنالوا فيه مكاناً علياً ، واذكر أبناء العائلات (وما سموا كذلك الا لاعتمادهم على عائلاتهم وأموال عائلاتهم اكثر من اعتمادهم على أنفسهم وركنوا الى مهر زوجاتهم اكثر من ركونهم الى عملهم) تُرهم يسقطون كل يوم الى أسفل الدرجات لانهم أقل من غيرهم فى كل شيء مع أنهم تربوا (تربية جميلة) كما يقال ، وقد فقدوا فى هذه البلاد ما كان لهم من النفوذ كله وفرت من بين أيديهم زعامتهم فأصبحت الملوكية لاحياة لها وأمست لا رجاء فى اعادتها ثم انهم صاروا غير قادرين على نوال المنزلة واكتساب الجاه بكدهم وعملهم فباتوا يرجون البقاء من عدم وجود شريك لهم فى الميراث ومن المال الذى تقدمه اليهم زوجاتهم .

أما الشبان الذين تربوا تلك التربية التى شرحناها فهم أقوياء الاجسام متعودون على مزاولة الاعمال الحقيقية وممارسة الاشياء المادية ، تربوا على اعتبارهم رجالا وتمرنوا على الاعتماد على أنفسهم ، يرون الحياة كحرب ونزال (وهو موافق لما جاء به الدين المسيحى كل الموافقة) لذلك يقتحمون متاعبها بشبيبة متجددة وعزم أكيد بل انهم يحبون تلك المتاعب ويشعرون بالحاجة اليها ويستظهرون عليها ولديهم من وسائل مقاومتها ما يجعلهم

يرتاحون لملاقاتها و يترقون فى مجاهدتها

وعلى القارىء أن يقارن بين الاثنين و يحكم على نتيجة التربيتين، أما انا فقد كشفت له القناع عن العوامل التى تحرك تلك الامة التى تغار اليوم على جميع الشعوب القديمة وتهدد وجودها ، أغارت تلك الامة على الدنيا باجمعها ومعجزتها هى تلك الغارة نفسها مع أنه لم يكن لها من سلطة الحكومات إلا النزر القليل إلا أن لديها من القوة الاجتماعية أعظمها والقوة الاجتماعية أشد بأساً وأكبر فعلا من الحكومات المنظمة والجنود المحتشدة

ما عدونا وما الخطر الذى نخاف منه وما البلاء الذى نخشاه باتية لنا من جانب نهر (الرين) الثانى كما يظن قومنا لان المغالاة فى تجنيد العساكر وتقدم مذاهب الاشتراكيين والفوضويين تكفينا مؤونة ذلك العدو وليس الصبح ببعيد

انما العدو والخطر والبلاء آتية من الجانب الآخر من بحر المانش والجانب الثانى من المحيط الاتلانطيقى فهى توجد حيث يوجد الانكليزى السكسونى على اختلاف مسمياته وصفاته ، ذلك الرجل الذى يحتقره الناس لانه لا يفد عليهم كالالماني بجيشه الجرار وسلاحه المصقول بل يأتيهم بمفرده غير مستصحب الا لمحراثه لكنهم جهلوا قيمة ذات المحراث وقيمة ذلك الرجل ومتى علموا ذلك عرفوا من أين يأتيهم الخطر ووقفوا على السبيل الذى يسلكوه للخلاص منه

الباب الثاني

﴿ الفرنساوى والانكليزي السكسونى ﴾

﴿ فى حياتهما الخصوصية ﴾

آثار الفرق الذى بيناه فى التربيتين تظهر أولا فى الحياة الخصوصية والغرض من هذا القسم ايراد بعض الامثلة التى اخترناها فى فرنساوانكلترا

أما التربية التى ينشأ عليها أبناؤنا فانها تؤدى الى فتور همتنا وضعف قوتنا الاجتماعية وهما سببان من اسباب انحطاطنا بالنظر الى انكلترا بخلافها عندهم فانها هى والوسط الذي يعيشون فيه يؤديان الى انماء القدرة على مغالبة الحياة الى الدرجة القصوى فى الامة بتمامها

الفصل الأول

﴿ فى ان طريقة التربية عندنا تقلل المواليد فى فرنسا ﴾

ليس الغرض هنا أن نثبت نقص المواليد فى فرنسا فان ذلك أمر اثبتته الاحصائيات كلها واشتغل علماء الاخلاق والاقتصاديون والسياسيون

واتفقوا فى اثباته ، إلا انهم لم يتفقوا فى بيان سببه وكل ينحو نحوه من غير مرشد يهديه ولا طريقة منتظمة ، وبيان السبب هو الغرض الذى نتوخاه مستعينين فيه بنور العلم الاجتماعي

قلنا أن نقص المواليد فى فرنسا أمر ثابت لا يحتاج الى دليل ويكفى لصحة قولنا ايراد بعض الارقام

كانت حالة المواليد لكل عشرة آلاف نسمة فى مدى أكثر من قرن كما يأتى :

سنين: من	سنين: الى	مواليد
١٧٧٠	١٧٨٠	٣٨٠
١٨٠١	١٨١٠	٣٢٥
١٨١١	١٨٢٠	٣١٦
١٨٢١	١٨٣٠	٣٠٩
١٨٣١	١٨٤٠	٢٨٩
١٨٤١	١٨٥٠	٢٧٤
١٨٥١	١٨٦٠	٢٦٧
١٨٦١	١٨٦٨	٢٦٤
١٨٦٩	١٨٨٠	٢٤٥
١٨٨١	١٨٩٦	٢٢٠

ويرى من هذا أن نسبة المواليد بين سنة ١٧٧٠ وسنة ١٨٩٦ سقطت من ٣٨٠ الى ٢٢٠ فى كل عشرة آلاف نسمة وهى اكثر من الثلث

وقد كان عدد المواليد فى فرنسا سنة ١٨٨١ ٩٣٧٠٥٧ ولم يبلغ فى سنة ١٨٩٠ الا ٨٣٨٠٥٧ فالنقص هو ١٠٠٠٠٠ وليلاحظ أن هذا العدد أقل من عدد الوفيات بمقدار ٣٨٤٤٦ وأن انتصار الموت على الحياة كما ترى حاصل فى زمن السلم اعنى أن هذه هى حركة المواليد والوفيات الاعتيادية فى فرنسا وهى تزداد عاماً فعاماً

فنقص عدد المواليد فى سنة ١٨٩٠ عن

سنة	عدد
١٨٨٩	٤٢٥٢٠
١٨٨٨	٤٤٥٨٠
١٨٨٧	٦١٢٧٥
١٨٨٦	٧٤٧٧٩
١٨٨٥	٨٦٤٩٩
١٨٨٤	٩٩٦٩٩
١٨٨٣	٩٩٨٨٥

وكذلك ينقص الزواج سنة فسنة إلا أن نقصه غير محسوس كنقص المواليد

كان عدد الزواج في	سنة	عدد
	١٨٨٤	٢٨٩٥٥٥
	١٨٨٥	٢٨٣١٧٠
	١٨٨٦	٢٨٣٢٠٨
	١٨٨٧	٢٧٧٠٦٠
	١٨٨٨	٢٧٦٨٤٨
	١٨٨٩	٢٧٢٩٣٤
	١٨٩٠	٢٦٩٣٣٢

فيكون النقص في السنة الاخيرة قد بلغ ٢٠٢٢٣ في مدى الست سنين التي قبلها أي سنة ١٨٨٦ وكانت النسبة على الدوام بالناقص وان لم تختلف سنة ١٨٨٤ الا ببعض الآحاد وعلى عكس ذلك نجد عدد الوفيات في ازدياد

قد بلغ في	سنة	وفاة
	١١٨١	٨٢٨٨٢٨
	١٨٨٢	٨٣٣٥٣٩
	١٨٨٣	٨٤١١٤١
	١٨٨٤	٨٥٨٧٨١
	١٨٨٦	٨٦٠٢٢٢
	١٨٩	٨٧٦٥٠٠

وعليه زاد عدد الوفيات سنة ١٨٩٠ بمقدار ٤٧٦١٧ عما كان عليه سنة ١٨٨١ وبمقدار ٣٥٣٦٤ عن سنة ١٨٨٣ مع أن عدد المواليد كان نقص بمقدار ١٠٠٠٠٠ فى تلك السنة فتكون النتيجة وجود ١٣٥٠٠٠ خلو فى الامة

واذا قابلنا بين حركة المواليد فى فرنسا وبينها فى البلاد الاخرى نجد ما يأتى :

تضاعف عدد سكان النرويج فى ٥١ عاماً وعدد سكان استريا فى ٦٢ وانكلترا فى ٦٣ والدانيمرك فى ٧٣ والسويد فى ٨٩ والمانيا فى ٩٨ وفرنسا فى ٣٣٤

ولم تأت ببيان الاحصائيات الاجنبية لعدم اتفاق سنيها ولكنها تنطق كلها بان فرنسا متأخرة في مواليدها تأخراً عظيما عن جميع الامم

ثبت أن ضعف النسل أمر حقيقى فى فرنسا فنبحث إذن عن علته

ولن ينفعنا الاحصاء فى هذا البحث إلا يسيراً فقد نأخذ منه الارقام والمتوسطات والعموميات ولكنه لا يكفينا فى بيان ناموس تلك الحركة

وقد ذهب الباحثون فى بيان تلك العلة مذاهب شتى فذكر حضرة المركيز (ناذيالك فى رسالة ضعف المواليد فى فرنسا) سبعة عشر سبباً جاء بعضها مكرراً وإذا أمعنا النظر فيها رأيناها تفترق الى قسمين

الاول الاسباب الباطلة

الثانى الاسباب الثانوية أي التى يرجع منها الى سبب أولى

وسنبحث فى هذين القسمين بحثاً نظرياً مع المقارنة ثم نجتهد فى استنباط السبب الحقيقى بعد ذلك

﴿ الأسباب الباطلة ﴾

منها ضعف قوة التناسل الطبيعية فى الامه الفرنساوية ، قال موسيو (ناديالك) « وليست قوة التناسل الطبيعية واحدة فى جميع الامم فالمناخ والاحوال الاجتماعية والاقتصادية ومعدن الاقليم دخل حقيقى فيها وأن كان لا يزال غير معين تماماً ، وقوة التناسل عظيمة عند الصينيات ولكنها ضعيفة عند نساء (البيرينية) ويمكن أن يقال أن الامم اللاتينية وأخصها الامة الفرنساوية أضعف تناسلا من الامم السلافية والانكليزية السكسونية وعليه فلا شك فى أن درجتنا أحط من غيرنا بالنظر الى قوة التناسل »

ومن المحقق أن قوة التناسل أشد عند بعض الامم منها عند البعض الآخر ومن السهل الوقوف على أسباب هذا التفاوت بالبحث فى الاحوال الطبيعية والاجتماعية لكل واحدة منها لكن لا نسلم بأن ضعف التناسل فى فرنسا أمر لازم لطبيعة الامة إذ لو صح ذلك لتعذر بيان السبب فى نموها العظيم الى قيام الثورة فقد انتشرت فى (كندا) وفى (لويزيان) وفى (الهند) و (صان دومنيج) و (جزيرة فرنسا) و (بوربونيا) و (ايتاليا) وغيرها ولا يزال فرعها الموجود فى (كندا) يزداد وينمو بقوة عظيمة حتى انه أصبح يزاحم العنصر الانكليزى السكسوني نفسه ، والدليل عليه أن سكان (كندا) يتضاعفون عدداً فى كل ثمان وعشرين سنة مرة مع أن سكان فرنسا لا يتضاعفون إلا فى كل ثلثمائة وأربع وثلاثين سنة مرة واحدة وظاهر أن ذلك الفرق لا يرجع الى سبب طبيعى فى الامة بل لابد له

من سبب خارجي لم يوجد الا من زمن غير بعيد

ومما تجب ملاحظته أيضاً أن التناسل لا يزال ناميا فى بعض الاقاليم الفرنساوية كاقليم (بروتون) قال موسيو (نادياك) « بلغت زيادة المواليد على الوفيات من سنة ١٨٨٠ الى سنة ١٨٨٣ فى الاقاليم البروتونية الخمس ٧٤٩٩٠ وهى تساوى زيادة المواليد فى فرنسا كلها على التقريب ولو كان التناسل فى جميع الاقاليم بمقدار هذه النسبة لما حسدنا جيراننا اذ كنا نساويهم فى عدد المواليد ان لم نزد عليهم »

وكذلك عدد المواليد لا يتغير فى الاقاليم التى يكثر الفعلة فيها كما سنبينه فيما بعد أما فى غيرها فانه ينقص سنة بعد سنة من مبدأ هذا القرن بدون أن يحدث تغير فى النوع يمكن اتخاذه سبباً فى هذا النقص المستمر

وعلى ماتقدم يكون الاستدلال فى نقص عدد المواليد بطبيعة النوع باطلا لان الاستقراء يكذبه

والاستقراء يبطل أيضا الدليل فى هذا النقص الذى انتزعوه من المسكرات . نعم لا شبهة فى أن المشروبات الروحية قد تغيرت منذ خمسين عاماً الى اردأ الاحوال لاستعمال التقطير فى تحضيرها بدل التخمير ولكثرة استعمال العرقى والمستكا عما كانا عليه اذ المقدار الذى يشرب منهما فى فرنسا سنة ١٧٨٨ لم يزد على ٣٧٠٠٠٠ هكتولتر وقد بلغ في سنة ١٨٨٢ ١٧٦٦٠٠٠ هكتولتر

غير أنه من المحقق أيضا أن استعمال تلك المشروبات لم يبلغ فى البلاد الفرنساوية مقدار مابلغه فى غيرها وخصوصاً فى جهة الشمال من أوروبا

مع ان عدد المواليد في تلك الجهة لايزال نامياً حتى في فرنسا نفسها فأكثر البلاد استعمالا لتلك المشروبات هو اقليم « بروتانيا » الذى كثر نسله وعلى العكس من ذلك في الجنوب حيث لايستعمل المشروب الا قليلا ترى بعض الأقاليم يزيد فيها عدد الوفيات على عدد المواليد مثل اقليم « الفار » وحينئذ يلزم التسليم بأن تأثير المشروبات الروحية على عدد الاهالى غير محسوس في فرنسا .

قالوا ان من أسباب نقص المواليد ثقل الخدمة العسكرية . ولكننا نشاهد ان الخدمة العسكرية عامة أيضا وواجبة على كل فرد في البلاد الالمانية وعدد المواليد في تلك البلاد غير متأثر بهذا السبب نعم ان الوفيات في الجيش أكثر منها في غيره لكن ذلك لايؤثر في النتيجة العمومية للامة

قالوا ان من أسباب ذلك أيضا ثقل الضرائب على الناس . ولا شبهة في ان الضرائب الفرنساوية باهظة جداً فالذى كان يدفع أيام الامبراطورية الثانية ٥٩ فرنكا في السنة صار يدفع سنة ١٨٧٢ (٨٥) فرنكا وهو الآن يؤدي ١٠٩ فرنكات وقد زادت الضرائب العقارية بين سنة ١٨٢٠ الى يومنا هذا من ٢٤٣٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك الى ٣٥٧٫٠٠٠٫٠٠٠ وزادت الضرائب الشخصية والتى تجبى على المنقولات من ٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠ الى ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ كما زادت عوائد الأبواب والشبابيك من ٢٩٫٠٠٠٫٠٠٠ الى ٤١٫٠٠٠٫٠٠٠ وبلغت عوائد الباطنطا « الحرف والصنائع » ١٦٣٫٠٠٠٫٠٠٠ بعد ان كانت ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فقط

الا انه لو كانت زيادة الضرائب من الاسباب المؤثرة حقيقة على عدد

السكان وجب أن يكون عدد المواليد تابعاً لفقر الأقاليم وثروتها فتقل فى التى رزحت تحت أثقال الضرائب وتكثر في التى وجدت من ثروتها ما يسهل عليها احتمالها . لكنا نرى الحال بالعكس فليس لأغنياء بلاد «نورمانديه» و « بيكارديه » الا ولد أو ولدان مع ماجمعوه من الثروة الطائلة قبل انحطاط الزراعة عندهم من ان المواليد أكثر من ذلك فى الأقاليم الفقيرة مثل أقليم «بروتانيا » و « ارديش » و « لوزير » و « أفيرون » و «هوتوار » و « كوريز » وغيرها وقد تصفحت خريطة المواليد في فرنسا سنة ١٨٨١ فوجدت ان أقل البلاد مواليداً أكثرها غناء وعلى هذا يسقط دليل ثقل الضرائب

الى هنا تبين ان تلك الاسباب كلها لا تأثير لها على المواليد أو انها لا تؤثر فيها الا قليلا . وهناك أسباب أخرى نراها أشد فعلا مما تقدم

﴿ الأسباب الثانوية ﴾

لهذه الاسباب بعض التأثير على ضعف المواليد عندنا وهى ليست عرضية اذ لا يسلم ان حادثاً يحدث فى بلد معين وفى زمان معين من دون أن يكون له سبب أدى اليه من أحوال تلك البلد فى ذلك الزمن . فاذا تكرر وقوعه لزم أن يكون ناشئاً عن سبب عام عظيم كما اننا اذا رأينا رجلا قد تكرر منه الخطاء وكثرت غلطاته حكمنا بأن فى عقله نقصاً أو فى ارادته عيبا هو الذى يحمله على ارتكاب تلك الأعمال الناقصة . وسنبين لك ان جميع الاسباب التى نسبوا اليها ضعف المواليد فى فرنسا لا يصح الارتكان عليها الا اذا رجعت هى الاخرى الى سبب أعظم . ومن تلك الأسباب ما يأتي :

أولا قال موسيو « نادياك » « ان لارادة الرجل دخلا فى ضعف المواليد فى فرنسا » وفى الواقع لوأراد الفرنساويون أن يكون لهم من الذرية مالغيرهم من الامم لحصلوا مرادهم الا أن السر هو فى معرفة السبب الذى يحملهم على عدم الارادة ومن هنا يتبين ان ماقاله موسيو « نادياك » لايفيد شيئاً فى موضوعنا

ثانياً قالوا ان من الأسباب كثرة تجزئة الملكية . وهنا تفصيل يلزمنا بيانه فان كان مرادهم بكثرة تجزئة الملكية ان حالة الاجتماع فى الأمة استلزمت من ذاتها تقسيم العقارات الى أجزاء صغيرة تنتقل من الرجل الى غيره بحسب مايعرض له من الاحتياجات التى هو حر فى تقديرها قلنا بأن هذا لايستلزم البتة ضعف المواليد فى بلد ذلك شأنه أكثر من بلد تكون فيه الملكية كبيرة الاجزاء . اذ يشاهد ان عدد المواليد فى « انكلترا » لايزيد على عددها فى بلاد « النرويج » و « لونيبورج » التابعة الى «هانوفر» وأقاليم « سويسره » وغيرها مع ان الاملاك فى الاولى عظيمة غير مجزأة الا قليلا وهى فى الثانية مقسمة أقساماً صغيرة جداً . واذا أرادوا بكثرة التجزئة استمرار تقسيم الاراضى الى أجزاء صغيرة مهما كانت مساحتها تقسيما قهريا ففى قولهم نظر سنأتى عليه ونكتفى الآن أن نلاحظ ان مرادهم هذا حاصل فى البلاد الفرنساويه ومع ذلك فعدد المواليد ضعيف فى الاقاليم ذات الاملاك الواسعة مثل « نورمانديا » و « بيكارديا » كما هو ضعيف فى الاقاليم ذات الاملاك الصغيرة مثل أقليم « شمبانيا » .

ثالثاً ابتعاد الفرنساويين عن الزواج وانحطاط عزائمهم لما الفوه من حب

الزخارف والحاجات الصناعية والملاذ المخترعة وغير ذلك . ومن المشاهد حقيقة ان عدد الزواج يقل آناً فآناً فاذا نظرنا الى الاشخاص الذين يصح الاقتران بينهم فى جميع الامم كانت فرنسا الحادية عشرة فى الرتبة من بينهم اذ يتقدم عليها « الانكليز » و « البروسيانيون » و « الهولانديون » و « النمساويون » وغيرهم . والضعف العزائم المستمر دخل فى هذا الانحطاط غير ان الذى يحوجنا هو معرفة السبب الذى حمل الفرنساويين من مبدأ هذا القرن على الابتعاد عن الزواج والموجب لتثبيط العزائم بينهم أكثر من غيرهم

رابعاً الميل الى الاستئثار بأكبر ما يمكن من اللذائذ . وهو مسلم لكن بقى علينا أن نعرف السبب فى انصباب الفرنساويين على اللذائذ فجأة انصبابا لاحد له وكيف ان ذلك الميل بعينه لم يوجد عند الانكليزى أو الالمانى أو الروسى وغيرهم اذ ليس من المعقول أن لا يكون أولئك القوم ممن يميلون بالطبع الى الزيادة فى لذائذهم فوجب أن يكون هناك سبب منعهم عن الاقلال من النسل طلبا للذائذهم وان ذلك السبب غير موجود فى البلاد الفرنساوية

خامساً زيادة السعة فى المعيشة وموجبات الراحة . نظراً لارتفاع الاجور ذلك أيضا أمر عام وحينئذ لا يمكن الاعتماد عليه فى تعليل حالة فرنسا الخصوصية وقد اعترف بذلك موسيو « نادياك » حيث قال « زادت بسطة العيش فى كل مكان زيادة كبرى فنرى فى الارياف كما نشاهد فى المدن ان الاجور قد ارتفعت كثيراً وتحسن الملبس والمطعم وصارت المساكن أقرب الى الصحة وأوفى بحاجات العائلات وتقدم الناس فى معرفة لوازم

حفظ الصحة وعندى أن لهذه الاحوال تأثيراً حسناً على النسل ولكننا لا ندرى ما السبب فى أنها أدت فى البلاد الفرنساوية الى عكس ماذكر » كذلك نحن نبحث معه عن تلك العلة

سادساً زيادة الحضارة أعنى كثرة المدن المترفهة حيث يقل النسل . ومن المعلوم أن أهل الزراعة يقلون وأهل المدن يكثرون ففى سنة ١٨٤٦ كان عدد أهالى بلاد الريف يبلغ ثلاثة أرباع سكان فرنسا وهو اليوم لا يكاد يبلغ خمسا وستين فى المائه ولا يزال آخذاً فى النقصان . و يمكن تقدير زيادة عدد سكان المدن بخمس عدد الاهالى أجمعين . وحيث أن ذلك أمر ثابت وان لم يكن كذلك فهو عام لزم القول بأن تلك العلة السادسة لا تثبت شيئا اذ يشاهد أن زيادة سكان المدن عظيمة جداً فيقطنها من التسعه خمسة والاربعة يسكنون الارياف . كذلك زاد عدد سكان المدن فى المانيا من أربعة عشر الى خمسة عشر فى المائة فكان فى برلين منذ قرنين سبعة عشر الف واربعمائة نسمة وصار فيها اليوم مايون وثلاثمائة وستة عشر الف ومائتان واثنتان وثمانون نسمة وهكذا الحال فى ايطاليا واسبانيا وأوستوريا وغيرها ومع ذلك لم ينقص النسل فى تلك البلاد كما هو حاصل فى فرنسا وعليه وجب أن يكون هناك سبب خاص بها

سابعاً تكليف التلامذة فوق طاقتهم في المدارس اذا لم يبلغ هذا التكليف فى أى بلد من البلاد مبلغه فى الامة الفرنساوية يزاد عليه استمرار اقامة الطلبة بداخل المدارس الابتدائية زمنا طويلا مما يدعو الى ضعف الشخص في نفسه وفى نسله . وقد يظهر أن ذلك السبب قوى التأثير لكنه

لا يؤثر الا على طبقة المتنورين ولا بد لنا على كل حال من البحث عن علة ذلك الميل لانه ليس ناشئا عن طبيعة الاقاليم الفرنساوى

ثبت اذن أن الاسباب التى بيناها لا تنتج المعلول بذاتها وأنه لا بد فيها من سبب أكبر وأعم . ومهما كان ذلك السبب الذى نبحث عنه فهو لا بد أن يكون مؤثراً فى العائلة مباشرة تأثيراً قويا اذ العائلة هى مرجع التناسل فى الامة ولا بد أن تكون العائلات فى البلاد الفرنساوية على حالة صعبة مؤثرة عليها من هذه الجهة خصوصاً اذا لوحظ أن العائلة تميل على الدوام الى الخلود فالرجل يحب أن يستمر وجوده بواسطة ابنائه واذا لم يكن هناك من الموانع ما يثنيه عن تلك الرغبة فانه ينساب اليها فيكثر نسله ويفرح بمولدهم والسبب فى ذلك أن الاطفال يعدون فى تلك الحال من موجبات القوة ووسائل الارتزاق لا كلا على آبائهم . ومنا فرحهم آت الامن سهولة تعيش الابناء وعدم الحيرة فى تربيتهم طوعا لحركة الهيئة الاجتماعية التى يولدون فيها كما يشاهد ذلك عند الامم التى لم تتفرق عائلاتها بعد اذ ترى الآباء يرتكنون فى تربية أبنائهم على المجموع . ومن هناك الشرق كثير النسل حتى لقد ظهر شعور الشرقيين بتلك الحالة فى أمثلتهم العامة كقولهم « ان الله يبارك فى العائلات كثيرة العدد » وكقولهم « ما أتعس المرأة العقيم » ومما يؤيده أن كثرة النسل لا توجد كما كانت فى الاصل عند الفرنساويين الا فى الجهات التى بقيت فيها العائلات مجتمعة على نفسها وهى قليلة كاقليم بروتانيا والبيرينى والاقاليم الجبلية الوسطى .

وعلى خلاف ما تقدم نرى النسل ناميا عند الامم الاستقلالية لان

مصير الاطفال مكفول بما لكل واحد منهم من الهمة الذاتية التى بلغت منتهاها ولما ربى عليه الشبان من القدرة على تحصيل عيشهم بنفسهم فلا يتكلف الآباء ايجاد مرتزق لابنائهم ولا يجمعون لهم مالا يمرونهم به

غير ان كثرة أعضاء العائلة الواحدة يزيد فى ثقل العبء على الآباء زيادة ليس لهم طاقة بهامهما أرادوافلا ملجأ لهم الا الهرب من تلك الزيادة وهذا هو السبب فى ان معظم الفرنساويين لايحسدون الذين كثر أبناؤهم بل هم يرثون لحالهم . ولهذا أيضا كان كل مايتمناه الواحد منهم هو أن لايكون له الا ولد وابنة أو ولد واحد حتى يقال كما اصطلحوا عليه « ولد وحيد » وليس لاولئك الآباء أن يعتمدوا فى تحصيل مرتزق أبنائهم على العائلة لأنها قدانحلت أوعلى همة الابناء أنفسهم لان التربية قدأضاعتها ورجع الابناء الى آبائهم يطلبون العيش منهم وأصبح هؤلاء لا يقدرون على ذلك الا اذا أمهروا أبناءهم وهم مضطرون فى ذلك الى ايجاد ثروة متعددة بقدر ما لديهم من الابناء قبل أن يتزوج كل واحد منهم أى فى مدة تختلف من ثمانى عشرة الى ثلاثين سنة

واذا تزوج الواحد منهم وجاء له بعد سنة مولود تراه لا ينظر اليه نظر من يفرح بشعره الاصفر وتبسمه اللطيف بل الذى يفكر فيه الوالد عند مايقع نظره عليه هو وجوب تحصيل المهر له فاذا مضى ثمانية عشر شهراً أو سنتان وجاءه مولود ثان كان ذلك عنده عبارة عن وجوب تحصيل مهر ثان . ثم يرى انه لا بد من تحصيل المهرين فى مدى خمس وعشرين سنة ويحس من نفسه ان العبء صار ثقيلا وانه لاطاقة للزيادة فيه .

لذلك لا يرى ملجأ الا العمل على مايوقف النسل

تلك هي العلة في قلة عدد أبناء الفرنساويين فالعادة التى تأصلت بحكم طبيعة الاجتماع فيهم تكلفهم عملا يستحيل عليهم القيام به فيصيرون كالذين يشتغلون فى الليمان وهم غير قادرين على أبطال العادة فيركنون الى أبطال النسل. وهناك سبب آخر يدعوهم الى الاقلال منه ذلك ان حالة معيشتهم تنقص بمقدار كل مهر يأخذه أحد الأبناء وانه بقدر مالهم من الشرف والاعتبار يجب عليهم أن يكثروا من قيمة المهور والناس يقدرونها من قبل فيقولون ان فلانا خصص كذا مهراً لابنه أو لابنتــه وحينئذ لابد للآباء من ثروة خصوصية ينتهبون منها عند الحاجة كلما كان لهم ولد يستحق الزواج

وقد جاء الاحصاء مؤيداً لتأثير المهر على النسـل تأثيراً حقيقياً فأقل الناس نسـلا أكثرهم مالا وأكبرهم تبصرة أى الذين يلاحظون وجوب أمهار أبنائهم فى المستقبل. وأكثر الناس نسلا أقلهم مالا وأبعدهم عن التبصر وهم الفعلة أي الذين يتركون النسل ينمو كما يتركون رزقه على الله

هكذا نشاهد فى أقليم الشمال حيث تكثر المعامل ويكثر الفعلة ان المواليد تزيد على الوفيات بكثير فتبلغ الأولى فى السنة « ٥١١٩٧ » ولا تبلغ الثانية الا « ٣٥٠٨٩ » وبعكس ذلك تزيد عدد الوفيات على عدد المواليد فى الاقاليم الغنية ففى أقليم « أور » يبلغ عدد المواليد « ٦١٤٢ » وعدد الوفيات « ٨١٢٨ » وفى أقليم « وان » تبلغ عدد المواليد « ٨٨٥١ » والوفيات « ٩٠٦٨ » وفى أقليم « أورن » تبلغ المواليد « ٦٨٥١ » والوفيات « ٨٥٣٤ » وهكذا

ومن هنا ينساق التأمل الى استخلاص تلك النتيجة الغريبة وهى ان

مدار النسل مع قلته فى فرنسا على قليلى التبصر وعديمى الكفاءة . ولست أدرى ما الذى يدخره المستقبل لفرنسا وهذه حالة التناسل فيها

ولنبين حينئذ ان هذه الحالة التى اختصت بها العائلة هى العلة الاولى فى الاسباب التى سبق بيانها فارادة الآباء فى الاقلال من الابناء معلولة باستحالة تحصيل مهر لكل واحد منهم اذا كثروا . ومن هنا كان الزواج حملا ثقيلا على الناس فهم يجتهدون فى الهرب منه ومتى خلص الواحد منهم من واجب القيام بشؤون عائلة كبيرة وعلم أنه لا يتحمل الا القليل من الاثقال كامها وولد أو ولدين مال بالطبع الى تحصيل قسم أكبر من اللذائذ الشخصية اذ مثل الآباء الذين لا أبناء لهم أو الذين ليس لهم منهم الا العدد القليل كمثل الاعازب الذين تمكن منهم حب الذات لذلك تراهم غير مندفعين الى الاقتصاد ولا ميالين الى حرمان أنفسهم مما يشتهون فليس عندهم عائلة كبيرة يجب عليهم أن يقوموا بشؤونها

ومما يستوقف النظر أن حالتنا الاجتماعية تنتج معيشتين مختلفتين: فهنا آباء كثر عدد أبنائهم فضاق الرزق فى وجههم وعاشوا عيشة الحرمان وهناك آباء قل عدد أبنائهم فعاشوا فى رغد وهناء يتوسعون فى معيشتهم ويحصلون جميع لذائذهم كأنهم ليسوا بمتزوجين . ومن جهة أخرى ترى الابناء قد تعودوا الاعتماد على المهر أكثر من اعتمادهم على أنفسهم فالواعن طلب عيشهم بجدهم سواء كان فى فرنسا أو فى البلاد الأجنبية وفضلوا الانكباب على التوظف فى الحكومة ورأت هذه أنه لابد لها من دفع تلك الغارة عنها فاكثرت من أنواع الامتحانات ولكنها لم تنجح بل تكاثر العدد

ورأى كل واحد من الطالبين أنه لا بد له من الانهماك على الدروس فاضطرت المدارس الى تكايف التلامذة فوق طاقتهم

والخلاصة ان جميع الاسباب التى دل عليها الاقتصاديون راجعة إلى سبب واحد أولى وهو حالة العائلة التى وجدت بحكم طبيعة الاجتماع الفرنساوى

بقى علينا ان نعرف ان كانت قلة النسل فى فرنسا مفيدة أو مضرة

أما الاقتصاديون فغير متفقين فى هذا الموضوع أيضاً فذهب موسيو « موريس بلوك » فى جريدة « الدبيا » وفى مجلة « العالمين الجديدة » الى أن زيادة النسل زيادة سريعة من موجبات ضعف الأمم لأن الفقر من لوازمها . ووافقه موسيو « دى مولينارى » فى جريدة « الاقتصاديين » التى هو مديرها

ولكن الاستقراء لا يؤدى الى هذه النتيجة اذ ليس من المسلم أولا ان قلة النسل تفيد الأمة الفرنساوية . نعم لو كنا محاطين بسور كسور الصين فلا يتخلل أمتنا عنصر أجنبى من أى نوع كان لأصبحنا فى معيشة راضية فى بلاد قل عدد سكانها اذ قلة العدد تسهل لكل فرد مصادر العيش وتجعله يستفيد مما تجعل الامة أكثر مما لو كانت كثيرة العدد . غير أن الأحوال لا تجرى كذلك والنقص فى النسل يستعاض على الدوام بتهافت القصاد من الأجانب فالوافدون على البلاد الفرنساوية كثيرون من جميع مجاوريها البلجيكيين والالمانيين والسويسريين والباسكيين[1] والاندلسيين

[1] هم سكان أطراف جبال البيرينية الغربية

ولا يزال عددهم يزداد يوما عن يوم فكان عدد الاجانب فى فرنسا سنة ١٨٥١ (٣٦٠٠٠٠) نسمة وبلغ سنة ١٨٦١ (٤٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٢ (٧٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٦ (٨٠١٠٠٠) وسنة ١٨٨١ (١٠٠١٠٠) فتكون النسبة واحداً من الأجانب فى كل ثلاثة وسبعين فرنساوياً

قال موسيو « فوفيل » « ان كثرة ورود الاجانب فى فرنسا أمر خطير اذ لولاهم لما تغير عدد الفرنساويين » وفرنسا هى البلد الذى قل عدد المهاجرين منه وكثر عدد المهاجرين اليه والذين يقولون بمنفعة قلة النسل يعلمون هذا ولكنهم لا يتطيرون منه بل يفرحون به ويقولون أنه موجب للاقتصاد فى فرنسا لانها بواسطة الغرباء تجد عمالا لم تتكلف تربيتهم . قال موسيو « مولينالى » « لو فرضنا أن الامة الفرنساوية اضطرت الى تربية ذلك المليون من العمال الذين يأتونها من الخارج لكلفوها من النفقات مالا جزيلا اذ الحصول على مليون رجل كلهم فى سن العشرين لا يتأتى الا من مليون وثلاثمائة ألف نسمة ومتوسط النفقات لتربية مليون من الشبان ثلاث مليارات وخمسمائة مليون . وعليه ففرنسا تقتصد مثل ذلك المبلغ باستعمالها العمال الاجانب وهذا المال يساعد كثيراً على امتداد ثروتها العامة والخاصة ولا يشك أحد فى أنه لو جاءنا من البلاد الاجنبية مليون من الثيران لنسد به نقص ماشيتنا لكانت فائدتنا منها متساوية لما صرفته البلاد التى أرسلتها الينا فى تربيتها »

ولا نخال هذا القول صحيحاً اللهم الا اذا كان الرجل ثوراً ولكنه لما كان انسانا لزم عليه ان قلة أبنائنا وعدم تربيتهم كما يتربى أبناء العائلات

كثيرة العدد وعدم تعودهم من صغرهم على الاعتماد على أنفسهم فى تحصيل عيشهم واهمالهم جانب المهر الذى يأخذونه من آبائهم أو الذي تأتيهم به نساؤهم وعدم اعتقادهم بان النجاح انما هو لمن قويت فيه القدرة على العمل وكان ذا عزيمة واقدام لا يؤدى الى تربية الرجال عندنا ولزم عليه ان أبناءنا بتعودهم على ماألفوه من التربية التى تجعلهم يعيشون فى حجور أمهاتهم ويأكلون من حيث لا يعرفون اذا احتكوا بأولئك الاطفال الذين نشأوا بين عائلات كثيرة العدد وتربوا على نظام شديد من حيث العمل والاجتهاد يخسرون على الدوام ويتقهقرون خجلين . ألا ترى ان تجارنا ومهندسينا يفضلون العمال الالمانيون أو السويسريين والصناع البلجيكيين أو التليانيين على أمثالهم من الفرنساويين اذ يجدونهم أشد اطاعة وأكثر عملا وأكبر اقتصاداً وأقل طمعاً . والواقع أن أولئك الاجانب يقتصدن من أجور لا تفي بحاجات الفرنساويين ولولا معونتهم لنا لما زادت قيمة متاجرنا الضعف ولاشتد عجزنا عن مقاومة المنافسة الاجنبية . والصناع الاجانب هم الذين عليهم مدار صناعتنا وزراعتنا بما أتوه من سلامة العقل وقوة الجسم غير أنهم لا ينقذوننا من هذا الانحطاط الا بارفع الاثمان اذ وجودهم بيننا يضعف من قوة ارادتنا ويقلل من همتنا وينقص من انتشارنا ويثبط همتنا فى الاستعمار ويذهب بنفوذنا فى العالم بل هو يؤثر أيضاً على جنسيتنا لما يعتريها من التغير طبعاً لاختلاطهم بنا

الفصل الثانى

﴿ فى ان طريقة التربية عندنا مضرة بثروة الأمة الفرنساوية ﴾

يقول الناس فى كل مكان ان هـذا الجيل جيل المال ومنهم من يفرح بذلك ومنهم من يحزن له والواقع ان الاعمال المالية وصلت فى زمننا هـذا الى حد يكاد العقل لا يتصوره وليس هذا أمراً غريبا اذ ليس شىء فى الوجود مسببا عن الصدفة بل سببه اكتشاف مناجم الفحم فهو الذى أوجد فى المال تلك القوة العظيمة التى امتاز بها فى زمننا هذا . فبواسطة الفحم تمكنت الامم من اجراء أعمال كثيرة تقتضى من المال مايفوق ثروة أغنى العائلات مما لا يمكن القيام به لغير الشركات . وأول تلك الاعمال هو استغلال المناجم عينها لأن الفحم لا يوجد فى الارض مختلطا بغيره كما توجد المعادن الاخرى بل هو طبقات متكاتفة فوق بعضها تكاد أن لا تنتهي ولهذا فانه يقتضى فى استخراجه عمالا كثيرين وعملا عظيما . ثم الاكثار من الاشتغال فى المناجم ذو فائدة عظيمة لأن الفحم لازم فى كثير من الصنائع فبيعه سهل ومأمون ومثل هـذا العمل العظيم يقتضى من النفقات مالا لا يمكن جمعه الا بواسطة الشركات . ولم تقتصر منفعة الفحم على كونه صار محلا لتجارة كبيرة من حيث هو بل انه غير حالة الصناعة تغييراً كلياً فبه أصبح الدكان الصغير معملا كبيراً لأن قوته عظيمة يتحصل الانسان بواسطتها على اضعاف

ما كان يعلمه بدونها . وزيادة الانتاج تستدعى زيادة العمال ثم ان أكثر المصنوعات تستلزم مالا كثيراً لا يتأتى جمعه فى كثير من الاحوال الا بواسطة الشركات

ومن فوائده أيضا تغيير طرق النقل والتسفير فيه امتدت السكك الحديدية وجرت سفن التجارة فى عرض البحار وهذه الاعمال أيضا تطلب من الاموال مالا بد فى جمعه من الشركات . والفحم هو السبب فى تأليف شركات المساهمة الكبيرة التى تشتغل بتنوير المدن بالغاز واستعمال الكهرباء وفتح قنال السويس وغير ذلك وهو الذي حمل الدول على اجراء الاعمال العظيمة ذات المنفعة العامة وكلما زادت قوة الفحم عظم اتساع تلك الاعمال حتى أصبحت أموال الخزائن لا تفي بالمطلوب وعمدت الحكومات الى الاقتراض فتألف لاقراضها شركات أكبر من التى سبق القول عنها

هكذا عظم سلطان المال الى حد لم يكن فى الحسبان حتى أصبح ذا ثمرة ذاتية أى من دون أن يأتى صاحبه عملا من الاعمال وتغير الاستثناء الى قاعدة كلية فبعد ان كان الغنى هو الذى له رأس مال يأتيه بالربح اشترك معه فى ذلك الحقير الذى يقتصد المال اليسير بالكد الكثير . ومن تأمل فى هذا التغيير الذى أحدثه الفحم وحده علم أنه تغيير لازم جاء من طبيعة الحال . ومقتضى الحال أشد قوة من هم الرجال ومن طلب مقاومة هذا التيار فقد ضل رشده اذ لا بد له الخذلان

وليست الاسباب التى جعلت الناس يتهافتون على اقتناء السندات المالية الا أسبابا جوهرية جاءت من مقتضى الاحوال كالتى ذكرناها

فأول مزية فى تلك السندات سهولة حيازتها وهى سهلة الحيازة لكونها يتجزأ الى مالا نهاية له وقابليتها للتجزؤ تسهل لأحقر الناس اكتسابها وربحها لايقتضى كلفة ولا عناء فكل الناس من صغير وكبير يميل اليها ثم الربح الذى يأتى منها يأتى بانتظام فى أوقات مقررة وذلك لا يتأتى لمن يزاول الزراعة مثلا أو الصناعة أو التجارة وظاهر انه لا موجب للانسان يدعوه الى ترك هذه المزايا

وثانيتها المالك السندات أمل في زيادة قيمتها أو تسديد ماعليه منها بطرق مقيدة أو فى نوال ربح كبير ومن أصابه حظ مما ذكر فقد اغتنى وهو نائم والكثير يعتمد على مايرجو كسبه من هذا السبيل فأصحاب السندات والسهام الذين حصلوا ثروة طائلة كثيرون ومامن احد الا ويغبط مساهمى شركة « انزان » التى اشتهرت بوفرة ارباحها ومساهمى شركة قنال السويس وشركة الغاز فى باريس وغيرها فقد أتت تلك الشركات وأمثالها بالارباح التى لا تعد فى زمن يسير لأنها تكونت في زمن كثرت فيه حاجة الناس اليها وقل المتنافسون معها وأقبل الناس عليها ولا يزالون مقبلين اقبال الظمآن على الماء . نعم من الناس من يخسرون فيها الا ان الخسارة غير ظاهرة بجانب الكسب الوفير

وثالثتها سهولة شراء هذه السندات فى الاسواق المالية « البورصة » وبيعها وما يتخلل ذلك في كل وقت من هبوط الأسعار وارتفاعها يحمل كثيراً من الناس على الاشتغال بها رجاء الربح فى المضاربات فضلا عما يجدونه فى ذلك من اكتفاء العناء فى حفظ أموالهم والزيادة فيها الى

الحد الأقصى

هذه هى الأسباب التى تدعو الى اقتناء الأوراق المالية بوجه الاجمال وهى حركة أوجبت تغيراً عظيما فى الأفكار من حيث العمل ورفعت شأن النقود الى المقام الاسمى وفتحت أمام كل طالب بابا للكسب فسيحا وارتقت بالماليين الى ذروة الهيئة الاجتماعية فأصبحوا ملوك العصر وقياصرة الزمان

غير أن لكل شىء فى الوجود ضدا والدهر قلب وهنا يصدق تشبيه السعد بعجلة تدور فما أكثر تقلبات الثروة المنقولة لانها على الدوام تحت رحمة تغير الأسواق وتغير الاسواق على الدوام تحت رحمة السياسة والمضاربات ولسنا فى حاجة الى سرد ما تحدثه الاسواق المالية كل يوم من التخريب والتدمير لأن علمه حاصل لكل واحد منا وانما الذى نريد توجيه الافكار اليه هو ان الخسارة المالية قد تشتد فى بعض الاحيان فتصيب أناساً كثيرين حتى تكون داهية كبرى وتشبه البناء اذا تداعى . هنالك يصيح القوم بأصوات الفزع وينطق كل واحد بما تمليه عليه منافعه فيتسابقون فى تعنيف الماليين ورميهم بمر الملام وسم الكلام وقد يكون اللائم نفسه مستحقاً للزجر والتعنيف . ومن الغريب ان كل مساهم يستعد لاقتضاء الارباح ولكنه يكره تحمل الخسارة والواقع ان كليهما نتيجة لازمة لطبيعة العمل الواحد فالاوراق المالية تربح وتخسر أى تثمر التقلب كما يثمر الكرم عنبا وشجرة التفاح تفاحا . والذى يجب الاهتمام به والبحث عنه هو معرفة ما اذا كان فى الامكان ملافاة الضرر الذى ينجم عن تقلب الاسواق المالية والتفادي من سلطة الماليين . ومن المشاهد ان ذلك فى الامكان بل ان

بعض الأمم قد اتخذت من الوسائل ما اتقت به تلك المحن

وبيانه ان انتشار الاوراق المالية لم يؤثر فى جميع البلدان بدرجة واحدة اذ من المشاهد ان البلاد التى أصابها الضر ليست هى التى كثر فيها الاخذ والعطاء بتلك الاوراق ومن البلاد ما تتحمل من المضاربات مالو حصل فى غيرها لاضر بها كثيراً ويمكننا أن نشبه الحالة المالية بكرم العنب وهو يقاوم فعل الدودة فى أمريكا أكثر منه فى فرنسا

ولو أحصينا الكتب والرسائل التى نشرت حديثاً فى البلاد الفرنساوية لتنبيه الامة الى ماهو محدق بها من الاخطار بفعل اليهود وتأثير المضاربات لملأت خزائن بتمامها . الا أن العقل ليس هو الذى أملى تلك المؤلفات كما ان التؤدة لم ترافق الكتاب فى تأليفها وانما الداعى اليها هو الشهوة والهوى وقد تخطى أكثرها الحد الذى ينبغى وتلك أفسد الوسائل فى الوصول الى الغرض المطلوب . ثم ان الذين كتبوا كلهم لم ينظروا الا الى ظاهر المسئلة فجاءت أدواؤهم التى أشاروا بها غير مفيدة أو متعذرة الاستعمال . ومع هذا فان تلك القيامة تدل على أمر صحيح لاشك فيه وهو الحرج الذى استولى على الامة الفرنساوية فى هذه الأيام

وليس منشأ هذا الضيق ان الفرنساويين تهافتوا على استعمال الأوراق المالية أكثر من غيرهم اذ الحال واحد فى انكلترا والبلاد الاسكندنياوية وألمانيا والولايات المتحدة وانما السبب اختلاف طرق الاستعمال

فأما الأمم التى تمكنت من مفادات الضرر الذى ينجم عادة من الاشتغال بالاوراق المالية فانها اتخذت سبيلا واحداً ذلك انهم لم يضعوا جميع

أموالهم فى تلك الاوراق بل فرقوا بين رأس المال وما اقتصدوه من غلته واشتغلوا فى الاوراق بالثانى دون الاول . أما الفرنساويون فقد فرطوا فى الكل وأسلموا إلى الاسواق المالية أصل الثروة وما اقتصدوه وهذا هو السبب فى قولهم عادة ان فرنسا هى البلد الذى كثرت فيه وفرة المال وهو قول صحيح لميل الفرنساوى إلى جعل ثروته كلها منقولة والكثير منهم يود ان لو جمع ثروته كلها فى دفتر جيبه

وهذا هو السبب أيضاً فى ان أغلب القروض التى تحصل يقع الاكتتاب فيها بفرنسا فهى أكبر سوق للاموال وهى أحسن بلد يستفيد منها المالى لو كان من الماهرين وترى اليوم الاموال الفرنساوية تجرى إلى الخارج فى جداول مختلفة ولكنها لا ترجع اليها الا قليلا فكم ضاعت النقود الفرنساوية فى تركيا و « هوندوراس » و « فنزويلا » ومعادن بلاد الاندلس وجمهورية « ارجنتين » و « البيرو » وغيرها . والمال الفرنساوى هو الذى كان له الحظ الاوفر فى ذينك العملين العظيمين الذى لانظير لهما فى زمننا هذا أريد فتح قنال السويس وخليج بناما لكن كونهما فتحا بمال الفرنساويين لا يستلزم بقاءهما فى حيازتهم فاما قنال السويس فقد صار ملكا لانكلترا ومن المحتمل جدا أن يصير بناما ملكا للامريكان ومعناه استيلاء العنصر الانكليزى السكسونى على كل شيء فالفرنساويون يزرعون وغيرهم من الامم يحصدون والفرنساويون يتعرضون الى الاخطار حتى اذا وجبت الفائدة جناها غيرهم وهم اليه ينظرون

ثبت اذن أن فرنسا هى البلد الذى صارت الثروة فيه منقولة أكثر من غيرها

والسبب في هذا اهمال الفرنساويين على تمادى الايام منابع الثروة العمومية الثلاثة وهى الزراعة والصناعة والتجارة . ولسنا فى حاجة الى اعادة ماسطره الغير من أصرار ملوكنا وأخصهم لويز الرابع عشر على حمل الشرفاء على ترك أراضيهم وجلبهم الى دائرة الحشم والمعية وان الطبقة العليا تناست شيئا فشيئا سكنى الارياف واعمال الفلاحة واختارت الاقامة فى المدن الكبيرة وصارت فرنسا اليوم هى البلد الذى تطول فيه غيبة كبار الاغنياء عن أملاكهم وتحولهم عن الاشتغال باستغلال أراضيهم وأصبحت الاموال التى كانت ينبغى استعمالها فى الزراعة وتحسين طرقها معطلة لاتفيد الزراعة وكان من الممكن استعمالها فى الصناعة أو التجارة الا أنهما معتبران عند كل ملتصق بتلك الطبقة من الاعمال الدنيئة جريا على ذلك الوهم المتأصل فى الافكار من قديم حتى أن المشتغلين بهما لا يفكرون الا فى الكسب باسرع مايمكن ولا غرض لهم من جمع الاموال الطائلة الا التقاعد عن صناعتهم أو تجارتهم وادخال أبنائهم فى المهن التى تطلعت اليها الطبقة التى اتفقوا اليوم على تسميتها بالعليا وهى الوظائف الادارية . فمنتهى أمل كل فرنساوى أن يلتحق بوظيفة فى الادارة أو الجيش وهى الطريقة التى يكون الواحد منهم بها مكرما محترما وهى التى تؤهله الى أن يتزوج بامرأة من الاغنياء وتجعله مقبولا بين القوم الممتازين . اذن فالفرنساوى أما موظف أو مترشح للتوظف وله من ذلك راتب يقبضه وهو يقتصد من راتبه مازاد على حاجته ولا شك انه لايميل الى استعمال مااقتصد فى الزراعة أو الصناعة أو التجارة

للأسباب التي قدمناها وهي الحط من قدره على انه يجهل سبيلها بالمرة . وعليه فلم يبق لاستغلال ذلك المال الاشراء الاوراق المالية فهو الباب الوحيد الذي يمكن الدخول منه واليه يميل كل ذي مال لا يريد أن يشتغل لاستغلاله وانمائه أو غير قادر على ذلك . وهناك سبب آخر في كثرة النقود المتوفرة لدى العائلات الفرنساوية وهو قلة الابناء كما قلنا فالمال الذي تنفقه الامم الاخرى في تربية أبنائها الكثيرين يقتصده الفرنساويون ويبقى هكذا تحت طلب الشركات المالية فاصرارهم على تقليل النسل يوجب ضعف قوتهم الاجتماعية في المستقبل ولكنه يدعو الى زيادة الاموال حالا في خزائنهم ولا شك في أنه لو حصل هبوط في أسعار تلك الاوراق المالية التي جمعت أموال الكثير من الفرنساويين كلها لكانت مصيبة كبرى ولخسروا خسارة لا عوض لها

وليس هذا حال الامم الانكليزية السكسونية فلا يزال كبراؤها وعامتها مشتغلين بالزراعة وللوردات الانكليز أملاك واسعة يسكنون بينها وهم يدبرونها بأنفسهم ومن عمد الى الاستعانة بالغير في استغلال أراضيه فانه يحفظ على الدوام قسما يباشره بنفسه ومن أجل ذلك تراهم واقفين على أحوال الزراعة ومهتمين بشؤونها ومستعدين لاستعمال أموالهم فيها . ولا يكاد الفرنساوي يقدر المال الذي ينفقه أحد أغنياء الانكليز في تحسين طرقها والتفنن في أساليبها « راجع كتاب تدبير الزراعة عند الانكليز لموسيو لافارج » واستعمال الاموال في الزراعة هو أكبر باعث على اعتبار ذوي الحيثيات في تلك البلاد « راجع مذكرات على انكلترا لموسيو تاين » ومن الانكليز

عائلات كثيرة تهاجر الى أمريكا واوستراليا وزيلانده الجديدة وكلها تشتغل بالزراعة ولها أملاك كبيرة فيها لان الزراعة وحيازة الاراضى هما أقصى أمانيها وبذلك سهل على كثير من شبان الانكليز أن يرتزقوا فى البلاد الاجنبية ومتى اتجهت الهمم الى هذا السبيل لم يبق الا يسير من المال لشراء الاوراق المالية

وعلى الضد منهم لايهاجر من الفرنساويين الا النزر القليل ومن تكلف الرحيل عن وطنه فانما يقصد برحلته أن يكون موظفاً فى البلاد التى يقصدها الا نادراً وهم بذلك يعيقون تقدم الاستعمار أكثر مما يساعدون عليه

هذا ولم يقتصر الانكليزى السكسونى على الزراعة بل هو يهتم أيضا بالصناعة والتجارة حتى الكبراء منهم والامراء وأبناء اللوردات الذين يذهبون لغير بلدهم طلبا لحيازة الاراضى وزرعها ينشئون فى وطنهم معامل للصناعة أو يتجرون ولايخطر ببالهم فيما يعملون أنهم خرجوا عن تقاليد آبائهم كما أن هذا الخاطر لايجول بفكر أحد من أمتهم . وهذا هو السبب الوحيد فى اتساع نطاق الصناعة والتجارة فى انكلترا والولايات المتحدة بدرجة تكاد تبلغ حد الاعجاز ومعلوم أن ذلك يقتضى مالا كثيراً فلم يبق للاوراق المالية الا يسير

ومما يزيد أولئك القوم رغبة فى الزراعة والصناعة والتجارة عدم اعتبار الوظائف عندهم كما هى عند الفرنساويين فلا نرى فى انكلترا مثلا من الموظفين الا مالا بد منه ومن هنا طلب الناس رزقهم من الحرف النافعة الاخرى وهم فى مأمن من المخاوف لما هو مقرر فى شرائعهم من أن تركة

الرجل لاتقسم بين جميع ورثته فالرجل يعمل ويجمع الاموال.وله الخيار فى تأسيس الاعمال الباقية على الدوام بعد مماته

ومن المسلم آن الذى يجعل مدار ثروته عمله الذاتى وكسبه الشخصى لايكون عرضة للاخطار كالذى يتكل على تقلبات الاوراق المالية لأن الاول لايشترى تلك الاوراق الا من فضلة ماله ويشتريها وهو غير جازم بالكسب منها كمن يدخل بيت القمار فيرمى فيه ببعض دريهمات من نفقة نزهته فان أصاب ربحاً فبها وان أضاع ماأنفق فالضرر محتمل ورأس المال محفوظ مصون .

ألف موسيو « روزييه » كتابا سماه « عيشة الامريكان » تلذ قراءته خصوصاً الفصل الثالث عشر الذى عنوانه « كيف يستغل الامريكى ماله » فقد ورد فيه ماياتى « رأيت فى نيويورك وفى بوصتون رجالا يشتغلون فى الحرف الأدبية ومع ذلك يضعون فى الزراعة أو غيرها قسما من أموالهم ولهم علم بالجهات التى يضعون نقودهم فيها ولكنه لايتألف من ذلك شركات كبيرة بل جمعيات صغيرة خصوصية ومن همهم أن يقفوا على كيفية الاستغلال وطرقه ولذلك لايقسمون أموالهم ليضعوا كل قسم فى جهة مخصوصة كما يفعل بعض الفرنساويين احتفاظاً عليها بل يجمعونها كلها فى جهة واحدة وكلهم حراس عليها . ومن هنا تجد الجرائد الامريكية مشحونة بالاخبار العملية أى المختصة بالزراعة والصناعة والتجارة ولا ينشر أسعار الاوراق المالية الا القليل منها لان الكثير من قرائها لايلتفتون اليها وهو معقول اذ لو كان عندهم مال لما استغلوه فيها بل جهات الاستغلال عندهم هى الهمم

والعمل فيتخذ الواحد منهم مصنعا يشتغل بادارته أو يقصد التجارة ولكنه لا يرضى أن ينام على أوراق مالية يشتريها

من أجل ذلك تجد التعامل فى الاسواق المالية عندهم يحصل على الدوام بالنقد فورا فكل بيع أو شراء تدفع قيمته بتحاويل يقبضها المحول اليه فى اليوم الثانى ومن اشترى ورقا لزمه أن يأخذه من مكان ابتياعه وذلك من أكبر البواعث على الاقلال من أعمال تلك الاسواق فلا يقدم على العمل فيها الا من كان المال حاضراً فى يده ولا يجد من يبتغى الكسب بالدين اليه سبيلا

وعلى هذا يمكننا أن نقول بان هبوط الاسعار عند الامم الانكليزية لا يضرها كما لو حصل عند الفرنساويين اذ الاولى أقل من الثانية فى استعمال الاوراق المالية

ان الانصباب على تلك الاوراق في البلاد الفرنساوية هو الذى جعلها كعبة القصاد من ذوى الاموال وما اليهود الا بزرة لا تنبت الا فى أرض تناسبها والا لا تنتشر زرعه فى انكلترا والبلاد الاسكنديناوية والولايات المتحدة وأوستراليا وغيرها ولكنه لم يهبط إلى تلك النواحى لان المال فيها غير موجود في الاسواق ولأن كل من كان له نصيب منه فيها يستغله بنفسه فى أرضه أو صناعته أو تجارته . فحيث لا تجد اليهودى مالا يقتنصه وحيثما يجد قوما يعرف كل واحد منهم طريق الدفاع عما اقتنى تراه ينسحب من نفسه أو انه يفقد ما فى بزوره من الفساد .

الفصل الثالث

﴿في ان التربية الانكليزية السكسونية تساعد على التزاحم في الحياة﴾

« النوع والاخلاق »

جاءني في شهر مايو سنة ١٨٩٢ دعوتان الى بلاد الانكليز : الاولى من جمعية تقدم العلوم البريطانية لمناسبة احتفالها بالمؤتمر الثاني والستين لها من ٤ الى ١٠ اغسطس سنة ١٨٩٢ بمدينة ايدنبورج وقيل لي في ورقة الدعوة « ان لجنة الادارة ترجو أن تشرفوها ببقائكم ضيفاً عليها مدة اقامتكم في هذه المدينه وكونوا على يقين من أنها لن تهمل شيئا من شأنه أن يجعل لكم المقام حلواً مرضيا » فلما قرأتها أحسست انني غير قادر على عدم الاجابة

والثانية من الاستاذ « جيديس » مؤسس جمعية علميه يقال لها « جمعية الصيف » في المدينة ذاتها وكان يطلب مني أن ألقي بعض الدروس في العلم الاجتماعي على أصحابه

وفي اليوم الثاني من شهر أغسطس سنة ١٨٩٢ قصدت مدينة ايدنبورج فراقني مرآها وهكذا صرت أتردد عليها أربع سنوات متواليات وشاهدت تلك الجمعية الصيفية فاذا بها مدرسة علوم وفنون غريبة في بابها وهي في الواقع حقيقة بالانكليز وينبغي أن يعرفها القراء لذلك نذكر طرفا من موضوعها

اشتغلت الافكار بنشر التعليم في البلاد الانكليزية حتى انتهى القائمون به الى تأسيس دروس متعددة فى انحاء البلاد على الخصوص حول كل مدرسة من المدارس الكلية وتدوم تلك الدروس فى الغالب شهراً واحداً زمن العطلة الصيفية ويجتمع اليها الطلبة من رجال ونساء رغبة فى توسيع معلوماتهم وكل طالب أو طالبة يدفع جعلا معلوما . وقد نجح هذا المشروع جدا فى تلك البلاد لكثرة الذين يميلون الى زيادة التحصيل علما بان العلم أكبر مساعد للانسان فى حياته فاذا جاء الصيف وحان زمان تلك الدروس رأيت الناس يكتتبون فيها مئات مئات فى انكلترا والوفا الوفا في الولايات المتحدة

ولقد تولانى الاندهاش أول مرة جلست فيها لالقاء الدرس فى مدينة ايدنبورج لما رأيت أن عدد الطلاب يبلغ الستين الى السبعين اذ ما كان يخطر بالبال أنهم يبلغون هذا المقدار فى درس يلقى باللغة الفرنساوية وليسوا كلهم من طبقة واحدة بل من طبقات وأجناس مختلفة مما يفيد المتأمل فى أحوال التربية وأحوال الاجتماع . فمنهم بعض ذوى الاملاك العظام وفيهم الكثير من المدرسين والكتاب ومدير جمعية البحث فى أحوال الامم بلندره وعدد من طلبة المدارس وفيهم من الشبان الذين يتلقون دروسنا فى العلم الاجتماعى بباريس وقد أصابوا بمجيئهم الى ايدنبورج ومنهم بعض الفتيات وبعض المشتغلين بالتربية والتعليم والاعمال الخيرية من رجال ونساء وبعض المعلمين والمعلمات وهؤلاء أكثرهم بالطبيعة عددا . واتفق انى قلت لاحدى المعلمات أن زميلاتها في فرنسا لا يردن ضياع زمن العطلة المدرسية

عليهن فى تلقى دروس جديدة وعلى الخصوص بمقابل يدفعنه فبانت على وجهها علامة الاستغراب وأجابت أن استعمال زمن العطلة فى الاستفادة أمر طبيعى . والواقع أن عدد الطالبين والطالبات لتلك الدروس بجوار كليات « اكسفورد » و « كمبريدج » وغيرهما قد يبلغ الستمائة كلهم يدفعون المقرر المفروض

وليس لهذا الانصباب سبب غير رغبة كل واحد فى التحصيل ليكون له بذلك قيمة ذاتية تعظم وتترقى على الدوام

وقد بينا فى مجلة « العلم الاجتماعى » كيف أن تلك الرغبة تنمو بالتربية

ثم زرت عزبة فى ضواحى ايدنبورج فشاهدت أن الميل واحد عند أهل الزراعة كما هو عند غيرهم ولما نزلنا الى المحطة وجدنا صاحب العزبة فى انتظارنا واذا به رجل لا يمكن التفريق بينه وبين أحد أصحاب البيوت المالية أو احد السياسيين أو أحد أغنياء الناس بحال من الاحوال لانه قد جمع شمائل الظرفاء من كل وجه فلباسه حسن التفصيل كأنه خرج من يد خياط شهير ولهذا التحدى فى البيان كما لغيره مما يلى فائدة تظهر للقراء فيما بعد

أما العزبة فكائنة على مسافة كيلو متر واحد من المحطة ومقام صاحبها ملاصق لملحقاتها يصل الزائر اليه فى طريق منتظر تحفه الازهار من الجانبين وفى المدخل باقة منها ومنظر البيت من الخارج منظر دار لطيفة من تلك الدور الانكليزية ولما دخلنا وجدنا الدهليز مفروشاً بالبسط وكذلك السلم والطرقات حتى انتهينا الى قاعة الاستقبال حيث كانت سيدة البيت فى

انتظار نافقابلتنا بلا تحمش كما تقابل السيدات المتعودات على الاجتماع واستمر الحديث بيننا بلا فتور وأخذنا حظنا من كل موضوع وقد ألفيتها تعرف اللغة الفرنساوية مما يدل على انها أخذت نصيبها من التربية ثم قدم الشاى على أحسن ترتيب وشاهدت الخادمة ليست بتلك المرأة السمينة المتخمشة فى هيئتها البطيئة فى حركتها اللابسة لباس الريف المنتقلة فجأة من علف الماشية الى خدمة الظرفاء بل هى خادمة تدل أعمالها على علمها بواجباتها وقد اتشحت بفوطة بيضاء محبوكة الاطراف مكوية باتقان وعلى رأسها تلك الطاقية الحسناء التى تتقلدها الخادمات الانكليزيات فى بيوت الكبراء . ولا شك فى ان ذلك كله يدل على ان الرجل يعيش عيشة هناء ورخاء اذ لا يتأتى أن يكون قد أعد كل ما رأينا لاستقبالنا ولم يكن كذلك من قبل . ولقد أثر عند هذا المنظر تأثيرا جعلنى على الدوام أفكر فيه وأقارن بين ذلك الحال وما شاهدت فى غير تلك البلاد من نظائره فبالمقارنة تتبين الاشياء . وكأنى بالقراء وقد أدركوا انى لما رأيت صاحب ذلك المكان الانكليزى وتفقدت مقامه وخبرت نوع معيشته تذكرت أمثاله من أهل الزراعة الفرنساويين ومعلوم ان أحسن أهل الزراعة عندنا هم سكان الشمال فهم الذين نرى من بينهم المتعلم المتنور أو الحائز للشهادة الثانوية والذى أحب الترفه وجمع فى بيته كثيراً من موجبات الراحة واتخذ له قاعة مخصوصة يستقبل الزوار فيها وتردى رداء الحضر لا رداء الصناع ولاحت عليه امارات رب المال الذى يديره بنفسه وعاش فى سعة وطاب طعامه ولذ شرابه . غير ان كل الناس ليسوا كهؤلاء ولست أقصد أهل الجنوب أو الوسط أو سكان « بروتانيا »

ممن لا فرق فى المعيشه المادية بينهم وبين الاجراء بل اتراك هؤلاء لأتكلم عن أهل «نورمانديه» التى هى من الاقاليم الموسرة وأنا الآن أتذكر واحدا منهم زرته مراراً وله من الاطيان مائه وخمسون هيكتو متراًى كالذى يملكه صاحبنا الانكليزى وهو من الاغنياء بدليل انه جعل لابنه — ذلك الولد الوحيد — مهرا قدره مائة ألف فرنك وفى قدرته أن يعيش المعيشة الراضية ولكنه لا يميل اليها بل هو لا يدركها . تراه لابسا لباس العملة وهو القميص الازرق القصير الذى يلبس من فوق الا فى أيام الاسواق والموالد فانه يلبس رداء رثاً من جميع الوجوه ليس فيه محل للنظافة أبداً وامرأته على مثاله تذهب بنفسها لتغسل الثياب من حنفية عمومية ولا فرق بينها فى لباسها وحركاتها وحديثها وبين بنات العزبة كلهن وبيتهم من الداخل يشبه الساكنين فيه . فكلهم يقضى حياته فى قاعة كبيرة لها باب مطل على حوش العزبة وحيطانها مبيضة بالجير تلطيخا وهى عارية عن كل زخرفة وزينة وفيها من الاثاث كله مائدة كبيرة عبارة عن ألواح سطحت فوق أعمدة تحملها وعليها يأكل الاسياد والخدم بلا فرش ولا غطاء وحولها مقاعد من خشب تناسبها وهى اربعة كراسى كل واحد على شكل مخصوص مصنوعة من البرذى صنعا رديئاً ثم كانون الطبخ وماجور تغسل فيه الآنية هذا كل أثاث تلك القاعة ولم اختره من المستثنيات بل ذلك هو الحال الغالب عند الفرنساويين أجمعين وربما شاهد ذلك كل واحد من القراء مائة مرة الا انها حالة لا تشمئز منها نفوسنا لاننا نراها عادية طبيعية ونفهم ان الفلاح لا يمكنه يعيش الا هكذا لان الزراعة من لوازمها فقد موجبات

الراحة والنظافة

ولعل القراء يحسبون ان الزارع الانكليزى الذى زرته بعد استثناء كذلك كان ظنى بادىء الأمر ولكنى اعتقدت العكس لما دخلت بيوت الفعلة الذين يعملون فى أرضه . ولا حاجة بى أن أشرح كيف يعيش الفعلة عندنا فالواحد منهم اما أن ينام فى الجرن على القش أو الحشيش أو فى الحوش على أردأ سرير أو أن له أودة حقيرة يأوى اليها . ولما أذن لى صاحب العزبة بزيارة مساكن عماله رأيت على بعد مائة متر من منزله خمسة بيوت أو ستة تمتد على الطريق وهى ذات مناظر تعجب النواظر يتقدم كل بيت منها بستان صغير كله أزهار وله طرق فى غاية الانتظام ومن الخلف بستان آخر تزرع فيه أنواع الخضر . وعند وصولنا الى تلك المنازل رأينا فتاة عليها سيماء الاواسط من الناس جالسة امام أحدها وأمامها رضيع عليه الملابس البيضاء المتقنة فى عربة لطيفة فى حالة جيدة ذات أربع عجلات من النوع الذى يقال له انكليزى وهو رفيع الثمن كما هو معلوم وكان معى حضرة زميلى فى مجلة العلم الاجتماعى موسيو « بوانسار » فسأل صاحبنا ان كانت تلك السيدة من نساء المدينة أقبلت تتريض فى هذا المكان فأجابنا والعجب يأخذ منا كل مأخذ كما لا يخفى انها زوجة ذلك الشغال الذي يسكن البيت الواقفون نحن أمامه ثم سألها سيد المكان ان كانت تسمح لنا بزيارة بيتها فأجابت بالارتياح وأدخلتنا فوجدنا أمام البيت ممسحة للارجل وفى الدهليز بساطاً من الحبال لهذا الغرض بعينه ووجود الدهليز فى المنازل من موجبات نظافتها وراحة سكانها فلا يدخل الانسان فى الغرف من الخلاء مباشرة ثم الدهليز

يوجب حماية من فى البيت من البرد أكثر مما لم يكن موجوداً وعلى اليمين
قاعة صغيرة جعلت لغسيل آنية الطبخ والملابس ووجودها يوجب نظافة
أودة الاكل والطبخ لعزل الغسيل فى مكان مخصوص وأودة الاكل هى
أيضاً أودة المطبخ وهى كبيرة يبلغ مربعها أربعة أمتار فى اربعة تقريباً وفيها
من الاثاث ماترتاح النفس لوجوده وكانون الطبخ يغيب نصفه فى الحائط
ولا يظهر منه الا نصفه وتلك عادة مألوفة كثيراً عندهم وهو فى غاية النطافة
نحاسه براق ولا عجب من هذه النظافة لأن طباخات الانكليز أكثر مهارة
فى نظافة الآنية منهن فى طهى الاطعمة فهن ينظفن على الدوام ويستعملن
نشارة الرصاص وماء النحاس فى تنظيف المطبخ كما يستعملن الطباشير فى
نظافة الحيطان والحجر حتى يخيل للانسان إن الطباخة الانكليزية تجثو على
ركبتها زمناً أطول من الذى تقف فيه على قدميها . ويوجد فى تلك الاودة
قطعة من الاثاث الخشبي ذى الصنع الجميل أشبه بكرسى كبير عليها أنواع
عدة من المصنوعات الدقيقة مرتبة ترتيباً جميلا وهذا وحده يكفى لبيان
مقدار اعتناء عائلة ذلك الفاعل بمنزلها ولا يغيبن عن الذهن اننا نصف بيت
فاعل من فعلة الزراعة . ثم دخلنا أودة النوم فاذا فيها سرير من الحديد له
أكر من النحاس لماعة من النظافة وبجانبه صندوق ذو أدراج « كومودينه »
وفى مقابله مجلس « كنبه » ثم مائدة النظافة « تواليت » عليها احقاق من
الورق وزجاجة المياه المختلفة الالوان مصفوفة على أكمل نظام وهذا يدل
على ميل أولئك البسطاء الى الاشياء الجميلة وحسن الترتيب فى تنظيم المأوى
لكل الناس من هذه الطبقة مثل هذا الاهتمام لأنه يوجد على مقربة

من العزبة معدن فحم وقد شاهدت اغلب بيوت الفحامين على هذا المثال من بستان صغير أمام المسكن ومدخل نظيف وستارات بيض أو ذات الوان جميلة مختلفة فوق النوافذ وغير ذلك ومع هذا فقد شاهدت بعض محلات الفعلة محفوفة بمنازل قذرة مهملة وكل مايرى فى الداخل يدل على هيئة رديئة والاطفال يروحون ويغدون حفاة الاقدام بملابس رثة خشنة وقد سألت مدير المصنع عن هذا التفاوت فقال لى « ان الفعلة الارلنديين لا يهتمون بنظافة البيوت وموجبات الراحة فيها لذلك يعطون المساكن العتيقة اجرة زهيدة كافيه لحاجاتهم اما البيوت الجديدة فقد بنيت للفعلة الا يقوسيين الذين يعتنون بها ويزينونها بما يصل اليه الامكان » وقد أكد لى ذلك صاحب العزبة وانه يستعمل الا يرلنديين فى زمن الحصاد على الخصوص ويعطيهم منازل يسكنونها كيف كانت لان السكنى لاتهمهم

ومن هنا يتبين الفرق بين النشأة الاستقلالية التى هى نشأة الانكليز السكسونيين وبين النشأة الاتكالية التى هى نشأة الايرلنديين فيما يتعلق باستعداد كل فريق منهما الى نظام المعيشة وحسن الترتيب فى المسكن وهو فرق محسوس تأكدت منه فى زيارتى بعد أيام قلائل لاحد صناع الآلات الميكانيكية ببلدة « ينكويك »

ذهبنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر لتناول الشاى عند ذلك الصانع فوجدناه يسكن بيتا هو ملكه وهو طبقتان ارضية وعلوية وقدم لنا الشاى فى اودة معدة للاكل والاستقبال معاً وفيها مجلس « كنبة » وآلة موسيقى « بيانو » وبساط يستر اغلبها وفوقه بساط اصغر منه واقل ثمناً لحمايته مما يدل على

ان سيدة البيت ذات اعتناء به وبنظافته أما الشاى فقد تناولناه على مائدة مربعة فى آنية تكاد أن تكون من الزخارف فغطاء المائدة من نسيج التيل الدقيق والاكواب من الخزف الجميل وخمسة أطباق أو ستة ملأى بأنواع الافطرة وعيش مقدد مدهون بالزبدة . ولما شربت أول مرة طلب منى أن أثنى فرضيت واذا بهم غسلوا كوبتى قبل أن يصبوا الشاى فيها من جديد وأودعوا الماء صحفة موجودة فوق المائدة لهذا الغرض بعينه : ولا أظن أنى مخطىء اذا قلت أن الفرنساويين يكتفون غالباً بأن يصبوا الشاى مرة ثانية لضيفهم من غير زيادة احتفاء واحتفال . وعلى كل حال فهذا هو الذى أعلمه عن بلدى ومن جاورنى . والخلاصة أن ذلك العامل البسيط يتأنق فى تناول الشاى وتقديمه تأنقاً لو أدخل فى كثير من بيوتنا لعد تقدما

ثم سألت صاحب العزبة عن أجرة الرجل عنده فأجابنى خمسة وتسعون فرنكا فى كل شهر ومسكن وبستان للخضر تبلغ مساحته « اكرين » ونصيب من البطاطس كبير وهذا هو الايراد الذى يتمكن به أولئك الفعلة من تحصيل العيش بالكيفية التى شرحناها لان نساءهم لا يشتغلن فى الخارج الا قليلا ولم يقم دليل على أن النظافة وحسن نظام المنزل تقتضى من النفقات أكثر من اختلال الحال والوساخة والاضطجاع على المكاسل فى القهاوى والحانات

وليلاحظ أيضا أن العامل الانكليزى لا يقتصد الا قليلا بخلاف رفيقه الفرنساوى فالاول ينفق مايكسب كله تقريبا واعتماده فى تحصيل عيش أوسع انما هو على مايرجوه من زيادة الراتب بانتقاله من درجة الى

أرفع منها لا على مايدخره من أجره اليومى . وله فى الواقع فراسة وحذق فى الارتقاء فلا يضيع فرصة الترقي متى سنحت وهـذا هو السبب فى أنه لايحجم عن التغرب ولا يخاف الهجرة عن بلده اذا رأى الضرورة القائمة كما يدل عليه عدد الذين يهاجرون الى جميع الاقطار من الانكليز السكسونيين وهمه بمستقبله ليس الا فى ادخار بعض الشيء لارملته بعد وفاته لذلك يميل الانكليز الى التأمين على الحياة كثيراً وهـذا هو السر فى انتشار شركات التأمين المذكورة فى انكلترا والولايات المتحدة انتشاراً كبيراً

وفيما تقدم برهان جديد على ما لاصحاب هذه النشأة من الاستعداد للتقدم والترقي

وأهم منه أن الرجل فى هذه البلاد مهما صغر وكان حقيراً يعيش عيشة أحسن من معيشة أهل القارة الاوروباوية وفى راحة من حيث نظام البيت أوفى وفى كرامة كما يقول الانكليز أوفر وبالجملة فانه لاينقص عامل هذه البلاد فى الريف أو الحضر الا يسير جداً ليصبح فى الظاهر بل ويجوز أن يصبح فى الحقيقة أيضاً من ذوى الحيثيات الذين عرفوا النعمة منذ نعومة الاظفار فبذور التنعم مغروسة عنده وحالته فى الظاهر تدل على ميله اليـه وطمعه فيه لأنه يفضل أن ينفق ليعيش فى سعة على أن يقتر ويعيش شقيا

أما عندنا فالفضيلة الكبرى هى التوفير والادخار ولا تقدم لنا الا بالتقتير والحرمان لذلك يرضى الرجل منا بما يعافه الانكليزى فرتبات موظفى الحكومة عندنا من كل الطبقات أدنى من مرتبات الانكليز ومع ذلك فكثير من الموظفين الفرنساويين يدخرون جانباً من مرتبهم الزهيد. لكن

الرجل من الانكليز سخى فى الانفاق على نفسه حتى يحصل أكبر حظ ميسور من العيش والرغد ثم يستغل مافاض عنده بنفسه

ولقد ظهرت فينا آثار تعودنا على التوفير والمعيشة مضيقة فلا نزال نحافظ على تلك العوائد ولو بلغ الواحد منا مبلغاً من الثروة والمال ذلك لان العادة لا تزول فنكتفى ببيت له من النظام اليسير ونرضى بالزينة العرضية القليلة اللهم ان لم نفضل معيشة أهل « نورمانديه » الذين لا يبتغون الخروج من تعاستهم مهما كسبوا

ان فى طبقات العملة منا استعداداً لتحصيل المال بالاقتصاد والتوفير ولكنهم لا استعداد فيهم الى الارتقاء من حيث الأحوال الاجتماعية أى انهم لا يذوقون حلاوة عيشة السعة الراضية ولا يدركون لذة نظام المنزل وكمال موجبات الراحة فيه

بعد الفراغ من قراءة الدرس ذات يوم ركبت مع بعضهم عربة وقصدنا زيارة عائلة تسكن فى ضواحى ايدنبورج حيث أعد لنا طعام الظهر وكنت ميالا كثيراً لزيارة تلك العائلة لأنها من قراء مجلة العلم الاجتماعى اذ وجدتها فرصة أقف بها على تأثير تعاليمنا فى أذهان الانكليز . فلما قربنا من المنزل وجدناه مشيداً على مرتفع عظيم وقد جمع من الزخرف وحسن الترتيب شيئاً كثيراً والعائلة تتألف من زوجين فى ريعان الشباب ووالد الزوج وثلاثة أولاد فيما أظن وكلهم يسكنون السنة بأكملها فى الخلاء على مسافة ستة كيلومترات من ايدنبورج . وقد شاهدت فى الطريق مساكن كثيرة قيل لى انها مسكونة على الدوام ويسكن الخلاء على الدوام حتى فى الشتاء عادة من عادات الانكليز

فقد اخبرتني فتاة على وشك الزواج انها ستسكن الضاحية وان كانت أشغال زوجها تستدعيه كل يوم الى المدينة . ومما يدهشنا نحن الفرنساويين قولها انها ترى ذلك ألذ وأهنأ اذ يخلص الانسان من جميع القيود ويجد معدات الراحة ولوازم الرغد كاملة. وفي ظني ان الاستقلال ورغد المعيشة هما القطب الذي ترمي اليه أفكار الانكليز وتتجه نحوه أعمالهم كلها في هذه الدنيا لذلك تراهم يرتاحون في العزلة والاقتصار على ماقل من الاصحاب وفي ذلك للأمة من القوة مالا يخفى . ولما دنونا من المنزل قوبلنا بحفاوة وا كرام اثرا عندي أي تأثير كأني كنت لهم صديقاً عرفوا مبادئه ووافقوه . والواقع ان العلم الاجتماعي لايدخل أمخاخ الانكليز كما يعلق بأذهان الفرنساويين والفرق بين الامتين في ادراكه يرجع الى ان الفرنساوي يقرأه ليبحث فيه عن طريقة تنتظم بها أحوال المجتمع الانساني بأكمله وأما الانكليزي فانه يستهديه طريقة يسير هو عليها بين الناس وميل كل أمة يناسب نشأتها . فنحن أهل النشأة الاتكالية نصبو الى الافكار العمومية والانكليز أهل النشأة الاستقلالية يميلون الى الامور العملية المفيدة . هكذا فهم أهل الدار التي نحن فيها العلم الاجتماعي والتمسوا منه بابا للمعيشة وهم من أرباب الاملاك الواسعة أجروها لآخرين الى زمن ينتهي هذا العام وقد عولوا على عدم تجديد الايجار وان يتخذوا أرضهم مقاما لان الرجل يريد ان يدير أملاكه بنفسه . وحتى يأتي الاجل المعلوم تراه مشتغلا بالاستعداد وأخذ الاهبة بمزاولة العمل فيقضي يومه طول النهار في عزبة صديق يجاوره حيث يشاهد أعمال الزراعة ويتعرف طرقها والكتاب في يده والتطبيق بين يديه

على الطريقة الانكليزية التى هى المثلى . وقد شاهدت ان الانكليز حتى الذين يشتغلون بالتجارة والصناعة ويقضون نهارها فى المدن أكثر استعداداً للزراعة من صناعنا وتجارنا فهم أقرب اليها منا و يستسهلون الدخول فيها عنا فقد أخبرنى أحد الاصدقاء موسيو « بياش » وكان يرافقنى انه زار أحد مستأجرى العزب فعلم انه كان وكيلا لاحد البيوت المالية فى ناحية وأصاب البيت جائحة فاقفل أبوابه وتخلى عنه ذلك الوكيل فاستأجر أرضا فسيحة وأقام فى فلاحتها . وانى لا أخالنى أجد كثيراً من أمثال هذا الرجل فى البلاد الفرنساوية

وقد بحثت عن علة استعداد الانكليز الى الزراعة فوجدتها التربية التى تكاد ان تكون ريفية لكثرة مايوجد من الجنائن فى مساكنهم يضاف الى ذلك ماهو لازم لنشأتهم الاستقلالية من الشغف بمعرفة الاشياء التى تقع تحت نظرهم أكثر من حبهم في معرفة الناس فيشبون على تعرف تلك الكائنات وتسهل عليهم عيشة الريف لمطابقتها أيضا لرغبهم فى تحصيل رزقهم بأنفسهم فلا يبلغ الواحد منهم أبان الشباب الا وقد مارس غرس الاشجار وزرع البقول وتربية بعض الحيوانات المنزلية . كل ذلك يدركه الكثير من شبان الانكليز بمحض الفطرة من غير تعب ولا عناء وهذه معلومات لايحصلها عندنا الا الفلاحون ومن أقاموا على ادارة أموالهم بأنفسهم . وقد شاهدت أحد زملائنا موسيو « بيرو » آثار هذه التربية بادية حتى فى مدارس المدن بالولايات المتحدة الامريكية عند ماذهب اليها لغرض يتعلق بأبحاثنا الاجتماعية فرأى ان الاهتمام بالعلوم الطبيعة خصوصاً

مايتعلق منها بالنباتات والحيوانات هناك أكثر منه عندنا وانهم لا يقتصرون على تعليمها فى الدرس بل يقرنون العلم بالعمل والمشاهدات . وكثيراً ماتدور ابحاثهم على موضوع حى بين يديهم والمدارس يطلب من تلامذته أن يأتوه فى الدرس القابل بفرع من شجرة أو ورقة ليلقى عليهم الدرس بمشاهدتها حتى يكون ادراكهم للشيء حاصلا بواسطة ذلك الشيء المأخوذ من مكانه الطبيعي . وظاهر ان هذه طريقة اثبت فى التعليم وأبقى للعلم فى الاذهان فيسأل التلميذ عن المكان الذى تنال منه الشيء والارض التى كان موجوداً بها وعما اذا كان لاحظ نموه وأمعن النظر فى شكله وهيئته وغير ذلك

ومن المعلوم ان هذا التعليم غير ميسور الا اذا سكن التلامذة أو بعضهم في الخلاء أو كانوا به متصلين كأن يكون في مدارسهم أو على مقربة منها بساتين يأخذون منها مايحتاجون اليه فى درسهم

لاحظ «تاين» فى الانكليز هذا الاستعداد لمزاولة أعمال الزراعة والميل الى المعيشة فى الارياف واذكر عنه انه كتب فى بعض مؤلفاته ان الزراعة من المسائل التى تجرى المسامرة فيها فى البيوت بين المجتمعين من أهل وزوار حيث يدور البحث على طرق اصلاح الاراضى ويسرى الحديث الى الجزئيات والاستشهاد بالامثلة وكل واحد من الناس يميل الى هذا الحديث وللنساء فيه حظ الرجال

وعليه فلا يستغرب ان زوجة صاحبنا الذي أشرنا اليه تكون مستعدة بكمال الرضاء الى مصاحبته فى سكنى أراضية التى يريد أن يتولى ادارتها بنفسه وقد حادثتني فى هذا الموضوع مليا فرأيت منها العزيمة صادقة وانها عولت

على ماعزمت بروية بعد ان احاطت باطرافة وتبينت وجهي الضرر والنفع منه . ولو ان فى زوجها ترددا لوجدتها مساعداً لهمته ومعينا له فى مهمته . ولا شك فى ان معونة المرأة للرجل مما يشد أزره ويزيده قوة واقداما . وانى أعرف كثيراً من أصدقائى فى فرنسا يودون أن يتولوا ادارة أطيانهم بأنفسهم لقلة المستأجرين ولكنهم لا يستطيعون ذلك لاباء نسائهم مرافقتهم فالمرأة الفرنساوية أبعد عن معيشة الريف من الرجال ويشق عليها أكثر منه أن تتخلى عن صاحباتها وزياراتها والاجتماعات التى اعتادتها وربما كانت هي حجر العثرة الوحيد فى طريق تقدم زراعتنا وصناعتنا وتجارتنا بما ارتكز فى ذهنها من الوهم بان تلك حرف دنيئة لذلك يتزوج الرجل أحسن زواج أى اغني امرأة «وبين الاول والثانى فرق بعيد» إذا كان في الجيش أو موظفاً فى الحكومة ويقال ان للرؤساء الروحانيين تأثيراً على النساء ولكني أود أن لايكون ذلك كذلك حفظا لشرفهم واستبقاء لحسن السمعة عنهم

لم يكن عندى درس يومى السبت والاحد لانهما يوما عطلة فى انكلترة فمن ظهر السبت تقف حركة الأعمال وتقفل المعامل والحوانيت الى صبيحة يوم الاثنين . ورب سفسطائى يجول بخاطره ان الانكليز هم أكثر الامم عملا واقلهم عملا والواقع انه لانظير الانكليزى فى قدرته على العمل ولا فى قدرته على الاستراحة منه لانه يعمل أكثر مايمكن فى اقل مايمكن من الزمن ليستريح ماامكن وقد شاهدت فى لندره ان بعض المخازن لاتفتح قبل الساعة التاسعة صباحاً ثم هى تقفل فى المساء مبكراً أكثر من عندنا وكذلك شأن المصالح ودوائر الاعمال. والخلاصة ان يوم العمل الصحيح

أقصر عند الانكليز منه عندنا . ومن هنا سهل على الانكليزى ان يذهب كل يوم الى بيته فى ضواحى المدينة وان يعود فى الصباح لانه لا يسكن حيث يشتغل كما قدمت الا نادراً . وقد أكدلى بعضهم ان كثيراً من أرباب الحوانيت فى ايدنبورج يسكنون الخلاء و يقطعون كل يوم صباح مساء مسافة كبيرة . أما عندنا فالا كثرون يسكنون خلف محال تجارتهم أو فوقها لذلك يسهل عليهم ان يفتحوا أبواب أشغالهم مبكرين ويقفلوها متأخرين ثم ان كثيراً منهم لا يعطلون يوم الاحد وما من أحد يستريح يوم السبت بعد الظهر أبداً . ولو اقتصر المتأمل على هذه الحال لقال ان الفرنساوى أكثر عملا من الانكليزى غير انه لا ينبغى الوقوف عند عدد ساعات العمل بل الواجب زنتها وزنة عمل الانكليزى أكبر بكثير فهو يعمل كثيراً فى وقت يسير ولا يكاد يستريح هنيهة يتناول فيها شيئا من الطعام وسط النهار وقد يتناوله وهو على قدميه من دون ان يتخلى عن العمل .

انتهزت فرصة الفراغ صبيحة يوم السبت وذهبت لزيارة أحد مناجم الفحم على مقربة من مدينة « هاوترندين » وهناك تعرفت بابن عم مدير المنجم وهو شاب انكليزى يشتغل بتجارة الاغنام فى زيلانده الجديده ويأتى فى كل سنتين مرة ليقضى شهرين فى انكلتره وهو راض عن حالته فى تلك البلاد وقد اختارها مقاما أبديا وقال لى « هناك الحياة الحقيقة » فسألته عن موجب اعجابه بها فقال « الاستقلال » وهو برهان جديد على ان محبة الاستقلال هى التى تحرك الانكليزى وتدفعه الى العمل فى جميع الاحوال ومهما قلبنا أحوالهم وبحثنا فى عوائدهم . وأخلاقهم وسبرنا غور مقاصدهم

ومراميهم لا تهتد الى نتيجة غير انهم يحبون الاستقلال . سألته عن أنجح الطرق للمعيشة فى تلك البلاد فقال « ان يبتدىء الانسان كعامل بسيط برعى الاغنام » هكذا ابدأ ذلك الشاب ولا تنس ان عائلته من خيار العائلات الوسطى غير ان الانكليزى لا يحتقر من الصنائع الا ماقل كسبها لكن رعاية الاغنام كثيرة الفوائد لأنها أحسن وسيلة تمكن صاحبها من معرفة أحوال البلاد التى نزل بها ومن الوقوف على جميع مايلزم للاتجار بالأغنام وأكبر صعوبة على النفس فيها وجود الانسان مع قوم خشنت طباعهم غير مثقفين . قال صاحبنا (ولكن اذا كان الرجل ممن حسنت تربيته لا يلبث ان يصير محل احترام أولئك القوم على ان من السهل اجتناب رذائلهم بالسكنى بعيداً عنهم) فاذا تم الاختبار وكمل العلم بحاجات الصنعة التى اختارها أقدم على شراء قطيع من الغنم أما اذا أراد القادم فى تلك البلادان يبدأ بالتجارة مباشرة فانه يصبح العوبة فى أيدي السماسرة فيقع فى ارض قليلة الانتاج وماشية معدومة النتاج . وفى ظنى ان شبابنا لا يرضون أن يبدأوا فى العمل على هذا المثال على انه المثال الأقوم وبه ينجح الكثير من شبان الانكليز السكسونيين

وجهت العناية الى زيارة كثير من المنازل الخلوية فكنت أذهب اليها كل يوم بعد الظهر وأول ماتأثرت به كون تلك العائلات قد اتخذت الريف مقاما أصليا يدل عليه مايشاهده الزائر لتلك المنازل من كثرة الصور التى تمثل أفراد العائلة والمقتنيات الفنيه الثمينة وقد يحتوى بعض هاتيك القصور على مدخرات تتفاخر بها المدائن الكبيرة لو كانت فى دار تحفها ومع ذلك

اتصل بى أن بعض تلك العائلات أصبحت فى حالة عسر اضطرتها الى بيع أرضها ومنها صاحبة قصر وبستان كنت أزورها وهى من أشراف ايقوسيا الاقدمين من سلالة « السلتبين » ومن الاستقصاء علمت انها تقلبت في أدوار الحياة كتقلبات الشرفاء فى فرنسا بمعنى انها ابتعدت عن مزاولة الاعمال وما حفظت مقامها بين اترابها الا بانتقال ثروتها من الارشد الى الارشد وكثيراً ما كان التوارث يحصل بطريق الايصاء مما يشبه الوقف ومع هذه الحياطة قد اخنى الزمان على الكثير من تلك العائلات وأمست يحدق بها الزوال والاندثار

ولا غرابة فى هذا فان طبقة أشراف الانجليز ليست فى الحقيقة من نتائج الاجتماع الانجليزى السكسونى لان الجمعيات الاستقلالية لاتلد مثل الطبقة المذكورة فلا يجد الباحث فى أحوال الامم طبقة ممتازة يتوارث شرفها من الخلف الى السلف فى البلاد التى نشأ فيها رجل الاستقلال بعيداً عن المؤثرات الاجنبية أى على حالته الاصلية . هكذا الحال فى بلاد «نرويج» وفى بعض جهات السكسون المسماة «بلين» حيث يشاهد الزارع السكسونى على ما كان عليه منذ القدم بدون أن يختلط به غيره . كذلك لاتجد أثراً لطبقة الاشراف الوراثية فى البلاد الجديدة التى يسود فيها الآن العنصر الانجليزى السكسونى فلا أثر لها فى الولايات المتحدة ولا فى أوستراليا ولا فى زيلانده الجديدة وغيرها . ولا غرابة فى هذا لان طبيعة ذلك الجنس لاتقتضى ذلك الوجود . والذى يميز النشأة الاستقلالية عن غيرها من المجتمعات الانسانية هو قيام كل ولد مستقلا بنفسه على ما أودع في شخصه

من القوة والاقتدار من دون معونة الذى تربى فى حجورهم وهى الحالة التى يعبر عنها الانجليز بقولهم « مساعدة المرء لنفسه » و « التزاحم فى الحياة» ومن المحقق ان طبقة اشراف الانجليز وما يتبعها من حقوق الارشدية والايصاء بانتقال الملكية من الوالد الى الولد آتية من مبدأ يخالف ماتقدم فهي أثر من آثار الجمعيات الاتكالية القائمة على قاعدة مساعدة العائلة لا بنها مما ينزل بهمته الى الحد الادنى ويكفيه مؤنة مساعدته لنفسه ومزاحمته فى الحياة . فارشد العائلة الشريفة فى بلاد الانجليز ينشأ كما ينشأ أهل جمعية الاتكال

دخلت طبقة الاشراف الوراثيه بلاد انكلترة مع « النورماند » الذين وفدوا عليها بقيادة غليوم الفاتح ونحن نعلم ان الفاتحين من النورماند هم من أمم الاتكال تجمعوا من كل الجهات طمعا فى الغنائم وأخصهم من فاسدى الطباع ومن لا اخلاق لهم ولا أرض يطمئنون فيها . والتاريخ يدلنا دلالة واضحة على كيفية احتشاد تلك الجنود ويبين لنا بيانا كافيا كيف نزلوا الى بلاد الانكليز وانهم انفرطوا بين أهلها وقاسموهم أرضهم فاختصوا باحاسنها ولكنهم لم يطمئنوا اليها كاطمئنان السكسونيين أو المهاجرين من أهل الامم الاستقلالية . واستمر السكسونى المغلوب يزرع الارض لمنفعة النورماند والنزاع القائم بين الفريقين انما هو نزاع بين جمعيتين من نشأتين مختلفتين كل الاختلاف

وبقدر ابتعاد النورماند عن الاطمئنان الى الارض ومزاولة أعمالها تمسكوا كل التمسك بما يرجع الى نشأتهم الاتكالية وهو الشرف الوراثى

الذى ينتقل من الوالد الى الولد وأقاموا على ما أوجدوا من ذلك الى يومنا هذا فأضروا كثيراً مدى قرون عدة بالعنصر الانجليزى السكسونى أو الاستقلالى فى انجلتره . وليس من مطلبي أن أبين فى هذا الكتاب كيف انتهى الحال باجتياز الانجليزى تلك العقبات وتغلبه على هاتيك العوائق التى قيدته أزمانا طوالا وصيرورته صاحب المقام الأول بما أودع فيه من القدرة على المقاومة والاحتمال والحياة التى تفوق حياة غالبة كثيراً ولكنى أشاهد ان من نتائج نصره حصر السلطة الملوكية فى أضيق دوائرها فمن المعلوم أن الانجليز انتهوا بتأسيس نظامهم على أن تحكم الامة نفسها بنفسها وذلك من خصوصيات النشأة الاستقلالية . وكان وصولهم الى هذه الغاية فى الزمن الذى استولت فيه النشأة الاتكالية على أزمة الامة الفرنساوية فأفضى أمرها الى سيطرة لويز الرابع عشر واستبداده المطلق فى حكومتها

غير أن الانجليز لم يتخلصوا من جميع آثار النورماند فيهم بل بقى لهم منها طبقة الاشراف الوراثية واكتفوا فى ابادتها بأن قللوا من شأنها وجعلوها كالملوكية اسمية لافعلية مع بعض الامتيازات السياسية كوجود قسم من أفرادها فى مجلس اللوردات ولم يناضلوها على هذا الامتياز لأنهم وجدوا مزاياه راجحة على مضاره حتى الآن . وبيانه ان الانجليزى وأعنى به القسم السائد من الانجليزى ذا النشأة الاستقلالية ميال بالطبع الى الصنائع والحرف لما قدمناه من احتياج الشبان الى تحصيل مرتزقهم بأنفسهم من دون التفات الى ثروة آبائهم أو انتظار مهور نسائهم وبما أودع فيهم منذ طفوليتهم من محبة العمل والاقدام عليه سدا لتلك الحاجة التى يعرفونها ومن وقف على

حقيقة هذا الميل وضحت له الفائدة التى يراها الانجليز فى طبقة الاشراف التى وجدت بينهم بالقهر عنهم : يرون فيها وسيلة سهلة ترضى به نفوسهم وتروق فى نظر الغير لأداء وظيفة لابد منها وهى السياسة التى هم لايميلون اليها ميلا خصوصيا . ومن المحقق أن طبقة الاشراف أوجدت لهم مجموع رجال سياسيين من أرفع السواس مقاماً وزد على ذلك ان دوام مصادمة التربية الاستقلالية التى هى أصل فى السكسونى للشرفاء خفف من ثقل وطأتهم كثيراً وعلى الأخص منذ قرن من الزمان

أثرت النشأة الاستقلالية فى الاشراف من جهتين

الاولى انها انتشلت الولد الثانى من البطالة وأبعدته عن خدمة البلاط وحولته عن وظائف الحكومة والجيش وهذه الوظائف هى التى كانت عندنا الملجأ الوحيد لاولئك الابناء وأدت بهم شيئا فشيئا الى الاضمحلال وفقد القدرة على العمل هم والارشدون سواء فانحدر ذلك الولد مع تيار الحياة الجديدة حيث يقوم الرجل فيها بأمر نفسه مما هو خاص بالنشأة الاستقلالية . لذلك اذا انقرض نسل الارشد ووقع المال الى أحد أولئك الابناء الثوانى رأيته يدخل فى صف الشرفاء وقد تربى تربية متينة واكتسب خبرة وهمة لم تكن لغيره ممن لم يعش معيشته ولم يعرف شيئا من الحرف التى ترجع الى الزراعة والصناعة والتجارة فهم يجددون حياة تلك الطبقة آنا فآنا ولولاهم لانحلت وأصبحت عفاء . ومن موجبات حياتها أيضا مايضاف اليها من الرجال السكسونى الاصل الذى ترفع الحكومة رتبتهم وتنعم عليهم بالقاب اللوردات وما يماثلها

الثانية أنها ما زالت بالاطراف كما فعلت بالملوكية حتى انتزعت من نفوسهم كل طموح الى العبث بحرية الافراد واستقلالهم . ذلك لأن رجل الاستقلال لا يهتم بالسياسة اهتمام رجل الاتكال بها ولا أن يعيش منها مثله ولكنه شديد الحرص على استقلاله وخلاصه من كل قيد يعيقه فى عمله الذاتى لاحتياجه اليه فى تحصيل مرتزقه فلا يطيق ما يعيق زراعته أو يعطل صناعته أو يضر بتجارته ولا يقبل أن تضايقه الحكومة باستبدادها ولا أن تثقل عليه ضرائبها ونتيجة تلك الحال ميله الدائم الى جعل الحكومة قاصرة على وظيفتها الضرورية وهى حفظ الامن العام اللازم لكل واحد فى عمله . أما نتيجة حال الامم الاتكالية فهى بضد ذلك . الاخلال بالامن العام بقدر الامكان والناس يعملون لذلك جهدهم رجاء ما يسرون فى نفوسهم اذا تغلب حزبهم من نيل الوظائف ذات الرواتب الوافرة لهم أولا بنائهم اذ الثابت فى الاذهان ان أحسن العيش ما كان ثمنه من أموال الامة التى تجمعها الحكومة فى خزائنها وليس لما أحدثنا من القلاقل وما أضرمناه من نار الثورات والفتن المتعددة التي لا يزال أهل أمريكا الجنوبية يستخدمونها فى كل يوم سبب غير ما تقدم

هكذا كان تعود الامة الانجليزية على حكومة نفسها بنفسها مقللا لامتيازات الشرفاء منهم وهم الذين كان يخشى من ثقل وطأتهم وصيرورتهم ممقوتين بسببها

ومع أن طبقة الاشراف الوراثية طارئة على انجلترا فانها أضرت برجلها الاصلى وغيرت منه كثيراً واذا قابلنا بين منافعها وأضرارها وجدنا الثانية

هى الراجحة

مدار النشأة الاستقلالية على أن الرجل لاقيمة له الا بنفسه وقدرته على العمل وهمته ومثابرته ولافرق بين الناس وبعضهم الا بما كان راجعاً الى تلك الصفات ودخول طبقة رفيعه المقام بمقتضى الوراثة والتناسل قد أوجد بجانب هذا الاصل فكراً آخر اتكاليا مادته ان الرجل ليس شيئاً بنفسه بل قيمته تأتيه من عائلته وعشيرته وحزبه الذى ينتمى اليه وظاهر ان هذا تغيير عظيم كما أشرت اليه لأنه يغير مثال الامة فى أصله ونحن أهل القارة لانشمئز كثيراً من هذا الفكر لاننا ربينا كلنا فى فكرة الاتكال على اختلاف فى قوة تأثيرها عند كل فرد بذاته ولذلك نرى تقسيم الناس الى طبقات بحسب النسل والعشائر أمراً طبيعياً . الا أن الامر ليس واحداً فى انكلترا لاسيا عند مجموع الامة حيث النشأة الاستقلالية ثابتة الدعائم فى الاذهان وكثيراً ماشاهدت هذا الشعور عندهم وهو ظاهر فى كتاب ألفه مسيو (شاكيرى) وسماه (كتاب المستشرفين) فى التنديد على الذين يحبون الشرف ويميلون اليه . والمستشرف هو الذي يعجب بالامراء ويقلدهم فيما يفعلون ومايقولون ويتخذ كل وسيلة للتحكك فيهم . والالتصاق بهم ولا ينظر فى أحوال الناس ويحكم على أعمالهم برأيه ونظره بل بما يراه أولئك الامراء الذين جعلوا لهم حياة على حدة . قال المؤلف « لقد يستغرب الانسان من انتشار اللوردية والاهمية التي صارت لها في هذه البلاد وكيف يصح فى بلدنا التي يقال لها حرة أن تعبد رتبة الآباء (اللوردية) حتى لم يبق فينا واحد لم ينخدع بخيلائها ولم ينبطح على بطنه اجلالا لها وتعظيما

وفى ظنى ان تأثير الشرفاء على المستشرفين كان تأثيراً عظيما فبقاء هؤلاء وانتشارهم فضل من فضائل الاشراف التى نحمدهم عليها » وليلاحظ أن الكاتب كان يقول ذلك سنة ١٨٤٨ أيام كان صوت الاشراف رفيعاً وقولهم مسموعاً ثم أخذ المؤلف يذكر فلاناً وفلانا ممن غرتهم الظواهر فاستشرفوا وجعل يصفهم بصفات يهرب العاقل منها

واعلم بأن الاستشراف منتشر فى فرنسا كانتشاره فى انجلترا فما منا الا من يحب الاشراف ويصبو الى الشرف غير ان الفرق بيننا وبينهم ان حالتنا طبيعية ترجع الى نشأتنا الاتكالية بخلافها عند الانجليز فانها عرضية دخيلة فى بلادهم مناقضة لنشأة العنصر السائد فيها ولذلك يرجى حصول التغيير متى قويت النشأة الاصلية وتغلبت على الدخلاء وهذا هو مايجرى اليوم فى تلك البلاد اذ من المحقق أن تأثير الشرفاء يضعف يوماًفيوماوهو الآن أقل بكثير منه في زمن « شاكيرى » على قربه منا ويخال ان مركزهم أصبح متزعزعا بدليل انحطاط سلطة مجلس اللوردات شيئاًفشيئاحتى انتهى الناس فبحثوا جهاراً فى وجوب الغائه ومما لاشك فيه ان الغاءه لايحدث تغييرا البتة فى نظام الامة الانجليزية لانه من الاصل أمر زائد فى ذلك النظام

على أن انجلترا لن تعدم بفقد اللوردات وجود طبقة رفيعة لان العنصر الاستقلالى يلد هذه الطبقة وان كان التكوين مختلفاًوتلك الطبقة موجودة فعلا فى بلاد الانجليز ومنتشرة بين أهلها وهى طبقة المهذبين . والفرق بين المهذب وبين اللورد أو الشريف ان منزلة الاول ليست وراثية بل هى

ذاتية كسبية ولا دخل للحكومة فى اقرارها وانما الناس يعرفونها لمن أصبح جديراً بها ويقال اليوم عندهم فلان مهذب أو غير مهذب يراد بذلك ان له من حميد الصفات وجميل الاخلاق مجموعا يعسر التعريف عنه وربما جمعها الانكليز فى كلمة «الكرامة» أو «الوقار». والمهذب موجود فى جميع الحرف وجميع الصنايع ماعلا منها وما اتضع كما أن الناس لا يطلقون هذا اللقب على رجل كريم الحسب اذا بدا من أطواره مالا ينطبق على موجبات الكرامة والوقار. فالمهذب هو مثال أعلى طبقات السكسونى كما ان اللورد أو الامير مثال أعلى طبقات النورماند

وهناك سبب آخر يساعد انكلترا على التخلص من شر الاستشراف ذلك ان الرجل عندنا يصبح فى صف العظماء معدودا من الامراء متى احترف ببعض الحرف وابتعد عن البعض الآخر فنحن كالهنود فى تعدد الطبقات والمراتب. نقول ان من الحرف الشريفة والوضيعة والاولى هى الجندية ووظائف الحكومة والاشتغال بالآداب كالكتاب. والثانية هى الصناعة والتجارة وزد عليها الزراعة لأنها تركب بالفعل واختص بمزاولتها المستأجرون والساقون والوكلاء والنظار. ولسنا نشاهد شابا من أهل الحسب يسعي فى الاستعمار بأى جهة كانت. هكذا قوى عندنا التفريق بين طبقات الامة لتشريفنا بعض الصنائع وتحقيرنا البعض وليس الاستشراف الا نتيجة ذلك التمييز. لكن لا وجود لهذا التمييز عند الانكليز السكسونيين أو انه ينمحى شيئاً فشيئا. ففى الولايات المتحدة حيث يوجد العنصر الاستقلالى خالصا من العوائق التى تكتنفه فى انكلترا لا يشعر الانسان بوجود فرق

بين صنعة وأخرى ويحس بان اعتبار كل انسان راجع الى قيمته الذاتية وهمته وثباته واقدامه . والحال سائر الى هذه الغاية بعينها فى انكلترا وكله نتيجة اتساع نطاق الصنائع والحرف الجارية بتأسيس المعامل الكبيرة وتسهيل طرق النقل بعد اكتشاف الفحم واستعماله . وهذه النهضة الجديدة التى دوخت الجمعيات الاتكالية شدت عزائم الجمعيات الاستقلالية لاستعدادها قبولها فبعد ان انزوت انكلترا وقتاً طويلا بما طرأ عليها من تقاليد فاتحى النورماند و نظاماتهم قامت اليوم تنشط من قيودها وتمالك قواها وترجع شيئاً فشيئاً الى نظامها الانكليزى السكسونى ونشأتها الاستقلالية ولن يعيق نهوضها هذا عائق من بعد . واذا أردت أن تقف على نهاية تلك النهضة فانظر الى البلاد الامريكية وأعنى بها الولايات المتحدة حيث العنصر الانكليزى يرجع الى نشأته الخالصة ويسترد ما لاصله من القوة والصفاء مستعينا بما هىء له من فسيح الاقطار التى يبسط فيها همته وبما أتيح له من عدم وجود طبقة أشراف وراثية فى أمته كالتى أوجدها التغلب فى البلاد الانكليزية

الفصل الرابع

﴿ فى أن طريقة المعيشة المنزلية تساعد على نجاح ﴾
﴿ الانكليز السكسونيين ﴾

أكبر العقبات فى سبيل ترقية الافراد والهيئة الاجتماعية هى معرفة

الغاية التي يجب أن تقصد والوسيلة التي تؤدي اليها فلا فائدة في معرفة الغاية ان جهل سبيلها وكثيراً ماجاءت النتائج على عكس المراد للجهل بالطريق الواجب اتخاذه أولعدم العلم به كما ينبغي . وفي بيان مبدأ هذا الطريق والدلالة على أول مرحلة منه هدى للقراء الى الطريق المستقيم

لقد كان من أكبر همي كلما أقمت في بلاد الانكليز ان أبحث في انتقال الرجل من حال الى حال آخر وكان موضع البحث ملائما له كل الملاءمة لأنه لايوجد فوق البسيطة بلد اجتمعت فيه اشكال رجل الاستقلال مع اشكال رجل الاتكال مثل انكلترا فهي مجمع اشكال من الناس كبير . وقد يوجد هذا الاجتماع في الولايات المتحدة الا أن البحث فيها أصعب بكثير لأن الاشكال الموجودة في تلك البلاد غير مقيمة في الوسط الذي نشأت فيه أصلا فسكان أمريكا لفيف جمع اليها من كافة البلاد الاوروبية بحيث يتعذر الآن بيان بلد كل فريق منهم ثم انتقال أولئك القوم من حال الى حال حاصل في بلاد جديدة ولا يزالون سائرين الى نشأة اجتماعية قد استولت عليهم فصاروا فيها كالمعلقين بين أصلهم القديم ووطنهم الجديد

أما النازلون في البلاد الانكليزيه فانهم قصدوها من زمن بعيد فترى عنصر « السلت النورماند » وعنصر الانكليز السكسونيين مستقرين في حالة طبيعية تسهل على الباحث مايريد من النظر في أحوالهم اذ يجد جميع اشكال الاجناس حاضرة من السلت الهجانديين في ايقوسيا وارلنده الذين لم يدخلهم دخيل الى السكسوني الحقيقي الساكن في الجنوب أو الوسط . وبين هذا وذاك اشكال متوسطة شتى . ومن أكبر الفوائد أن يتسنى تقسيم

جميع تلك الاشكال الى فرق ممتازة عن بعضها ليقف الانسان على كيفية انتقال السلتى الاتكالى من حالته الاولى حتى صار سكسونيا استقلاليا . وبريطانيا العظمى أشبه ببودقة عظيمة تتحلل فيها على الدوام عناصر هيئتها الاجتماعية فيستحيل السلتى الى سكسونى خاضعاً فى استحالته الى سنة ماتزاحم عنصران من عناصر الاجتماع الا تغلب القوى منهما وحمل الضعيف على التشبه به ولا مشاحة فى أن أقوى العنصرين هنا هو السكسونى ، ثبت اذن أن انكلترا هى أحسن بلد يجد فيها الباحث أول مرحلة من مراحل تحول الاشكال نحو الاستقلال ويقف على مبدأ انتقال السلتى الى سكسونى بوجه خاص وعلى أول خطوة يخطوها الاتكالى نحو الاستقلالى بوجه عام حتى يبلغ أرقى درجاته ويصل الى آخر شكل من اشكاله

ولست أخشى الزلل اذا قلت ان أول درجات ذلك الانتقال هى كيفية الاقامة فى المسكن

جال بخاطرى هذا الرأى أول مرة عند ما كنت فى ايدنبورج وانتهزت الفرصة لزيارة منجم الفحم والعزبة القريبة من تلك المدينة كما أشرت اليه فى الفصل السابق وقد بينت هناك الفرق الظاهر بين مساكن الفعلة الايقوسيين من « اللولاند » ومساكن السلتيين أو الارلنديين . فالاولى نظيفة فى غاية الاعتناء والثانية قذرة فى غاية الاهمال . وهذا الفرق هو الذي وجه فكرتى الى أهمية المسكن من حيث انتقال الرجل من حال الى حال وهو هنا في الواقع أول خطوة فى هذا السبيل لان الفعلة الايقوسيين من « اللولاند » هم فى الاصل من أهل النشأة الاتكالية وأول شيء يمتازون به

عن الاتكاليين الارلنديين أو الهجلنديين هو اهتمامهم الزائد بتحسين مسكنهم فهم من أولئك الاستقلاليين الذين لايزالون فى مبدأ انتقالهم ولكنهم صاروا فى حالة لابد معها من صيرورتهم استقلاليين كاملين أو مايقرب من ذلك وكيفية سكناهم هي التى تميزهم عن غيرهم ومن هنا استنتجت ان الانتقال فى حالة المسكن هو أول شخوص المرء نحو الانتقال الى حالة الاستقلال

دل كثير من الاقتصاديين وعلماء الاجتماع ومحبي الانسانية على أهمية المسكن وفى مقدمتهم موسيو « لابلى » فانه كشف القناع عن تلك الاهمية واستدل عليها بوقائع شتى . وكثيراً ماذكر الباحثون من جملة أسباب تقدم الانسان وارتقاء العائلة والهيئة الاجتماعية استقرار المسكن وكونه ملكا لساكنه وانتقاله كما هو من الوالد لبنيه والواقع ان هذه المزايا الثلاث من أهم النظامات وقد تدل على درجة الامة التى توفرت فيها من التقدم والترقي الا انها لاتؤثر بشيء فى انتقال الاتكالى الى استقلالى وأكبر برهان على ذلك اننا نجد عند النشأتين على مابينهما من الاختلاف مساكن مملوكة لاهلها مستقرة بتوارثها الخلف عن السلف ووجود تلك المزايا عند الامتين يدل على انها غير مؤثرة فى تكوين النشأة الاجتماعية . وقد يتفق أن الاعتناء بها يكون أشد عند بعض الامم الاتكالية منه عند بعض الامم الاستقلالية فما لاشبهة فيه انه لاشيء في الوجود أثبت من مساكن فلاحى الروس أو البلغاريين أو الصربيين فالمسكن الواحد ينتقل من الرجل لابنه ومن العائلة الى التي خلفتها عدة قرون وأجيال والمساكن فى فرنسا أكثر استقراراً

فى أقاليم « أوفرنيا » و« وسيفين »و « بيرينيه» و «الب »و« بروتانيا»ومعلوم أن أهل تلك الاقاليم هم أشد الناس محافظة على النشأة الاتكالية وربما كانوا أكثر من غيرهم اهتماماً بامتلاك المساكن والاعتناء بها واستبقائها لخلفهم

ولبيان الفرق بين النشأتين من حيث المسكن يجب التمييز بين نظر كل واحدة منهما اليه . فالاتكالية تنظر الى المسكن من حيث هو وجود مادى والاستقلالية تنظر اليه من حيث هو أمر معنوى وهو تمييز لم يسبق لاحد الالتفات اليه وبدونه لا يمكن الوقوف على كيفية اعتبار المسكن عند كل واحدة من الهيئتين

يراد بالبيت عند الامم الاتكالية مجموع الاثاث والبناء والارض والناس من أهل وأحباب وجيران فالفكر متعلق على الدوام بالاشياء والناس والتعلق شديد لان من خصائص أهل الاتكالية ان يعتمدوا على الاشياء والناس أكثر من اعتمادهم على انفسهم ومن أقوال أهل «اوفرنيا »و«بيرنيه» « يجب أن يكون للبيت دخان » وهم فى سبيل استبقاء دخانه يسترخصون كل ثمين فيرضى الاولاد الثوانى بأقل من نصيبهم الشرعى ويعيش الاعمام والعمات غير متزوجين كى يتركوا للوارث الذى أوصى اليه المتوفى من السعة ما يمكنه من حفظ الغيط والدار وقد يكون لهم من ذلك ملجأ يستفيدون منه أحيانا . والخلاصة أن نظرهم الى البيت نظر الى المكان المخصوص. وهذا هو السر فى صعوبة تركه والابتعاد عنه كان أصحابه قد التصقوا بارضه والتحقوا بحيطانه . وهو أيضاً السر فى حب أهل الريف لبيت أجدادهم ودار أهليهم ورغبتهم الشديدة في صيانتها وتركها ارثا لمن يأتى بعدهم . هذا

هو نظرهم الى البيت من الجهات الثلاث استقراره وملكيته وتوارثه فهم يتعلقون به تعلق النبات المتسلق بالجدار العتيق وكأنهم مثله يرتكنون على ذلك الوجود المادى . ومع هذا فان أقوام النشأة الاتكالية يسكنون ذلك البيت الموروث الذى خلفه لهم الاجداد والآباء على أبسط مايكون من الاحوال وما من شيء يستوقف المتأمل مندهشاً فى تلك البيوت أكثر من استقرارها وعدم الاستقرار فيها وأعنى بذلك كيفية سكناها التى تكاد أن تكون على الفطرة الاولى

اذا دخلت بيت ريفى من الروس أو البلغار أو أهل « اوفرنيا » أو « البرينيه » أو «بروتانيا » أو «بروفانص» وسألته عن أصله أجابك فى الغالب أن عائلته تسكنه جيلا بعد جيل من قرون ماضية وعلمت من هذا أن البيت مستقر أى استقرار ورأيته يحبه حباً لامزيد عليه . ثم اذا نظرت الى كيف يسكنه رأيته أشبه بعائلة ما كادت تفرغ من حط رحالها اذ يقع بصرك على أثاث قد أهمل شأنه وعلى مطبخ قذر ومخدع وسخ قل فيهما الضوء وقد تكون الغرفة الواحدة مطبخاً ومأكلا ومناماً للعائلة كلها وقد يلاصقها الاصطبل فلا يفصل بينهما الا حاجز من الخشب تنبعث من خلاله الروائح الكريهة . هكذا تجد أولئك الذين أحبوا بيتهم ذلك الحب كأنهم لايحبون أن يحسنوا سكناه . اولئك قوم لايحبون البيت من حيث هو ولكنهم يتعلقون به من حيث اعتمادهم عليه أو طلبا للسمعة أو تظاهرا وتفاخراً فيتباهون بكونهم من سلالة تلك العائلة التى تقادم عهد سكناها فى البلاد وظلت تملك العين الواحدة السنين الطوال ولها قرابة مع عائلة كذا

التى استقرت منذ القدم حيث تقيم . أولئك قوم لا يقتنون صندوقاً (دولاباً) لطيفاً يملأونه بأنواع الملابس الا للمفاخرة وبيان أنهم فى هناء أمام مجاوريهم والاجانب عن بلدهم . هذا هو شغلهم الشاغل لا تحسين مسكنهم وتنظيم اقامتهم فيه والخلاصة أن الرجل الاتكالى يعيش خارج بيته أكثر مما يعيش فيه ويحبه للتظاهر لا لنفسه . ويكثر هذا الميل فى العائلات المتوسطة التى تسكن المدن العظيمة وان كان روح الاستقرار فى البيوت لم يعد له أثر فيها . وبيوت باريس الا ماشذ كلها على نسق واحد كبيرة كثيرة الطبقات متعددة المساكن كالقصور العاليات اذ رأيتها من الخارج تتركب من خمس طبقات أو ست وواجهتها فسيحة ذات سبع نوافذ أو ثمان حسبت العائلات التى تسكنها عرفت كيف تتنعم ببيتها وانها بذلت النفيس حبا فى المعيشة الداخلية معيشة العائلة . فاذا دخلت اليها والدخول مباح لكل وارد وجدت المساكن متعددة وكل عائلة تسكن طبقة منها وقد تأوى الطبقة الواحدة عائلات رصت بعضها على بعض . ثم اذا دخلت أحد المساكن رأيت أولا قاعة الاستقبال وغرفة الطعام مزينتين زينة حسنة فسيحتين بالنسبة الى البقية ومطلتين على الطريق أما بقية الغرف ففى الجهة الخلفية وهى ضيقة جداً تطل على حوش كأنه فى الغالب بئر لضيقه قليلة الضوء ولا يدخلها الهواء وتلك الغرف هى مقر العائلة ومخادع السكان . أما الغرف الامامية فانها اتخذت للزهو والتباهى لا يدخلها الا الاجانب لأنها انما أعدت « للاستقبال » وعدم الاعتناء بالبيت عند أهل هذه النشأة عام بين الاواسط وأهل الارياف والاجراء

الا أن الاهتمام بذلك هو أول شيء يلتفت اليه أهل النشأة الاستقلالية ذلك لأن الرجل منهم لا يعتمد على العائلة أو العشيرة أو الملاقات قلت أو كثرت وان شئت قل انه لا اعتماد له على وسط صناعي بل اعتماده على نفسه فهو يسكن البيت لنفسه وهو مقيم لا نزيل ولا يعطى الحياة الخارجية الا يسيراً وكل الذى فى امكانه موجه الى حياته الداخلية فالبيت عنده حصن استقلاله ويسميه اسماً لا يمكن التعبير عنه بغير لغته وقد أودعه روحه ووجوده وهو (هوم) بمعنى مأوى أو ملجأ ولهذا الاسم عند الانكليزى السكسونى معنى أكبر وابعد عن المادة من الاسم الفرنساوى (فوييه) أى بيت فهو يدل خصوصاً على الاقامة الداخلية والنظام الذى يستريح له الساكن كل يوم مما اختص به ذلك العنصر لا فرق بين الاجير والريفى ومن فوقه من الطبقات الوسطى

ولست أقصد الحكم على هذا التصور عندهم بل أريد أن أقف على حقيقته وأن أبينها للقراء كما هى لأن الامم أمتان مختلفتان تتمشى كل واحدة منهما فى طريق يخالف سبيل الاخرى ومبدأ الخلاف سكنى المنازل فمن المفيد جداً تمام العلم بأول ما اختلفوا فيه

ويتجلى الفرق بينهما من حيث اعتبار المسكن بأمرين

الاول ان أهمية المسكن عند أمم الاستقلال أقل منها عند أمم الاتكال فالمسكن الغالب عند الاولى عبارة عن بيت صغير لا يحتوى من الغرف الا على ما يفى بسكنى عائلة عادية باولادها . ويتبع البيت فى الغالب بستان يختلف فى سعته على حسب درجة الساكن من الغنى وباعتبار سكنى الريف

أو المدينة . وهذه المساكن منثورة في جميع جهات الارياف الانكليزية ثم هي تكثر متقاربة في ضواحي المدن الكبيرة لأن الانكليزي المدني يميل كثيراً الى السكنى خارج الاسوار وهي المثال الغالب في داخل المدينة نفسها لأنها توافق مايطلبه ذلك الجنس في البيت الذي يأوي اليه وهذا هو السبب في عظم المدن الانكليزية بالنظر الى عدد سكانها

وبخلاف ذلك تجد المسكن الغالب عند أمة الاتكال هو البيت العظيم ذو الغرف الفسيحة فليست هي مساكن اتخذ كل واحد منها لتأوي اليه عائلة على انفرادها بل دار كبيرة تسكنها عائلات عدة تقيم مع بعضها في عيشة واحدة . هكذا المساكن في ايتاليا ويوجد في مدننا الريفية كثير من تلك الدور الفسيحة التي أصبحت فيها العائلات بعد نقص عددها كالتائهة في انزوائها وتلك هي القصور الفخيمة المشيدة في الارياف وكم من عائلات أدركها الفقر لكثرة انفاقها في حفظ تلك المباني اللهم الا التي فطنت الى الاقتصار منها على ناحية تقيم فيها وتترك الباقي . ومن مقارنة هذه الدور العظيمة والقصور الشامخة بتلك المنازل الانكليزية السكسونية تتبين لك احدى جهات الفرق العظيم بين النشأتين

الثاني ان العائلات الاستقلالية تنتقل من مسكن الى مسكن بسهولة أكثر من العائلات الاتكالية . قلت ان أهل الاتكال أشد التصاقا بالمساكن الوراثية من غيرها فهي أبقى في المسكن انوا حد لاستمدادها منه قسما كبيراً من قوتها بل ربما كان جل اعتمادها على ذلك البناء المادي أما الاستقلالي فلا شيء أسهل عليه من الانتقال ومتى سنحت له الفرصة أسرع

لانتهازها لينتقل من حال الى أحسن منه وبدل مسكنه وقد يترك طرفا من الدنيا ليأوى الى الطرف الثانى لأن أنظاره متجهة على الدوام الى المستقبل لا الى الماضى ولأن اعتماده على نفسه لا على تقاليد أبويه ورسوم الاجداد وهذا الحال الذى نشأ فيه بحكم طبيعة أمته هو الذى جعله يتنكر ذلك الملجأ المختصر لأن الرجل أشد تعلقا ببيت كبير منه ببيت صغير فهو ربه لا أسيره ولا هم له بالاحجار ولا تمسكه الاحجار . رب معترض يقول انها حال لا استقرار للمسكن فيها لكن هذا نظر الى ظواهر الامور فالاستقلالى مستقر فى مسكنه كالاتكالى سواء بسواء وانما الفرق فى الكيفيات ولتبينه يجب الالتفات الى ماقدمناه من التمييز بين المسكن الخارجى والاقامة الداخلية فالاستقرار عند الاتكالى راجع الى المسكن الخارجى وهو يرجع عند الاستقلالى الى الاقامة الداخلية وكأن الاول جندى لم يكد ينزل بمسكنه العتيق وكأن الاستقلالى وابض منذ القدم والى ماشاء الله فى مسكنه الوقتى فهو يقيم حق الاقامة ولو الى بضعة أيام حتى في الفندق — وقد اشتهر أن الانكليز كانوا سبباً فى تحسين الفنادق الاوروبية — ولو لم يكن مقيما الا سويعات معدودة ولو فى السكة الحديدية ولذلك أعرف عنه انه رجل لا يتعمد مضايقة نفسه فى شىء والاستقرار عنده عبارة عن راحته وموجباتها وليس من ينكر ان موجبات الراحة ركن من أركان السكنى له من الاهمية ماللاسوار والجدران وانها تؤثر على الانسان وحياته اليومية وانها تفعل فى وجوده الذاتى ووجوده فى أمته أكثر من غيرها

نتج من هذا ان الاستقرار فى المسكن مادى ومعنوى والثانى أهم

وهو البحث الذي بقي علينا أن نبينه

أما كون الثاني أهم فذلك حاصل بالضرورة لان تحسين السكنى واتقان نظامها هما أول حركة يشاهدها الانسان فى الذين شخصوا الى الانتقال من حالة الاتكال الى حالة الاستقلال غير انه لما كان سبب ذلك غامضاً لا يبدو لاول نظرة وجب علينا أن نوضحه

انى أرى لكيفية السكنى المذكورة ثلاث نتائج فى الاجتماع وان تلك النتائج تؤدى الى تحويل الافراد وجعلهم استقلاليين

الأولى طريقة السكن المذكورة تقوى في الانسان شعوره بعزته واستقلاله

تخيل أيها القارىء ما استطعت مساكن الارلنديين الرديئة التى وصفناها لك أو منازل الفعلة فى مدننا وريفنا مما لا يقل عن تلك رداءة وقبحا وليحضرك بعض أولئك السكان الذين عرفتهم تمام المعرفة ثم فكر فى قوم شبوا منذ طفوليتهم فى ذلك الوسط وعاشوا دائماً فى ذلك البيت الذى هو عبارة عن حجر متوحش دخله شيء من التحسين لاشك انك تقتنع بانه وسط لا يقوى عند من تربى فيه حاسة العزة والاستقلال . قالوا ليس المرء بطيلسانه ونحن نرى ان للطيلسان شأناً فوق مايظنون فكم من رجل لا قيمة له الا بلباسه الذى يرتديه . هذا شعار قاضى يحكم بين الناس وذاك زى الجند وآخر وسام كذا وتلك الشارات كذا ولها كلها تأثير كبير فى عقول الناس وقد تحمل الكثيرين على النظر الى أنفسهم بعين الرفعة والاعتبار فينبغي أن لا يهمل ماتحدثه الظواهر من التأثير

وأهم تلك الظواهر تأثيراً هو البيت لانه يستولى على الانسان وهو فى عيشته الذاتية وحياته الشخصية ولانه ثابت مستمر فى كل يوم ولا شبهة فى ان العامل الذى زرت مسكنه فى «هوتردين» والصانع الميخانيكى الذى تناولت عنده الشاى فى «ينكويك» كانا شاعرين بتأثير مساكنهما عليهما مباشرة وبما فيهما من النظام وحسن الترتيب وكانا بذلك يريان نفسهما أرقى وارفع من غيرهما وكانا يميزان تمام التمييز ماهما فيه من رفعة النفس والاستقلال وكان الواحد منهما اذا دخل بيته يحس من نفسه أنه انسان شاعر بكرامته كما يقول الانكليز. والرجل اذا عرف من نفسه الكرامة يكون ميالا الى الزيادة فيها لانه يكون قد اجتاز العقبة الاولى فى سبيل الارتقاء وهي الخطوة الاولى.

الثانية طريقة السكنى المذكورة تهيء المرء الى العمل وتقويه على الكد والاجتهاد

ان الامم التى اعتادت على المعيشة البسيطة والسكنى الساذجة تكتفى بالقليل ولا تلد الا افراداً يقفون عند الكسب اليسير فاطماعهم محدودة وبالقليل يقنعون. وترى الواحد منهم يعيش راضياً متى حصل مايخرجه عن درجة الخمول والانزواء لكن ليس الحال كذلك عند الامم الأخرى فالمعيشة الانيقة والمسكن المنظم يقتضيان الكد ويساعدان عليه خصوصا اذا كان الرجل يعمل لينال الفائدة العاجلة المحسوسة. ولقد يحضرنى ذلك الصانع الميخانيكى فى «بنكويك» وهو يطلب اقتناء اثاث قاعة طعامه أو آلة طربه «بيانو» أو بساطه الكبير الذى تحلت به غرفة استقباله فاراه

يزيد فى همته تحت تأثير مااتجهت اليه رغبته ويتفنن فى أساليب العمل بما يسعه لاستزادة راتبه . ومااالوف العملة الذين يحضرون دروس جمعية توسيع نطاق التعليم فى انكلترا والولايات المتحدة بثمن يدفعونه من كسبهم الا أمثلة حية تدل على ذلك الميل نحو الكد والعمل فهم لايحجمون أمام ذلك الاشتغال الزائد على ماهم فيه لطمعهم فى نوال حال أحسن وعيشة أرضى

رب قائل يقول ان روح الاقتصاد الذى امتاز به الكثير من عمالنا هو أيضا من موجبات الحث على العمل والاجتهاد وهو مسلم الا أنه باعث أقل عزما وأصغر تأثيراً لأن الرجل الذى يدخر لاولاده يعمل لاجل بعيد ولغيره وذلك الغير لايجنى ثمرة العمل الا بعد وفاة صاحبه ولا يقدم على ذلك الا من بلغت الشجاعة من نفسه حد الاستقلال وتلك فضيلة قلما توجد بين الناس فان أدخر الرجل لنفسه كى يشتغل ماادخر أدركه الملل سريعاً خصوصا اذا كان من العمال بما يتصوره من جسامة مايجب ادخاره حتى يزيد فى ايراده زيادة محسوسة فكم من الايام ينبغى له أن يعمل ليكنز مائة من الفرنكات على أن ذلك المبلغ لايفيده من الربح الا ثلاثة فرنكات فى السنة وهى نتيجة تظهر أمام عينيه صغيرة بعيدة الامد ويراها لاتساوى المتاعب التى تبذل فى سبيلها . أنظر الى النظامات التى تخترع كل يوم لانماء حركة الاقتصاد عند الفعلة وتأمل كيف أن الربح منها يسير وانظر الى الفاعل الانكليزى السكسونى تره يدخر فى تنظيم بيته وتوفير موجبات الراحة فيه مالا أكثر كثيراً من دون أن يستعين بالحكومة أو يكون له من احتفائها به باعث أو مشجع . لاتقل ان ذلك مال مصروف لامدخر

لانه وان صرف فليس بضائع سدى وانما هو يستغل بربح جزيل لا يقدر بثلاثة فى المائة بل بمائة فى المائة لكونه يستعمل فى زيادة القوة على العمل . ألا ترى أن ذلك الصانع الذى اشترى أثاث غرفة الطعام أو آلة الطرب أو البساط يتمتع بما اقتنى من ساعته وكل يوم . ثم قرب بين تمتع رجلين اقتصد أحدهما مائة من الفرنكات ولا يربح الا ثلاثة فى كل عام واقتصد الآخر مثلها فاقتنى بها ماتاقت نفسه اليه ليجعل بيته محبوبا لديه وليتمتع به فى كل حين . ذلك فرق عظيم . ذلك فوز يشجعه الى كد جديد ليسكن بيتا أوسع وللراحة ادعى أو ليزيد فى نظام مسكنه وتجميله وهو كلما حسن فى مسكنه دب وراء تحسين جديد أرفع ذوقا وأحكم صنعا وأصبح يتأنق فى الرغائب وهى تزداد فى كل حين ولا سبيل له فى ارضائها الا بعمله فيعمل بجد يترقي . ولما كانت القدرة على الجد المتناهى من خصائص رجل الاستقلال وهى التى تميزه عن رجل الاتكال كان هذا الذى شرحنا حاله يتقدم نحو النشأة الاستقلالية وثبت أن طريقة السكنى هى أول بادرة من بوادر الترقى المذكور

الثالثة طريقة السكنى المذكورة تهيء الرجل الى أن يصير مهذبا

انى استلفت القراء بنوع خاص الى هذه النتيجة الثالثة لأنها أهم فى تمييز النشأة الاستقلالية والتفريق بينها وبين النشأة الاتكالية ولم يبدأ بذكرها لأن تقريرها كان متوقفاً على ماتقدم من الكلام فى ملجأ الانكليز السكسونى

من لوازم النشأة الاتكالية وجود طبقات فى الامة تمتاز كل واحدة

منها على البقية امتيازاً تاماً . ومن الصعب أن ينتقل الانسان فى تلك الامم من مرتبة وضيعة الى أرفع منها فلا يسهل على الاجير أن يصل الى درجة الاواسط واذا وصل اليها بما كسب من المال فأنه يبقى أجيراً فى ازيائه وعادته واذواقه وكيفية معيشة فهو لا يترفه بالسهولة ولا يترقى بالسهولة . والسر فى هذا ان ارتقاءه مسبب عن اقتصاده وقد بينت فيما سبق علة هـذا الاقتصادوزد عليه آن الاقتصـاد لا يتأتى الا لمن يعيش فى مسكنه عيشة ضيقة يحرم فيها نفسه من كل شيء فيقتصد من منسكنه ويقتر فى ملبسه ويقلل من أثاث بيته وينقص من مصرف رياضـة والذى يحرز الثروة عاجلا هو الذى يقتصد كثيراً أي يعيش حقيراً ومتى وصل الى الثروة رأيتـه استمر على العيشـة حقـيراً لان العادة صارت حاجـة بل أقول صارت مطلباً .

رأيت فى الاقاليم رجلا يمثل هؤلاء القوم بدأ منذ أربعين عاماً بصنعة بياع متجوط وكان يبيع السياط وما يتعلق بالسروجية على عربةيد ينتقل بها من قرية الى أخرى فلما اجتمع فى يده مبلغ من المال اشترى مسبكا صغيراً يدار بقوة المـاء وجعل يصنع بنفسه اللجم والمشابك وجميـع الانواع التى تصنع من الحديد أو ماشابه للسروج . وقد عرفته فى آخر حياته فوجدت عنده أربعين صانعاً واشترى من الاطيان مايبلغ مائة هيكتولتر وثلاثة بيوت أو أربعة فى القرى المجاورة لمسكنه وصار لديه مال عظيم لادارة حركة المسبك . وقد توفى قريباً وتبعته زوجته ولم يتركا عقباً وقدرت ثروته باربعمائة أو خمسمائة الف فرنك قسمت بين أبنـاء اخوته . وعاش هـذا

الرجل الى آخر يوم من حياته كالاجراء (تلك طريقة منلى فى استعمال الثروة والمال) فبقى على لهجتهم فى الكلام وازيائهم وهيئتهم وكان فى الاصل ذا لهجة عامية وزى وضيع وهيئة رثة ولا أقول أكثر مما ذكر . شاهدته مراراً يبرد بنفسه بعض المصنوعات في مسبكه كأجير بسيط استخدم ليدير آلة من الآلات . وعليه فقد بلغ هذا الرجل مابلغ من الثروة والغنى ولكنه لم يرتق فى طبقات الاجتماع . وما سبب عدم ارتقائه الا أنه لم يتعود فى بيت أبيه منذ الصغر على هيئة حسنة ولم يعرف نظام المعيشة وموجبات الراحة فى السكنى وما يتبع ذلك من لطف الشمائل وظرف الازياء

يوجد بين الاهالى فى فرنسا قوم لهم استعداد كبير للتجارة وهم أهل (أوفرينا) كما أن لهم تفنناً عظيما فى الاقتصاد ولست أتعرض لبيان السبب فى هذا الاستعداد ولكنى أكتفى بالدلالة عليه . والرجل منهم قد يبلغ درجة معتبرة من الثروة ولكنه لايخرج عن حالة التاجر الصغير ولا يتخلى عن عاداته وما الف بل يبقى على عادات فلاحى بلده وهى لاتستحسن من حيث الهيئة أو النظافة أو الازياء . وكل من زار تلك البلاد يعلم مانقول وأنه ليس فى الوجود أقرب الى الطبيعة من مساكن فلاحى (أوفرينا) ولا أقدر منها ولا أزال أذكر ماقاسيته مع موسيو (روسيه) من الصعوبات فى تناول الطعام بعض مرات بتلك البلاد وما كان يقوم بنفوسنا من الاشمئزاز مما هو طبيعى عند رجل ذاق للتمدن طعما وانما ماتغلبنا على أنفسنا الا بشدة رغبتنا فى استطلاع أحوال أولئك القوم ومعرفة كيف يعيشون

نشأة الناس فى تلك البيوت هى التى تعطل صفاتهم فى التجارة وتعوقهم عن الارتقاء أدبيا بين الذين يخالطونهم مع ماهم عليه من القناعة والتعود على الاقتصاد والتوفير . وهذه الحال ظاهرة فى وصف البياع الشراء الاوفرنى فى باريس « راجع كتاب الصناع فى الدنيوين جزء رابع صحيفة ٣١١ و٣١٢» حيث جاء فيه « تنقسم تلك الفئة الي قسمين أهل أوفرينا وأهل نورمانديه وكلاهما فنوع ميال الى الاقتصاد يهرب من مخالطة العملة الباريسيين خشية من كثرة انفاقهم « ماأجمل » ويشترى الاوفرنى الملابس البالية وبالاخص القبعات والاحذية التى لم تعد صالحة للاستعمال ولكنه غير ماهر فى ذلك كمزاحمه لذلك يتخوف منه على الدوام اذا اجتمع الاثنان في بيت لمساومة مبيع مافترى الناس يركنون الى النورماندى بما امتاز به على رفيقه من الموادعة والادب وهو أحسن منه لباسا وأعذب منه لسانا وبمهارته يتغلب علي صاحبه فى جميع الاحوال على التقريب ومن أجل ذلك يترك الاوفرنى مع مااختص به من الثبات والمقاومة الاتجار فى الملابس العتيقة على كثرة ربحه منها الى مزاحمه النورماندى ليشتغل فى الخرق البالية والحدائد العتيقة والعظام وجلود الارانب »

ويعرف القارىء مما تقدم كيف أن التربية الخشنة الناتجة عن حالة سكنى البيت تمنع الاوفرنى من الارتقاء حتى فى تجارة لاتقتضى تربية عالية . ولا شك في أنهم لو حسنوا سكناهم لاستفادوا مما يصرفون فى هذا السبيل ربحاً جزيلا وذلك الربح هو الذى يستفيده الانكليزى السكسونى من تنظيم ملجأه

ولنرجع الى عمال ضواحى ايدنبورج فهم تربوا ويربون أولادهم فى ملجأ يعودهم على شىء من التحسين فى السكنى وان كان بيتا صغيراً كما يعودهم على لباس مخصوص ولهجة مخصوصة وشمائل مخصوصة فيصيرون بذلك مترفهين ومستعدين لأن يترفهوا ان لم يكونوا كذلك من قبل فاذا سنحت لهم فرصة ارتقاء — وقدرتهم على العمل مما يخلقها — رأيتهم ينتهزونها ويجدون من حالهم الشخصى مايجعلهم جديرين بها اذ ليس فيهم مايمنع من نوال ذاك الارتقاء . والخلاصة ان نظام البيت عندهم حتى بيوت الاجراء يجعل الافراد قابلين لأن يصيروا من طبقة المهذبين فلا يظهر عليهم فى المراتب التى يرتقون اليها انهم ليسوا من أهلها

هذا وانى أجد من نفسى دافعا الى القول بأن النشأة الاستقلالية لا تلد طبقة دنيئة وراثية كما هو الحال عند أهل النشأة الاتكالية اذ المشاهدة ظاهرة الوضوح والوقائع التى تحضر الذاكرة تؤدى الى تلك النتيجة وتبرزها فى صورة قاعدة عمومية ومن أجل هذا أصبح أهل النشأة الاولى فى مقدمة المتقدمين نحو حل المسألة الاجتماعية وعلى الخصوص مسئلة الاجراء وانى أكتفى بايراد ثلاثة مشاهدات للدلالة على قابلية تلك الامم للترقى

الاولى قلة عدد الخدام من الانكليز السكسونيين . فغالب الخدم فى انكلترا وفى الولايات المتحده اما سلتيون أصلا أو جرمانيون أو لاتينيون ولا تجد خدما من الجنس الانكليزى السكسونى الا من نوع مخصوص كالمربيات اللاتى هن طبقة أرقى من الخدم الاعتياديين وكالخادمات موقتاً وهن بنات الفعلة اللاتى يخدمن وقتاً محدوداً ليتعلمن بين قوم أرفع منهن رتبة

كيفية ادارة البيت قبل أن يتزوجن

الثانية وجود تلك الآلاف المؤلفة من الفعلة الذين مارسوا العمل بأيديهم وارتقوا بكدهم الى أرفع المقامات من غير أن يكونوا فيها خارجين عن صفها بل لافرق بينهم وبين المهذبين من أهل الطبقة التى وصلوا اليها وهذا أمر معروف ومشهور وقد تكلمنا عنه فى مجلة العلم الاجتماعى عند ذكر رؤساء أحزاب الفعلة الذين أصلهم منهم فاصبحوا اليوم متربعين فى مجلس النواب « مجلة اكتوبر سنة ١٨٩٣ وديسمبر سنة ١٨٩٤ ويوليو ونوفمبر سنة ١٨٩٥ »

كان موسيو كايفلند رئيس جمهورية الولايات المتحدة صبياً عند أحد البقالين بوظيفة ساع يقضى الطلبات من الخارج وكان يكنس المكان ويكسر الخشب ويوقد النار : وكان اللورد جلاسكو حكمدار بلاد زيلندا الجديدة صبي نوتى فى أحد المراكب منذ كان عمره ثلاث عشرة سنة كذلك كان فرنكلان الذى طار صيته فى الآفاق فاعلا . وليس فى ارتقائهم من ذلك الحضيض الى هذا النعيم مايستوجب العجب ولكن الذي يندهش له الانسان هو كثرة عدد الواصلين وان أصلهم الصغير لم يترك فيهم أثراً من الآثار التي نشاهدها في قومنا الذين يرتقون . قلت ان هذه مشاهدة غريبة وأنا أحج كل انسان يعللها بغير طريقة الانكليزى السكسونى الاجير فى السكنى

الثالثة وهى مهمة فى بابها من المعلوم انه يوجد من قطارات السكك الحديدية ببلاد الانكليز عدد كبير ليس فيه عربات للدرجة الثانية لأن

الناس أهملوها ومن جهة ثانية أرى الاحصائيات تدل على أن عدد مسافرى الدرجة الاولى فى تلك البلاد أقل من مثله فى أوروبا وبينما أنا أكتب هذه السطور علمت أن احدى شركات السكك الحديدية الانكليزية عرضت الغاء الدرجة الاولى وأن اللجنة التى تشكلت للنظر فى طلبها وافقت عليه محتجة بقلة عدد مسافريها واستدلوا على رأيهم بأن الدوق «كامبرلان» صهر الملكة يسافر دائما فى الدرجة الثالثة ولا يجوز أن يكون السبب فى ذلك محبة الاقتصاد إذ المعروف عن الانكليز والامريكانيين انهم يتوسعون فى عيشتهم. وعلى العكس من ذلك نجد عدد السواح من الفرنساويين فى الدرجة الاولى كبيراً مع أن ثروتهم أقل وميلهم الى الاقتصاد أشد. وجب اذن أن نبحث عن علة أخرى ولا أراها الا كيفية معيشة الطبقة الاخيرة من أمة الانكليز السكسونيين وهيئتهم وزيهم. فنحن نتأفف من السفر مع رجل ذى هيئة رثة وعوائد منحطة خشنة ولكن هذا التأفف ضعيف عند الانكليز السكسونيين لارتقاء الطبقة السفلى بينهم ارتقاء محسوسا ومن أقطع الادلة على ذلك ان شركات السكك الحديدية وصلت فى تحسين ادارة أحوالها الى ايجاد تذاكر مشتركة للقاصدين انكلترا تبيح للمسافر أن يركب الدرجة الثانية مادام سائراً فى البلاد الفرنساوية فاذا بدأ السير في البلاد الانكليزية انتقل الى الدرجة الثالثة. وليلاحظ ان الانكليز باستعمالهم الدرجة الثالثة لم ينسوا موجبات راحتهم ومن أجل ذلك قد جعلت الشركات التى تلاحظ رغبات الناس عربات الدرجة الثالثة أكمل نظاماً وأتم ترتيبا من عربات الدرجة الثانية عندنا وربما ضارعت درجتنا الاولى زخرفا وحسناً فى بعض

الفروع أما الاعتناء بها فيفوق الاعتناء بغيرها

وحينئذ يمكننا أن نستخلص مما تقدم أن حسن السكنى واستيفاء موجبات الراحة فى البيوت مما يجعل الطبقات النازله فى الامة أهلا لبلوغ أعلى المراتب بحيث لا يرى انهم دخلاء فيها بما يلوح عليهم من الشمائل والازياء وذلك يؤدى على الدوام الى محو الطبقة السافلة الوراثية فى الامة التى هي داء الامم الاتكالية العظيمة

ليست المسئلة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما أن مسئلة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الادواء والعقاقير . اذ ليست المساعدة أو العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا ما أدت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسئلة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل واحد منهم أن يقوم باود نفسه وأن يرتقى بجده وعمله لأن سلامة الاجتماع كالسلامة الاخروية كما قدمنا تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل واحد أن يسعى اليها . وقولى هذا لا يروق فى أعين الذين اتخذوا السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الامة وضعف مدارك الطبقات النازلة وكانت فائدتهم فى بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها القصر حتى يتيسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء . غير أن العلم لا يلتفت الى مثل تلك الملاحظات بل انه يجهلها ويسلك الطريق الذي تدل المشاهدات عليه

علمنا أن قابليه الترقى تنمو أولا بتحسين المسكن عند أجناس الامم الاتكالية اذا اختلطت بالامم الاستقلالية وظاهر ان هذا الاختلاط مفقود

عندنا الا انه ليس من المستحيل أن يستعاض عنه بمعرفة حقائق الاحوال كما ينبغى . فالمعارف توصلنا الى أن نعمل بغير اختلاط مانفعله بلا تأمل بل لمجرد الاحتكاك نخبة العملة الايقوسيين أو الارلنديين فى انكلترا وماتفعله كذلك نخبة المهاجرين من أوروبا القديمة الى الولايات المتحدة بأمريكا

على الطبقات الوسطى منا أن تبدأ بهذا الترقي بنفسها لنفسها فهى الآن تجهد نفسها كثيراً وتنفق المال الجزيل لتعيش خارج البيت ولتكثر من علاقاتها مع المتطرفين والاصحاب العاديين وتكره الاقامة فى الارياف كرهاً شديداً لأن العلاقات والمعيشة الخارجة عن البيت هناك أصعب وتعتنى فى بيتها بفرش القسم المخصص للاستقبال بالاثاث الفاخر والزخارف وتعدمن الفضلات تنظيم القسم المخصص لمعيشة العائلة نفسها وتوفير موجبات الراحة فيه . وهى بذلك تجعل البيت ثقيلا عليها وعلى أبنائها فلا تخصص لهم غرفة يشعرون باجتماعهم فيها انهم في بيتهم حقيقة ويتعلمون من صغرهم طرفا من الاستقلال؟ ألا ان الاطفال هم ضحايا البيوت فى فرنسا . والواقع أن بيوتنا أعدت للأجانب لا لأنفسنا وهذا هو الذى يجب تغييره ليرجع المرء الى المعيشة الخصوصية فيقيم فيها كمن يحتل حصناً منيعاً ويجعلها بحيث تميل اليها النفس ميلا كليا ففى الحياة الشخصية قوة عظيمة لكنها مجهولة ولا سبيل الى الارتقاء لقوم لا يعرفون حقيقة ماذكر

لكن اذا تيسر لطبقتنا الوسطى أن تخطو هذه الخطوة وذلك ممكن اذا أرادت وليس على كل واحد من أفرادها الا أن يقدم على العمل لنفسه فالأمر متعذر على طبقة العملة لاستحالة انها تعمل بنور العلم وحده ولأن

الغاية المقصودة بعيدة عنها بعداً عظيما ولأنه لامساعد لها من الاحتكاك لعدم وجوده فهي محتاجة لمن يعينها

هنا أوجه الخطاب على الاخص الى الذين جعلوا من همهم السعي في ايجاد الوسائل لاعانة المحتاجين وهم في الغالب يساعدون العامل ويتكلفون حمايته وجب ذلك أولم يجب ولا يحصلون من اتعابهم الا فوائد قليلة فضلا عما يلحق بالعملة من أضعاف قابليتهم الى الارتقاء بأنفسهم . وكل مساعدة لايكون الغرض منها جعل المساعدة نفسها فضلة أى اعدادالناس لمساعدة أنفسهم بأنفسهم قد تصير مصيبة عظمى واللازم هو مساعدة تلك الطبقة على الارتقاء بنفسها باعانتها على تحسين مساكنها وتنظيم المعيشة الشخصية

أني ألاحظ الآن بكمال العناية مشروعاً بدأ بتنفيذه أحد أصدقائي . ذلك أنه يوجد على مقربة من أملاكه معمل صغير يشتغل فيه نيف وخمسون عاملا تتألف منهم عشرون عائلة ساكنة بجوار ذلك المعمل في بيوت أعطيت لهم بأجرة سنوية مابين خمسين فرنكا وستين وهى في الواقع لاتساوي أكثر من هذه القيمة لأنهاعبارةعن عشش أو أكواخ أبوابها وشبابيكها لاتقفل متى فتحت مما يجعل سكناها لاتطاق في زمن الشتاء وهى على الدوام تقصى الناظر اليها بماعلاها من الاوساخ التي تفوق الوصف ولا أذكر شيئاً عن أثاثها فانه دون مايتصور العقل بساطة وعلى حال لايمكن نعتها أبداً ومن تمام الشقاء أن قسما من تلك العائلات ينهمك في المسكرات كما يحصل ذلك غالباً . تلك هى المادة التي اشتغل صاحبي بالعمل فيها وظاهر انها من أحسن الموضوعات في بحثنا وأنها تجعل العمل من أهم

مايلتفت اليه ولمجاورة صاحبنا لأولئك القوم وتفرغه الناشىء عن الاقامة فى الريف سهل الاجتماع بينه وبينهم وبدأ الاختلاط اذ جاءوه يطلبون منه دواء لأبنائهم أو لبعض المرضى فتمكنت زوجته بذلك من الدخول فى تلك المساكن حيث قوبلت بالشكر والامتنان وعادت مقشعرة من تعاسة ماهم فيه وعلى الخصوص من اهمال الاطفال وعدم الاعتناء الكلى بما احتاجوا اليه من الاوليات كالنظافة ومراعاة الصحة وكان من أول احتفائها بهم ان وزعت عليهم الملابس على شرط الاعتناء بها وأن ينظف الاطفال وتمشط شعورهم فى كل يوم. ثم جعلت لهم فى أزمان معلومة طعاماً خفيفاً وقت العصر يجتمع حوله أبناء العملة كلهم واشترطت أن لايحضره الا من حسنت هيئته وبذلك ازداد الاجتماع بين الفريقين وتم تنفيذ هذا القسم من مشروع صاحبنا على ماينبغى وكانت هذه أول خطوة نحو الغرض المقصود ولم تكن حالة ماحول المساكن بأحسن مما شرحناه عنها فاذا أمطرت السماء رذاذاً اخترقت المياه الطريق فصار وحلا وهو مرمي الاقذار على الدوام وأوكد أنه كان يحتوى على كل صنف من أوساخ أخس الآدميين. ولم يمض شهر الا وقد أصلح الطريق وفرش بالحجارة وارتفع عن مستوى الارض واتخذ على جانبيه قناتان لتصريف المياه وزرع صاحبنا فى مدخله أمام المساكن صنفاً من الاشجار النضرة ذات الازهار فكانت تلك الاشجار أشبه بدرس فى الاشياء لدلالته على أنه يجب الاعتناء أيضا بما حول المساكن كالاعتناء بها ودلالته أشد فعلا فى النفوس من القاء النصح والارشاد. ويظهر أن أولئك المساكين ادركوا هذه الحاجة فتعهد كثيرون منهم بسقيا

الاشجار والاعتناء بها . نعم ذلك شيء يسير الا أنه جعل فيهم همة وهيألهم عملا يرتاحون اليه وهى فائدة كبرى . بقى الهجوم على أحجار الوحوش التى يأوى اليها أولئك التعساء لجعلها بيوتاً محترمة وترتيبها بحيث تنمى فى النفس قيمة الانسان وتنبئه بكرامة المسكن الذي يتمكن صاحبه من الارتياح به والراحة فيه حتى تنبعث الهمة الى ترتيبه وتجميله وهنا محل الصعوبة كما لا يخفى . ولحسن الحظ حدث أن مدير المعمل تغير بمدير جديد ومن رأى هذا الاخير اصلاح تلك المساكن وستكون هذه فرصة مناسبة تتيح لصاحبنا أن يحمل أولئك السكان على تحسين مساكنهم . وقد وعد بأنه يراقب ذلك ويتتبع حالة العملة المذكورين فى التغيير والترقي ويساعدهم عليه جهده ويسطر النتيجة التى يصل اليها . ولا يتيسر للانسان أن يقف على مجرى الاحوال كما ينبغى الا اذا انحصرت فى دائرة صغيرة تسهل مشاهدتها

ربما يخطر بالبال أن أكبر عائق فى ترقى العملة من حالتهم الى أحسن منها قلة ذات يدهم الا أن المشاهدات لا تؤيد هذا الظن لأنه يوجد بين العائلات التى تشتغل فى ذلك المعمل واحدة يرى انها أشدهم بؤساً فسكنها اسحق المساكن وأبناؤها الستة أتعسهم حالا وهي مفلسة على الدوام لا تفتأ تطلب من المدير مقدماً جزاءمن أجرها وقد أثقلتها الديون وحجز على قسم من استحقاقها . ومما يدل على ماهى فيه من الشدة ان المرأة اشتغلت يوماً فى بيت صاحبنا فى نظير فرنكين فطلبتهما قبل أن تغادر البيت وقالت انها لا تملك فلسا واحداً تقتات به وزوجها وأولادها . فمخاطبة مثل هؤلاء القوم فى تحسين مساكنهم تظهر بادىء بدء كأنها سخرية واستهزاء اذ هم

لا يكادون يحصلون قوت يومهم

لكن أنظر اذن الى الراتب الشهرى الذى تأخذه تلك العائلة كما هو ثابت فى دفتر المعمل

	فرنك
أجرة الرجل	٩٠
« المرأة	٦٠
« الولد البكر وعمره ١٩ سنة	٧٠
« البنت البكرية وعمرها ١٨ سنة	٣٠
المجموع	٢٥٠

فيؤخذ من هذا أن تلك العائلة التى تتألف من ثمانية أشخاص أربعة منهم قادرون على العمل تعيش تعيشة فى بلاد الريف بأجرة قدرها ثلاثة آلاف من الفرنكات فى السنة وهي لا تدفع مع ذلك الا خمسين فرنكا أجرة مسكنها وهو منزل وبستان يمكنها أن تزرع الخضر فيه . ومما يستغرب له الانسان فى فقر تلك العائلة المدقع انها لم تخل يوماً واحداً عن العمل ومضى عليها خمس عشرة سنة تقريباً وهي فى خدمة ذلك المعمل نعم زاد حملها بكثرة أولادها الا أن أجرها زاد أيضا على هذه النسبة

ولبيان العلة الحقيقية فى حالة تلك العائلة ينبغي أن نسلم بأن تلك المسألة الاجتماعية ليست منحصرة فى أجور الفعلة كما يذهب اليه السواد الاعظم بل راجعة أيضا الى سير الافراد وأخلاقهم . وربما عنيت بهذا الموضوع يوماً ما . اذ لو كان الامر دائراً على الاجرة لزال الاشكال وانجلى المعمى بما

نراه من حال تلك العائلة لكنه ليس كذلك وانما السبب فى تعاسة أولئك القوة وانتشاب مخالب الفقر فيهم هو سوء سيرهم وانعكافهم على المسكرات اذ هى منتشرة بينهم أكثر مما يظن وفى ميزانية الفعلة خروق تذهب منها الاجور كما هى فى ميزانية الاواسط من الناس

يعيش الرجل الوسط معيشة ضيقة ليتمكن من ارضاء شهواته فيما يتعلق بملبسه واعداد بيته للاستقبال أو ليدخر المال لبنيه والفاعل يعيش مقتراً ليتأتى له الصرف فى أمور غير مفيدة أو هزئية أو ممقوتة والذى يعوزهما معاً انما هو حسن السير والنظام لاقلة المال . وأعظم طرق استعمال المال فائدة هو اتخاذ مسكن مقبول توفرت فيه أسباب الراحة على قدر الامكان وكل الذى قدمناه راجع الى بيان ذلك . والصرف فى هذا السبيل هو فى الواقع استغلال بربح عظيم لأنه فضلا عن كونه يثنى صاحبه عن الصرف فى أمور كثيرة لافائدة منها فهو ينمى فيه شعوره بمكانته وباستقلاله وميله الى العمل واستعداده الى الارتقاء

كل من توفرت فيه هذه الصفات الاساسية يكون قد توصل بالنظر لذاته الى حل المسئلة الاجتماعية وصار مالكا لنفسه مستقلا عن الآخرين

الباب الثالث

﴿ الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشة العمومية ﴾

يوجد بين الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشة العمومية من الفرق ماشاهدناه بينهما فى المدرسة وفى المعيشة الخصوصية وقد خصصنا الابحاث الآتية لبيان ذلك وأظن اننا نكون حينئذ قد أتينا على ذكر أهم الاسباب التى تجعل الانكليزى السكسونى فى جميع طبقات الهيئة الاجتماعية أرقى من غيره ارتقاء يمكنه من النصر فى التزاحم فى الحياة وتكون أيضاً بينا السبيل الذى يجب علينا أن نسير فيه لكى نقاوم انتشار ذلك الجنس الذى يتهدد العالم بأسره

الفصل الأول

« أهل السياسة فى فرنسا وفى انكلترا »

اذا أخذنا بالظواهر رأينا المجالس النظامية التشريعية واحدة عند جميع الأمم الا اختلافاً يسيراً فالمتفرج الذى يشاهد مجالس النواب فى المانيا وانكلترا وايتاليا وفرنسا يتأثر تأثراً واحداً تقريبا واذا حكم بمقتضى هذا الشعور قضى بأن حكومات تلك البلاد متشابهة وان نظام مجالسها النيابية يكاد أن يكون

واحداً وان الخلف ناشىء على الخصوص من جهة تكوين الاحزاب وعدد رجال كل واحد منها

(هذا ماظهر ولكن بقي مااستتر) كما يقول (باستيا) وما استتر هو الذى يهمنا كشف القناع منه

ان الذي احتجب عن الابصار لأنه ليس مما يدرك بالاعين عادة هو طبقات الهيئة الاجتماعية التى ينتخب منها النائبون عن الأمم ونسبة عدد المنتخبين من كل طبقة وطائفة الى الآخرين . ولا شك فى أن هذا البحث يؤدى الى معلومات مهمة فى موضوعنا فمن البديهى أن صناعة الرجل التى احترف بها تأثيراً فى أفكاره وقابليته لهذا العمل دون ذاك وفى كيفية نظره فى الامور والاحوال . ولكل طبقة من الزراع والتجار وأهل الصناعة والاطباء والمحامين والجند والموظفين نشأة خاصة بها وكلهم لايرون الشىء الواحد من الجهة الواحدة وكلهم لاينوبون عن المنافع بعينها . ثم أن تلك المنافع ليست متساوية من حيث ضرورتها فى الامة بل بعضها أهم من البعض وعلى كل حال فانها ليست معتبرة بدرجة واحدة عند الناس وقد تختلف بل ربما تعارضت

نتج من هذا أن عناصر النيابة الملية تتغير تغيراً عظيما تبعاً لحالة الامة وباعتبار أن أهل هذه الطائفة أهم من أهل تلك وأرفع قدراً أو أشد بأسا . وينتج من ذلك أيضاً أن المجالس النيابية لاتبقى على حال واحد فى أعمالها ونظرها فى مصالح الامة بل تتغير نزعاتها وتختلف آراؤها تبعاً لرأي الفريق الذى يسود على البقية من أعضائها

ولنبين ماتقول ببيان كيفية تشكيل مجلس النواب عندنا

ولا يغيبن عن ذهن القراء انني ماوصلت الى معرفة عناصر ذلك المجلس الا بعد الجهد والعناء اذ لم يسبقني أحد لذلك البيان فألجأتني ضرورة البحث الى النظر فى ماضى كل نائب على حدته ومعرفة ماامتاز به عن اخوانه وتقسيمهم جميعاً بحسب صنائعهم وحرفهم

وقبل أن نورد ذلك التقسيم نلاحظ اننا لم نجد حرفة تدخل فيها ثلاثة وأربعين عضواً لأننا لم نهتد لهم على طائفة معينة يمكن الحاقهم بها فنهم سته من العملة ربما صح الحاقهم فى صف أرباب الصحف ومنهم من تعذر الوصول الى معرفة حالهم على أن هذا النقص الجزئى لايؤثر بشيء فى التقسيم العام كذلك لم يتغير ذلك التقسيم فى المجلس الجديد الذي انتخب أعضاؤه بعد نشر هذا المبحث الا يسيراً بل ان النواب من أرباب الحرف الادبية زادوا فبلغوا ٢٨٦ بعد أن كانوا ٢٧٠ نائبا

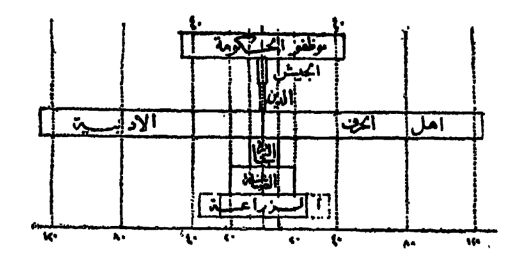
﴿ جدول تقسيم مجلس النواب الفرنساوى ﴾

مهنة	من الشمال	من اليمين	مجموع	مجموع العمومى	اجمال	
ملاك أطيان	٠٨	١٧	٢٥	٧٥	أهل الفلاحة	٧٥
زراعون	١٣	٣٧	٥٠			
صناع	٢٧	١٤	٤١	٤١	أهل الصناعة	٤١
تجار	١٤	٠٣	١٧			
أرباب بيوت مالية (بنوكه)	٠٢	٠٣	٠٥	٢٢	أهل التجارة	٢٢
أعضاء جمعية المعارف	١٢	٠٠	١٢			
أطباء	٤٧	٠٣	٥٠			
صيدليون	٠٣	٠٠	٠٣			
مهندسون ملكيون	٠٥	٠٢	٠٧			
أرباب جرائد	٥٤	٠٥	٥٩			
مدرسون في علم الحقوق	٠٥	٠١	٠٦	٥٩	أهل الحرف الادبية	٢٧٠
موثقون	١٤	٠٣	١٧	١٣٩		
وكلاء الدعاوى	٠٩	٠٠	٠٩			
محامون	٨١	٢٦	١٠٧			
روحانيون	٠١	٠١	٠٢	٢	أهل الدين	٢
ضباط بريون	٠١	٠٢	٠٣			
ضباط بحريون	٠٠	٠٣	٠٣	٦	أهل السيف	٦
قضاة	١٢	١١	٢٣			
موظفون	٣٩	٣٣	٧٢	٩٥	أهل الوظائف الادارية	٩٥
بدون حرفة	٢٢	٢١	٤٣	٤٣	بدون حرفة	٤٣

ولنترجم عن هذا التقسيم بشكل مادى ليتمكن القارىء من الاحاطة بحقيقة النيابة الملية تماماً وتنجلى النسبة بين الطوائف والطبقات وقد وضعنا الجدول الآتى لذلك وقسمناه بخطوط عمودية جعلناها نقطاً والارقام التى فيها تدل على عدد النواب

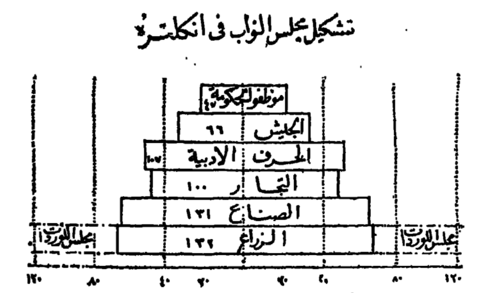
والذى يستلفت النظر أولا فى هذا الجدول هو عدم انتظامه الناشىء من فقد التناسب فقدانا تاماً بين الاعداد الدالة على الطوائف وثانياً هو أن نصيب الحرف العامة وهى الزراعة والصناعة والتجارة من ذلك العدد قليل وان الحظ الاوفر فى النيابة عن الامة لارباب الحرف الادبية وموظفى الحكومة وتتبين أهمية هذين الامرين أكثر من ذلك اذا قورن بين تشكيل مجلس نوابنا ومجلس نواب انكلترا وقد وضعنا جدولا ثانياً لبيانه ولو انا أدخلنا فى هذا الجدول أعضاء مجلس اللوردات لزاد عدد النواب من أهل الزراعة كثيراً لأن هذا المجلس مؤلف كله من هذه الطبقة الا قليلا . أما مجلس السناتو « الاعيان » فى فرنسا فانه لا يختلف كثيراً فى تشكيله عن مجلس نوابها وقد كتب موسيو « تاين » كلاماً مفيداً جداً أثبت فيه أن الانكليز يرون النيابة الطبيعية عنهم راجعة الى أهل الزراعة فمالوا الى انتخابهم « راجع كتاب مذكرات على انكلترا صحيفة ۲۱٦ الى ۲۲٤ »

تشكيل مجلس النواب فى فرنسا



وبهذا الجدول يمكننا أن ننظر الى جميع الحرف التى يتألف منها مجلس نوابنا نظرة واحدة ولنفرد الكلام على كل حرفة منها

يرى المطلع على هـذا الشكل الذى يشبه الهرم إننى وضعت الزراعة والصناعة والتجارة فى أسفله لأنها الاساس الاول فهى التى يحصل المرء بواسطتها عيشه اليومى وهي التى تقوم بها جميع الاعمـال الاخرى وهى التى اذا اعتلت أصبح جسم الأمـة سقيما وان بادت باد معها كما ينعدم الجسم الانسانى لقلة الغذاء



وقد يتصور الانسان أن أمة تعيش بدون محامين وأصوليين ووكلاء دعاوي وأطباء وموظفين ولكنه لا يسلم أن تعيش أمة بغير زراع ينتجون لها مادة غذائها الأولى وصناع يصنعون حاجاتها التى لابد منها فى الحياة وتجار يوزعون هذا وذاك فى الأماكن المحتاجة اليهما

وجدولنا يدل على أن النيابة عن الحرف الثلاث الأولية قليلة جداً وهذا أمر لا يخلو من الخطر بذاته ويظهر لنا الخطر عظيما اذا أمعنا النظر فى كل حرفة على حدتها

أما الزراعة فيجب أن تكون هى الأساس الذى يبنى عليه ما عداه لأنها أشد لزوما فى الأمة من الصناعة والتجارة لا لمجرد انها هي القائمة بأمر

الحياة مباشرة بل لكونها أيضاً من جميع الحرف وأثبتها قدماً وثباتها من ثبات الارض التي هى محلها ولا يعتريها التغير الفجائي الكلى كما يعترى الصناعة والتجارة فالزراعة مستقرة الي حد انها صارت طبيعية فى الأمم لذلك قيل في الزراع هكذا وجدنا آباءنا واستقرارها يجعلها الأس المتين فى الأمة لأنها تجذب قسما منها وتجعله ملتصقاً بالبلاد متمسكا بتقاليدها وقلما تجد النظام والدوام عند غير الزراعين . وقد تبين أن هذا العنصر الذى به حياة الأمة لا يوجد في مقدمة النيابة الملية عندنا على نسبة ماله من الاهمية الاجتماعية فما عدد الزراع في مجلس النواب الا اثنان وسبعون وهو قليل جداً بجانب المائتين والسبعين من أهل الحرف الأدبية وهذا العدد على قلته يجب تنقيصه اذا لوحظ انى أدخلت فيه أصحاب الاراضى الذين لا يحترفون بحرفة ما وليسوا كلهم مشتغلين بالزراعة أو مهتمين لها بأكثر من مداليد لتناول الايراد أو الصياح من سوء الحال والكساد

ومن أولئك النواب اثنان وعشرون لا يصدق عليهم من الزراعة الا تسميتهم بالزراع لأنهم يسكنون فى باريس طول السنة ولا يقيمون فى الريف الا يسيراً ويرتبكون فى جواب من يسألهم عن حركة الزراعة وأحسن الطرق فيها ومقدار ماينتجه (الهكتار) والفرق بين منفعة السماد المعتاد والسماد الكيماوى وطريقة صنعه وهكذا . ولهذا رأيت من الواجب تمييزهم بعلامة مخصوصة حتى يكون التقسيم مطابقاً للواقع فدللت على نسبتهم بخط من النقط

اذن لا يوجد فى مجلس النواب من أهل الزراعة الحقيقيين الا خمسون

عضواً ومع ذلك لست على يقين من أنهم يستحقون هذا الاسم جميعاً والاولى أن لا ندقق البحث فيهم

وليس من الطبيعى أن تكون تلك المهنة على ماقد علمت من الاهمية لما يرتبط بها من المنافع العمومية ولكثرة عدد المحترفين بها وأن يكو هذا عدد النائبين عنها ولا بد لهذا التباين فى النسبة من مؤثر قوى قديم العهد نشأ عنه عندنا هذا الأثر الذى لايشاهد مثله فى الأمم الاخرى ولا أراه الا هرب كبار أصحاب الاطيان من الزراعة وهجرهم الريف بسكنى المدن وقد بدأ بهذه الهجرة منذقرنين العدد العديد من الاشراف أصحاب الاراضى الواسعة وتكاثفوا بين جدران مدينة « فرساى » حيث أصبحوا حاشية للملك وتباعاً فى معيته واتبعهم فى ذلك أواسط أرباب الاملاك من أهل الريف

ليس من بلد أهملت فيها الزراعة واحتقر الاحتراف بها مثل ماأهملت واحتقرت فى فرنسا حتى أن الرجل لايرضى أن يكون ابنه زراعاً الا اذا رآه لايليق للاحتراف بغيرها وأصبحت معيشة المرء فى أرضه أشدوقعاً على النفوس من أتعس المنافى وقد يفضل الفرنساوى وظيفة فى « برسلونيت » على المعيشة فى أرضه التى يملكها وأرادت الجرائد الجمهورية سنة ١٨٧١ أن تحط من منزلة بعض أعضاء الجمعية الملية العمومية فاكتفت بأن وصفتهم بأنهم « ريفيون »

أصبح التباعد عن الزراعة وما يتعلق بها أمراً عادياً عندنا حتى أن قساً من قسس باريس قال ذات يوم لأحد أصدقائى وكان من سكان ولايته (كيف تكلف نفسك أن تعيش فى الريف وفى امكانك مع ماأنت فيه من

سعة المال أن تعيش عيشة راضية فى باريس)

اذا كانت هذه الافكار مما تقرر فى الاذهان حتى عند أعظم الرجال كمالا ووقاراً لم يعد من المستغرب أن تفقد النسبة بين أهل الزراعة وبين عدد النائبين عنهم فى مجلس النواب ولا أن ينوب عنهم من كان أقلهم جدارة واستعداداً . ولا حق لأرباب الأملاك الواسعة أن يلوموا الا أنفسهم على سقوط اعتبارهم عند المنتخبين الذين يفضلون عليهم غيرهم من الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوى والمحامين كما سنبينه

لست أنسى حادثة شهدتها فى مجلس « لابلى » وهى أنه جاءه فى اليوم الثانى للانتخابات العمومية رجل من أصحاب الاملاك الواسعة فى أقليم « صانتر » وشكا اليه من أن الانتخاب لم يصبه وكان يتألم كثيراً من ذلك لأنه وأباه من قبله وجده كانوا نوابا عن أهل ناحيتهم وصار يصخب ويفوق سهام الملام على المنتخبين ويندب فساد الافكار وانتشار مبادىء الثروة الى غير ذلك من الاقوال فقاطعه « لابلى » سائلا (سيدي الكونت أين كان يسكن جدكم قال فى أرضه وكان لا يأتى باريس الا نادراً قال وأين كان يقيم والدكم قال لما تزوج أبى اتخذ مقامه الحقيقى فى باريس وأين تقيمون قال وأنا كذلك فقال له « لابلى » وقد أخذ فى كلامه ما كان يعرف عنه من انتهاز مخاطبه أحيانا اذن لا حق لك فى شكواك من المنتخبين . هب انهم أقاموا على الولاء لك بعد ولأبيك الى يومنا هذا مع انك تركت الاقامة بينهم والاهتمام بمصالحهم وصرف المال الذى تأخذه من بلدهم فيها لكنهم سئموا طول المدي فاختاروا لهم رجلا أقل صفاته انهم يرونه فى كل

يوم وانهم يرجعون اليه كلما مستهم الحاجة لطلب المعونة واحتاجوا الى المشورة وقد أخذ ذلك الرجل مكانك لانك تخليت عنه منذ جيلين) ولاأذكر انى رأيت ذلك النائب الذى استولى اليأس عليه عند «لابلى» مرة أخرى

هذا مثل الكثير من اتراب صاحبنا وربما صار يوما مثل ارباب الاملاك العظيمة فى الاقاليم الغربية الذين لايزال الاهالى يرسلونهم الى مجلس النواب والسبب فى أنهم لم يتركوا الى الآن طول الزمن الذى قضاه أباؤهم بين أولئك الاهالى

وأما الصناعة والتجارة اللتان عليهم مدار العمران بعد الزراعة فنصيبهما فى مجلس النواب أقل من نصيبها لأنا لانجد فيه الا واحداً وأربعين صانعاً واثنين وعشرين تاجراً مع ان عدد أهل الصناعة والتجارة عظيم والمنافع التى هى بين ايديهم ذات اهمية كبرى ولا بد من سبب أدى الى ضعف النيابة عنه. وهنا لايمكن اتهامهم بانهم تركوا حرفهم كما فعل أهل الزراعة لان الصناعة والتجارة تطلبان مباشرة أصحابهما كل يوم مع العناية والاهتمام وإذا ابتعدوا أو فترت همتهم ولو قليلا لتقهقروا لساعتهم بتغلب المتسابقين وافضى بهم الحال إلى الافلاس. ولكن هذه الضرورة التى تلجئهم إلى مباشرة أعمالهم ولا تمكنهم من اغفالها يوما واحداً هى التى لا تتفق مع نظام المجالس النيابية عندنا لان السلطة فى بلادنا مجموعة في يد الحكومة العالية فاليها يرجع الفصل فى جميع المنافع عظيمها وحقيرها وكلها يجب عرضها على المجالس النيابية لتبدى رأيها فيها ولذلك تستغرق جلسات هذه المجالس أكثر أيام

السنة بتمامها . ومما يطيل أوقات الاجتماع ما اعتادوا عليه أثناء انعقاد الجلسات من كثرة المقاطعة وحشو المباحث بالامور التافهة والانتقال منها الى الشخصيات والجنوح الى السفسطة والصبيانيات ولذلك أسباب سنأتى على ذكرها فيما بعد كل هـذا يستغرق وقتاً طويلا ويستلزم ادامة الجلسات الا قليلا . وليس فى استطاعة أهل الصناعة والتجار أن يتركوا أعمالهم هذا الزمن كله لذلك تراهم يفضلون العزلة عن الانتخابات ولا يترشحون الى النيابة . ومما يزيدهم رغبة في العزلة حالة الترشح التى صارت بحيث لا تروق فى أعين أهل الجد والكمال الذين تعودوا الأخذ والعطاء في الامور المهمة إذ ينبغي لمن يترشح لعضوية المجالس أن يعرض نفسه للمطاعن الفادحة التى يوجهها اليـه سوء النية وللشتائم والسباب التى ترميه بها الجرائد المضادة لمذهبه . كذلك ينبغى أن يحضر الاجتماعات العمومية وليس الهدو وسلامة الذوق من مميزاتها . وليس فى الاستطاعة مقاومة تلك الامخاخ المائجة الا اذا كان الرجل متعوداً على الكلام عارفاً بطرق التمليق والاكثار من الوعود حتى ماعزى الوفاء به عالماً بأساليب التفيهق ورص الجمل الطنانة التى لا معنى فيها وتلك حال لا يحسنها من تفرغ لأعمال الصناعة والتجارة الكبرى فانها أعمال لا تؤهل صاحبها الى مثل ذلك ولا تجعله يرغب فيه .

أما أهل الصناعة والتجارة الذين يقتحمون أخطار الانتخاب فهم واحد من اثنين . فأما رجل أمن على مكسبه وصار بذلك قليل الاهتمام بحركة صناعته أو تجارته تخرج عن مجرى الأحوال فيها وأما رجل خاب فى صناعته أو تجارته فلم يبق لديه ما يخاف عليه أن تركها

تلك هي الاسباب التي لأجلها أصبحت الحرف الملية الحقيقية أعني الزراعة والصناعة والتجارة وليس لها من النواب الا القليل ونوابها هم في الواقع أبعد أهلها عنها

بقي علينا أن نعرف من النائب عنا

يرى القارىء فوق تلك الحرف الثلاث تجسما هائلا حيث ينبعج الشكل ويتمدد تمدداً كبيراً فيكاد عدد أهل الحرف الادبية يبلغ نصف عدد النواب كلهم لأنهم مائتان وسبعون نائباً أعني ضعف أعضاء الزراعة والصناعة والتجارة . والعنصر الغالب فيهم هم الاطباء وأرباب الجرائد والموثقون وعلى الخصوص المحامون . ولندخل بين ذلك الجمع لنقف على حقيقة تركيبه

يبلغ الاطباء والصيدليون ثلاثة وخمسين عضواً فعددهم كعدد أهل الزراعة تقريبا ويزيد على عدد أهل الصناعة والتجارة معاً وليس ذلك لأن صناعة الطب توجد في الانسان استعداداً مخصوصاً لمداواة الهيئة الاجتماعية من أمراضها فانا مهما اجتهدنا لا نرى ارتباطاً بين الطب الباطني في الامراض والوقوف على حقيقة ماتشكو الأمة من الآلام . كذلك لا توجد نسبة بين سعادة الأمة وعدد الاطباء فيها كالنسبة الموجودة بين تلك السعادة وبين عدد الزراع والصناع والتجار . ولا نحسب الاطباء أيضاً يتأثرون باختلال سياسة الأمة وشبوب نيران الثورة الاجتماعية أكثر من غيرهم ولو كان الأمر كذلك لظنناهم أشد الناس اقداماً على سد الخلل ومنع الخطر لكنا نرى الأمر بعكس هذا فبينما الصناعات الثلاث الاولى تصبح كاسدة بل تقف حركتها بما يطرأ على السياسة من الاختلال نشاهد صناعة الطب

غير متأثرة أبداً لانها إنما تتعلق بسوء حال الاجسام والامراض الطبيعية فى الانسان لايحسن حال الاجتماع . ومما يدهشنا أن يكون عدد الاطباء كثيراً الى هذا الحد فى مجلس النواب مع ماتحتاجه تلك الصناعة من استمرار مزاولتها والعمل فيها واذا غاب الطبيب تركته الزبائن لأن المريض لايقوى على الاصطبار ومن هنا جاء أن أغلب الاطباء فى مجلس النواب ليس لهم زبائن أما الذين كثر عملهم ففائدتهم فى الاحتفاظ على زبائنهم ولا يفضلون عليهم اقتحام مخاطر الانتخاب وطلب النيابة من مواطنيهم ولا يبيعون مرتزقاماً مونا كثير الربح بحالة قل كسبها وبعيدأن تدوم . اذن ليس أولئك النواب نخبة بنى حرفتهم وعليه فليسوا بعضد قوي للنيابة الملية

ولكى نقف على سبب انتخاب هذا العدد العظيم منهم ينبغى أن نعرف الأمرين الآتيين

الاول ان أولئك النواب هم فى الغالب من حزب الشمال فمن الثلاثة وخمسين طبيباً وصيدلياً خمسون من الحزب المذكور وثلاثة فقط من حزب اليمين . ولا شك فى أن صناعة الطب ليست هى التى غرست فيهم تلك الاميال حتى ضاعت النسبة كما ترى لأننا اذا رجعنا الى مجموع الاطباء كلهم لانرى فيهم هذا الميل الي هذا الحد وسببه ظاهر لأن صناعتهم ورغبتهم فى تكثير عدد زبائنهم تجعلانهم لايشتغلون بالسياسة الا قليلا .

ولقد نسلم أن هذا النقد لايصدق على أطباء من النواب الذين ليسوا هم من خلاصة أهل الفن ولا ممن كثرت زبائنهم ولكننا لانسلم بأن تأخرهم فى صناعتهم هاج خواطرهم وألقوا الاثم على الهيئة الاجتماعية فمالوا الى

المتطرفين فى السياسة انتقاماً منها اذ اننا لانرى سبباً يمنعهم فى هذه الحالة من الانحياز لحزب اليمين الذى يلتقى مع حزب الشمال فى محاربة نظام الهيئة الاجتماعية الحالى مع ان لهم فى الانحياز اليه مزية تمكنهم من اهتمام الحكومة بانها السبب في اخفاقهم. والذى يؤيد ان هذا الدليل لاقيمة له هو تساوى عدد المحاميين الذين لايجدون مايشغلهم من القضايا فى حزب الشمال وحزب اليمين تقريباً اذا لوحظت النسبة بين جميع الاحزاب فى المجلس

الامر الثانى ان أغلب هؤلاء الاطباء يحصل انتخابهم من جهات الارياف والسر فى هذا ان أصحاب الاملاك الواسعة لايقيمون غالباً فى الارياف كما قدمنا وان عددهم قليل أيضاً فى مجلس النواب فلما اختفوا عن أعين الاهالى قلت معرفتهم بهم وضاع ميلهم اليهم وهم ذلك مصيبون ورأوا أنهم لايستحقون أن يقوموا بالنيابة عنهم اذ لم يعد لهم بينهم من المآثر غير جمع المال منهم لينفقوه فى المدن التى يسكنون فيها . وأرباب الاملاك الواسعة هم فى الغالب من المحافظين فالنواب من أهل الزراعة فى المجلس خمسة وسبعون فيهم أربعة وخمسون من حزب اليمين وواحد وعشرون من حزب الشمال وبتركهم الريف يضيع نفوذهم بين أهله وينتقل بالطبيعة الى اعدائهم فى السياسة الذين هم من حزب الشمال فينتخبون بدلا منهم. ولا يوجد فى الارياف من يصح له أن يقوم مقام أولئك الملاك الغائبين الا الاطباء والمحامون والموثقون فلهذه الطوائف الثلاث نفوذ طبيعى بين الناس عظيم لكثرة من يخالطون والافضاء اليهم باسرار العائلات وما يقومون به

من الخدم أما بالارشاد مجاناً وأما باقراض الاموال . ثم هم نخبة النبلاء فى الارياف بعد الملاك فلا غرابة حينئذ إذا أصابهم الانتخاب وجلسوا فى مجالس النواب .

تلك مشاهدة صحيحة وهى الصحيحة وحدها بدليل انك إذا راجعت عدد الاعضاء من كل طائفة فى كل حزب فى مجلس النواب رأيت الموثقين ووكلاء الدعاوى يكثرون حيث يكثر الاطباء فالموثقون سبعة عشر منهم أربعة عشر فى الشمال وثلاثة فى اليمين ووكلاء الدعاوى تسعة كلهم فى الشمال . . ثبت إذن ان أهل تلك الحرف لم يدخلوا مجلس النواب الا لهروب أصحاب الاملاك . أما البلاد التى حفظ كبار الملاك فيها نفوذهم ومكانتهم فلا يزال أطباؤها وموثقوها ووكلاء دعاويها يقومون بخدمتهم للمرضى والارامل والايتام وكل الناس هادىء مسرور

ولست أذكر شيئاً عن المهندسين الملكيين لانهم سبعة نواب وهو عدد يسير سببه ان حرفتهم لا تمكنهم بطبيعتها كالحرف السابقة من اجتذاب القلوب واستمالة الاهالى

وأما أرباب الصحف فكثيرون إذ أراهم تسعة وخمسين كعدد أهل الزراعة على التقريب وا كثر جداً من أهل الصناعة والتجارة ولا أظن أن أحداً يدعى أنهم لازمون فى الامة لزوم الزراع وانهم أشد لزوماً من أرباب الصناعة وأهل التجارة معاً . وزد عليه ان أرباب الصحف لا يهمهم صلاح الحال فى البلاد وهدو الافكار واستتباب النظام العام كالزراع والصناع والتجار لحياة الجريدة من الحوادث تزداد أعدادها أيام الاضطراب ولذلك

تنشر بأحرف كبيرة أشد الاخبار اقلاقاً للراحة العمومية وتقل تلك الاعداد متى ساد السكون على الناس الا أن الجرائد لا تعدم سبيلا للرواج فتختلق الحوادث وتعظم ماصغر منها وتوقظ اللاهي وتحض على تهييج الافكار لأنها فى حاجة اليه . . أنظر كيف يزداد عدد الجرائد فى أزمنة الاضطراب وكل من لم يطمس الله على بصيرته يقول أن تقدم الزراعة وارتقاء الصناعة ورواج التجارة انما يقوم بقتل الصحف وموت الجرائد

يقال أن أرباب الجرائد قد استعدوا للبحث فى المسائل السياسية لأنهم يخوضون فيها كل يوم . نعم أسلم انهم مستعدون للكلام فى كل موضوع الا أنهم يتكلمون كما تتكلم الجرائد . وصاحب الجريدة مضطر بطبيعة حرفته الى التفكر عاجلا والحكم على الاشياء عاجلا والكتابة عاجلا فما لاحت له بارقة فكر الا كتب فيها من حينها إذ ليس عنده زمن ليمعن النظر فيها وكبار أهل الجرائد يعرفون ذلك ويشكون منه أما الآخرون فلا يخطر لهم هذا على البال بل يعتقدون فى أنفسهم ماشاء الله أن يعتقدوا ويقولون غير هازلين أنهم أرباب زعامة فى الامة وأهل سيادة على الافكار

صاحب الجريدة محتاج الى تغليظ صوته ليسمع الناس ويحول الافكار اليه ضرورة قضت بها مهنته واستلزمتها حياة جريدته فهو يبالغ بطبيعة الحال كما إننا نأكل أو ننام . ان قال فى رجل انه نذل أو وغد فمعناه ليس بأكثر من أنه واياه فى الرأى مختلفان وليس لكلامه غاية يقصدها ولكن هكذا اقتضت لهجة الجريدة فوجب الصراخ حتى يسمع الناس كما يقع فى الموالد والاسواق حيث الوسيلة فى الفات القوم كثرة الجلبة على الأبواب وذلك

هو مايسمى بالمظاهرة

أتظن ياصاح أن تلك الخلال هى التي ينبغى للأمة أن تطلبها من أولئك السياسيين وأنت تعلم أن البحث في منافع الأمة العامة وحكومة البلاد لا يتأتى الا لقوم اتصفوا بالحكمة وبعد النظر وسلامة الحكم والمسالمة وحسن الذوق ومعرفة الاعمال المفيدة ؟ لاأنكر أن بعض أهل الجرائد يعرفون ذلك إلا انها صفات ليست هى الغالبة فى تلك الطائفة بالبلاد الفرنساوية ولذلك نشاهد أن النواب من أرباب الجرائد لم يساعدوا على ايجاد الهدوفى المناقشة واستعمال الحكمة في مباحث المجالس النيابية وما كثر عددهم فى سراى البوربون الا لأن الصحف فى تصرفهم والصحف هى رسل الانتخاب

أرباب الصحف ليسوا على نسبة واحدة فى الاحزاب فعددهم تسعة وخمسون منهم أربعة وخمسون فى الشمال وخمسة فى اليمين وسبب هذا الاختلاف ان حزب الشمال يعتمد على الفعلة وحزب اليمين يعتمد على الفلاحين وأولئك يقرأون الجرائد أكثر من هؤلاء وبهذه الواسطة اشتد تقرب أرباب الجرائد الجمهورية من جميع المنتخبين فى المدن أكثر من تقرب اخوانهم المحافظين الى أهل الريف. ولو أن أهل الريف قرأوا الجرائد لتضاعف عدد المحامين فى مجلس النواب. وبينما السبب فى اغارة الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوى على المجالس النيابية هو تمنع كبار الملاك حتى فقد أهل الريف رؤساهم الطبيعيين نرى السبب فى اغارة أرباب الصحف آتياً من أهل الصناعة الذين تركوا الفعلة بغير قائد فأصبحوا عرضة لغواية

الجرائد ولا حامي يحميهم ولا دافع يردها عنهم فالرؤساء هم المسئولون في الحالين

أكثر النواب من أرباب الحرف الأدبية هم أهل القانون والذين بلغوا مائة وتسعة وثلاثين عضواً غير القضاة وأمثالهم ممن هم في عداد الموظفين لانهم وإن اتحدوا معهم في الصناعة لكن سبق وجودهم في خدمة الحكومة جعلنا نفرد لهم قسما مخصوصاً وهو قسم الموظفين. وقد ذكرت بين أهل القانون مدرسي الحقوق الستة لمجرد البيان فقط ثم اشتركت معهم الموثقين ووكلاء الدعاوى وقد سبق الكلام عليهم. بقي عندنا العدد الاكبر وهم المحامون.

يبلغ عدد المحامين مائة نائب وسبعة وأريد بهم أولئك الذين توجد أسماؤهم في جدول المحامين الرسمي ولا يزالون يشتغلون بحرفتهم أما عدد حائزي الشهادة في علم الحقوق فيزيد في المجلس على ثلاثمائة ولسنا نعلم أمة من الامم الماضية أو الحاضرة نشأ فيها متعلموا علم الحقوق بكثرة كما هو حاصل عندنا في القرن التاسع عشر فهم غارة حقيقية بل طوفان وهم أصحاب الكلمة الحقيقيون في مجلس النواب وفي فرنسا كلها وقد وضعوا ايدهم تمام الوضع على سير المجالس النيابية مما لم يسبقهم به أهل حرفة أخرى

كيف لا يكثر عددهم والمحاماة فن يسهل تركه كما يسهل الرجوع اليه وليس في تركه ضرر برأس مال فعدة المحامي مكتبه ومكتبه في الغالب قسم من مسكنه والنيابة طريقة من طرق الظهور لأنها تتيح للمحامي فرصة بيان فصاحته ونشر بلاغته وفي سراى البوربون منبر أرفع من منابر المحاكم. هناك يتكلم الواحد من علو عظيم ويسمع صوته من بعيد. اذن في وظيفة النيابة

مزية للمحامى تعطيه زبائن ان لم يكن لهم أحد منهم « وقد حصل » أو تكثر عددهم . ثم ان ضرورة الكلام فى الاندية العمومية والمجتمعات التى يحجم عندها كثير من أهل الزراعة هى من الامور المقبولة عند المحامى فالكلام صنعته ومن هنا كان له على المتسابقين معه مزية كبرى .

غير ان المحاماة لا تهيء الانسان الى ادارة مصالح البلاد كما تسهل له الدخول فى مجلس النواب لانها لا تتأثر باعتلال الاحوال العمومية كما هو الحال فى الزراعة والصناعة والتجارة بل الظاهر انها تستفيد من ذلك الاعتلال لان قوامها الدعاوي وهذه تكثر كلما كسدت الاعمال فتتولد القضايا السياسية فى أزمنة الاضطراب وتتولد القضايا بين الاقارب متى فسد نظام العائلة وعلى هذا فسوء حال المحامى فى قضاياه لا يدله على سوء مجرى الاحوال السياسية بل بالعكس

يقال انهم تعودوا على المباحث القانونية واختبروا القوانين فأصبحوا قادرين على التشريع وصحيح أنهم يعرفون بمقتضى مهنتهم قوانيننا واحداً بعد واحد وواقفون على المذاهب التى ذهبت فى تفسيرها وهم بذلك يفيدون النيابة الملية الا انهم لسوء الحظ ميالون الى تغليب الجانب النظرى الذى هو ميدانهم على الجانب العملي والمنافع الحية التي ليست بين أيديهم

قضوا حياتهم بين النصوص فكان منهم ان حسبوا لها تأثيراً لا مرد له والتأثير في الواقع غير موجود واعتقدوا ان الامم انما تساس بوضع القوانين فقللوا من تأثير القوة الحيوية الذاتية واضعفوا تأثير الصنائع والفنون الجارية وهذا الميل هو الذى حمل أهل القانون فى الزمن القديم على الدفاع أي دفاع

عن حقوق الملوكية حتى أطلقوها من كل قيد اضراراً بحقوق الرعايا وحرية الافراد واستقلال البلاد وهم الذين لم تفتر لهم همم فى زمننا هذا من حزب اليمين كانوا أو من حزب الشمال عن جمع سلطة البلاد فى قبضة الحكومة العليا فادخلوا ايدها الثقيلة فى كل ناحية ولم يرفعوا أصواتهم بالشكوى منها الا اذا رأوها فى جانب خصومهم السياسيين وهم المسئولون قبل سواهم عن اتساع دائرة المصالح الأميرية والدواوين الفرنساوية التى أضرت بمالية البلاد ووقفت حجر عثرة في سبيل انتشارهم الافراد . وعليهم نصيب فى سقوط منزلة النظام الشوروى لأن عادة ارتجال القول فيهم حملتهم على اطالة المباحث بكلام فصيح لكن بغير فائدة بدلا من المداولات المفيدة العملية التى تقتضى معارف مخصوصة وأصبحنا نسمع الناس يصيحون فى كل مكان طالبين مجلس نواب يقصر همه على الاعمال ووزارة تثنى العنان عن النظريات أقول وزارة لأنى أرى المحاميين قد شغلوا أهم مركز بين النظار والعيب فى هذا راجع الى نظام مجالسنا لأنه يطلب فى الوزير قولا رجيحاً لا عملا مليحاً ويشترط فيه من الصفات مايزهو به الانسان لا ماتظهر فوائده الحقة للعيان . ترى النائب إن رام الكلام وجب أن يرقى منبر الخطابة لا أن يتكلم من مكانه كما فى مجلس نواب الانكليز ومتى توسط ذاك المقام لزمه أن يقدم مقدمة قبل الدخول فى الموضوع ويختم بخاتمة اذا انتهى فيضيع جزءاً ثميناً من الوقت فى فيهقة ورص ألفاظ ضخام ويقصى من المناقشة جميع النواب الذين لاقدرة لهم على طلاوة اللسان وأولئك هم الذين فى الغالب يعرفون حقيقة الاحوال الخبيرون بحاجات البلاد بدليل ماهو مشاهد فى

اللجان حيث يظهر فضلهم وكان الواجب أن يبقى القول قولهم فى الجلسات العمومية فمن المقرر ان أكثر النواب عملا أقلهم كلاما ونظامنا يبعدهم فى زوايا الخمول ويصدر للناظرين كل منطق فصيح

والخلاصة أن المحامين قد يفيدون النيابة الملية بما لديهم من المعارف الخصوصية ولكن لسوء الحظ زاد عددهم عن نسبة أهميتهم فى الامة فصاروا أصحاب النفوذ فى المجلس ووجهوا حركته الى حيث تسوء العقبى

وبقدر ما أغار المحامون على المجالس النيابية تأخر أهل الدين والجنود فلا ترى من الاولين فى المجلس سوى رجلين اما لأنه يصعب على الرؤساء الروحانيين أن يجتازوا متاعب الانتخاب واما لخوف الناس من تسلطهم على الحكومة . والسبب فى أن رجال الجيش لا يزيدون على ستة نواب حظر القانون على جميع الضباط الذين فى الخدمة الدخول فى المجالس النيابية فلا يمكننا حينئذ أن نذهب مذهباً فى قلتهم

هذا وقد استوى الموظفون على قمة الشكل الذى رسمناه وهم الفريق الاكثر عدداً بعد أهل الحرف الأدبية وليلاحظ انا نعد الموظفين باعتبار وظائفهم التى كانوا يشغلونها قبل الانتخاب لأن النيابة والوظيفة لا تجتمعان . وهم ينقسمون الى ثلاثة وعشرين قاضياً واثنين وسبعين موظفاً ادارياً فالمجموع خمسة وتسعون عضواً وهو عدد أكثر من عدد الزراع والصناع والتجار معاً . وأكثر أولئك الموظفين من رجال القانون ولكنهم زادوا على معارفهم الاصلية خبرة بأحوال الناس وتعودوا بمقتضى وظائفهم على احترام أعمال الحكومة وعرفوا جميع الطرق التى تؤيد فوزها وتوجب نصرها وقوم

هذه صفاتهم يظن أنهم أولى بالانتخاب لكونهم أدرى بمصالح البلاد وأحق أن يكون لهم العدد الاوفر بين النواب واعدل القضاة للحكم فى المنفعة العامة ولبيان ما فى هذا الظن من الخطأ أو الصواب نبحث فى المنفعة العامة

المنفعة العامة تقتضى أن يكون ثمن الحكومة رخيصاً حتى لا نكلف الامة من المال الا يسيراً لكن منفعة الموظفين تقتضى أن يكون ذلك الثمن رفيعاً الى حد الامكان فبقدر ضخامة الميزانية توجد الوظائف تحت تصرف الحكومة وتمتد الاطماع لنوالها . الا ترى فى كل سنة أن النفوس تميل الى التوفير والاقتصاد سداً للعجز الذى يزداد عاماً بعد عام حتى اذا حان زمان البحث فى أبواب الميزانية وتتابعت الفصول أثر بعضها تغير شعور مجلس النواب وانحرف ذلك الميل الاولى وتحرك الخمسة وتسعون موظفا بحركة شديدة لا دافع لها امام تلك الميزانية التى هى دجاجة البيض الذهبى عندهم وقاموا يدافعون عن حوزة المال الذى عاشوا منه واليه المصير اذا خرجوا من مجلس النواب . ولهم فى دفاعهم نصير من أهل الحرف الادبية لأملهم اذا ضاقت عليهم رواتب المجلس أن يجدوا فى الحكومة ملجأ يأوون اليه كما يفعل فار القصة المشهورة فى الجبنة الهولندية . ولما كانت الحرف التى تقدم الاموال للحكومة أقل عدداً فى المجلسين من التى تعيش من ذلك المال ينتهى الامر بالاقرار على الميزانية ويؤجل الاقتصاد الى أجل غير مسمى الا أن الامر لا ينقضى بالاقرار على المصروفات لذلك يركض النواب نحو الاقتراض ووضع الضرائب الجديدة رغماً عن وعودهم التى وعدوا الذين استنابوهم وهكذا يعظم العجز سنة بعد أخرى

المنفعة العمومية تقوم بتبسيط مصالح الحكومة وعدم الاكثار من أنواع فروعها حتى تسهل على الناس معرفة جهات أشغالهم وتقضى شؤونهم كما ينبغى فى زمن قصير . ومن مصلحة الموظفين بقاء التعقيب الحالى وهم ينجحون على الدوام فى تأييده رغما عن المعارضين فى بقائه أو عن مشروعات الاصلاح التى تقدم فى كل حين أما فائدتهم من بقائه على ماهو عليه فهى أن التعقيد يجعل وجودهم لازماً لحل مشكلاته ويوسع في اختصاصاتهم ويصير التنقيب عليهم عديم الجدوى وبهذا يصيرون أقوياء مستقلين غير مسئولين

ومن المنفعة العمومية أن لا تتداخل الحكومة فى الاحوال الخصوصية المتعلقة بالافراد أو بالقرى كل واحدة على انفرادها وأن لا تعيق همم الافراد عن العمل بما ينبعثون اليه فى طلب مصالحهم وأن لا يجدها الانسان أمامه كسور من حديد يصده كلما تحرك يميناً أو شمالا أو كلما أراد أن يدير بنفسه أقل الاعمال أو يؤدي أقدس الواجبات . ومصلحة الموظفين تخالف كل هذا فلا تقوم الا اذا تداخلوا فى كل شىء يتعلق بالقرى والعائلات وكلما تداخلوا زادوا عدد الوظائف وزيادة الوظائف تجر زيادة الموظفين وهذا حال ضرره عظيم خصوصاً وانه عام تشترك فيه جميع الاحزاب فمن الخمسة وتسعين نائبا واحد وخمسون من حزب الشمال وأربعة وأربعون من حزب اليمين وأقل شىء نختلف فيه هو حبنا جميعاً للميزانية فى كل عام

يقال أن كثرة عدد الموظفين فى الشورى غير معيب لأنهم أداروا حكومة البلاد كلها فاكتسبوا الخبرة التامة فى أعمالها وعرفوا مايضرها وما

ينفعها وأصبحوا نوابا محنكين . والحقيقة ان خدمة الحكومة لاتربى الا أشد الرجال العموميين بغضاً عند الناس لأنها تقتل فى الرجل همته الذاتية والاستقلال وتميت شعوره بتبعة مايجرى على يديه من الاعمال وهى الصفات التى لابد منها فيمن تعرض لسياسة الامة . فان كان الموظفون من الحزب القابض على أزمة الاحكام رأيتهم تبعاً للحكومة قد أهدوها استقلالهم بما يرجون من حفظ مركز أونوال وظيفة عندها . وان كانوا من خصومه فهم أعداؤه لأنهم خصومه يحاولون سقوطه لكى يسقط فهم ثورويون طبعاً بمحض انهم خصما . ضع نفسك بينهم تجدهم بين أمرين أما الموت أو الحياة لأن الخدمة لم تؤهلهم الى كسب عيشهم بأنفسهم فاصبحوا ولا عيشة لهم الا فى مخادع الوظائف العمومية . اذن لاعجب أن يحولوا وجهتهم الى قبلة واحدة ألا وهى خراب بصرة أى قلب حكومة الاخصام

لهذا يجب أن يكون فى مجلس النواب أغلبية من أصحاب المنافع الحقيقية فى البلاد حتى تضم الموظفين وتحيطهم بدائرة لا يظهر معها ضررهم ويجب أن تتألف تلك الأغلبية من أهل الحرف الثلاث التى وضعناها فى أصل الشكل الذى قدمناه وهى الزراعة والصناعة والتجارة وقد رأينا أن عدد نوابها قليل وانهم ليسوا من الاخيار

هذا هو عيب نظام حكومتنا ولذلك فالموازنة مفقودة فى مجالسنا تدوم دوام اليقطين لأن الاغلبية مؤلفة من الموظفين وأهل الحرف الادبية فقد بلغ عددهم ثلثمائة وخمسة وستين فى مقابل مائة وخمسة وثلاثين نائبا عن

الحرف الجارية الثلاث

رأى القراء أن الشكل الذى قدمناه اليهم يشبه الحجارة العظيمة المتزعزعة لقيامها على أساس ضيق تموج فى كل صوب لأقل صدمة تلاقيها أما تلك الاحجار العتيقة فثابتة أعنى انها تقاوم تقلبات الحوادث رغما عما بها من الاهتزاز وتمر عليها الاجيال وهى باقية ومن سوء حظنا أن الحال ليس كذلك عندنا فالنيابة الملية فى فرنسا تجري مع كل ريح تهب من جانب الافكار وتسقط الى حيث تميل تارة فى الشمال وتارة فى اليمين فتهشم فى سقوطها المنافع الثلاث التى رزحت تحت أثقالها وأمست عاطلة . مع أنها هى المنافع العمومية الحقيقية فى البلاد

الفرق بين حالنا وبين حال الامة الانكليزية فى هذا عظيم . ترى شكل نظام النيابة فى تلك البلاد لايمثل ذلك الحجر الذى اختل مركز ثقله ولكنه يمثل اهرام الفراعنة ذوات القواعد العريضة القويمة . هناك ترى نسبة التوازن مرعية وكل عنصر من عناصر الامة مستوياً فى مكانه ونسبته تغيره على قدر المنفعة العمومية التى يشخصها وترى الحرف الادبية قد انحصرت فى دائرة مقبولة فزال شرها بل صارت كما ينبغى أن تكون زخرفاً مليأ وركناً مهما من أركان التقدم فى الافكار والآداب وملطفاً لما عساه يتأتى من الافراط من جانب أهل الحرف الجارية

الضرر عندنا كل الضرر من أنه لم يعد لنا نواب طبيعيون

واذا أردت أن تعرف من النائب الطبيعى فاقرأ ما كتبه (تاين) (مذكرات على انكلترة صحيفة ٢١٧ الى ٢١٨) حيث يقول (انا لنعجب باستقرار

الحكومة الانكليزية ولكن لا عجب لانها الخلاصة الطبيعية لتلك العناصر الحية التي علقت بالارض في جميع انحاء البلاد . واذا فرضنا أن الحركة ثورية كحركة اللورد غردون قامت في تلك البلاد وأدارتها يد أكثر تجاربا وأمهر سياسة وأضفنا اليها مطالب الفوضويين وضممنا اليها رجال الجيش وان كان محالا وحسبنا أن النتيجة العاجلة الكلية هي تقويض أركان المجلسين ومحق آثار العائلة الملوكية ثم نظرنا الى البلاد بعد ذلك رأينا أن قمة الحكومة هي التي عفت آثارها ومادونها باق لم يمسه سوء لانك تجد في كل قرية وكل ولاية عائلات ثابتة الدعائم تجتمع حولها عائلات مثلها ورجالا ذوي مكانة رفيعة من المهذبين وأهل الاحساب تبعثهم هممهم الى قيادة الزمام والتقدم الى الامام وللناس فيهم ثقة فيتبعونهم لانهم أبناء بجدتها بما عرفوا به من قبل من علو المنزلة وسعة المال وسابق الخدم وبما أتوا من التربية وحازوا من النفوذ ومنهم الضباط والقواد التي تلتف حولهم الجنود المتشتتة فيرجع الجيش على الفور الى نظامه بخلاف الامة الفرنساوية فان أواسط الناس فيها والفعلة والشرفاء وأهل الارياف كل يحذر من رفيقه وكلهم متخالفون متباغضون خائفون ولا رئيس الا الموظفون الذين هم عنهم أجنبيون والذين هم في وظائفهم واجفون مؤقتون والذين لا يطيعهم أحد الا طاعة الخوف بلا ميل قلبي ولا احترام شخصي قد احتملهم المحكومون وهم في احتمالهم مسيرون لا مخيرون . هكذا كانت حكومة الانكليز ثابتة لان للانكليز نوابا طبيعيين وقال في موضع آخر صحيفة (١٩٠) ليست المدن في بلاد الانكليز كما هي عندنا الوطن المختار فانا اذا استثنينا المدن الصناعية

لانرى أحداً يسكن عواصم الارياف مثل مدينة يورك الا البياعون الشراؤن أما خلاصة الأمة وعظماؤها فبعيداً عن المدن يسكنون ومقامهم العزب والارياف حتى أن مدينة لوندره نفسها أصبحت ملتقى أهل الاعمال لاموطناً لاكابر الرجال)

ماأسعد الامم التى أسندت ظهرها الى نوابها الطبيعيين فتمكنت بذلك من إيجاد النسبة بين عناصرها فى النيابة الملية

الفصل الثانى

﴿ السبب فى أن الانكليز السكسونيين ﴾

﴿ أبعد عن مذهب الاشتراكين من الالمانيين والفرنساويين ﴾

الحوادث الاجتماعية كالنبات لكل نوع منها منبت مخصوص يظهر فيه والبزرة الواحدة لاتنبت فى جميع الاقاليم بكيفية واحدة بل للوسط تأثير عليها كما أن له تأثيراً فى كل شيء

ومذهب الاشتراكين لم يشذ عن هذه القاعدة ومن الواجب أن نعرف تاريخه كما ينبغى حتى نقف على حقيقة ذلك المذهب وترقيه

أصل نشأة مذهب الاشتراكين وأول تكوينه كان فى البلاد الالمانية ففيها منبعه ومنها انتشر فى بقية أرجاء المسكونة . ذلك ماأجمع عليه الاشتراكيون والذين كتبوا على مذهبهم قال موسيو (دولافلى) فى كتابه

(مذهب الاشتراكيين فى العصر الحاضر) صحيفة (٥) نقلا عن (بابمبرجر) أحد النواب الالمانيين مانصه (من الغريب ان افكار الاشتراكيين لم تجد مجالا فى أى بلد كما وجدت فى المانيا فانها لم تقتصر على الفعلة بل انجذبت اليها الطبقة الوسطى حتى سمعنا أهلها مراراً يقولون ربما صار الحال أحسن مما هو الآن اذا جرى العمل بالمذهب المشار اليه وانهم لايرون سبباً يمنع من التجربة . وقد اخترق ذلك المذهب الطبقات العالية في الامة ودخل فى جمعية المعارف واستوى على كراسى المدرسين . والعلماء هم الذين رفعوا اصواتهم بالشكوى من الحالة الحاضرة فتبعتهم جمعيات الفعلة والصناع والمحافظون هم الذين نددوا بالاختصاص فى الاملاك ونادوا بالويل على رأس المال ولسنا نرى نظيراً لذلك فى بلد أخرى) وقال فى مقدمة ذلك الكتاب نقلا عن نائب المانى آخر فى كلام له أمام مجلس النواب مايأتى (لقد حط جيش مذهب الاشتراكيين رحاله فى البلاد الالمانية وتربى عندنا التربية الفلسفية والعلمية)

وفى الواقع يجد الباحث فى المانيا جميع شيع هذا المذهب فمنهم الثورويون ومنهم المحافظون ومنهم الانجيليون والكاثوليكون والمدرسون فى المدارس . وهذا الانتشار يدل بذاته على أن جو البلاد الالمانية يلائم هذا المذاهب ويساعد على انتشارها وهو يظهر كثيراً أيام الانتخابات فللثورويين من أهله قسم كبير فى مجلس النواب وكان عدد الاصوات التي اصابت المترشحين منهم فى الانتخابات الاخيرة قريباً من مليون ونصف مليون فاذا اضفنا اليهم أهل الفرق الاخرى كانت الاغلبية فى مجلس النواب

الالمانى للاشتراكيين

تختلف فرق الاشتراكيين فى مقاصدها ومطالبها الا انها متفقة كلها على أمر واحد هو لب المذهب ورايته التى تخفق فوق رأس الجميع وعلامته الخاصة وهو وجوب حل جميع المسائل الاجتماعية بالقانون أو بتداخل الحكومة فكلها تعلل النفس بحكومه تقرر طريقة الشغل وتحدد الملكية وتقدر الاجور وتتكفل باسعاد الامة فى مجموعها وفى كل واحد منها منفرداً بحيث تصير الحكومة رئيساً عاما للكل وبالجملة فالحكومة هى كعبة الامال الجديدة التى يحج اليها الاشتراكيون على اختلاف مشاربهم . ولكى يتبين هذا نأتى على طرف من أحوال كل فريق

أقربهم الى المعقول هم التوريون لانهم يذهبون . برأيهم إلى آخر مايؤدى اليه وتكاد الفرق الاخرى لاتعمل الا لخدمتهم إذ من عادة الفكر الانسانى متى قذف به فى منحدر أن يسير حتى يبلغ النهاية وهذا هو السبب فى ازديادهم على الدوام ومن بينهم نبغ استاذ مذهب الاشتراكيين الحالى الذى أكمل مبانيه وكان لرأيه تأثير عند جميع الفرق حتى المحافظين والمدرسين وهو (كارل مركس) ورأيه مبسوط فى كتابه المسمى (رأس المال) كتاب كله قضايا عقلية كقضايا الحساب بل هو أصعب منها قراءة وأتعب فهما ومبنى طريقته عدة استنتاجات مترتبة على حدود وتماريف وفرضيات وحدسيات . فبأخذي القضايا يهدم المجتمع الانسانى الحاضر وبثانية يبنيه على أس جديد . ومن رأيه (ان العمل هو الوحدة الحقيقية التى يمكن تقدير قيمة جميع المصنوعات بحسبها ومعرفة الفرق بين الأنواع

وبعضها » إذن فالعمل وان شئت فقل العامل هو الذى يوجد رأس المال وعليه فرأس المال كما وجداليوم إنما هو نتيجة تعد واغتصاب ومن هنا وجب رد المال لمالكه الحقيقى والمالك الحقيقى هو مجموع الفعلة والعمال أعنى انه يجب رد المال الى الجمعية ذاتها وهي الكل . وهكذا أخذ المؤلف يترقى من رتبة إلى رتبة حتى انتهي باعتبار الحكومة رئيسا عاما هو الذى عليه إدارة العمل كله وتقسيم ثمرته بين الجميع بالعدل والانصاف . وقد تلقى الاشترا كيون الثورويون هذه المبادىء واستخلصوا منها طريقة قرروها بينهم سنة ١٨٧٧ فى مؤتمر « غوطا » واليك أهم ما تقرر

« ان العمل منبع كل ثروة وكل تمدن ولما كان العمل العام المفيد لا يتيسر الا للامة كلها فالثمرة كلها ملك لها أى لجميع أفرادها ولكل واحد الحق فى نصيب يناسب حاجاته التي يقبلها العقل وعلي الجميع أن يعملوا

أن آلات العمل فى الهيئة الحاضرة محتكرة بين أيدى ذوى الاموال ومن ذلك كان الفعلة مسيرين بامرتهم وهذا هو السبب فى الشقاء والاستعباد على اختلاف طرقه وأحواله . وعتق الناس من هذا الحال يقتضي أن تصير تلك الآلات كلها ملكا عاما للهيئة بتمامها وعليها أن تضع نظاما لجميع الاعمال وأن يكون عمل الكل لمنفعة الكل وأن تقسم الثمرة على الجميع بلا غبن ولا تمييز »

أما كيفية الاجراء فى الهيئة الجديدة التي يطلبونها فهو أن يصير كل فرد عاملا فى عمل حيث كان ويعطى لكل عامل أجر على كل عمل أتمه باعتبار متوسط الساعات التى تلزم لاتمام ذلك العمل ويدفع له فى ذلك وثائق تدل على عمله ليستبدلها بما يريد من المصنوعات وتوضع هذه المصنوعات

فى مخازن عمومية يصرح للموكلين بهاباستبدال البضائع بالوثائق والوثائق بالبضائع وتصير العقارات بانواعها ملكا للحكومة ويعيش كل انسان من العمل أو الوظيفه التى كلف بها فلا يدخر الرجل الا اليسير ولا يترك لورثته الى ما كان مالا منقولا .

وأشهر رؤساء فريق الاشتراكيين الثوريين فى هذا الحين ثلاثة هم موسيو « ببيل » و « ليبكنخت » و « ڤولمار » والاول كان صانعاً بيده فى أحد المعامل والثانى من أهل الطبقة الوسطى والثالث من أقدم العائلات العظيمة فى بلاد « باڤير » وكان من ضباط الجيش الالمانى والجيش البابوى وأولئك الرؤساء الثلاثة يشخصون حقيقة مذهب الاشتراكيين فى المانيا كما ينبغى ويدلون على أن جذوره تمتد في أعماق الطبقات النازلة وتنتشر فروعه بين الاواسط حتى تصل أعلى درجة فى الناس . وقد أصبحت المانيا متشبعة بهذا المذهب من تحتها ومن فوقها على اختلاف فى الدرجة وتفاوت فى قوة الانتشار . ومع هذا فريدو الطائفة الثوروية هم من الطبقة النازلة الا قليلا وأما الاواسط والاشراف فانهم يفضلون الطوائف الاخرى لانها أكثر اعتدالا وهى التى بقى الكلام عليها

قدمنا انه يوجد فى المانيا بين فرق الاشتراكيين فرقة تسمى بالمحافظين ولاحظ موسيو « دولاڤلى » صحيفة (٣٣) ان كلمتى اشتراكيين ومحافظين متنافرتان لان اشتراكى يرمى الى هدم ما بناه المحافظ ومع هذا فقد وجد حزب اتخذ الكلمتين اسماله وليس من المجازفة أن تقول ان اشهر رئيس له هو البرنس دى بسمارك على نوع ما . ولا تذهب هذه الفئة كسابقتها الى

وجوب القاء آلات العمل كلها بين يدى الحكومة وانما يصدق عليها اسم الاشتراكيين لانها تذهب الى حل جميع المسائل الاجتماعية بوضع نظام محكم وبزيادة تداخل الحكومة حتى تصير مناطة بادارة العمل وتقدير الاجور وسن القواعد لجميع طرق الانتاج والتحصيل . ورجال هذه الفئة هم فى الغالب من الاواسط الذين يخافون من مذهب الثورويين ويريدون الهرب من غائلتهم بدفع الامة كلها إلى حما الحكومة كانهم يقولون لها (اعملى أنت ماهم عاملون ان فى ذلك نجاتنا أجمعين) وكل يعلم مسارعة امبراطور المانيا الشاب الذى يرى أنه خبير بكل شىء إلى تلبية هذا النداء لذلك أتى بمظاهرات عدة كانت عقيمة العاقبة بمقدار مادوت فى الارجاء وهو اليوم الرئيس الحقيقى لحزب الاشتراكيين المحافظين

وأما فئة الاشتراكيين الانجيليين فسميت كذلك لان رؤساءها من رعاة الكنيسة الرسمية وقد قامت كالتى قبلها لتؤيد الملوكية فى الاذهان وتساعد على انتشار نفوذ الملك متذرعة فى ذلك بمذهب الاشتراكيين وهى أيضا تطلب حل المسائل الاجتماعية من الزيادة فى وظيفة الحكومة وتأييد تداخلها حتى تكون الرئيس العام لجميع الناس . واليك طرفاً من مقاصدها

(ان حزب الفعلة الاشتراكيين المسيحى مؤسس على الاعتقاد الدينى والولاء للملك والوطن وهو يطلب من الحكومة ايجاد طوائف للحرف ممتازة عن بعضها بحيث يكون لكل منها نظام قانونى فى جميع المملكة ويكون من مقتضى ذلك النظام تحديد شروط الاحتراف تحديداً دقيقاً

وان تشكل مجالس تحكيم تكون قراراتها نافذة على أصحاب الشأن فيها - وان تنشأ صناديق لاعانة الارامل واليتامى وعجزة العمل - وأن تحدد ساعات الشغل على حسب طبيعة العمل - وأن تستغل أملاك الحكومة وأملاك القرى لفائدة الفعلة ويزاد على تلك الاملاك كلما كان ذلك مفيداً من الجهتين الاقتصادية والفنية - وأن يضرب على الايراد خراج يترقى بزيادته وأن يضرب رسم على التركات يترقى بحسب أهميتها وبعد قرابة الوارث من المتوفى)

فاقصى ما يتخيله هذا الحزب هو أن يحكم البلاد مستبد عادل تكون سعادة الكل في سيادته

وأما فئة الاشتراكيين الكاثوليكيين فكثيرة العدد وتألفت على أثر الكتاب الذي نشره موسيو (كتلير) قس (ميانس) وسماه (مسألة الفعلة والنصرانية) وكان له شأن كبير في البلاد الالمانية وقد نقل في كتابه هذا كثيراً عن (لاسال) الاشتراكي وتخلص مثله إلى وجوب تأسيس شركات للتعاون والعمل يكون الغرض منها وضع رأس المال في يد الفعلة فتنحل بذلك مسألة الاجور . ولكن الذي عمم فكرة المؤلف وانتزع من كتابه طريقة اتفق عليها أهل المذهب انما هو أحد تلامذته وهو موسيو (موفانج) شماس كنيسة (ميانس) واليك بيان المهم منها

(ان أجور الفعلة غير كافية بحاجاتهم فوجب تداخل الحكومة وهي تتداخل لتؤيد النظام الذي تدعه طائفة كل حرفة لابنائها وعليها أن تقرر ساعات العمل وتقدر الاجور وتبين علاقة الصبيان مع الرؤساء والعمال مع

أصحاب المعامل وان تقرض جمعيات الفعلة ما تحتاج اليه من المال — وهنا يظهر ميل تلك الفئة الى الاشتراك — قال موسيو (موفانج)لست أوافق على المعامل التي يشير بها موسيو (لويزيلان) ولكنى لا أرى سبباً يمنع الحكومة من مساعدة جمعية الفعلة إذا اسست على نظام متين (ومن مقاصدها أيضاً أن تجعل الحكومة حداً لظلم أرباب الاموال ولكنها لم تبين طريقة الوصول إلى ذلك قال موسيو (موفانج) (انى لا أتعرض للغنى ولا للاغنياء ولكن الذى اندد عليه هى الطريقة التى يغتنى بها اليوم أولئك الاغنياء والموسرون)

وليس بين هذا المذهب ومذهب الاشتراكيين الثوريين الا تفاوت يسير وأهم ما يفترقان فيه هو اعتماد أحدهما على الدين . نعم أن أصحابه لا يقولون بوجوب جعل الاراضى كلها مشتركة الملك ولكنهم ليسوا بعيدين عن هذه الغاية لان مبادئهم توصلهم حتما اليها فهم يطلبون أن يكون رأس المال مشتركا بين جمعيات الفعلة ورأس المال جزء من ذلك الكل . وعلى كل حال فهم يطلبون جهاراً أن تكون الحكومة هى الرئيس العام فى العمل وعليه تكون هذه الفئة تابعة حقيقة لمذهب الاشتراكيين كما عرفناه .وتكون تسمية نفسها بهذا الاسم حقيقة

والاخيرة هى طائفة الاشتراكيين المدرسين إلا أن رجالها غير متفقين على المبادىء لذلك يوجد بين مدرسى علم الاقتصاد من يقول بمذهب الاشتراكيين لكن على حذر وتهيب ومنهم من يتمشى فيه الى أكثر من ذلك حتى جهر بعضهم كموسيو (وجنير)إلى القول بوجوب تحديد الملكية

الشخصية والتوسع فى الملكية المشتركة ولكنهم كلهم متفقون على رأى واحد من حيث وجوب حل المسائل كلها بواسطة وضع نظام دقيق للعمل والزيادة فى تداخل الحكومة

وما سقت هذا البيان إلا لابرهن على أن المانيا وسط يتخلله مذهب الاشتراكيين من أسفل الطبقات الى أرفع المقامات فيها . وقبل أن ننتقل من هذا الموضوع ينبغى أن نأتى بالاختصار على السبب الذى أدى إلى هذه الحالة فى تلك البلاد

كان ظهور مذهب الاشتراكيين فى الوجود معاصراً لتبدل الاحوال الاجتماعية فى الامة الالمانية بقيام سلطة الملوكية المطلقة مقام سلطة القرى والاقاليم كما حصل ذلك فى اسبانيا منذ ثلاثة قرون أيام فيليب الثانى وفى فرنسا منذ قرنين أيام لويز الرابع عشر والمطلع على التاريخ يعرف كيف بدأ ملوك البروسيا بهذه الحركة وكيف أن امبراطرة الالمان يهتمون منذ سنة ١٨٧ باتمام ما بدأ به الاولون وادخال التحسينات فيه حتى أصبحت المانيا كلها فى قبضة البروسيا والبروسيا كلها فى قبضة الحكومة. وقد مضى زمن طويل على حكومة البروسيا وهى تعمل بمبادىء الاشتراكيين وان لم تقل بها . فالتوسع فى الجندية حتى عمت جميع الناس وتنظيم المصالح الادارية على شكل غير بسيط يزداد تعقيداً فى كل حين يشبهان من جهات كثيرة ما يرمى اليه الاشتراكيون من النظام الذى يردونه للامة بتمامها فى المستقبل. ومن المعلوم أن الحكومة البروسيانية تضع يدها على كل رجل منذ الطفولية فتبتدىء سلطتها عليه أولا بواسطة المدارس ثم بواسطة الجندية لتربيه

حسب مشيئتها على المبادئ التى تختارها

وأكبر من ذلك كله اننا نجد فى القانون المدنى البروسيانى نصوصاً مطابقة لمبادى الاشتراكيين . جاء في الفقرة الاولى من الباب التاسع عشر مانصه (يجب على الحكومة أن تقوم بمعيشة الذين لايقدرون على الارتزاق بانفسهم من مطعم وغيره أو الذين ليس في قدرتهم أن يتحصلوا على معيشتهم ممن هو مسئول عنها بمقتضى القانون) — الفقرة الثانية (يعين للذين لاعمل لهم شغل يليق بحالة كل واحد منهم) — الفقرة الثالثة (الاشخاص الذين يحملهم الكسل أو حب البطالة أو أى سبب آخر من الاسباب الرديئة على عدم الكسب وتحصيل وسائل المعيشة يستخدمون فى الاعمال النافعه تحت ملاحظة الحكومة) الفقرة السادسة (للحكومة الحق كما هو واجب عليها أيضاً أن تؤسس مصانع ومعامل يكون فيها قوام حياة المحتاجين وتهذيب أخلاق المسرفين) — السابعة (لايجوز للحكومة باى حال من الاحوال أن تأتى عملا من شأنه حمل الناس على الكسل خصوصاً الطبقات النازلة أو يلهى عن الاشغال) — العاشرة . (على جهات الادارة البلدية فى القرى ان تقوم بمؤنة فقرائها) -- الحادية عشرة . (وعليها ان تبحث عن أسباب ذلك الفقر وتحيط به السلطة العليا لتتخذ التدابير الواقية منه

ولا شك ان الامة التى تساس بمثل هذا النظام الذي يجهر بحق الناس فى العمل ويقضى بتداخل الحكومة حتى يكون ذلك الحق تحت رعايتها ويوجب التداخل إلى هذا الحد فى حياة الافراد الخصوصية تكون مهيأة بالطبع إلي قبول مذهب الاشتراكيين والعمل بما جاء فيه. هكذا تدرجت

تلك الامة فى مباحثها طالبة حلا لمسئلة الفعلة فوصلت الى وجوب مساعدة الحكومة لكل فرد بذاته وانه ينبغى تغيير نظام الاجتماع ذاته ولم تطلب الدواء من همة كل واحد بالذات . واذا تأملنا وجدنا ان هذه المبادىء التى قرأناها فى قانون البروسيا المدنى وهي التي يجاهر بوجوب اتباعها ملوك البروسيا وأمبراطرة المانيا ويعلمون هم بها تأييد لسلطتهم المطلقة هى بعينها مبادىء الاشتراكيين ولا فرق بينهما الا ان الاشتراكيين اتخذوا تلك المبادىء صيغا تجرى على ألسنتهم ومطالب قالوا انها هى مطالب الانسان أى الامم

ولقد كانت الطبقات الوسطي وطبقات الاشراف مستعدة لقبول هذه الاوامر كالطبقات النازلة فان الافراط فى الجندية وبلوغ الادارة ذلك الحد العظيم من الجسامة والاتساع عطل فى هاتين الطبقتين وظائف العمل أولا ثم انتهى بجعلهما يعتبران الحكومه مصدر كل شيء فى حياة الامة . وهم مستعدون لذلك أكثر من نظرائهم فى فرنسا لان تعدد الثورات عندنا اضعف كثيراً من سلطة الحكومة وان كانت الجندية والادارة سواء عندنا وعندهم . ولاشك فى ان القابضين على زمام الاحكام لا يسوسون الامة اليوم كما كانت تساس أيام الملك لويز الرابع عشر

ومما تقدم يتبين لنا ان السبب فى ان الامة الالمانية صارت بمقتضى حكم الزمان منبعاً لمبادىء الاشتراكيين هو تأخرها قرنا كاملا عن بقية أمم الغرب الاوروبى فى سبيل الترقى

ويتأيد هذا اذا ثبت ان مذهب أولئك القوم انما ينتقل الى غير تلك البلاد منها وبواسطة الالمانيين أنفسهم واثبات ذلك أمر سهل يقوم بتتبع

سير المذهب فى البلاد الاخرى

ففى فرنسا كان مذهب الاشتراكيين خاملا الى سنة ١٨٨٦ كما جاء فى كتاب « وانتزير » المسمى «مذهب الاشتراكيين العام » صحيفة ١٤٩ نقلا عن احدى جرائد الاشتراكيين الالمانيين اذ قالت متأسفة « يتقدم مذهب الاشتراكيين تقدما حقيقياً لكنه بطىء »

ومن ذلك الحين أخذ أحزاب ذلك المذهب فى الظهور والاستقلال والنمو وكان القائم بحركة النمو على الخصوص أنصار مذهب «كارل مركس» الالمانى. وأهم الرؤساء فيهم رجلان موسيو «جول جيزد» وموسيو «لافارج» وكان يطلق عليهما اسم مركستيين نسبة الى ذلك الرجل لاجتهادهما فى ادخال مبادئه التي وضعها فى كتابه « رأس المال » بالبلاد الفرنساوية . ومن المعلوم ان موسيو لافارج النائب عن مقاطعة « ليل » سابقاً كان مصاهراً لذلك الاشتراكى الشهير لذلك لما نجح مؤتمر المركستيين في باريس سنة ١٨٨٩ صاح الاشتراكيون فى ألمانيا طويلا بأصوات الفرح والانتصار. وفى هذا المؤتمر صرح موسيو « جيزد » بين تصفيق سامعيه بأن مذهبه انما هو مذهب الاشتراكيين الالمانيين (راجع كتاب «وانتر» المذكور صحيفة ١٧٤).

ثبت اذن ان مذهب الاشتراكيين فى فرنسا مأخوذ عن مذهبهم فى المانيا وانه يسمى باسم أحد الالمانيين وانه ينتسب جهاراً الى المانيا

وفى بلاد البلجيك اختلط مذهب الاشتراكيين بمذهب الفوضويين والمتطرفين وبقى زمنا تتجاذبه عوامل الخلف والنزاع ولم يخلص ويستقل الا بعد جهد وعناء . وفى ابّان استقلاله رأينا اثنين من رؤسائه فى

المانيا وهما موسيو « ببييل » وموسيو « بيرنستين » جاءا الى البلجيك على الخصوص ليرشدا هذا الضوء الناشىء الى الطريق المستقيم وكان لهذا التداخل تأثير أثبته أحد مؤرخي مذهب الاشتراكيين هو «وانتر» صحيفة ١٢٢ حيث قال (كان مذهب الاشتراكيين فى البلجيك منقسما على نفسه بغير نظام فأصبح اليوم فى نوع من الترتيب والانضمام على نسق المذهب الالمانى)

والذى أدخل مذهب الاشتراكيين فى بلاد هولنده رجل كان من رعاة الكنيسة وهو « دوملانيوڤانهويس » وقدسافر هذا الرجل منذ ثلاث سنين الى برلين « ليتعلم من الاشتراكيين الألمانيين طريقة عملهم فى الانتخابات » وهذا الامر وحده كاف فى بيان ان المذهب فى هولنده مستمد من ألمانيا حتى انهم لا يقتصرون على الاخذ بمبادئهم بل يأخذون عنهم أيضاً كيفية أعمالهم في الانتخاب

وهذا حال بولونيا فاما عقد مؤتمر الاشتراكيين فى باريس سنة ١٨٩٠ كان النائب فيه عن اخوانهم فى بولونيا سيدة يقال لها « جانكويسكا » وقد جاء فى تقريرها عن أهل حزبها « انهم يجتهدون دائما فى تقليد اخوانهم الالمانيين على قدر الامكان فى طرق نشر المذهب وكيفية السير واثارة الافكار) فألمانيا هى صاحبة الصوت أيضاً فى بولونيا

أما الروسيا فلم يكن لمذهب الاشتراكيين فيها من الرسل الا العدميون والفوضويون حتى هذه السنين الاخيرة غير ان الحال تبدلت منذ بضعة أعوام كما ذكر ذلك فى مؤتمر باريس فكان للروسيا مندوبان اثنان فيه

أحدهما (لاروف) الثورى الشهير القديم ومن قوله فى ذلك المؤتمر أن الثورة فى الروسيا تقترب كل يوم من حزب الاجتماعيين وأن حزبها (يتقرب إلى مذهب الاشتراكيين الألمانيين ويعمل على طريقتهم) هذا وقد نشر موسيو (بليكانو) أحد زعمائهم فى الروسيا كتاباً هو فى الحقيقة مذهب كارل مركس بتمامه وأسس حزب الأحرار الاجتماعيين الروسيين جريدة سماها باسم أشهر جرائد الاشتراكيين فى ألمانيا ونقل عنه الكلمة التى اتخذها شعاراً وهى (يا أيها التعساء من كل بلد ألا فاتحدوا) وكان ظهور تلك الجريدة الروسية فى (جنيف) سنة ١٨٨٨ والغرض منها كما جهرت به نشر مبادىء مذهب الاشتراكيين الألمانيين فى الروسيا

ومذهب الاشتراكيين لا يزال نبتاً حديثاً فى بلاد رومانيا ومع ذلك فقد قال نائبها فى مؤتمر باريس وهو (مانى) القائم بالحركة فى تلك البلاد ما يأتى (يتقدم مذهب الاشتراكيين حتى بين الفلاحين وأكبر المساعدين لهم المعلمون فى مدرسة (جاسى) وطلبتها لأنهم ترجموا كتب كارل مركس و (آنجل) و (لاسال) وهؤلاء هم أقطاب المذهب الالمانى

وقال موسيو (وانتر) (ولد مذهب الاشتراكيين فى سويسرا من المذهب الألمانى وكان بينهما على الدوام روابط محكمة العرى فانا نشاهد الاشتراكيين السويسريين بجانب إخوانهم الألمانيين فى كل مكان يتقابلون فى المجتمعات ويتحدثون فى الأدب والمبادىء ويتضافرون فى مقاوماتهم ويتعاونون على ما يطلبون) ولا عجب بعد هذا من أن الاشتراكيين فى مدينة (بال) احتفلوا فى الرابع من شهر ستمبر بتذكار وفاة (لاسال)

الاشتراكي الألماني وأنهم عقدوا في اليوم الثاني اجتماعاً عمومياً دعوا اليه موسيو (ليبكنخت) وهو أيضاً اشتراكي الماني لينشر بينهم مذهب كارل مركس . وللاشتراكيين السويسريين جرائد خاصة بهم إلا أن قائدهم لا تزال تلك الجريدة الألمانية الشهيرة فانها روح اجتماعاتهم في (زوريخ) و (انترتور) و (آرو) و (بال) و (فروانفلد) و (صان غال) و (شافوز) و (كوار) و (زوج) و (نيوشاتيل) و (لوزان) و (جنيف) وغيرها .

وعليه فسويسرا هي إذن ضحية من ضحايا المذهب الألماني

كذلك يأخذ التليان مذهبهم عن ألمانيا ويكفي للدلالة عليه أن نذكر التلغراف الذي بعث به أعضاء نادي المتطرفين في رومه باسم الاشتراكين التليانين الى الاشتراكيين الالمانين بمناسبة فوزهم في الانتخابات وهو (أن النادي ... يسلم على الاشتراكيين الألمانيين الذين هم دعاة الثورة الجديدة طلباً لتقرير العدل الاجتماعي ولا يزال الأحرار التليانيون يذكرون مفتخرين ما أنبأهم به (منزيني) منذ سنين عديدة مع ما كان عليه من كراهة مذهب كارل مركس وهو أن ألمانيا الجديدة وايتاليا الجديدة هما اللتان يقومان في المستقبل بحل المسئلة الاجتماعية)

ويتضح مما تقدم بأجلى بيان أن ألمانيا هي منبع مذهب الاشتراكيين وأنها هي التي ثبتته وتنشره في الأمم الأخرى .

ويؤخذ منه أيضاً أن جميع البلاد لا تقبل مذهب الاشتراكيين بدرجة واحدة فمنها ما تكون أرضها مستعدة لنمو بزوره كالتي ذكرناها ومنها ما ليس كذلك كبلاد نرويج وانكلتره والولايات المتحدة وغيرها من البلاد التي

احتلها العنصر الانكليزى السكسونى

أما كون بلاد النرويج غير صالحة لانتشار المذهب فثابت من رسالة نشرتها جريدته الالمانية الشهيرة وفيها يشكو المكاتب مر الشكوى من ذلك الحال ويعزوها لما عليه تلك البلاد من التمسك الشديد بالدين وهو تعليل ضعيف لاننا رأينا فى المانيا كثيراً من الكاثوليك والبروتستانت وفى مقدمتهم زعماء الكنيسة قد اعتنقوا مذهب الاشتراكيين

وما من شيء يستوقف النظر كثيرة مؤرخى هذا المذهب عند الكلام عليه فى انكلترة فانهم لايجدون أو يكادون أن لايجدوا شيئاً يذكرونه عنه فى تلك البلاد اللهم الا ماقاساه موسيو «افلين» من الاتعاب — هو أيضا صهر لكارل مركس — التى ذهبت أدراج الرياح « وهنا أيضاً دليل على وجود الاصبع الالمانى » وكذلك اتعاب الشاعر « موزيس » ومسيو « هندمان » وهما رجلان خرجا عن تقاليد قومهم فلم يلتفت اليهما أحد الا ساخراً . وقد أتت الرسالة السنوية التى ينشرها الدكتور « لودويج ريشتر » فى كل سنة عن حالة المذهب فى جميع البلدان خالية من ذكر انكلتره والسبب الذي ذكره لذلك هو « انه لايوجد شيء يقال » وحاول موسيو « ويزيوا » فى كتابه « حركة مذهب الاشتراكيين فى أوروبا » صحيفة ٢٠٩ بيان علة عدم انتشاره فى انكلتره فقال «ان الانكليز شخصيون بفطرتهم يريدون أن يتركوا لانفسهم ليحصل كل واحد منهم رزقه بالطريقة التى يرضاها وطباعهم تأبى أن يتجندوا تحت أى لواء كان وان يتنازلوا عن استقلالهم الذاتى طلباً لعمل مشترك وهذا فيما أرى أحد الاسباب التى تجعلهم لايميلون

الى مذهب الاشتراكيين »

واذا انتقلنا الى الولايات المتحدة رأينا كذلك ان هـذا المذهب لم يدخل بين العنصر الانكليزى السكسونى لانه يقاومه كما يقاوم كرم تلك البلاد آفة العنب « فيلوكسرا » وليس له فى تلك البلاد أحزاب الا من الارلنديين وعلى الخصوص من الالمانيين كما شهد به موسيو «وانترير» فى كتابه « مذهب الاشتراكيين العام » صحيفة ٢٣٣ حيث يقول « انا عقدنا هذا الفصل للكلام على مذهب الاشتراكيين فى أمريكا وكان حقه ان يعنون بمذهب الاشتراكيين الالمانيين فى أمريكا لان أحزابه فى تلك البلاد وأخص القائمين به فيها لايزالون من الالمانيين ومن رؤسائهم من كان عضواً فى مجلس النواب الالمانى ولقد كان كارل مركس يرجو النجاح لمذهبه فى الدنيا الجديدة وأشار بنقل مجلس ابحاثه الى تلك البلاد فخاب رجاؤه » وقال أحد الاشتراكيين الالمانيين يصف المذهب فى أمريكا « ان ذلك الحزب لاوجود له الا بالاسم لان أصحابه لايمكنهم انى كانوا ان يكونوا حزبا سياسياً . والمذهب نفسه يخال انه أجنبى فى الولايات المتحدة فقد كان الى عهد قريب لايقول به غير المهاجرين من الالمانيين الذين كانوا يتكلمون بلغتهم ولا يعرفون اللغة الانكليزية الا قليلا ثم ان لهؤلاء المهاجرين رأيا مخصوصاً فى وسائل انتشال الفعلة من التابعية التى هم فيها لايفهمه الا النذر اليسير من الفعلة الامريكيين » . ولقد اجتهد كثيراً فى استمالة انكليز أمريكا الى مذهب الاشتراكيين فبعثوا اليهم كثيرين من الالمانيين نذكر من بينهم موسيو «ليبكنخت » واحدى بنات كارل مركس التى تزوجت

موسيو « اڤلين » فضاع كل ذلك سدى ورفضت جمعيات الفعلة الانضمام الى حزب الاشتراكيين وخسر الالمانيون ما بذلوا من الفصاحة وذلاقة اللسان . ثم عمد بعض الاشتراكيين الى الانضمام فى سلك بعض طوائف الفعلة العظيمة التى بلغ أعضاؤها أكثر من مليون من النفوس وحسبوا انهم بذلك يتوصلون الى نشر مبادئهم شيئاً فشيئاً ولكنهم لم يفلحوا »وقال لهم رئيس الطائفة الاعظم ان رغبته موجهة الى « تطهير طائفته من تلك العناصر الثوروية المتطرفة » وعرض بعضهم رأيا مبناه الا قرار على مجرد الميل الى استعمال الوسائل الثوروية فرفض الطلب بمائة وواحد وخمسين صوتا ضد اثنين وخمسين

كذلك لم ينجح الاشتراكيون لدى حزب الفعلة المجتمعين اذا قصيت منه جميع اللجان التى تلوثت بمذهبهم بقرار صدر من الجمعية العمومية في «سيراكيز» والى الآن لم تنجح المساعي فى نشر جريدة واحدة للاشتراكيين باللغة الانكليزية وللمذهب عشر جرائد كلها باللغة الالمانية وهو أمر فيه نظر عظيم . . . ومن هنا يتبين السبب فى انه لم يأت فى مؤتمر الاشتراكيين الاخير بباريس من أمريكا الا المحازبون الالمانيون واضطر المندوب المقرر وهو موسيو « كيرشنر » الالمانى أن يقول فى تقريره « ان الفضل فى كون الفعلة الامريكيين أخذوا يدركون معنى التحزب راجع بالاخص الى المهاجرين الالمانيين فانهم لم ينثنوا عن إرشاد تلك الجموع التى لايزال الجهل يعمى بصائرهم وتنظيم شتاتهم

ثبت اذن ان القائمين بنشر مذهب الاشتراكيين فى بلاد الانكليز

السكسونيين هم الالمانيون وانهم لاينجحون مهما اجتهدوا وثابروا وهو أمر جديد لم نعهده فيما مضى وهذا هو ما تمتاز به تلك البلاد على التى ذكرناها من قبل فهم فريق قائم بذاته أهم صفاته انه نفور من مذهب الاشتراكيين

والسر فى هذا الاستثناء ان نشأة العنصر الانكليزى السكسونى استقلالية محضة كما ان نشأة العنصر الالمانى اتكالية بالمرة وبينما نفوذ حكومة الالمانيين يمتد امتداداً فوق الحد الذي ينبغى حتى أمات الهمم النفسية ومحق حركة القوى الذاتية نرى حكومة الفريق الثانى لم تتمكن من الاستيلاء على سلطة كبرى بل وقفت على الدوام عند حدها بما تلاقيه من اتحاد القوتين حياة كل فرد بذاته واستقلال كل قرية بخصوصها . فالمانيا هى اليوم الوسط الذى بلغت فيه اثرة الحكومة منتهاها وبلاد الانكليز السكسونيين هى الامم التى عاش أفرادها مستقلين وحكموا أنفسهم بأنفسهم . ومن البديهى حينئذ ان لا ترى الاولى سبيلا لحل المسئلة الاجتماعية فى غير تداخل الحكومة وسن اللوائح وجعل آلات العمل مشتركة بين جميع الناس من أهلها وان الثانية لاتطلب النجاة الا من هم الافراد وترفض كل الرفض ذلك الاشتراك الجديد الذى يعرض عليها

ولست فى حاجة الى تكرار الاسباب التى أوجبت هذا الاختلاف العقلى بين الامتين ولكنى أحيل القراء على ما كتبته عن ذلك مفصلا فى الجزء الثالث صحيفة ٥٥٨ وما بعدها والجزء الرابع صحيفة ١٣١ ومابعدها من مجلة العلم الاجتماعى واكتفى بان الاحظ ان أثر هذا الاختلاف فى النشأة

يتناول الموضوع الذى نحن فيه

ثبت مما قدمناه ثلاثة أمور: ان ألمانيا هى منبع مذهب الاشتراكيين وان الالمانيين هم الذين ينشرون مذهب الاشتراكيين فى الدنيا وان مذهب الاشتراكيين لا ينتشر فى الامم التى نمت فيها همم الافراد الذاتية وقل تداخل الحكومات

ولم يبق عندنا الا البحث فيما اذا كان مذهب الاشتراكيين الالمانيين هو الافضل فى حل مسئلة الفعلة أم استقلال الانكليز السكسونيين وفيما هو الحل الذى يدخره المستقبل

وانى أرجو من القراء أن يعتقدوا بأن نظام الاشتراكيين ليس بالجديد أبداً كما يميل الى اعتقاده أولئك الذين ادعوا انهم اخترعوه بل أقول انه قديم قدما عظيما حتى انصرم عمره وانقضت أيامه وصار من السهل الوقوف على ما يأتى منه فى المستقبل بمعرفة ما نتج عنه فى الماضى

ونحن اذا جردنا المذهب من تلك الالفاظ المقعرة ورجعنا به الى صورته الحقيقية رأيناه انما يتقهقر بنا الى ما كانت عليه الامم الغابرة تقهقر البسطاء ان لم أقل تقهقر الجهلاء وسنرى ان كان هذا النظام يليق بالمستقبل ولنقتصر الآن على العلم بأنه كان نظام الزمن الذى مضى وانقطع

يريد الاشتراكيون كما عرفنا أن تكون الملكية وآلات العمل وهى وسائل العيش فى الدنيا مشاعا للمجموع وان المجموع يكون هو الرئيس الاكبر وهو الذي يوزع ما تحصل من العمل على كل عامل بحسب شغله أو بحسب حاجاته ولم يهتدوا تماما الى الاتفاق على طريقة التقسيم

هذا هو مثال الجمعية التي يطلبها الاشتراكيون وفي ظني انه غير مجهول عندنا فهو الذي ساد على الامم في الأعصر الاولى ومع ما كان يوجد بين تلك الامم من أوجه الافتراق والاختلاف كانت كلها قائمة على الملكية المشتركة

فكانت الارض عند بعضهم كالرعاة الرحل ملكا لجميع السكان وكان الجميع يشتغلونها أقساما بحسب العائلات والقبائل التي يرجع نسلها الى أصل واحد . كذا كان حال أقوام الزبوز وقبائل العرب والمغاربة وغيرهم فلما استقرت تلك الشعائر النقالة في نواحيها أقامت كل عائلة وكل قبيلة بالطبع كما كانت من حيث شيوع أملاكها والاشتراك في منافعها . وكان هذا شأن جميع الامم القديمة كالعبرانيين والجرمانيين والسلافيين وغيرهم ممن كانوا يقسمون الاراضي بين الجميع كل حين . ومن الامم من أسلمت ملكية أرضها الى الوازع وصار هذا سيداً عاما مكلفاً كما يبتغي الاشتراكيون بتوزيع العمل بالقسط بين الناس وتقسيم ثمراته عليهم وايجاد معاش للارامل والشيوخ وأكبر مثال لهذا النظام هي مصر أيام الفراعنة وانى أكتفي هنا بذكر مجمل هذه المسائل المعروفة عندنا وارجع القراء ان أرادوا زيادة الشرح الى ما كتبناه في مجلة العلم الاجتماعي «رسالة الفنون أيام الرعاة ورسالة الزراعة بالاشتراك جزء أول وثاني وثالث وعاشر ورسالة مصر القديمة لموسيو «بريفيل» جزء تاسع صحيفة ٢١٢ و٥٤٩ وجزء عاشر صحيفة ١٦٠ و٣٣٨ وجزء حادى عشر صحيفة ٨٠ و٢٥٢ وجزء ثانى عشر صحيفة ٦٩ وغيرها)

على ان نظام الروكية ليس خاصاً بالامم السالفة بل ظل موجوداً في

بعض جهات المسكونة الى يومنا هذا ولا يزال سائداً بين أهل آسياوأفريقا الشمالية بل وبين جميع بلاد أوروبا الشرقية . فمن المعلوم أن القرية التى تسمى عندهم (مير) عبارة عن روكية عظيمة هى التى تملك الأراضى وتقسمها بين روكيات العائلات فى كل حين بحيث لا يكون تحت يد كل عائلة من الاطيان إلا بنسبة عـدد الذين يعملون من أعضائهـا فالشغل مشترك كملكية الأراضى

ثبت إذن أن الروكية ليست حلا جديداً بل هى موجودة من يوم خلق الله الدنيا ولا يزال بعض الأمم يعيش فيها

ودفعاً لمـا عساه يقال من أنه حل مرضى ينبغى لنا نتوسع فى البحث حتى نرى الأشياء كما هى وأبدأ باستلفات القراء إلى المشاهدتين الآتيتين الأولى علمنا من التاريخ أن إحدى أمم الأزمان السابقة تقدمت كثيراً على البقية وانتهى بها التقدم أن سادت على من سواها وأعنى بهـا الأمة الرومانية ومما يستوقف النظر أن الأمة الرومانية هى التى تمكنت من التخلص من الروكية بدرجة لم تصل اليها أمة سواها ولذلك أسباب شرحها سوسيو (بريفيل) فى مجلة العلم الاجتماعى الصادرة فى شهر يناير سنة ١٨٩١ ضمن رسالة على الرومانيين فى مصر القديمة . نعم انها لم تتخلص منها تماماً لان ذلك الحظ لم يتوفر لأمة من أمم الأزمان القديمة غير إنا لا نجد أمة عظمت شأن الملكية الشخصية وبالغت فى احترامها مثل الأمة الرومانية وفيها وصلت أنانية الانسان الى أعظم نمو أتيح لأهل تلك العصور وفيها صار الانسان مسئولا عن نفسه وعن عمله وفيها عرف الانسان أنه لا ينبغى له الاعتماد

إلا على نفسه وتأسست الملكية الخصوصية التي هي نقيضة الملكية المشتركة وصار لملكية الأفراد على الارض من الاعتبار ما وصل الى حد العبادة حتى أنهم جعلوا حدود الاملاك من الامور المقدسة وقالوا بوجود اله يسمى اله الحد وأقاموا أعياداً دعوها الحدية وتقرر أن الحد متى تقرر لا يجوز نقله. وقد جاء في قصصهم ما يدل على هذا حيث نسبوا إلى (جوبيتير) عظيم الآلهة أنه أراد أن يبنى له هيكلا على جبل (كابيتولان) ولكنه لم يتمكن من نزع ملكية من مالكه اله الحد وعد الذي يهدم الحد أو يزحزحه خارجاً على الله ومارقاً في الدين وجاء في قوانينهم القديمة ما يشير إلى أن الرجل إذا أصاب الحد بطرف محراثه يصير ضحية هو وأثواره لآلهة النيران

وعلى هذا فالامة التي ارتقت وسمت فوق كل الامم في الاعصر البعيدة عنا كانت أقلهم اتكالا

المشاهدة الثانية أن استقراء أحوال الأمم الحاضرة يدلنا على أن التي لا تزال النشأة الاتكالية فيها شديدة هي أعظمها تأخراً وأقلها مالا وأضعفها جانباً قد سبقتها في كل شيء جميع الامم التي نمت فيها الملكية الشخصية وعظم فيها تأثير المرء منفرداً وذلك لا نحتاج فيه الى دليل غير النظر في أحوال الأمم الشرقية التي هي الاتكالية والامم الغربية التي هي الأمم الاستقلالية على اختلاف بينها حيث تبدو لنا الاولى غارقة منذ قرون عديدة في سبات عميق وتبدو لنا الثانية في مظهرها العظيم وقد أبلغت العمل الى الغاية القصوى ورفعت قدر الانسان الى أعلى الدرجات وجعلتنا حائزين على أفضلية لم تنلها امم قبلنا مما نفتخر به ونتيه على الملأ وما كنا لنعرف سبب

اعجابنا قبل قيام العلم الاجتماعى .

وإذا جعلنا النظر رأينا أن أكبر أمم الغرب همة فى العمل وأرقاهم فى زراعتها وصناعتها وتجارتها وأشدهم بأساً فى التنافس الذى تخشاه الامم الاخرى وأسرعهم الى احتلال الاقاليم التى لا تزال خالية في الدنيا هى تلك الامة الانكليزية السكسونية التى لا تمارى والتى ضاقت بها بلاد انجلتره فتدفقت فى الجهات الاربع وترعرع فى أمريكا غصنها القوى فكانت الولايات المتحدة وكل يرى هذا حتى الذين لا يبصرون . ومن المعلوم أن الامة الاستقلالية الحقيقية بين أمم الغرب هى الامة الانكليزية السكسونيه وأنها أبعدهم عن النشأة الاتكالية وأنها هى التى بلغت عندها همم الافراد منتهاها ووصلت سلطة الحكومة إلى أدناها

هكذا كانت الامتان اللتان تمكنتا من أعناق العالم فى الزمنين أبعد الرومان فى العهد القديم وأمة الانكليز السكسونين فى هذا الزمان أمة الامم عن الاتكال وما هذا الاتفاق بصدفة فان الصدفة محال وانما هو لازم من لوازم نشأة الاستقلال والاقتناع بما تقول سهل ميسور

ولقد يمكننا أن نلخص الموضوع فى كلمتين . ما اعتمد الانسان على غيره وانتظر المعونة من المجموع إلا وقلت همته وقعد عن الكد بنفسه ليكسب معيشته وما عرف الانسان إلا أنه لا اعتماد له إلا على نفسه ولا معونة إلا من عمله الذاتى إلا وكبرت همته واشتد على الكسد ساعده ليحصل رزقه ويترقى على الدوام

حال الأفراد فى الامم الاتكالية كحال موظفى النظارات ومستخدمي

المصالح وهى حال لا تربى فى المرء ميلا الى العمل كما هو معروف لانه نظام يقتل فى الانسان ملكة العمل وتقدير فوائده العظمى . فاذا تناول ذلك النظام أمة بتمامها انتشرت آثاره بحسبه واذا دام توارثه زمناً طويلا من الآباء الى الابناء اشتد ظهور تلك الآثار على قدر مدته فتضعف القدرة على العمل نوعاً فى الولد بعد أبيه ويشتد الضعف فى بنيه وهكذا حتى يصل الجيل الاخير الى خمول ذلك الرجل الشرقى الذى لم يبق له من القدرة على العمل الا مايحصل به القوت كيلا يموت جوعاً . ومهما قلبنا الحوادث وفتشنا فى بطون التواريخ لانستخلص غير نتيجة واحدة هى ان النشأة الاتكالية قد أضعفت الهمم فى كل زمان وعطلت استعداد الافراد الى العمل وجعلت أهلها من الضعفاء المتأخرين فان الاتكال وسادة لينة تليق بمن يميل الى النعاس ولكنه ما كان يوما بوقا يقوم على صوته من رام النهوض

ولعل قوما يقولون ان ذلك لمن أحب الاشياء اليهم وانهم يفضلون النوم على القيام لان غاية المتمني فى الحياة أن يستريح المرء مهما استطاع لا ان يشقى ما استطاع وانهم يرتاحون لخمول أهل النشأة الاتكالية ولا يبتسمون لذاك الكد والعناء التى تنميه النشأة الاستقلالية . وأنا أدرك هذا الاعتراض بل أقول ان فيه رفقاً وحنانا بالناس وليس فيه عيب الا ان مايطلبون محال لسببين

الاول ان الاسباب الطبيعية التى تولدت عنها النشأة الاتكالية فى الازمان الماضية لم تعد مؤثرة فى هذه الايام ولا عامة كما كانت . فالاصل فى وجود تلك النشأة حالة البداوة الاولى التى ظهرت فى سهول آسيا الفسيحة

ذات الاعشاب الكثيرة حيث بدأت الانسانية فى الترقى فلما تفرق الناس استصحبوا معهم نشأتهم الاولى وادخلوها حيث استقر بهم المقام ولم تتغير الا حسب ظروف كل بلد وطباع الساكنين فيه فخضعت لسلطانها جميع الامم القديمة كما بيناه لانها كانت قريبة العهد بمولدها ولان تلك النشأة كانت لاتزال كما وجدت باقية فى البلاد المجاورة لاعظم سهل موجود على وجه البسيطة . ومعلوم ان البداوة لم يعد لها ذلك التأثير على الامم خصوصاً فى الغرب لانها بعيدة عنها زمانا ومكانا ولوجود الامم الاستقلالية فى الغرب من يوم ظهور الدين المسيحى لاسباب وظروف شرحت فى مجلة العلم الاجتماعى ولا حاجة بنا الى تكرارها (جزء أول صحيفة ١١٠)

ثبت اذن أن السبب الاول المؤثر فى وجود النشأة الاتكالية لم يعد صالحا اليوم لغايته وانهم يريدون احياء تلك النشأة بسبب صناعي هو القهر أى سن القوانين أى تداخل الحكومة حتى تصير الرئيس الاعظم على الكل فى المجتمع الاشتراكى الذى يتألف في خيال الاشتراكيين . وبديهي أن هذا الخيال لايتحقق اللهم الا اذا اصطدم مع طبائع الاشياء فغلبها وناطح جميع المنافع المتألبة طبعاً عليه فانتصر عليها لانه عبارة عن تجريد كل من كان فى يده مثقال ذرة من الارض أو يسير من آلات العمل مما ملك ولسنا نرى كيف الوصول الى هذا السبيل على فرض أن الناس كلهم سهل يلين لكل مطلب ولكن الاشتراكيين لايتحيرون

هب أنهم نجحوا — ولا أدرى كيف أنهم ينجحون — فادخلوا نظامهم الاشتراكي فى البلاد التى لهم فى هذه الايام بعض النفوذ بين سكانها

اذ ذاك تنتصب أمامهم العقبة الثانية ولا غالب لها فتسد فى وجههم الطريق سداً مكيناً وهى السبب الثاني الذى بقى الكلام عليه

الثاني اذا تم فوز الاشتراكيين بما يشتهون لا يلبثون أن يروا جميع نتائج النشأة الاتكالية قديما وحديثا بادية بين جموعهم الاشتراكية عملا بسنة العلة بذاتها تنتج المعلول بذاته أبداً . ويكون فعل تلك النتائج فى الناس أشد لان النظام الذى يطلبه الاشتراكيون الالمانيون أقسى وأحرج من الذى عرفناه عن زمن الفراعنة فى الامة المصرية . هنالك يستولى الضعف بعينه على دعائم تلك الامم ويدخل الانحلال الى أعصابها الحيوية وهو الذى رمى بامم الزمن القديم بين يدى الزمان . نعم لسنا نخاف اليوم من الرومان الا انه يوجد فى طريق الامم الاشتراكية خصم أشد بأسا وأصعب مراسا وهو الجنس الانكليزى السكسونى الذى همّ بالاستيلاء على الدنيا بما أوتيه من نمو همة افراده الى الحد المستطاع . أصحيح بعد هذا أن الزمن مناسب لبث روح مذهب الاشتراكيين بين الامم

وكيف يخطر بالبال أن تلك العقول النيرة لا تجد من الاصلاح ما تشير به علينا الا نظام الشرق مع زيادة فى القيود وتشديد فى التعاليم وأنهم يختارون لتقديم هذه المشورة ذلك اليوم الذى بلغت فيه قوة الغرب على الشرق منتهاها . أجل لن تبطىء عنهم نتيجة عملهم هذا وقد نبأنا بها التاريخ على أن ما يجرى اليوم كاف للدلالة عليها

يجرى اليوم أن أمم الغرب تحتل سائدة أمم الشرق وتنشىء فيها المستعمرات وتقيم الحكومات أو تضمها الى أملاكها ضما لا تحتاج فيه الى

مشورة أو استئذان . يجرى اليوم ان تلك الامم الاتكالية أصبحت كانها خلقت ليحتلها قوم آخرون . والامة الانكليزية السكسونية هى التى تتقدم جميع الامم فى هذه السيادة العامة فلو انا وضعنا أنفسنا موضع أمم الشرق لزدنا في سيق الانكليز السكسونيين علينا ولقدمنا اليهم فريسة أخرى . وليست الحرب سجالا بين أمتين أمة نمت فيها الهمة والاقدام بين أفرادها وأمة باتت فيها الهمم مضغوطا عليها فتعطلت بل لابد أن تستعلى الاولى على الثانية

أهذا هو الذي يخطر بأحلام الاشتراكيين الالمانيين وهل يرون من أنفسهم ميلا الى أن يصيروا الى ماصار اليه هنود أمريكا أمام الانكليز من سكانها

ومع ماتقدم كله فلسنا ممن يقول بانه ليس فى الامكان أبدع مما كان بالنظر الى الحالة الراهنة كما يذهب اليه فيما يظهر بعض الاقتصاديين . الا ان خطأ الذين يسعون وراء حل مرضى للمسئلة الاجتماعية يأتى من الميل الى زيادة تداخل الحكومة والضغط على همم الافراد الذاتية والواجب بالعكس فان الحقيقة التى تبرهن عليها الحوادث هي انه يجب علينا أن نحذو على الدوام حذو الامم التى تقدمت على غيرها فى الماضى وفى الزمن الحاضر لا بقوة السلاح بل بما هو أشد بأسا منها وهى قوة النظام الاجتماعى

ومن المشاهد ان هذا النظام هو أليق الاحوال لحل المسائل التى اختلف عليها المشتغلون بالعمل فى جميع البلاد وأعنى بها مسئلة الفعلة التى يدعى الاشتراكيون باطلا انهم عثروا على مفتاحها . والدليل على مانقول

ان الامم الاستقلالية هي التي أصبح فيها عاملا العمل وهما السيد والفاعل في أحسن الاحوال الموافقة لفض جميع المنازعات التي تحدث بسبب اتساع النطاق في المعامل الصناعية . ولا حاجة بي أن أبرهن على ان النشأة الاستقلالية تنمي بذاتها في الرؤساء الهمة والاقدام وتعودهم على الاعتماد على أنفسهم وتربي فيهم ملكة استنباط المشروعات أكثر من النشأة الاتكالية بدليل الفرق بين أمم الغرب وبين أمم الشرق . ولا مشاحة في ان هذه الصفات المتعددة لازمة للنجاح في ادارة العمل بالنظر الى الظروف والاحوال الجديدة الدقيقة التي طرأت على الصناعة بعد اكتشاف مناجم الفحم . كما أنه لا امتراء في ان مثال الرئيس الكبير ذي الكفاءة التامة والاقدام قد نما وتقدم في الامة الانكليزية السكسونية أكثر مما عليه أهل الامم الاتكالية أو التي تميل الى الاتكال وهذا التقدم هو الذي جعل لتلك الامة أفضلية يخشاها الجميع في الصناعة

قالوا (وما الذي يفيد هذا في تحسين حال العامل وهو المقصود أولا وبالذات) والجواب على ذلك بسيط

فأول شرط في اطمئنان الفعلة على وجود مايعملون فيه باكبر مايمكن من الفائدة لهم أن يكون الرؤساء ذوي أهلية كافية لانجاح صناعتهم ولا شك في ان النظام الذي يربي في الرؤساء ذلك الاستعداد يكون مناسباً لتحسين حال العمال اذ متى نمت صناعة الرئيس تيسر له أن يدفع لعماله أجوراً طيبة وسهل عليهم تخصيص نصيب من أموالهم لايجاد المنشئات التي تدفع عن رجالهم جوائح الزمان فتعينهم اذا احتاجوا وتكفل لهم رزقهم اذا

قعدوا وهكذا وذلك لا يتيسر للروساء الذين ضعف استعدادهم وقل اقدامهم وصعبت عليهم الأعمال

يقال أن قدرة الرؤساء على القيام بتلك الاعمال لا يترتب عليها أنهم يقومون بها وقد يجوز كما شوهد أنهم ينتهزون نجاحهم فى أعمالهم فرصة لزيادة كسبهم غير ملتفتين أقل التفات الى تحسين حال العمال

وهو اعتراض وجيه غير أنه يتيح لنا فى الجواب عنه أن نبين أفضلية النشأة الاستقلالية على النشأة الاتكالية لانها مع عظمها لم يلتفت الباحثون اليها كما ينبغي وتلك الافضلية حاصلة عند العفلة كما هى ثابتة للرؤساء

النشأة الاتكالية تجعل العامل غير أهل لاى حركة ذاتية عظيمة داعية بل تصيره آلة صماء كما كان عامل الزمن القديم وكما هو حال العامل الشرقي فى هذه الايام وكما هو العامل الالمانى على التقريب فان هذا الاخير أصبح آلة فى يد المقلقين يجندونه تحت لوائهم بسهولة ليس لها مثيل لا فرق بين المقاق الاشتراكي الثورى أو المحافظ أو الانحيلى أو الكاثوليكى أو غيرهم ولا قوة فى الظاهر لرؤساء المذهب الالمانى إلا بهذا الاستسلام فقد لانت فى أيديهم طينة العمال فيصورونهم بالشكل الذى يريدون ويسوقونهم كالاغنام حيث يشاؤن وهذا هو السر فى انذهاشهم من استعصاء الامر عليهم يوم جاءوا الى انكاتره والولايات المتحدة لنشر مباديهم بين تلك الامم واندهلوا لانهم وجدوا الفعلة لا يسمعون لهم نداء وتلك هى دهشة الرجل الاتكالى الذى يصطدم فى طريقه مع الرجل الاستقلالى لذلك وصف أحد

أولئك المقلقين عمال الانكليز السكسونيين محتقراً «بانهم قوم لا يبصرون» وإليك ما كتبه موسيو «ويزيوا» أحد مؤرخيه فى كتابه «الاشتراكيون فى أوروبا صحيفة ٢١١» قال «لا يوجد فى أوروبا بلد تحصل العملة فيه على الذى نالوه فى انجلترا لتحسين حالتهم فانهم أكثروا فيها صناديق الاقتصاد وشركات التأمين وجمعيات التعاون وأصبحوا بطريقتهم المسماة «ترادسينيون» من أهل الاموال ولكنهم حصلوا كل هذا بغير مذهب الاشتراكيين ومن دون أن يفكروا فى تغيير النظام الاجتماعى الحاضر» ومعناه أنهم حصلوا كل هذا بدون أن يرضوا بقيادة المقلقين والمتطفلين على السياسة وهذا هو ذنبهم الذى لا يغفره أولئك المقلقون

والذى يجب الوقوف على ما أتى به الفعلة من الانكليز السكسونيين فى انكلتره والولايات المتحدة بأنفسهم وبمحض قوتهم الذاتية وإقدامهم بدون أن يطلبوا معونة الحكومة بل مع رفضهم تلك المعونة ينبغي له أن يقرأ تاريخ جمعياتهم المسماة «ترادسينيون» المذكورة فلا شىء أفيد منه ولا أقطع حجة على تقدم الفعلة من أهل النشأة الاستقلالية تقدماً يفوق الوصف وعلى ما توجده تلك النشأة فيهم من الاستعداد للتقدم والترقى

ومما يلاحظ فى تلك الجمعيات هو أنها متشبعة باستقلالها كأمتها وأنها ليست كالجمعيات الالمانية التى تتوق إلى تعميم نظامها بين الفعلة عند جميع الامم أو عند أمتها وترمى إلى تغيير الهيئة الاجتماعية بتمامها وانما هى شركات استقلالية تتألف كل واحدة من فريق مخصوص يجمعها مقصد معين محدود ولا تتألف منها جمعية هائلة يقودها بعض المقلقين ويستعملونها فى إقامة

مباني مجدهم بل هي جمعيات متعددة مستقلة عن بعضها أو لا يربطها الا رباط صغير . ويشعر الانسان اذا فكر فى نظام تلك الشركات انها وجدت فى أمة تميل الى الاستقلال والإطلاق لا فى أمة تعشق التقييد والاستبداد والتاريخ شاهد على ما نقول فقد نشر موسيو «كاستلو» رسالة في « جريدة الاقتصاديين » الصادرة فى ديسمبر سنة ١٨٩١ لخص فيها كتاب موسيو « هويل » كاتب سر مؤتمرات هذه الشركات الذى سماه « النزاع بين العمل ورأس المال » ومما جاء فيها « لقد جاءت شركات تراد سينيون للصناع الانكليز مدرسة تهذيب وأخلاق وعونا على الترقى ولا تزال حافظة لاستقلالها النوعى وبعبارة أخرى لم تخرج عن تقاليد النشأة الاستقلالية ـ يلاحظ ان الكلمة بذاتها وردت فى الرسالة ـ التى قامت حجابا بينها وبين انضمامها الى جمعية واحدة تدخل تحتها جميع الهمم الذاتية ومكاسب المشتركين كلها فخابت بذلك كل المساعى التى بذلت فى هذا السبيل) وقد بلغ أعضاء تلك الشركات فى انكلترا وحدها مليونا ونصف وبلغ دخلها مليونين من الجنيهات الانكليزية أعنى خمسين مليونا من الفرنكات وعندها مبلغ احتياطى مثل ذلك بالتمام . تلك هي قوة العمال الهائلة التى أوجدها الاقدام الذاتى فلتأت لنا المانيا بمثل هذا

ولا تنقص قوة العمال فى الولايات المتحدة عن ذلك كما بيناه عند الكلام على رفضهم الدخول فى مذهب الاشتراكيين

ومما يجب الالتفات اليه ان تلك القوة العظيمة لم تكن قائمة فى وجه «الهيئة ذات رأس المال» كما يقول الاشتراكيون مغضبين بل الغرض الوحيد

منها تحسين حال العمال فعلا بالمعارضة فى تخفيض الأجور واقتصاد جزء مما يكسبون لتخفيف البطالة التى قد تأتى عفواً وكل ذلك من دون أن يمدوا أيديهم الى طلب مساعدة الحكومة أبداً

أمر مجلس النواب باجراء تحقيق عن حالة الفعلة فقرر أغلب رؤساء العمل — رؤساء العمل هل أنتم سامعون — ان العمال الذين من تلك الشركات هم أمهر في عملهم وأخلص فى شغلهم من بقية العمال الذين معهم . قال المؤلف السابق « وعلى العموم فانهم اكتفوا باستعمال الطرق الشرعية للحصول على مابه يصيرون جمعا من شأنه انماء الهمم واحترام المرء لذاته ولم يطلبوا فى الوصول الى غرضهم من الحكومة الا أن ترفع عنهم القيود التى كانت تغلهم عن الترقي فى هذا السبيل دون أن يلتمسوا منها منة أو معونة وقد مضى على تلك الشركات نحو قرن من السنين ولم يحيدوا عن طريقهم هذا لانه الطريق الجد وبه الفخار وله الوقار وهو الذى حمل أقل الناس ميلا اليهم على أن يقوموا لهم بواجب الاحترام ذلك بأنهم نخبة العمال وقد عرفوا بما عرفت به الامة البريطانية من ثبات الاخلاق والبقاء هادئة فى مباديها »

هكذا تمكنت النشأة الاستقلالية من ايجاد رجال بين رؤساء وعمال هم أقدر الناس بأنفسهم على حل المسئلة الاجتماعية

والآن نفرض ـ والامر واقع لاشك فيه ـ ان بعض الرؤساء لا يدركون حقيقة مصلحتهم فيبتزون أموال الفعلة ويأكلون حقوقهم بالباطل ويعتبرونهم كآلات يستعملونهم متى شاءوا ويتركونهم متى شاءوا ويحملونهم مالا طاقة لهم به من الاعمال ولا ينقدونهم الا الزهيد من الاجور ولا

يحتاطون أقل احتياط لمنع البطالة ومعونة الشيوخ على مصائب الدهر. ألا يكون الفعلة من أهل النشأة الاستقلالية أعظم استعداداً وأكبر قوة وأشد بأساً لاسترداد حقهم المسلوب أضعاف أضعاف ماعليه الفعلة الاتكاليون. انهم أقوى لان قوتهم تأتيهم من أنفسهم ولأنهم يلاقون مايعترضهم من الصعاب بالمقاومة الذاتية مباشرة وهم ناجحون. ان أجحف بحقوقهم فى أمر معين وجدتهم يشكون شكوى معينة ويطلبون الانصاف بما لايخرج عن حد المعقول والامكان لا كما يفعل رؤساء الاشتراكيين من سرد المبادى ورص القواعد والقاء الخطب المهيجة ونشر الرسائل فى الجرائد وتحضير المشروعات الخالية التى يطلبون فيها قلب نظام الهيئة الاجتماعية بتمامها والفعلة فى خلال ذلك يموتون جوعا

لذلك نقول ان انكلتره والولايات المتحدة أسبق الأمم فى حل مسئلة الفعلة خصوصاً بالنظر الى من كان منهم استقلالياً محضاً وهؤلاء يجتمعون تحت لواء شركات « ترادسينيون » وأما الفعلة الذين هم أقل من أولئك فلا تزال المسئلة دقيقة بالنظر اليهم فى هذين البلدين وكذلك عمال الحرف الصغيرة التى لاتقتضى فناً مخصوصاً كالحمالين فى مخازن لوندره العمومية . الا ان أولئك العملة ليسوا من أهل النشأة الاستقلالية الذين استعدوا للتزاحم فى الحياة بل يمتازون عنها بما فيهم من النقائص الشخصية أو لانهم من النشأة الاتكالية كالارلنديين والايقدسيين ومهاجرى الالمانيين والتليان وغيرهم وأولئك هم العناصر الذين ينتخب الفقر من بينهم أهله ورجاله فى انكلتره والولايات المتحدة وهم الذين يجد مذهب الاشتراكيين من بعضهم ميلا الى

مبادئه وهم الذين يحتشدون تحت لواء أهل الثورة والاضطراب

وهذا أيضاً يؤيد ما استخلصناه من الابحاث المتقدمة وهو تأخر أهل النشأة الاتكالية عن أهل النشأة الاستقلالية بمقدار عظيم

انما المستقبل للأمم التى تمكنت من الخلاص من تلك النشأة والحكمة تقضى علينا أن نقول بهذه الحقيقة ونقررها فذلك أولى من التمسك بما يدعونه حلا لما نحن فيه وهو خيال لان ذلك المذهب أصبح بالياً ودل ماضيه على انه كان سببا فى استيلاء الضعف على قومه فى أزمنة الفراعنة كما انه ينتشر اليوم فى الدنيا كلها بواسطة أمة هى أشد أمم الغرب خضوعا لسلطان الحكومة المطلقة

الفصل الثالث

﴿ فى ان تصور الوطنية يختلف عند الفرنساويين ﴾
(والانكليز السكسونيين)

يجب على الباحثين الذين يميلون الى اختبار الافكار بالحوادث ولا تخدعهم شقشقة الالفاظ ان يفقهوا معنى كلمتى «وطن» و«وطنية» كما ينبغى وهما كلمتان كبيرتان اعتاد قوم على النطق بهما ذات اليمين وذات الشمال من غير امعان ولا تمييز وبعضهم ينطق بهما معجبا مختالا فلا يقبل فيهما ولا تأويلا وآخرون يلفظونهما مغضبين محقرين بلا قيد ولا ميزان فبينما هؤلاء

يمجدون الوطن ويدأبون على إثارة الوطنية فى الافكار يسعى آخرون فى الحط من معانى هذه الكلمة ويقولون أن الوطن امرأة تدعى الامومة تطفلا وأن ذلك الوهم أقام زمانا وانقضى ولم يعد موافقا لمقتضيات الايام الحاضرة وأن كل الناس إخوان ويعلنون على رؤس الاشهاد أنهم لا وطن لهم غير مبالين بما يحسه مواطنوهم من الخجل لسماع مثل هاته الاقوال :

هذان مذهبان مختلفان يتعذر التوفيق بينهما غير أن لكل مذهب سببا يعلله ومصدرا يرجع اليه وينبغى لنا أن نبين حقيقة الوطنية ونشرح صورها فى الاذهان بحسب تقلب الازمان ونقف على أسبابها ونتائجها ليتبين ان كان العالم صائرا الى تأييد تلك الحقيقة أو أضعافها أو تحويرها فنعلم أى الحزبين أصدق رأيا وأصح فكرا فاذا بلغ منا العلم أنهما محقان من جهة ومخطئان من جهة أخرى بحثنا عن درجة خطأ كل واحد منهما

تلك مسئلة عويصة دقيقة تحتاج من كاتب هذه السطور ومن قرائه الى روية كبيرة وحرية فكر واسع فيجب علينا جميعا أن نطرح ولو الى حين كل ميل الى الحزب الذى ننتسب اليه وكل تحزب للبلد الذى نحن منه ونفرض أنا نوجد فى كوكب غير قارتنا حيث نشرف منه مطمئنين على جميع حوادث الارض وما يجرى فيها

أول شىء يراه الباحث هو أن الوطنية لا تنمو بدرجة واحدة عند جميع الامم لانها ثمرة أسباب شتى فهى تتنوع بحسبها ولها صور مختلفة تمتاز منها أربع عن البقية وهى . الوطنية الدينية أى التى يكون مدارها على الدين والوطنية التجارية أى المبنية على التنافس فى التجارة والوظيفة السياسية أى

التى تبنى على التطلع السياسى والوطنية الشخصية وهى التى ترجع الى حرية كل فرد فى معيشته الذاتية

الوطنية الدينية

تمتاز بالوطنية الدينية أمم العرب والتركان ويقال لهم (التواريج) [1] والاتراك وأمثالها وقد بينت فى غير هذا الكتاب الاسباب التى تحمل تلك الامم التى نشأت فى الصحارى على الخضوع لسيادة الطوائف الدينية [2] فيوجد فى هذه الايام بين تلك الامم كما وجد فى جميع أدوارها الماضية طائفة يرى الناس كلهم أنها صاحبة الحق فى السيادة فلا ينازعها أحد ولا يخرج عن حكمها أحد وليس رجال تلك الطائفة من قبيلة واحدة بل هى تتألف من كل متعصب أنى وجد لذلك تجد فيها قوماً من شمال الصحراء وقوماً من جنوبها على بعد ما بين المركزين وتمتاز تلك الطائفة بقوة البأس وبامتداد نفوذها حتى كأنها الجامع العام لتلك القبائل والعشائر . وهى التى وقفت فى وجه جميع الفاتحين الذين حاولوا اختراق الصحراء كما وقفت أمام الانكليز على حدود السودان المصرى كأنها حصن عزيز المنال وهى التى

(١) التواريج أمة من برابرة منتشرة فى صحراء أفريقيا بين بلاد (القوث) شمالا وتنبوكتو جنوباً والنيجر غرباً وفزان شرقاً وهى تعتقد أنها من سلالة الترك وتحتقر العرب ورجالها طوال القامة شديدو القوى خفيفو الحركات وديانتهم الاسلام وهم أشد القبائل بأساً فى وسط الصحراء وأصعبهم مراساً وهم الذين أبادوا الارسالية الفرنساوية التى توجهت الى تلك الاقطار تحت قيادة الميرالاى فلاتر لتخطيط السكك الحديدية فى تلك الاصقاع

(٢) راجع مجلة المؤلف (العلم الاجتماعى) صحيفة ٣١٥ وما بعدها من الجزء الخامس عشر

تصدم أمامها الامة الفرنساوية فى حدود صحراء الجزائر

أولئك هم ملوك الصحراء واسمهم الطوائف الدينية واسم رجالهم « والاخوان » والخلفاء اسم للرؤساء كما يقال لهم المشايخ وغير ذلك من الاسماء وأحياناً يسمونهم المهديون أو رسل الله اذا حميت نار الاعتقاد وظن بعضهم نزول الوحى عليه من السماء والويل الويل لمن يحاول الدخول عندهم فى مثل هذه الازمان

ولهذه الطوائف «زوايا» فى جميع الواحات وهى معابد تابعة للجامع الاكبر ففى واحة «غمار» بالصحراء اثنا عشر مسجداً وأربع زوايا مع أن سكانها لا يزيدون على سبعمائة أو ثمانمائة . وللاخوان كلمة سر يفهمونها واشارات تعارف مخصوصة وهم درجات بعضها فوق بعض مقررة لديهم أجمعين تبتدئ من السيد الاكبر أو الخليفة الى حامل العلم الي الحارس وهكذا ولهم جمعيات عمومية يتلقون فيها أوامر السيد السرية أو يحتفلون بدخول بعض المريدين فى الطريقة أو يهيئون فى البلاد ثورة ضد عدو يريد الاغارة عليهم سواء كان من داخل البلاد أو خارجها وكلهم وطنيون وهم غلاة الوطنية فى الصحراء

الى هذه الوطنية يرجع نظام العشائر التى كانت تسكن اقليمي أشور ومصر فى الازمان الخالية أعنى في الدور الاول من تاريخ تلك الامم التى كانت تتألف من الشعوب الوافدة حديثاً من الصحراء ولذلك خضعت لحكم الطوائف الدينية وقسس الاله «آمون» خضوعاً كلياً أو جزئياً واليها أيضاً يرجع محمد « صلى الله عليه وسلم » وأتباعه وجميع القبائل والشعوب التى

اجتمعت تحت رايته فى وديان العرب أوالصحراء وأطرافهما من بلادآسيا الصغرى الى بلاد الاندلس . كذلك يدخل فيها الترك فانهم أخذوا عن الاسلام أشكال حكومتهم وكانوا يحالونها لما هم فيه من البداوة غير مستقرين فى مكان .

ويكفي فى بيان حقيقة هذا النوع من الوطنية ذكر هذه الامم فالمتمسكون بها لا يطيقون الجدال فيها ولا يشفقون أى اشفاق على أعدائهم لان مرجع الوطنية فيهم الدين وهو لا يقبل التحوير ولا يحتمل التسامح والتفسير . وأهم شيء يوجب الخشية منها هى انها لاتقتصر على اخضاع الاجسام الى سلطانها ولكنها تبسط سيادتها أيضا على الافكار والارواح فلا تكتفى برضوخ من تتغلب عليه الى حكمها وتكلفه اعتناق مذهب أصحابها فاما الايمان وأما الاعدام . ولقد أهرقت هذه الوطنية دماء كثيرة خضبت بها تاريخ أجيال عديدة وهى اليوم تنكشف الى الباحثين مثقلة بالفظائع والآثام

ان الدين اذا اتخذ الارهاب سلاحه بدل الدليل والاقناع لم يكن الا غضبا وهياجا ومن الواجب التنكيل بهذه الوطنية بكل مافي الجهد ومغالبتها حد الاستطاعة وهذا الواجب انما يطلب من المؤمنين لانها تحط من قدر الاحساس الدينى والعدالة الصمدانية وهما أشرف الامور وأعلاها مقاما ذلك لان مثل الدين يدعون هذه الوطنية كمثل اردأ الزنادقة وأخبث المنافقين تراهم يحملون السيف أو العصا ويأتون موارد شهواتهم ومواضع انتقامهم ومرامى اطماعهم باسم الدين وتحت ستاره (١)

(١) نحن لاندرك معنى لحصر هذا النوع الممقوت من الوطنية فى الامم التى تقطن

الوطنية التجارية

تمتاز بها أمم شواطىء البحر الابيض المتوسط قديماً أيام كان ذلك البحر شبيهاً بحوض ذي سور مقفل أعني أيام كانت سواحله آهلة بالمدائن والشعوب التي تمتد على شواطئ فينيقيا وآسيا الصغرى واليونان وجنوب ايتاليا والاندلس وافريقيا الشمالية وكلها تطلب الرزق من التجارة . ولا بد من أن التنافس كان شديداً بين تلك الامم وأن حياة كل واحدة منها كانت متوقفة على فوزها دون غيرها وليس التاريخ القديم إلا عبارة عن قصص تلك المنافسات التجارية

الاقطار الاسلامية والاقتصار على ذكر العرب والترك والتركمان فان كان يريد التعريض بالاسلام فانه لم يصب محجة الصواب لان الاسلام لا يلزم أحداً من مغايريه فى الدين أن يصير مسلماً بعد أن يدين لحكمه والتاريخ أصدق شاهد على خلاف رايه وكتاب الله تعالى وسنة النبى صلى الله عليه وسلم صريحان فى حقد دماء المسلمين ومسالمتهم إلا الوثنيين منهم . هكذا جرى العمل حتى فى زمن الفتح أيام ثورة الدين حيث ما كان يرجى الحنان والاشفاق . فان لم يكن الاستشهاد بالقرآن مقنعاً فى مذهب غير المسلمين فانا نورد على عبارة المؤلف ماقاله حضرة العالم الشهير الكونت هنرى دى كسترى صاحب كتاب الاسلام فى الفصل الثانى عن ملاينة الدين الاسلامى وكيف أنه عامل المسيحيين وقربهم اليه فى مناصب الدولة ووظائف الملك (راجع ترجمتنا هذا الكتاب سنة ١٣١٥ هجرية)

وليس من الانصاف أن يرمى مسيحيو الشرق بهذه التهمة دون إخوانهم فى الغرب لإن المذهب واحد فان كان الدين هو الذى أغضب المؤلف من وطنيتهم لزمه أن يعمم حكمه على البقية وإن كان غيره فقد فسدت قاعدة رأيه ولعله كان يقرب من الحقيقة لو أطلق شرحه على الوطنية الدينية من غير أن يقيدها بأمة دون أخرى لان فعل الدين فى النفس واحد نصرانياً كان الرجل أو مسلماً أو يهودياً أو مجوسياً

ومن أجل ذلك احتاجت كل أمة من تلك الامم أن يكون نظامها موافقا لحاجاتها خصوصا مايتعلق بدفع الاعداء ومهاجمة الخصوم اذ كان لامناص لكل منها من الاعتماد على نفسها وهـذا هو السبب فى اعتنائها كلها بتربية شبانها على التمرينات الجسمية حتى صارت القوة والمهارة وخفة الحركات والحذق فى رمى النبال أعز صفات الشبيبة فاقيمت ميادين الالعاب العموميـة وعظم الاهتمام بها وما ذلك الا لانها كانت فى الحقيقة مظاهر للوطنية فى ثوب مخصوص

هنا لك كانت الوطنية محلية أى قاصرة على أهل كل مدينة أو طائفة دون جارتها ومن هنا جاء اسم المدينة والبلد بمعنى الوطن مما ملئت به كتب المتقدمين فجميع الاعمال العظيمة والوقائع الشهيرة التى احتفظنا عليها كأنها من الدين وجعلنا نحشو بها اذهان أبنائنا في المدارس من غير نظر ولا تأمل كلها صور من تلك الوطنية التجارية . وقد افتخرت كل مدينة بشجعانها كما افتخرت بحكمائها لأن الفريقين غرس أرض واحدة هى حالة تلك المدن الاجتماعيـة فى هاته الازمان . قال (استرابون) عن (كروتون) أنه كان يعتنى على الخصوص بتربية الشجعان حتى توصل الى اختصاص رجاله بالغلبة فى ميادين الالعاب العمومية وقيل أن أضعف رجل من رجاله كان يعد فى مقدمة اليونانيين . وكان الناس يعظمون الظافرين فى تلك الالعاب تعظيما لامزيد عليه فيخلعون عليهـم أحسن الخلع ويختصونهـم باكبر علامات الشرف والامتياز ويتسابق المصورون الى اقامة تماثيلهم فى كل ناد . هكذا أقيم فى (أولمبيا) تمثال (استيلوس) وهو من تلامذة كريتون المذكور وقد

تمت له الغلبة فى ثلاثة العاب متواليات . وتمثال « فيليب » صاحب الانتصارات الباهرة فى تلك الالعاب وكان أجمل أهل زمانه وتزوج ابنة « تيليس » ظالم « تيباريس » وعد بعد وفاته من أكابر الابطال . وتمثال « فايلوس » وكان مكتوبا عليه انه كان يقفز خمسة وخمسين قدما ويرمى بالكرة على بعد خمس وتسعين خطوة . وأشهرهم «ميلون» الكزيتونى فقد بلغت انتصاراته ستا وعشرين على اختلاف الالعاب وسارت الركبان بقوته الى أقصى الشرق وبلغت مسامع كسرى الفرس وأقيم له تمثال من النحاس وكان له شأن خطير فى حروب قومه مع « سيباريس »

وكانت جميع المدائن تطمع فى الانتصار فى ألعاب أولمبيا وان تفوقها بألعابها ولذلك أقام سيباريس وكروتون فى نواحيهم الالعاب العمومية وجعلوا للفائزين فيها وسامات من الفضة رجاء أن يجتمع اليها يونان ايتاليا وسيسيليا ومدائن آسيا الصغرى وتلك الالعاب هى الاصل الاصيل الذى نشأت عنه ألعاب الرومانيين المسماة « جلادياتور » وكانت من أفظع الشنائع أيام سقوط الدولة الرومانية

تلك هى صور الوطنية التى عظمت عند أمم البحر الابيض المتوسط فى قديم الزمان . والذي ألجأهم الى ذلك احتياج كل أمة الى رد غارة غيرها بتجارتها وهى وطنية ترجع الى المال وكان من لوازمها الاثرة والشره ولم يكن السبب فى تلك الوقائع والحروب التى رواها لنا مؤرخو تلك الاعصر موشاة بما يعجب القراء الا الرغبة فى اذلال الخصوم بالقوة القهرية بعد العجز عن مغالبتهم بالمهارة فى التجارة والتفنن فى أساليبها . ولم يكن لحب الوطن الخالص

ورغبة التفانى فى الذود عنه من صدور أولئك التجار الا مكان صغير فى الحقيقة لا كما يتصوره الناس عنهم والدليل عليه انه لما تمت الثروة لتلك المدائن وملئت خزائنها من الذهب والفضة لم تعد تطلب حمايتها من قومها وعمدت الى تجنيد جيوشها من الاجراء . قال « جوستان » انكسر أبطال « كريتون » سنة ٥٦٠ فى احدى الوقائع فأهملوا من ذلك الحين صناعة الحرب وألقوا السلاح ومالوا الى الانهماك فى اللذائذ والانغماس فى الشهوات مثل « سيباريس » وكذلك كان شأن « تارانت » فانه بعد ان اشتهر بالشجاعة وسارت بذكر فضله الركبان أضاعها فى التنعم والفساد

والواقع ان تلك الوطنية التى بالغ الناس فى الاطراء بها ترجع الى رواية ذات قسمين ففى القسم الاول نشاهد تلك المدائن تثير الحرب على بعضها لتأخذ حظها من التجارة وفى القسم الثانى نشاهد التى ظفرت منها قد تولاها الانحطاط ودمرت بيد متغلب جديد خرج من مجتمع يخالف نوعها

— الوطنية السياسية —

مهدها عند الامم التى عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة فى رؤسائها وأعظم مثال لها الامم الفرنساوية والالمانية والروسية والتليانية والاندلسية « الاسبانية » فى زمننا هذا ومثالها فى الزمن القديم الامة الرومانية

وليس القائم بالحكم فى هذه الامم الطوائف الدينية أو المجالس البلدية المؤلفة من التجار كما فى النوعين السابقين بل القائم عليه رؤساء من رجال الحرب أو ممن جمعوا حولهم الجند المجندة وامتدت سلطتهم فى أقطار شاسعة

وجمعوا تحت تصرفهم وسائل عظيمة من المال والرجال وخضع لاوامرهم العدد العديد من الجيوش والموظفين وهم لذلك أقدر من غيرهم على اقامة الحروب لولا يتهم على جميع عناصر البلاد الحية اذ كل شئ خاضع للدولة من جهة ما وليس لاحد من العمال ارادة غير ارادة الحكومة التي تنقده راتبه ملكياً كان أو عسكرياً . وفي مثل هذه الاحوال تميل الجيوش الى الحرب أكثر من ميلها الى السلم كما انها لا يعظمون الملك أو الوازع الاكبر في الجمهورية الا بقدر ما يكون له من الغزوات وما يؤتاه من الانتصار ومن أجل هذا كان رؤساء الحكومات ميالين طبعاً الى الحرب وكثيراً ما يكون الحرب سبيلهم الوحيد في الاستئثار بمرغوب أو في دفع منافس يخشون مزاحمته. وهذا هو السبب في تلك الحروب العديدة التي منشأها التنازع على الملك بين العائلات أو الاطماع الذاتية للملوك والنفس تنخدع عادة بالاستيلاء على سلطة تجعل المرء في سعة ونعيم والناس يعترفون بهما ويقدسونهما متى تم النصر للغير

غير انه يلزم للظافر بعد ظفره ان ينظر في استبقاء نصره والبقاء. ليس بالامر اليسير على حكم واسع الاكناف لابد فيه من اغضاب قوم وجرح عواطف آخرين لعلة انه تكفل بالقيام مقام الكل في التفكير والتدبير حتى لقد يخشى على تلك الحكومات الضخمة ان ترزح تحت هذه الاحمال الثقيلة التي جلبها عليها استعلاؤها وسلطانها الرفيع فاذا وصلت الدولة الى هذا الحد التمست مخرجا منها بالحرب لتلوى أفكار الامة عن النظر الى الصعوبات الداخلية وهذا أيضاً هو السبب في حروب كثيرة مما خلده التاريخ وسطره الكتاب . ومتى انتصر أولئك الملوك زادت سلطتهم وتمكنت سيادتهم

وحينئذ تراهم يثيرون الحروب ليزدادوا بسطة فى الملك لاليثبتوا أملاكهم وليمدوا حدود ممالكهم العظيمة التى يفرح بها المؤرخون وتحزن لها الامم أولئك هم أكابر القياصرة وعظماء الاملاك والاكاسرة الذين غصت باسمائهم صفحات التاريخ واتخذهم المؤرخون بيانا لمراحل الاجيال

على ان هذه الدول العظيمة لاتوافق طبيعة الاجتماع لما يلازمها من ارتكاب أكبر الفظائع فى الحياة العمومية وجلب أعظم المصائب والرزايا فى الحياة الخصوصية ولذلك فبقاؤها محدود ودوامها محال تراها تخر مهشمة عقب موت شجاعها وكثيراً مايدركها الدمار فى حياته . هنالك تهب نار الحروب ثانية بين الخلفاء وتستمر من جيل الى جيل وفى الغالب يكون انتشاب تلك الحروب رغم أنف الامم لاحتياجها الى السلم كى تتفرغ الى السعى وراء رزقها والحرب تعطل الاعمال غير ان صوت الامة ضعيف فى مثل هاتيك الدول فان من شأنها الضغط على حرية الافراد فيما عساه يأتى من عندياتهم بما يستلزمه نظامها من جميع السلطة كلها فى يد قوم معدودين . أما العامة التى تزاول الاعمال النافعة وتكب على الاشغال التى تأتى بالثمرة وتمكنها من أداء الضرائب والخراج فانها مطروحة وراء السلطة العمومية التى انتهبت منها رويداً رويداً قدرتها على الاعمال العامة وأضعفت فيها بواعث الاجتهاد ومصادر الانتاج وجعلتها لاتعرف من أمورها إلا الطاعة والانقياد فهى تخضع إلى الحكومة والموظفين كما تخشع لاهل السياسة أو المشتغلين بالسياسة وما علمنا ان الامة أبدت حرا كا أمام رغائب فيليب الثانى ولا تحت حكم لويز الرابع عشر أو حكومة الثروة أو نابليون الاول

ومعلوم أن هذه الحكومات العظيمة التى جمعت من العدد والعدد ما يمكنها من ارضاء أطماعها السياسية لا يتيسر لها تسيير أممها وحملها على احتمال ماتطلبه منها من الرجال والاموال الااذا تذرعت لديها بمنفعة الوطن وأثارت فى نفوسها عواطف الوطنية . ترى تلك الحكومات تتفانى فى حب السلام ومامن أحد يسبقها فى الجهر بهذا الميل وتقول أن الحرب أكبر المصائب وأعظم البلايا حتى لقد جاء ذكر السلم اثنتى عشرة مرة فى خطاب امبراطور ألمانيا الذى ألقاه فى « كيل » ومع هذا يقضون حياتهم فى الحروب أو فى تجهيز معداتها وتهيئة لوازمها وتلك الاستعدادات التى لا حد لها هى فى الواقع أشد تدميراً وأعظم تخريباً من الحروب فانها تستنزف ما في الامة من الرجال والاموال وكلما اشتد وقر هذا النظام اشتدت الحاجة فى الحكومات الى الاستنجاد بالوطنية ومن الصعب معرفة درجة ما تفعله الوطنية فى نفوس أمة بلغت منتهى الاضمحلال من جراء هذه الاحوال كما لا تسهل معرفة مقدار ماتؤل اليه من الخراب اذ بلغت الوطنية منها حدها الاقصى ومع هذا قد يأتى الالمام بذلك اذا نظرنا الى حالة الامة التليانية لان البحث فى حالتها العلمية والاجتماعية يفيدنا فائدة كبرى ويرشدنا الى الغاية التى نحن صائرون اليها . كذلك نهتدى الى غرضنا بالتأمل فى حالة بلاد الاندلس «أسبانيا» وأنا نكتفى بتوجيه ذهن اهل العالمين الى هاتين الامتين ونضيف اليها جمهوريات أمريكا الجنوبية لمن رغب الاستزادة فى البيان

قال بعضهم ونعم قوله «لو أنا أمعنا النظر فى حقيقة معنى وطن لتركنا الطريق وقفلنا راجعين » ومن المحقق أن الوطنية هي التي كانت سبباً فى

قسم عظيم من الفظائع والمنكرات التي ملأت التاريخ وصيرت قراءته معيبة مخالفة للآداب . نعم أنا عالم بأنى أحدث بمقالى هذا اضطرابا فى نفوس بعض القراء وأراهم لغلوهم فى الوطنية يشددون النكير عليّ ويفوقون نحوى سهام اللوم والتنديد ولذلك فانى أخصهم بمقالى وأسألهم ان كانوا حقيقة فى وطنيتهم صادقين . وأريد بالوطنى من يبرهن علي أعدائه بالافعال لانى لست أجهل أن عدد الوطنيين بالقول لايحصى غير أن الكلام فى بحثنا لا يفيد وأنا أخشى أن يكون السواد الاعظم مغروراً جذبته الاوهام فادعى بما ليس فيه

إنما الوطنية تقوم بأمرين مهمين دفع ضريبة المال وأداء ضريبة الدماء ولست أنكر أنهم يؤدون الخراج بالتمام ولكن رأس الحكمة مخافة الجباة على أنه لا محيص من الاداء والدليل عليه أنهم جميعاً يستغيثون من فداحة المصروفات ويشنون الغارة على استرسال الحكومة فى توسيع دائرة مصالحها واذا جاءهم مترشح فى المجالس النيابية وجعل يخطب فيهم أنه يميل الى تخفيف الضرائب والاقتصاد فى المصروفات أقبلوا عليه وأهدوه أصواتهم مهللين ومكبرين . إلا أنى أقسم أنهم بما يعملون يبرهنون على أنهم فى وطنيتهم التى ست أرضاها كاذبون لانهم لايجهلون أن النظام الذى يدافعون عنه خلافا لرأيي يقتضى المال الكثير فلو كانوا فى ادعائهم الوطنية صادقين أى لو كانت الوطنية فيهم غير مجرد التشدق فى المقال وكانت مفهومة لديهم بغير مايتظاهرون به من الحركات التى لا يرضاها العقلاء لما ساوموا الحكومة على المال الذى تحتاج اليه فى تغذية تلك الوطنية وصيانة دعائمها . انهم اذا

صدقوا لدفعوا المال ولم يشكوا إذ كلما دفعوا انتصرت وطنيتهم وكلما انتصرت استبشروا وفرحوا . أما أنا فلست من المبتهجين لانى غير راض عن نظام الهيئة الحاضرة القائم على تلك الوطنية ولا حق لهم ان يغضبوا غضبي لانهم ان غضبوا فقد خالفوا أنفسهم وتناقضوا

أيها الوطنيون — العلامة الثانية على الوطنية كما تفهمونها هي ضريبة الدماء فلتنظر كيف أنتم بها قائمون إذن ليس بخاف على أحد ان كل اهتمام الفرنساويين حتى غلاة الوطنية منهم موجه الى التخلص من الخدمة العسكرية مدة ثلاث سنين هم وأولادهم وأنهم نظموا حياتهم للسعي فى هذا السبيل . فان كانت الخدمة ثلاث سنين لازمة فما سبب الهرب منها وان كانت غير لازمة فلم الدفاع عنها . الا تشعرون انكم متناقضون فى دفاعكم عنها وهربكم منها . انا نشاهد المدارس التى أعفيت تلامذتها من الجندية مدة سنتين بمقتضى قانون العسكرية الجديد أصبحت غاصة بالطلاب وكان الكثير منها فى درجة سيئة من الانزواء لقلة الراغبين فيها فأقبل اليوم اليها العدد العديد حتى ان مدرسة الحقوق خفضت من شدة الامتحان وسهلت الدرس تسهيلا لنوال شهادتها التى تعفي حاملها من الجندية سنتين كاملتين . وكأنى بالمدرسين وقد تنبهوا الى انهم آباء وان غلوهم فى الابوة يربو على غلوهم فى الوطنية . وارجع الى النواب والاعيان فى المجلسين فلا تجد منهم عشرة يؤدى أبناؤهم خدمة الجيش ثلاث سنين . هكذا يصادق الرجل منهم على جعل الخدمة ثلاث سنين ولكنه لا يقر على دخول ابنه فيها

وبالجملة فالوطنية التى نحن بصددها قائمة على المطامع السياسة بواسطة

الحروب وتوسيع نطاق المصالح العمومية غير أنها وطنية صعبة الاحتمال على الامم فهي تفرح بها في أول الامر ثم لاتلبث ان تشعر بثقلها فترغب في التخلص منها وحينئذ تتكل تلك الاحمال على الضعفاء والمساكين والبسطاء أعني على الامة فتميتها وتضعفها ثم يضيق بها الخناق يوما فتثور ثورة واحدة وتتخلص من مثل لويز الرابع عشر وحكام الثورة ونابليون غير انها لاتخرج من حكم هؤلاء الا لتداخل في حكم لويز الرابع عشر وحكام الثورة ونابليون لان أولئك المسيطرين على الدوام موجودون في مثل ذلك النظام

﴿ الوطنية الشخصية ﴾

يوجد هذا النوع من الوطنية عند الامم التي تفهم من هذا اللفظ معنى غير المعاني الثلاثة السابقة فالرجل من تلك الامم يرى ان الوطن في بيته وان المنفعة التي يجب عليه الدفاع عنها هي استقلال ذلك البيت وساكنه وان الوطن السياسي لامفهوم له الا إيجاد وسائل ذلك الاستقلال الشخصي وان الرجل لم يخلق للوطن خاصة كما في النوع السابق بل ان الوطن انما وجد لخدمة الانسان فهو لايهتم كثيراً بأن يكون وطنيا من أمة عظيمة وانما جل اهتمامه ان يكون وطنيا مستقلا وبالجملة فانه يرى نفسه رجلا قبل ان يكون وطنيا

هذه وطنية تخالف وطنية الامم اللاتينية وكان أول ظهورها في غرب القارة الاورباوية نحو القرن الخامس من المسيح فأدخلها قوم « الفرنك» في بلاد « الغلوا » والسكسونيين في بريطانيا العظمى والفرنك والسكسونيون من هيئة اجتماعية واحدة هي التي سميناها بالامم الاستقلالية لانها خالفت

الجمعيات التى ترجع في أصولها الى الامة الرومانية القديمة فجعلت الشخص أى الفرد الواحد راجحاً على الدولة

ورجحان الفرد على الدولة هو الذى كان السبب فى تجزئة البلاد الفرنساوية والجزائر البريطانية الى امارات صغيرة لاتحصى حتى صارعددها في القرون الوسطى بقدر عدد الاملاك الخصوصية فكان كل واحد سيداً فى أرضه له الحكم فيها وحفظ النظام بين ساكنيها وهكذا حلت أوطان كثيرة فى محل ذلك الوطن الوحيد الرومانى وليس من غرضى الآن أن إبين هنا السبب فى زوال هذا الشكل الجديد شيئاً فشيئاً من البلاد الفرنساوية حيث أقصته عنها الحكومة الملوكية التى جمعت أشتات السلطة وفى بقائه كما هو ببلاد انكلترا غير أن الواقع هو أننا لا نزال نشاهد تلك الصورة عند الامم الانكليزية السكسونية أعنى فى بلاد انكلترا ومستعمراتها العديدة وفى الولايات المتحدة . ولكى نبين حقيقة تلك الوطنية ينبغى لنا أن نذكر طرفاً من الحوادث التى يعملها الكل لما فيها من الدلالة الواضحة

أولا سهولة هجرة الرجل عن وطنه وليس مقصدنا أن يهاجر منه على مقربة من حدوده بل يرحل عنه بعيداً جداً فيقطع الارض من ناحية الى أخرى . والمهاجر من الانكليز السكسونيين يشعر دائماً بأنه إنما يرحل عن بلده مستصحباً لوطنه اذ هو الوطن حيث يعيش المرء حراً [1]

---

(١) هذا يذكرنا بقول الحريرى

لا تركنن الى وطن فيه تهان وتمتهن
وارحل عن الدار التى تعلى الوهاد على القنن
وجب البلاد فأيها ارضاك فاختره وطن

وثانياً استقلال المستعمرات بالنظر الى العاصمة الكبرى فكل مستعمرة لا يلزمها الا أن تكون تابعة لها ثم هى بعد ذلك مطلقة تحكم نفسها بنفسها كتبوعها ولا تحسب أن حب الوطن يحملها عن تسليم نفسها اليه يسيرها كما يريد . ثم أن هذه التابعية وقتية لاتدوم الا بقدر ما يتربى التابع وان دامت فلزمن قريب لان المستعمرات الانكليزية تميل الى الهجرة مثلها كمثل شبان الانكليز . هكذا انفصلت الولايات المتحدة عن الامة البريطانية وهكذا تبدو الآن علائم الانفصال فى أوستراليا وزيلاندا الجديدة وكندا ورأس الرجا . قال أحد السواح الانكليز وهو موسيو (مكس أوريل) (يفتخر سكان المستعمرات فى هذه الأيام بأن يطلق عليهم اسم الاستراليين و (الكنديين) والافريقيين وينمو فيهم روح الملة كل يوم والانكليزى هو الذى يغذى ذلك الاحساس فيهم اذ كل انكليزى يقيم بضع سنين فى مستعمرة لا يبقى انكليزيا بل يصير أوستراليا أو كنديا أو افريقيا ويحلف بوطنه الجديد وهم لايقبلون من العاصمة الكبرى أن ترسل عليهم ولاة الا تأدباً منهم ومع ذلك يشترطون عليهم أن لايشتغلوا بالسياسة أ كثر مما تشتغل بها الملكة ورجال البيت الملوكى

وثالثاً عدم الالتفات مطلقاً الى الجندية وقلة الاهتمام بشأنها قال (أدوارد ريكلوس) فى كتابه (تخطيط البلدان الجديد) (أن انجلتره هى أقل الدول فى الجيوش الدائمة مع أنها تحكم على أمم أ كثر مما تحكم جميع دول أوروبا بأربعة الاضعاف فلا يزيد جيشها النظامى على مائة ألف جندى) وهو سدس الجيش الفرنساوى والالمانى والروسى أعنى بلاد الوطنية الثالثة

وهو ربع الجيش النمساوى وثلث الجيش التليانى فى حالة السلم وهو جزء من ثلاثين أو من أربعين من عدد الرعايا (١)

وهناك أمر آخر يوضح جيداً أن نظام تلك الامم لا يوافق الحروب قال « ريكلوس » فى الجزء الرابع من كتابه المتقدم ذكره صحيفة ٨٧٩ « لا يوجد فى انكلتره قانون للقرعة العسكرية وليس فى استطاعة الحكومة أن تحشد من أفراد الامة جيشاً تحارب به رغبات الامة والخدمة عندهم سنوية ولولا أن المجالس النيابية تقضى فى كل سنة باستمرار العساكر مجندة لانحل الجيش فى كل عام . ومن مبادئهم أنه لا حق للوازع فى استبقاء جيش مستمر ينفق عليه من بيت المال الا باقرار القري والبلدان فهى التى تقدم المال اللازم وتقرر القانون العسكرى فى كل عام » وليلاحظ أن القرعة غير موجودة كذلك في البحرية بل يحشد رجالها من المتطوعين كالعساكر البرية

وعدد الجيش فى الولايات المتحدة أيام السلم قليل جداً . فلا يزيد على ستة وعشرين ألفاً مع كثره عدد السكان وبعد ما بين مشرقى تلك البلاد

ومن هنا يتبين لك أن تلك الامم ليست ميالة الى الجندية ويزداد عدم الميل بتكاثر جمعيات السلام غير أن هذة الجمعيات لم تنتشر انتشاراً

(١) يظهر ان فى الطبعه الفرنساوية خطأ لان مجموع الرعايا على تلك النسبة لا يزيد على اربعة ملايين وهو قليل كما لا يخفى ولعل الاصل جزء من ثلاثمائة او اربعمائه ويجب ايضاً ان يكون المقصود بالمعدود الرعايا الاصليين التابعين

محسوساً الا فى انجلتره والولايات التحدة فلايبلغ عدد جميع اعضاء الشركات التى تألفت لهذا الغرض فى البلاد الفرنساوية الا ألفاً ومائتين ولانعرف فى المانياسوى جمعية واحدة لايزيدعددأعضاؤهاعلى السبعين أماانكلتره ففيها خمس جمعيات تتألف من خمس وعشرين ألف عضو وهـذا بخلاف جمعية سادسة تسمى جمعية السلام تألفت سنة ١٨١٦ وفيها بضعة آلاف من الاعضاء . وفى الولايات المتحدة جمعية واحدة يبلغ أعضاؤها أكثر من مليونين وبجانبها جمعيات كثيرة لاتحصى وأعضاؤها فى ازدياد على الدوام ومما يدل على بغضهم أيضاً للحروب اتجاه الاميال فى هذه الايام الى فض المشاكل بواسطة المحكمين لا باستعمال المدافع والسيوف

اذا تقرر هذا سهل علينا أن نقارن بين هذه الانواع الاربعة

فأما الوطنية الدينية فقد انحصرت اليوم فى الصحراء حيث تتعب الطوائف الدينية فى استبقائها وعلى كل حال فانه لم يعد لها أثر فى الخارج لانها لا تستطيع ذلك وقد مال الدين فى أمم الغرب الى الملاينة والمحاسنة وصار ينتشر بالاقناع والاستدلال لابالقهر والغلبة ثم أنه اتخذ الضمائر أرضاً يسكنها ومال عن الاستعانة بسلطة الحكومة على جلب المحازبين وعليه ترى أن الوطنية الدينية آخذة فى التقهقر من جميع الجهات

وكذلك الوطنية التجارية انقضى زمانها ولم يعد للاسباب التى كانت قائمة بها على شواطئ البحر المتوسط أثر فى الوقت الحاضر وكادت المدائن العتيقة تنقرض ان لم تكن قدبادت مثل فينيقياوقرطاجنه واليونان ثم فينسيا وجين وأصبحت تدل باطلالها أواضمحلالها على أن تلك الوطنية التجارية

لاتصلح أن تكون أساً يقوم به نظام الهيئة الاجتماعية . واليوم لاحياة للتجارة الا بالتنافس فيها وان عمدت بعض الامم الى تخفيفها أو تحديدها بجبى الخراج على المتاجر فى مرافئ بلادها بل نشاهد ان العقبات آخذة في الزوال بين الامم وان التجارة تتخلص كل يوم من قيودها وتسير مسرعة نحو الاطلاق بلا قيد ولاحرج . وحينئذ لايمكن الاعتماد على هذه الوطنية فستلحق بسابقتها لتصير معها من زخارف تاريخ الاعصر الخالية

ومن الاسف انه لايسعنا ذكر الثالثة كما ذكرنا الاولتين فان روح الوطنية السياسية لم يمت حتى الآن غيران المرض قداشتد بها أكثر مما يتخيله الناس وبدت عليها أمارات الفناء المحتم ولم يعد فى الامكان استبقاء تلك الوطنية زمناً الا باستعمال الوسائل الوقتية واستخدام أسباب الغلو فيها إلى حد التعسف والتغطرس مما جعلها تزداد وقراً على الامة حتى صارت عبأ ثقيلا . ومن المظنون ان الدائرة تدور على فرنسا أو المانيا مثلا اذا سبقت إحداهما الأخرى فخرجت قتيلة تحت أثقال هذا السلام الذى صار أصعب احتمالا من القتال . غير ان الظافر فى ذلك الحين لايفضل المغلوب إلا قليلا

والنصر كل النصر للامم التى وطدت أركان نظامها على دعائم الوطنية الرابعة أو الوطنية الشخصية فهى التى تلوح على وجهها جميع بشائر الموجودات النامية التى استقر لها الامر وأمست آمنة على مستقبل الايام

أولا لانها طبيعية فلا تحتاج لمنبه من الخارج دائما ولكنها آتية من حالة اجتماع شأنها ان تربى فى المرء بحكم الضرورة حاجة الاستقلال والبعد عن كل قيد تريده الدولة ولا منفعة له فيه . ثم هو لايحتاج فى المحافظة

على هذا الاستقلال أمام الحكومة والتخلص من تلك القيود الا أن يتبع وجدانه الخاص فتراه يجرى على هذه الوطنية بطبيعة الحال كما يأكل ويشرب وينام

ثانياً لانها تساعد على انماء الثروة فهى لا تقتضى للجيش نفقة طائلة وهى تحمل النفوس على الكد والاسترزاق ما استطاعت ولا مشاحة فى الامم التى من هذا النوع هى أغنى أمم الارض كلها وما لها من ثمرة اتعابها

ثالثاً لانها تربى الاحساس الادبى فى الانسان وهنا موضع تأمل لان غلاتنا أفسدوه فى الاذهان طلباً لمنفعتهم فقالوا ويقولون ان الحرب منبع عظيم تستمد منه الشجاعة والهمة ان لم يكن أعظم المنابع وأكبرها وانه لو انعدم الحرب سقطت همم بنى البشر وذلوا . وربما كان القول مفيداً فى حمل الامم على تقتيل بعضها بعضاً ولكنه قول يخالف المشاهدات كل المخالفة . ألا ترى ان متوحشى أمريكا الجنوبية وهمج افريقا فى حرب ونزال مستمر منذ قرون على أماكن الصيد والاقتناص وهم مع ذلك فى أحط درجات الانسانية ، ولو صح قول الغلاة لكانوا أول الامم فى نمو الاحساس الادبى منذ قرون ، واذا راجعنا التاريخ رأينا إن الرجل لم تسقط آدابه ويفقد مزايا الهمة الصحيحة الا فى أزمان الحروب والغارات أيام كانت الوطنية الحربية بالغة منتهاها ، هنالك تترادف على أسنة أقلام الكتاب حوادث القتل والخديعة والزور ومصارعة الاخ أخاه وغير ذلك من أنواع الفظائع والمخازى ، ومن الصعب أن لا يميز الانسان بين هذه الاحوال وبين

مايقتضيه نمو الاحساس الادبى فى الامم على ان ذلك من الامور الطبيعية فانه متى ثارت ثورة الجشع فى قلوب الرؤساء أقبلوا بكلياتهم وجزئياتهم على الحرب والفتوح وداسوا كرائم الشمائل بالاقدام . ومتى اشتبك القتال وحمى وطيس الحرب بين الجند اندفع العسكر الى ارتكاب الشناعات وأعمال القسوة والتوحش والفجور وهى الافعال التى يسميها الناس فظائع الحرب وموبقات الجيوش . نعم يرد ان نظام الجيوش فى هذه الايام لا يقتضى مثل تلك الاعمال وهو صحيح الا ان فساد الاخلاق حاصل أيضاً وانما تغير شكله ليس الا

ومن حسن الحظ فى هذا الزمان ان صار الحرب نادراً وصارت معيشة الجندى معيشة سلم مدجج بالسلاح وصار بيننا وبين ذلك العسكرى الذى يقضى حياته فى الحروب أجيال طوال وأصبح جندينا يقضى حياته فى الشكنات يتمون بسلاح قد لاتحين الفرصة لاستعماله فهو واحد من الامة يعيش مطمئناً الا انه على نفقة الحكومة وليس فى تلك المعيشة مايوجب نمو الاحساس الأدبى ولكنى أرى فيها مايدعو الى النقص فيه لانهم يعيشون فى شبه بطالة بغير عمل ذاتى ولا تبعة عليهم فى شىء محرومين من جميع المشتهيات كالرهبان وكلها شروط لاتوافق العزة ولا تربى الانفة ولا تشجع النفس ولا تنمى الاحساس لان أول الدلائل على نمو الاحساس الادبى فى الانسان قدرته على مغالبة نفسه واستطاعته على تذليل متاعب الحياة ورضوخه الى ماتقتضيه من الكد والعمل . ومما لايختلف فيه اثنان ان الخدمة العسكرية تضعف فى الرجل هذا الاستعداد أضعافا شديداً فلا يليق الجندى

القديم الا للخدم فى مكاتب الشرطة ومن الصعب عليه أن يعود زارعا أو أجيراً كما كان قبل أن يصير جندياً لانه يرى تلك الأعمال شاقة عليه فثبت إن مدة إقامته فى ثكنة العساكر أضعفت عزيمته وأوهنت قواه الادبية

كذلك يتأثر الضابط من ذلك الوسط تأثيراً ليس حميداً ومنهم من يشتغلون فينجون من عدوى الثكنات بعض النجاة ولكنهم لا يفضلون غيرهم من الناس الذين يكدون على رزقهم . ومنهم من لا يعمل عملا أبداً ويكتفون بأداء الواجبات العسكرية دون غيرها وأولئك تراهم يقضون أوقات فراغهم الطويلة فى القهاوى أو المقامرة أو استنشاق الهواء أو الزيارات أو الملاهى والملاذ . وليس فى هذه الاعمال كلها ما يرفع درجتهم الادبية فوق درجة أقل الناس

ولا شك فى ان الامم التى لم تحفل بالجندية والوظائف الادارية أرفع منزلة فى الآداب من التى بسطنا الكلام عليها لان شبانها لا يجدون فى العسكرية أو المصالح الاميرية مقاعد يتكئون عليها بلا تعب ولا عناء بل يضطرون فى تحصيل رزقهم الى الاحتراف بالصنائع الجارية وهذه تقتضى أقداما أوفر وعزما أوفى وفيها السراء والضراء وتبعتها أكبر ولكنها فى كدهم هذا لتحصيل عيشهم وايواء عائلاتهم يجدون همة وقدرة أدبيتين لا يجدهما من تيسر رزقه وعاش كسولا .

رابعاً لانها تساعد على انتشار الامة وسهولة تعود أفرادها على الاقامة فى جميع أنحاء المسكونة . فبينما نحن الفرنساويين نجتهد فى احياء العواطف الوطنية التي تولاها الانحطاط فى ارجاء البلاد كلها باستعراض الجيوش

واقامة الاحتفالات العسكرية يمخر خصمنا فى عرض البحار بسفنه العديدة ويغير على أطراف المسكونة بمهاجريه الذين لانحصى لهم عداً وكأننا لانراه أواننا نحتقره لانه لم يتسلح مثلنا من قدميه الى عينيه . ولكننا لانزال متأخرين باعتقادنا ان قوة الامة من قوة حكومتها لانه اعتقاد باطل اذلو كان صحيحاً لأصبحت سيادة العالم بأسره فى يد الامم اللاتينية ومن المشاهد انها ترجع القهقرى كل يوم أمام تقدم الامم الانكليزية السكسونية على صغر حكوماتها وقلة جيوشها .

اذا تبينا هذا كما ينبغى تمكنا من أخذ ثارنا من ألمانيا كما يبتغيه كل واحد منا لاننا إذ ذاك لانطلبه بالافراط فى حشد الجيوش وتعبئة السلاح فان ذلك يضعف الغالب والمغلوب سواء بل نبتغيه من وراء اعلاء كلمة الامة فهى القوة الحقيقية لان قوامها العمل واستقلال الافراد فيه

وليلاحظ ان حالة الحرب أو حالة السلم المتسلح ليست من الضروريات الازلية بل هى نتيجة أشكال الجمعيات التى استولت على زمام الامم الى هذا الحين وكانت كلها راجعة الى الافراط في تعظيم السلطة العمومية وتوسيع نطاقها . أما الامم التى اتخذت شكلا آخر فانها لم تعد تشعر بحاجة الى الاقتتال وصار الحرب عندها نادراً وهم لايستبقون جيوشهم على قلة عددها الا تمسكا بالعادات وجريا على الماضى أو لأجل أن يدفعوا بها غارة الامم التى لاتزال ترى كل شىء من خلال الجند مليحاً

ولنلخص ماتقدم فنقول :

ان الوطنية السياسية وطنية صناعية كاذبة تقود الامم الى الدمار

والوطنية الحقيقية هى التى تفضل استقلال الشخص وتحميه من تعديات الحكومة وتوسيع نطاقها ضد مصلحته لان هذه هى الطريقة الوحيدة فى استبقاء قوة الوطن وتحصيل سعادته

الفصل الرابع

﴿ فى ان الفرنساويين يختلفون عن الانكليز السكسونيين ﴾
(فى ادراك حقيقة التضامن والتكافل)

أصبح التكافل اليوم مذهباً مقبولا فى فرانسا كالبديهيات حتى ان أحد رؤساء الوزارة السابقين وهو موسيو « ليون بورجوا » كتب فيه رسالة مخصوصة قال فيها ان أحزابه عديدون وذكر منهم الاشتراكيين من المسيحيين وبعض علماء الاقتصاد الالمانيين والفلاسفة كموسيو « فويه » و « ايزولى » وحكماء الفلسفة الوضعية الذين يسمونه مذهب «الغيرية» قال « والمذهب واحد عند الجميع وان اختلفت أسماؤه ومرجعه الى القول بوجود رباط طبيعى من التكافل بين كل فرد من الافراد وبين البقية» ولو اقتصروا على ذلك لأمكن التسليم بهذا المذهب إذ لا ضرر فيه ولانه إنما جاء بحقيقة لا تخفى على عامة الناس غير إن فى الامر شيئاً آخر ينبغى التحرز منه ذلك ان القائلين بهذا المذهب يريدون أن يجعلوه المرجع الاصلى فى المسئلة الاجتماعية بتمامها ويرون إنه الوسيلة فى حل مشكلاتها ومقدار بحثهم كله على المسئلة الآتية هل يجب أن يكون الفرد تابعاً للكل أو الكل للواحد وهم يجيبون

بأن الصواب تتبع الواحد للكل وعليه فالموضوع ليس بسيطاً ولكنه يحتاج الى النظر والتنقيب

وأكبر دليل فى رأى موسيو « بورجوا » على صحة المذهب هو قوله ان الرجل تابع للجمعية لانه مدين لها وليس هو مدينا لمعاصريه فقط بل « يولد مديناً للنوع الانسانى بأكمله » ومنه الاجيال الماضية « لانه يأخذ حظه مما ترك آباؤه وآباء الآخرين »

ويرى المتأمل من ايراد هذا الدليل على هذه الصورة انه يسهل على صاحبه اطالة الشرح فيه كما يعلم ان من السهل انتحال طريقته للرد عليه قال « يتبادل الناس المنافع وهم أحياء » فهم حينئذ متكافلون

وقد يجاب على هذا القول بأنه قول صحيح وبأن الناس يتبادلون أيضاً احقاداً وبعضهم مع البعض الآخر يتنافسون فليسوا حينئذ متكافلين

قال « إذا ولد الانسان رأيته يتمتع برأس مال عظيم جمعته الاجيال الماضية » فهو حينئذ مدين

ويقال فى الجواب نعم ولكنهم أيضاً أضعفوا قوة العمل الذاتى لانهم لم يتركوا من الارض الا يسيراً لم يستغلوه فصيروا التنازع فى الحياة عنيفا لذلك يكون الفرد من الدائنين

وهكذا يسهل الاسترسال فى هذا البحث على هذا النحو والموضوع واقف عند الحد الاول وتكون النتيجة لعباً بين متناظرين ينتهى باعتقاد كل واحد منهما انه ألزم خصمه الحجة وأسكته بقوة البرهان

والحقيقة ان بين الناس منافع مشتركة وأخرى متناقضة فهم للاجتماع

دائنون ومدينون وهنا عقدة الاشكال الا ان موسيو « بورجوا » قدسهل لنا حلها برسالته

ولنجعل مبدأ بحثنا ذلك الدليل الذى اختاره دون غيره وردده مراراً وجعله العماد الاول فى تفضيل الكل على الواحد وهو قوله « يولد المرء مديناً للهيئة الاجتماعية فيأخذ حظه مما ترك آباؤه وآباء الآخرين حتى ان أحقر الصناع فى زمننا هذا ليفضل متوحش الازمان القديمة بمقدار ما بينه هو من التفاوت وبين رجل من نوابغ عصره » الى أن قال :

« وما تاريخ الانسانية الا عبارة عن تاريخ ماتحمله النوع الانسانى من المتاعب والخسائر التى لايحصى عددها ولا يمكن تقدير أهميتها حتى وصل بعقله وقوة ارادته الى ادراك ما أودع فى الكون من العناصر والقوى وتمكن من اخضاع الجميع لسلطانه واستعمالها في منفعته ليجد كل فرد من أفراده يوم يوجد وسطاً يسهل عليه فيه تربية ملكاته وانماء ما اختص به من القوى بحرية أوفى وأكبر أى لتكون الانسانية أحسن فى الحال والاستقبال منها فى الماضى والى راحة الاجسام أقرب والى دعة الافكار ألزم والى اطمئنان الضمائر أوجب »

ذلك أمر لاشك فيه فالرجل مدين للهيئة الاجتماعية بما وصلت اليه من الترقي واليها يرجع فضله الحالى على متوحش القرون الاولى . غير ان البحث الوحيد المهم الذى ينبغى الخوض فيه هو معرفة كيف حصل هذا الترقى فى الهيئة الاجتماعية . هل كان فى حصوله الكل خاضعاً للفرد أو الفرد تابعاً للكل كما يشاء موسيو بورجوا . وبعبارة أخرى هل الذى أوجب

ذلك الترقى الذى صير فى رأيهم الواحد مدينا للكل هو عمل الجمع أو عمل الافراد . وبعبارة أوضح هل هو من عمل الجمعيات التى كانت السلطة فيها فوق كل شيء أو من عمل الجمعيات التى كان كل فرد حراً فيها يجرى وراء مصالحه كما يشاء : لانه لايتأتى لهم بالطبع أن يبنوا مذهبهم على ماحصل من الترقى ولا يلتفتون الى كيفية حصوله وطريقة اكتسابه

واذا تمهد هذا سهل علينا البحث فى موضوعنا

من الحقائق التى يعرفها كل واحد ان الامم الحالية ساعدت على نمو التقدم أكثر من الامم الماضية وان الامم الغربية تفضل في ذلك الامم الشرقية

ومن الواضح ان الامم الحالية والامم الغربية انما فضلت غيرها بتغلب العمل الشخصى على العمل العام أى بقوة استقلال الفرد أمام الكل فكلما انتقلنا من الماضى الى المستقبل وسرنا من الشرق الى الغرب نشاهد شخصية الافراد تعظم شيئاً فشيئاً وان الواحد يستقل عن الهيئة ويستأثر بكثير من الأعمال دون البقية وان العمل أصبح حراً بعد ان كان مقيداً واضحي ذاتياً بعد ان كان كلياً كما انتقلت الملكية من يد الجمع وتقسمت على الافراد فبطلت صولة القبيلة على كل واحد من أعضائها وبادت أثرة الطوائف دون أفرادها واستوى كل باخيه مدنياً وسياسياً وتبدلت الحكومات من ملوكية مطلقة أو جمهورية مستبدة الى ملوكية أو جمهورية حرة نيابية . وبالجملة نشاهد التقدم الاجتماعى يسير خلف استقلال الافراد تجاه الحكومات: واذا نظرنا الي أمم الغرب وحدها رأينا ان التي تفوق غيرها منها فى التقدم وسرعة

الترقى والثروة والانتشار هى التى يعظم فيها قدر الواحد ويتأيد استقلاله الذاتي ذلك كله واضح محسوس فلا أطيل الشرح فيه .

على ان موسيو « بورجوا » لايخالف فى الحقيقة ما أقول ولم يفته ما فى مذهبه من الضعف والفساد وان بناه على ظاهر خداع قد تفوت مضاره على غير الناقدين بل عرف يقيناً انه يؤدى الى أمانة روح العمل فى الافراد وسد باب التقدم الذى هو مدار مذهبه لذلك أخذ يتقدم الرد على ماخشى الاعتراض به عليه فقال « لقد عرف الكل فى تاريخ الامم والشعوب ان السبب الاصلى فى الترقي تزاحم الافراد على استقلالهم وان الامة لاتتجه نحو التقدم الا اذا نشط الواحد من قيوده وتيسر له استعمال ما اختص به من الملكات والمزايا وانه بقدر تقدم الافراد فى استقلالهم ونمو حركاتهم الجسمية والنفسية التى هى قوام كل حركة اجتماعية يكون تقدم الهيئة بتمامها ويعظم عملها فى سبيل الترقى والنجاح »

وذلك أبلغ مايقال غير ان المؤلف بعد ان فرغ من هذا التحقيق جعل يتأوله ويتدحرج فيه حتى أرجعه الى مذهبه كيلا لاتترك قوى الافراد للافراد فقال «واجتماع قوى الافراد تحت لواء واحد قهراً فى أزمنة الاستبداد أو إختياراً فى أعصر الحكومات الحرة هو الذى أيد بقاء المجتمعات الانسانية وحفظها من الشتات وهى العائلة والقبيلة والمدينة والشعب والدين والامة» وعليه فارقى نظام فى الوجود هو «الذى تحصل به الموازنة بين الافراد والكل حتى يعيش الكل للواحد ويعيش الواحد للكل ويصبح هذان المؤثران متلازمين بعد ان ظنهما الناس نقيضين زمناً مديداً الا وهما تقدم

كل فرد فى حياته و تقدم الامة فى حياتها» ومزج النظامين الفردى والكلى على هذا النحو يأخذ بالافكار علماً ويدل صراحة على ان المؤلف يريد أن يرضى الجميع لكن من ذا الذى يبين لنا مقدار مايجب من كل عنصر فى هذا المزيج ومن الذى يتولى أمر المزج بين العنصرين وهل يوجد من يتسنى له هذا المزج ونحن نعلم ان علم تحليل الهيئات الاجتماعية أكثر تعقيداً وأكبر إستعصاء من علم تحليل الاجرام .

لم يفت ذلك موسيو بورجوا فعقد له فصلا مخصوصاً عنوانه « تطبيق مذهب التكافل الاجتماعى عملا » اليك أهم حديثه فيه

يجب فى التأليف بين العنصرين ان يلتفت إلى طبيعة الاجتماع وغايته والظروف التى تكتنف كل فرد يوم ينضم اليه وحظه منه وواجبه فيه وبالجملة ينبغى أن يقابل بين مزايا الاجتماع ومتاعبه بالنظر الى كل فرد من أفراده حتى يتبين بذلك ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات

« وليس لشارع الامة أن يكون هو مفرق الحظوظ والمتاعب فى الاجتماع فلن يكون من وظيفته إيجاد الحقوق بين الناس بل تنحصر واجباته فى انتزاعها من ملاحظة روابطهم مع بعضهم البعض والوقوف عند بيانها وتقرير أحكامها ومتى تبين النسبة الكائنة بين عناصر الهيئة الاجتماعية وضحت له النسب التى توجد بين ضمائر المجتمعين ومشاعرهم فيقررها

وحينئذ لايكود شرعه قانونا سنته الهيئة الاجتماعية وألزمت الافراد باتباعه الزاما بل يكون ذلك القانون عبارة عن الناموس الطبيعى للهيئة الاجتماعية الواجب العمل به بين الناس

ويرى القارئ إن موسيو بورجوا على رجاء من وصول الناس — بعد زمن طويل — الى درجة من التنور والعرفان والحكمة تمكنهم من الاتفاق على عقد اجتماعى يصيرون بمقتضاه شركا اختيارية يسهل عليهم فيها «الجمع بين القوى المتناقضة وتحويلها كلها الا مؤثرات مفيدة لكل فرد وللمجموع وان يقيموا على اطلال التنافس والخصام ودوارس السلطة القهرية والاستبداد بناء هيئة اجتماعية جديدة عمادها السلام وقوامها التراضى والاختيار»

ولا شك فى ان هذا مطمح لا يرمى اليه الا حكيم حكيم وهو الغرض الذى يجب أن تقصده الانسانية فى خطاها وهو الذى يمكنها أن تسير اليه الا إنه يصعب علينا أن نمشى مع المؤلف هذا الشوط البعيد كما يصعب علينا ان نوافقه على ان المقدمات التى وضعها تؤدى الى النتيجة المذكورة فقد دلنا على وجود قوتين فى الحياة الانسانية وهما قوة كل فرد منها وقوة الهيئة المجتمعة واعترف بان التقدم الذى وصلت اليه راجع الى الاولى منهما ثم استنتج مع هذا وجوب انماء الثانية وجعلها محل الرجاء في «الوصول الى هيئة جديدة عمادها السلام وقوامها التراضى والاختيار»

وإنى لا أخطئ كثيراً اذا قلت بان هذا التناقض مقصود فان موسيو بورجوا رجل سياسى أولا وبالذات وشغله الشاغل قبل كل شىء تأليف حزب يكون له نصيراً ثم العمل على دوام هذا الحزب وانتشاره بما يصل اليه الامكان وهو يخشى أن ينفر محازبيه إن قال لهم ان الحياة أيها الاولياء ليست لعباً ولهواً وإنما هى مغالبة دائمة ضد متاعب لا تحصى متجددة فى كل آن ولن تنالوا الظفر فى هذا الجهاد الا اذا جعلتم كل اعتمادكم على أنفسكم

لاعلى غيركم اذ كل مايمكن لاهليكم وأصدقائكم وجيرانكم وحكومتكم ان يساعدوكم به أقل فى الحقيقة بكثير مما يمكنكم أن تساعدوا به أنفسكم بأنفسكم اذاعولتم عليها ولم ترجعوا فى أموركم الا اليها . لانه من المسلم أن مثل هذا الخطاب انما يؤثر فى عقول المتنورين ولا يأخذ الا بقلوب الذين سمت مداركهم وكانوا اقوما عارفين . ولكنه لايجذب الجماهير خصوصاً من أسلموا أمرهم الى أهل السياسة وأوقفوا حظهم فى الحياة على مايعملون . ذلك لانهم لايطلبون نصيبهم فى الوجود الا من الحكومة ولا يرجون مزية الا من الهيئة بتمامها ومثل هؤلاء القوم يسهل اكتساب قلوبهم اذا وعدوا صلاح أمورهم بواسطة ذلك التكافل لانه صيغة مبهمة بسيطة يقبلها الناس بالسهولة ولا تضيق على أحد ولا توجب شيئاً من المتاعب ولا تستلزم مع ذلك تغيير شىء مما يجرى عليه الناس فى الحياة الآن . وهى دعوة تلذ لعامة الناس الذين لايطلب منهم عمل من الاعمال وهم لا يطلبون كل شىء من غيرهم وتلذ أيضاً لرجال السياسة والمشتغلين بالمسائل الاجتماعية والحكماء ومحبى الانسانية الذين لايتكلفون من القول الا يسيراً ليظهروا أمام الناس فى ثوب قوم عرفوا متاعب الانسانية وكانوا بها مشفقين

نعم يكفى ذلك لتأليف الاحزاب وجمع النصراء ولكنه لايكفى للنهوض بالانسانية نحو كمالها بل أنه يزيد فى سوء حالها لان التكافل أمر وهمى أكثر مما هو حقيقى واليك البيان بالايجاز

أولا مجرد النداء بان الناس كفلاء بعضهم لبعض وأن مساعدة البعض للبعض واجبة لايكفى لايجاز التكافل أو لاحكام روابطه بينهم وانما ميل الافراد

الى الاعتماد على الجمع أو جعل الفرد تابعاً للكل يتولد فى الهيئات الاجتماعية بمقتضى نواميس مقررة يرشد اليها التأمل فى الوجود ويعرفها قراؤنا فحيثما وجدت تلك النواميس تولد هذا الميل من غير احتياج الى النداء به أو الارشاد اليه لانه يحدث بانتظام كما تتولد جميع الحوادث الطبيعية فاذا أردنا إنماءه وجب علينا أن نعرف الظروف والحوادث التى استلزمت وجوده

وهنا يظهر ما فى مذهب التكافل من الوهم والخيال اذ لسوء الحظ كلما قوى هذا الميل اشتدت تابعية الواحد للكل وتأصلت عنده عادة الركون اليه وقل اعتماده على نفسه وصار أعزل أمام متاعب الحياة لما يعتريه من فتور الهمة وضعف الارادة وسقوط العزيمة على العمل. وما لتأخر الشرق عن الغرب سبب غير هذا

واذا أردنا أن نحفظ التوازن بين الواحد والكل على الدوام لزمنا القول بوجوب زيادة اعتناء الكل ومضاعفة سهره على قدر ما يعترى الواحد فى ذلك الوسط من الخمول والانحطاط . ومن نكد الطالع أن العكس هو الواقع وهو معقول لان ذلك الكل الذى يحتاج اليه فى الاستعانة على ضعف الواحد انما يتألف من مجموع أولئك الضعفاء فطبيعته من طبيعتهم والذى يضعف الفرد ويجعله مفتقراً الى غيره يضعف الكل ويعوزه ومعناه ان التكافل يزداد ضعفاً بقدر اشتداد الحاجة اليه . وأنى أسأل القراء عفواً عن تقرير هذه الحقائق التى هى فى الواقع بديهيات

وعليه يتبين أن هذا المذهب معيب من جهتين أولا لانه يولد فى الامة أفراداً لا أهلية لهم فى شيء من الاعمال ويساعد على كثرة عددهم

شيئاً فشيئاً . وثانياً لان أمة تضعف عن مساعدتهم كلما كثر عددهم

ما مساعدة الهيئة للافراد الا وسيلة عرضية وقتية تحصل بطريق الاستثناء عند إشتداد الضنك ببعض الناس فليست دواء يشفى العلة بل هي مسكن كالمخدرات تهدئ صورة الالم حيناً لكنها لا تنيم الالم الا اذا أنامت المريض

كذلك يحتاج فى تطبيق مذهب التكافل عملا الى اتفاق جميع الافراد على قبوله أى الى تحرير ذلك العقد الاجتماعى الذى ينشده موسيو بورجوا ويحصر آماله فيه . أما اذا اعتضنا عن عمل الكل بعمل كل فرد فانا نفتح لكل واحد سبيل نجاة الهيئة الاجتماعية بتمامها كما أن الدين يفتح لكل فرد باب سلامته الابدية . فالواقع أن الحياة الاجتماعية كالحياة الابدية كلاهما متعلق بالافراد لا بالمجموع وعلى كل امرىء ان يتخير السبيل الذى يوصله الى نجاته بنفسه كما يتخير التربية التى تجعل أبناءه قادرين على الحياة بأحسن الطرق والوسائل . وكلما تشبعت الأفكار بان قيام المجتمع الانسانى متوقف على عمل كل فرد أحس كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه دون غيره ومال الى استعمال ما أوتيه من الهمة والارادة والاجتهاد .

رب معترض يقول أنا مقيم حب الذات مقام مذهب عليه صلاح الانسانية وفيه نجاتها وهو اعتراض فخيم الالفاظ يخاف منه اناس كثيرون لذلك وجب أن نفصح القول لنعلم ان كان حب الذات فيما نقول أو فى المذهب الذى يقول به غيرنا

قلت ان مذهب التكافل خيالى وأزيد عليه ولا أخشى معارضاً انه

صورة من صور حب الذات المخجل حتى انى كنت وضعت لهذا الفصل عنوانا آخر (هو حب الذات عند الغيريين) وسيتضح للقراء ان التسمية كانت صحيحة لا مجرد تلاعب بالالفاظ . ذلك لانه بالبحث فى التكافل نراه يشتمل على أمرين كون المرء يساعد غيره وكونه ينتظر المساعدة من غيره ولعمرى لست أدرى أي الاعتبارين يجذب النفوس نحو هذا المذهب ويجعل الناس يجتمعون حوله ان كانت رغبتهم فى مساعدة غيرهم أو رجاءهم المساعدة من ذلك الغير . ومن المشاهد ان الذين يميلون الى مساعدة غيرهم يؤدون تلك المساعدة من أنفسهم وهم يفعلون ذلك منذ خلقت السموات والارض ولم يقولوا بأن عملهم هذا مذهب لازم فى الانسانية ولم يتحروا النداء به على رؤوس الاشهاد . وعليه فميل المرء الى مساعدة غيره ليس هو الاعتبار الذى أوجب انتشار مذهب التكافل الجديد وإنما الذى أوجب ذلك هو تصور المساعدة من الغير حيث يمسى الواحد راجياً أن تجعل له الحكومة أو الامة راتباً أو توجد له عملا ايا كان يعيش منه . هذا هو الذي يختلب الافكار ويجتذب النفوس ويحشد الجموع حول مذهب ظاهره التضامن والتكافل وباطنه الاثرة وحب الذات

إن الرجل الذى يؤدى الجزية الى صندوق الحكومة والذى يتقاضى الراتب من ذلك الصندوق شريكان متكافلان في عملهما غير ان لكل وجهة فى شركته فالتكافل يحلو لأحدهما دون أخيه . ألا ترى أن المرء ميال الى التوظف أكثر من ميله الى أن يكون ممن وجب عليه الخراج وأقرب الى اعتبار التكافل فى منفعته من إعتباره واجباً عليه .

والخلاصة ان المرء ميال الى استخدام غيره أكثر من ميله الى خدمته وان صاح موسيو بورجوا بما يخالف ماذكر واليك دليلين قريبي العهد منا أخذناهما من طريقة الاستعمار عندنا

الاول ننقله عن أستاذ الفلسفة موسيو «لابى» من رسالة نشرها فى مجلة الفلسفة العقلية يصف فيها معاملة الاوروباويين للاهالى في مستعمراتنا قال «لقد نشر الاستبداد جناحيه فى كل ناحية وشملت الاثرة جميع الناس بأشد حالاتها وصرنا نشاهد إن حكم الشرفاء يحيى من جديد فى المستعمرات حيث الأوروبى هو السيد الأمير والوطنى هو الخادم الحقير حيث الامير هو الذى يقضى بين أتباعه بمعني إنه يصادرهم فى ماشيتهم ان جاءت لترعى فى أراضيه أو يقدر الغرامة التى تجب عليهم وقد حذا الخدام حذو المخدومين فما وجد خادم أوروبى بين خدام وطنيين الا رأيته ألقى مافى يده من آلات العمل وجعل يصدر الأوامر للآخرين ثم الجندى يوحى الى المدنى طريقة الاستبداد وبالجملة فان عيشة المستعمرات لا تلائم الفضيلة ولا تدعو الى مكارم الأخلاق »

والدليل الثانى نأخذه عن موسيو «لانسان» وهو من الطبيعيين خلافا لموسيو «لابى» وكان حاكما فى «التونكين» وقضى فى المستعمرات زمنا طويلا وله كتاب سماه «مبادئ الاستعمار» تكلم فيه عن علاقات الاوروباويين بالوطنين ومما جاء فيه قوله «أعظم رجل متمدن يصير فى المستعمرات كالطفل فى معاملة العجماوات فهو يعامل الوطنيين كأنهم آلات خلقت للآلام . يعبث بدينهم ولا يحترم عائلاتهم ولا يوقر ما اعتادوا على توقيره فى

مجتمعاتهم ولا يعبأ بأملاكهم ولا يتهيب أشخاصهم ولا يقدر لهم حياة وليس توحش الاستعمار فى هذه الأيام بأقل من توحشه فى غابر الازمان » ثم أتى بالشواهد على قوله فسرد وقائع وحوادث لاعدد لها. والحال واحد فى كل جهة فى الهند الصينية ومدغشقر وشطوط أفريقيا ثم ختم موسيو « لانسان » الكلام بقوله « يجب وضع حد لهذه المعاملات الفظيعة ان كانت الحكومة تريد أن لاتسوء عقبى السياسة الاستعمارية بسببها » نحن نرى أيضاً انه يجب اقامة حد لتلك المعاملات الشنيعة التى تقسم الناس الى قسمين من يستعملون التكافل فى منفعتهم ومن يترقبون الفرص ليستأثروا بمنافعه والفريق الاول ظالم والفريق الثانى مظلوم ولكنهما يجتمعان فى رغباتهما ان يعيشوا كلا على الكل أى على المجموع أى على الامة

وإذا بحثنا عن طريقة للخلاص من هذه الحال فانا لانجدها فى نشر مذهب التكافل لانا رأينا أقل الناس استحقاقاً للعناية قد انتهزوه فرصة لاحتكار منافعه إضراراً بحقوق غيرهم فلم يستفد منه الا الخبثاء الذين اتخذوا التكافل آلة يبتزون بها أموال ذلك الغير ويستعملونه متكأ لهم حتى كل منهم واستجار وقرب من العدم

إذا ثبت هذا علمت ان ترقي الهيئة الاجتماعية لايقوم بالاتكال على الغير والحيف عليه وذلك هو أكبر برهان يقدمه كل واحد لأخيه على انه وإياه متكافلان . ويحصل هذا الترقى بمقدار ماعند كل واحد من الاعتماد على نفسه وكفائة حاجاته بنفسه ونشأته على استعمال قوته الذاتية وهمته الشخصية . ومعنى ماتقدم انه ينبغي الاهتمام بتربية القدرة الشخصية أكثر

من الاهتمام بتعظيم السلطة الاجتماعية

علمنا إن تربية الناس على الاعتماد على الهيئة يضعف من قوتهم الذاتية ومنه يؤخذ ان تربيتهم على الاعتماد على أنفسهم يزيد فى تلك القوة وهو برهان ساطع على ماللوسط من التأثير فان كان ملائما للعمل أصبح العامل الطيب ماهراً والعامل المتوسط متقدماً والعامل البسيط متوسطاً والعامل الخمل بسيطاً وهكذا ترقى الطبقات واحدة بعد الأخرى

وليلاحظ إننى لاأقول هذا إعتباطا من غير أن يكون لى سند فيه غاية مافي الامر إننى ألخص للقراء حوادث كثيرة كلها ثابتة بالخبر والاستقراء ودليله ما كتبه الىّ صديقى وزميلى الفاضل موسيو «پول دوروسيه» فى الشهر الماضى من مدينة «سنسناتى» بامريكا حيث ذهب ليستطلع الاحوال فى تلك البلاد قال «رأيت فى أمريكا كنزاً للاستقراء لايفنى فهى بلد يأتيها المهاجرون من كل ناحية بلا انقطاع وقد اشتغل علماؤها بالبحث عن الأجناس التى فيها قابلية لاحتمال العيشة الامريكية والتي لاتقدر عليها وفى ذلك فائدة كلية لاتخفى وأغرب ماشاهدت هنا هو تقدم الارلنديين منذ عشرين عاما وكل شيء قابل للترقى والنمو يعظم ويكبر فى هذه البلاد لذلك لاترى الارلندى اليوم يكنس الطرقات ولم يعد هو ذلك العامل الحقير الجاهل الذى كنا نعرفه من قبل بل ذلك شأن قد اختص به الآن «البولونى» والايتالى وغيرهما

ولا شبهة فى أن هذا الاستقراء مفيد جداً وإنه يساعد كثيراً على توضيح مسألتنا الاجتماعية التى نبحث فيها وعلى القراء أن يقابلوا بين هذا

وبين مانقلناه عن موسيو « لابى » و«لانسان» ليتبينوا الفرق ويقفوا على حقيقة الموضوع ويهتدوا الى الصواب فيه

الاوروبى هو الذى يهاجر فى الحالتين الا ان الفرق عظيم بين النتيجتين والسر فى هذا إن بعضهم أقام ببلد اتكالى أى لم يتعود أهله الاعتماد على أنفسهم بل على الهيئة التى وجدوا فيها وكانت نتيجة تأثير هذا الوسط مضرة بالفريقين الوطنى والاوروباوى الاول لما يصيبه من الظلم والاستبداد والثانى لما يأتيه منهما . وبعضهم أقام ببلد إستقلالى أى تعود كل واحد من أهله المحافظة على استقلاله تجاه الهيئة بتمامها وشب على الارتقاء بجده وعمله مستعيناً بهمته وقوته حيث القدرة الشخصية بلغت غايتها وقل تأثير الهيئة الى الحد الادنى . فاذا وصل الاوروبى الى هذا الوسط الحى سرت فيه حركة الحياة وتنبهت قواه وتبدلت أحواله فصار رجلا غير الذى هاجر وأصبح قادراً على تحصيل حاجاته بنفسه اذ لا سبيل للاعتماد على الغير فى تلك البلاد ولا إلى إنتزاز المال من يدهم ولا إلى الاتكال على تكافل وهمى يخدع النفوس كذبا وتلبيساً . تلك بلاد « المرء بنفسه » فكل مافيها يناديك أعن نفسك بنفسك . لذلك تحول الارلندى وارتقى وهى معجزة من السهل على من لهم أقل المام بالعلم الاجتماعى أن يدركوا السر فيها

مضت الاجيال الطوال على ذلك الرجل وهو فى وسط اتكالى حتى صار يهرب من كل عمل يكلفه بعض العناء أو يقتضى بعض الهمة الذاتية متعوداً على المعيشة من تكافل عشيرته حتى وصل بتأثير ذلك التكافل الى حالته التى نشاهده عليها فى أوروبا من الانحطاط السياسي والضعف الاجتماعى

فاصبح رجلا ترفع عن الحرف الدنيئة التى كان مقصوراً عليها بحكم مذهب التكافل المميت ولم يعد كناسا فى الشوارع والطرقات أو صانعاً كالا لة تتحرك بارادة غيرها وأمسى قادراً على العمل بنفسه وتحصيل الرزق من غير الاستعانة فيه الا بهمته ودخل في طريق سعادته

أما المهاجرون من التليانيين والبولونيين فهم أقرب منه عهداً بعاشرة الأمة الانكليزية السكسونية ولم يتم خلاصهم حتى الآن مما تربوا عليه فى بلادهم ولم ينته تحولهم من حال الى حال الا ان الشوط الذى ساره الارلندى فى تلك البلاد يدلنا على الغاية التى هم صائرون أيضاً اليها بالتدريج فلا بد لهم مثله أن ينالوا فى ذلك الوسط وبتأثيره مافيه سعادتهم

ولا يتوهمن أحد ان هذا الانقلاب يحصل اجماعا أن يناله الكل على السواء بل هو يحصل لكل فرد على حدته كما أشرنا اليه فأكثرهم عملا وأكبرهم همة أسبقهم الى الترقى ثم تليهم الطبقة التى دونهم فالتى من بعدها وهكذا لكل امرئ ما كسب

ثبت من هذا ان الامم الاستقلالية أصلح لنمو التكافل الاجتماعي من الامم الاتكالية . وكانى بالذين يحبون التمادى فى الجدال من القراء يتساءلون عن مصير الأفراد الذين لا قبل لهم على الاتقاء بأنفسهم فى مثل ذلك الوسط الاستقلالى رغما عن تعدد وسائل الحث والتحريض فأجيبهم بان من لوازم هذا الوسط تقليل عدد أولئك الضعفاء جداً بخلاف مذهب التكافل فانه يساعد على كثرتهم دائما وبرهانه الارلنديون في الولايات المتحدة .
ثم ان مذهب التكافل فضلا عن كونه يعود الناس على عدم الاهتمام

بتحصيل حاجاتهم بأنفسهم ويربيهم على طلب المعونة دائما من أمتهم لا يساعد الضعفاء على النهوض من خمولهم كما انه يضعف من همم أولى العزم بما يقلل من نتائج عملهم كما يقول علماء الاقتصاد ويلحق بهم الفقر فتقل قدرتهم على مساعدة الغير وان رغبوا فيها ما استطاعوا . ونقص الثروة فى يد كل فرد يؤدى الى نقصها فى يد الامة بتمامها وحينئذ يعدم البائس الضعيف سبيل المعونة من الافراد ومن الحكومة سواء . ولن تقوم الامة بمساعدة الضعفاء ومواساة الفقراء والبائسين الا اذا توفر المال لدى الكثير من أفرادها حتى يسهل عليهم تخصيص مازاد على حاجاتهم الى الخيرات . والذى يساعد على انماء ثروة الافراد هو الذى يساعد على انماء روح المعونة وفعل الخيرات الخصوصية والعمومية . واذا قابلت بين ماينفقه الانكليز والامريكان كل عام فى هذا السبيل وبين ماننفقه نحن مثلا فى فرنسا مما يقل سنة عن سنة وجدت الفرق عظيما وارتاح ضميرك من هذه الجهة

تلخص من هذا ان رجلنا الاجتماعى يمتاز على رجل مذهب التكافل بقدرته على مساعدة الضعفاء وبكونه يسهل لهم أيضاً سبيل التقدم والارتقاء وهو الذى يسير بالانسانية الى طريق حل مشكلاتها وعلى الخصوص الى حل مايسمى « مسئلة الفعلة والصناع » فهو الذى يخطو نحو فض الاشكال بمحو حالة الفعلة الحاضرة من الوجود وذلك هو مستقبل الدنيا

ربما عد هذا من قبيل السفسطة لتعودنا الحكم على المستقبل بالماضى ولكونه يصعب على الفكر طبعاً أن ينسى الاوضاع التى اعتادها وان أخذت فى الانزواء والزوال وأن يلتفت الى الاوضاع الجديدة التى تظهر فى

الوجود هنا وهناك غير أن علائم هذا الانقلاب بادية جلية فى الامم المتقدمة فى طريق المستقبل وهى واضحة تماماً فى انكلتره والولايات المتحدة فانك ترى الصناع في الحرف الدنيئة كلهم من الأجانب أو من القادمين حديثاً ولم يمض عليهم زمن كاف ليتشبهوا بأهل تلك البلاد والصنائع الرفيعة تدار بالآلات شيئاً فشيئاً والرجل ينتقل من كونه صانعاً أو عاملا الى كونه موظفاً أو ملاحظا . كذلك أصبح الصانع الفلاح الذى نعرفه فى بلادنا من زمن مديد على وشك الزوال فان آلات الزراعة تكثر كل يوم حتى كأن الفلاح فى كثير من أقاليم أمريكا عالم يبحث فى طبقات الارض عن معادنها فيحرث ويمهد ويحصد ويدرس وهو مستريح على جلسة منتظمة يقودمنها دابته كأنه فى عمله أحد الظرفاء فى عربته وربما رأيته بلباس الظرفاء أحيانا. ولم يبق عليه الا أن يتعلم أطوارهم ويتهذب بأفكارهم وسيتم له ذلك . وقد اتسع ذهنه فى جميع مايرقى الزراعة لذلك لايحجم عن استعمال كل جديد فيها

الولايات المتحدة الآن فى طليعة الامم من حيث التقدم الاجتماعى كما سبقتهم فى المصنوعات الميكانيكية وهما نوعان من أنواع التقدم متلازمان لا كما يظن الناس عادة فالثانى نتيجة الاول والاول يتأثر كثيراً بالثانى وليس فى قدرة أحد أن يخبر بما تصل اليه الامم من الترقى باجتماع هذين الامرين

وجب علينا اذن ان تقلع عن التمسك بأوضاع الاجتماع القديمة كما أخذنا فى ترك آلات العمل التى تديرها يد الانسان فذلك هو الماضى الذى يبعد عنا كل يوم ولا مرد له أبداً

وبينما العالم الانسانى يسير مظفراً نحو حال جديد نرى رجلا كموسيو بورجوا نجله أن يكون فى عداد كل الناس مع كونه يطمع فى رئاسة حزب الترقى فى البلاد الفرنساوية يعرض علينا أن نرجع الى مذهب تقادم العهد عليه حتى بلى ظانا انه اكتشاف جديد وهو أوهى المذاهب وأشدها تعسفا واستبداداً . حقا ليس لنا من نصيب

الفصل الخامس

﴿ ماهى أحسن حالات الاجتماع لتحصيل السعادة ﴾

الف السير (جون لوبوك) كتابا عنوانه (سعادة الحياة) وقد انتشر انتشاراً عظيما فى انكلتره حتى ان الذي عنى بترجمته الى اللغة الفرنساوية لم يفرغ من الجزء الاول الا بعد أن أعيد طبع الكتاب عشرين مرة ومن الجزء الثانى الا بعد ان ظهرت طبعته السابعة والسبعين

ولا يحسبن القراء أن المؤلف أمسك العنقاء وجعل يعرضها على أهل زمانه في نظير بعض شلنات يدفعونها ثمن كتابه اذ لو كان الامر كذلك لقلنا أن الانكليز ليسوا بطماعين بل الكتاب بجزئيه عبارة عن جمع حكم ونقل أفكار من كتب جميع المؤلفين المشهورين وغرض المؤلف من هذا الجمع وذاك النقل أن يبرهن للناس انهم سعداء لكونهم أحياء

وللدلالة على صحة رأيه جعل يسرد موجبات السعادة التي يشاهدها الانسان واحداً فواحداً كالارتياح بعد أداء الواجب واللذة من قراءة أشهر

ماألف وأحسن ماكتب ونعمة المحبة ولذة السياحة ولذة البيت والملاذ العلمية والعشق والفنون والشعر والموسيقى وبدائع الطبيعة وهكذا . وهو لكل شيء باش الوجه هاش النفس يملاؤه الامل على الدوام فلا يرى الا سروراً بحيث يضعف خصمه مع مناضلته . ومن قوله « لقد سمعت الناس كثيراً يشكون مما فى هذه الدنيا من كفران النعم ومحبة الذات أما أنا فلم أشعر مرة واحدة بأثر هاتين المصيبتين ولعل ذلك من حسن حظى » ذلك أمر يوجب الاستغراب أويدعو الى القول بان صاحبه رجل من البسطاء واليك أغرب منه قال « نحن فى الحقيقة أغنياء أكثر مما نظن وكثيراً مانسمع عن شدة رغبات الناس فى الكسب والاستحواذ وبعضهم يحسد كبار الموسرين ويظن السعادة فى امتلاك الاراضى الواسعة غير ان الغالب ان الرجل يملك الارض والارض تملكه كما قال « ايمرسون » وإذا ارتقينا قليلا بالفكر لوجدنا ان لنا الالوف المؤلفة من الفراسخ والاميال فالشوارع والطرقات والسكك العمومية والجسور وشواطىء البحر على اختلاف صنوفها وتنوع مناظرها كلها ملك لنا فنحن من كبار الاغنياء ولا علم لنا وليست الارض هى التى تنقصنا بل الذى نحتاج اليه هو القدرة على التمتع بما ملكنا وتلك مزية عظمى تتبعها مزية أخرى وهى أنها لاتكلفنا عملا ولا تطلب منا عناء فصاحب الاملاك مشغول البال على الدوام ولكن المناظر الطبيعية مملوكة لكل من له عينان تبصران . وبهذا المعنى صح لموسيو « كنجلى » أن يقول بان بستانه زمن الشتاء كان الخضرة التى تكتنف بعض المكان الذى يسكنه لا لأنه كان يملكها حقيقة بل اعتباراً بالمعنى الذى يجعل

الألوف من البشر مالكين للشيء بعينه »

والكتاب كله محشو بهذا الأمل الشديد وأدلة المؤلف على مذهبه كلها من هذا القبيل ومن المعلوم ان الانكليز السكسونيين لا يقنعون بمثل تلك الادلة الضعيفة كما ان تلك الادلة ليست هي السبب في انتشار الكتاب بينهم ذلك الانتشار

ومما يجب البحث عنه معرفة السبب الذي لأجله لم ينتشر هذا الكتاب عندنا الا قليلا ولأجله يضحك الفرنساويون من قراءته ويتبسمون لسرد أدلته

ويلزمنا في ذلك أن نمعن النظر ونطيل التأمل أكثر من موسيو «لوبوك» في موضوع تلك السعادة التي شغلت الانسان طول الزمان

— تعريف السعادة —

نريد بهذه الكلمة « السعادة » حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والأدبية تغلباً حقيقياً .

والغرض من وصف المتاعب بالمادية والأدبية أن يتناول التعريف حاجتي المرء العظيمتين في الدنيا وهما راحة الجسم وراحة النفس فوجوده كله راجع اليهما

ويلزمنا قبل كل شيء أن نقف على حقيقة الاسباب التي ذهب الكثيرون الى أنها هي وحدها مصدر سعادة الانسان كالطبع والصحة والمال والدين .

فأما الطبع الحسن فهو الذي يميل بصاحبه الى أخذ الاشياء بأحسن جهاتها أي يحمله على اعتبار جهة الحسن في الأشياء مطلقا . ولكل شيء

جهة حسن وأخرى نقيضها غير أن الخيال محدود مهما كان شديداً وعلى كل حال فهو لا يغير من حقائق الأمور شيئاً ومتى اتضحت الحقيقة ووجب التسليم بها كان اليأس أشد وقعاً وعليه فان توهم عدم وجود الضرر لا ينافيه

وأما الصحة فانها تكفينا شر كثير من الآلام الجسمية وتجعلنا بذلك قادرين على مزاولة العمل اللازم فى تحصيل المأكل والملبس والمسكن غير أنها لا تعطى الا القدرة وقد تتعطل القدرة بسبب من الأسباب فيجوز أن يكون المرء بالغا منتهى الصحة وهو مع ذلك في أشد حالات الضنك والاحتياج وما ذلك من موجبات السعادة فى شيء

وأما المال فكثيرون يعتبرونه أهم وسيلة فى السعادة والواقع أنه يضمن لصاحبه عيشه اليومى ويسهل له اجتياز الكثير من المتاعب المادية وليس هذا بيسير ولكن المال لا يفيد شيئاً فى اجتياز المتاعب الأدبية فمن شأنه الميل بالهمة الى الفتور واضعاف الارادة ومن أهم أسباب السعادة الامل أى رجاء الحصول على المرغوب فاذا ملكت مارجوت ضاع جزء عظيم من ميلك السابق اليه والمال لا يجعل للامل محلا لانه يسهل الحصول فوراً على المراد وذلك يؤدى الى ضعف لذة الانتظار وهذا هو السبب فى أن الاغنياء يطلبون دائما ملاذ جديدة وملاهى غير التى اعتادوها لانهم سريعو الشبع من كل أمر فى أوله . فالمال يضيع الاهتمام بكل شيء ومتى ضاع الاهتمام فقد الرجل ذوق سعادة الحياة ذوقا صحيحاً فلا يحفل بشيء ولا شيء يحمله على الاهتمام . وخطأنا فى المال آت من اعتبارنا اياه بالنظر الى الفقر أو التوسط فى المعيشة والواجب أن ننظر اليه من حيث هو ونقدره حق قدره

فى الواقع ونفس الامر تقديراً صحيحاً . واذا فعلنا ذلك وجـدناه أبتر من جهات كثيرة حتى ان صاحبه لايتمكن بواسطته فى بعض الأحيان من التغلب على الصعوبات المادية التى تعرض له وان خيل لبعضهم ان ذلك من المستغربات . ألا ترى أن الذين يميلون فى معيشتهم الى اللذات والزخارف يصرفون فى غالب الاحوال أكثر مما يكسبون وينتهى بهم الامر الى تعود الصرف من غير حساب والى فقدان التعود على العمل فيختل التعادل عندهم وفى ذلك الجب العميق انهالت ثروة كبار الاغنياء فى كل زمان . كم من عائلة كانت ذات بسطة كبيرة من اليسار فأصبح أبناؤها بائسين . فان دام الحال لأبنائهم افتقر الدور الثانى أو الثالث ويمسون غير قادرين على اصلاح حالهم المادى فضلا عن الادبى لان من فقد عادة العمل والكد يصعب عليه استرجاعها . كذا حال الشرفاء منا وكذا شأن الموسرين من الاواسط وهى سنة أبدية . والخلاصة ان فراغ اليد أدعى الى تحسين حال الانسان ماديا وأدبيا من الثروة لانه أدعى الى العمل والاجتهاد

بقى علينا الدين وقد اعتبره بعضهم كافيا فى تحصيل السعادة ولا شبهة فى أن الدين يساعد كثيراً على اجتياز متاعب الحياة النفسية غير أنه ان لم يصادف فى نفس صاحبه قدرة على العمل واستعداداً للكد كان تأثيره قاصراً على التوكل والاستسلام الى حكم القضاء والاستسلام لامر اذعان من المستسلم بأنه متعب شاق . وهذا هو الاعتقاد الذى يحدثه الدين فى النفوس من جهة الحياة فى مثل تلك الاحوال . فترى صاحبنا أنها دار عناء وبكاء ويميل الى الاعتقاد بأن السعادة ليست من هذه الحياة الدنيا . والواقع

ان الدين لا يقصد به أولا وبالذات سعادة الامم في الدنيا بل السعادة الأخروية لانه لا يلتفت الى الأمور الزائلة ولكن الى الخلود وهو أفضل ما يبتغى على التحقيق . لكننا لانبحث فى هذا وانما كلامنا فيما يحصل لنا سعادة هذه الدار الفانية لانا لا نتكلم فى التوحيد بل نتكلم فى العلم الاجتماعى

ولا يغيبن عن القراء ان بعض المتصفين بالتقوى يخطئون خطأ فاحشا فى العمل بمقتضى قاعدة التسليم فيتذرعون بها الى الكسل والخمول ويقولون فى أنفسهم ان الحياة لاتساوى تلك المتاعب كلها ثم يرمون تكلانهم كله على الله « الذى لاينسى من آمن به ولجأ اليه » وينسون قوله تعالى « أعن نفسك يعنك ربك» والادعى للراحة عندهم ان يرموا أحمالهم كلها عليه . ومن كان هذا فكره أصبح ضعيفاً لقاء اتعاب الحياة مادياً وأدبياً . وعليه فالدين اذا فسد العمل به يصير آلة ضعف وانحطاط مع انه قوام الحياة وفيه أكبر معين على تحصيل السعادة ولكن الناس يعزون أنفسهم متى فسدوا بقولهم (ان الله يبتلى عبيده المخلصين) أو بقولهم (أبناء الجحيم أكبر حذقاً وأوفر حظا فى الدنيا من أبناء النعيم) وما أسهلها طريقة فى ارجاع الانسان خطاياه وآثامه الى الله وحده

اذا ثبت هذا فلنا أن نقول بان الاسباب السالف ذكرها لاتكفى لتحصيل السعادة وإنما هى من المساعدات على تحصيلها والواقع ان تأثيرها يتبع الوسط الذى توجد فيه وكيفية استعمالها قوة وضعفا ومن هنا وجب علينا أن نعرف كيف يكون الوسط ملائما أو منافيا لتحصيل السعادة أى لايجاد ذلك الارتياح الذى يشعر به من تمكن من التغلب على متاعب

الحياة المادية والأدبية تغلبا حقيقيا

واذا نظرنا الى الامم وجدناها لاتسير فى طريق واحد نحو السعادة بل تفترق الى ثلاث

الاولى هى التى سهل فيها تحصيل السعادة لسهولة وسائل المعيشة

الثانية هى التى يصعب فيها الحصول على السعادة لصعوبة تلك الوسائل

الثالثة هى التى تتحصل فيها السعادة رغما عن تلك الصعوبة

ولنشرح تلك الاحوال الثلاثة التى يخال انها غامضة لا يدرك المراد منها كلنا يعرف المثل المشهور — ليس للامة السعيدة تاريخ معروف — والمثل صحيح علما

أما الامم التى لاتاريخ لها فهى التى تعيش من الرزق الطبيعى كالعشائر الرحالة التى تنتقل من مكان الى مكان بين المراتع والمروج . هنالك تكثر الاعشاب فلا يجد الرجل منهم للعمل داعيا . وأهم أولئك الاقوام عشائر التتار (المنغوليين) . وانى لأذكر قبائل الصحارى كالعرب وشعوب أواسط أفريقيا لانهم مضطرون الى شىء من العمل ليحصلوا اتمام عيشهم

فعند العشائر الرحالة الحقيقية تجد صعوبة الحياة المادية والادبية ممهدة مذللة من ذاتها

أما المتاعب المادية التى ترجع الى المأكل والملبس والمسكن فهى معدومة اذ الماشية كافلة لتلك الحاجات وهى تتغذى بما تنبته الارض من الاعشاب بدون عمل للانسان . وليس على وجه المسكونة رجل خلص من تلك الاثقال وأمن الموت جوعا مثل أولئك القوم فلا يهتمون كل يوم بتحصيل

قوتهم كما هو حالنا لان العشب قد كفاهم مؤنة ذاك الاهتمام والعشب ينبت وحده ولا يحتاج النازل فيه الى حصده أو تجفيفه أو ادخاره . وبذلك نجا أولئك القوم من مخالب الفقر والفاقة ولا يعرفون ما نسميه مسئلة الفعلة لانهم ليس فيهم رجل أجير

وهذا الرجل الذى أمن بطبيعة الحال من جهة حاجاته المادية آمن أيضا من حيث الحياة الادبية : ولا ينبغي ان نقيسه بنا فان لنا حاجات ورغبات ومقاصد كيفتها ظروف اجتماعنا وأكدتها حالة معيشتنا مما لا نسبة بينه وبين ماهو فيه . وتلك الحاجات التى استحدثناها أو التى ولدها فينا وسطنا الاجتماعى تجعلنا من التعساء ماعجزنا عن القيام بها . فاذا كفينا مؤنة حاجة تولدت فينا حاجات جديدة ورغائب غير الاولى أشد تحكما وأصعب ارضاء . لذلك قالوا (السعادة فى الاقلال من الرغبات) كما قالوا (ينبغي للمرء ان يكتفى بالعيش الوسط الهنى) وهو قول حسن غير ان حالتنا الاجتماعية تدفعنا الى ضد ما به ينصحون . على انهم لم يرشدونا الى تلك الحكمة الا لان العمل بها نادر فى الوجود . وأقطع دليل على ان ذلك الرحالة راض عن حالته وهذا الرضاء هو أقصى مراتب السعادة فى هذه الدار انك لن تفلح فى حمله على استبدالها اذ من المقرر ان أشد الناس استعصاء على الانتقال من حال الى غيره هو البدوى الذى لا يرضى ان يستعيض فى غدوه ورواحه بالاستقرار في مكان واحد ولا أن يتخلى عما ألف فى البداوة ليعتنق ما نحن فيه من الاعمال التى نجاهد فيها لتحصيل قوتنا . والامم المتمدنة المتاخمة لتلك العشائر تعلم ما نقول فانها لم تصل الى

ادخال بعض التعديل فى أحوالهم الا بشق الانفس واستعمال طرق الاعنات مما يكاد يبلغ حد القهر والاجبار . ولم ينجح القياصرة فى هذا السبيل مع (السلافيين) الا بعد مرور الاجيال والقرون ومعلوم ان يد القياصرة لم تكن رحيمة أبداً ومع هذا فانهم لم ينجحوا تماما ولا يزال السلافى على جانب عظيم من حالته الاولى يعيش فى مبادىء البداوة أكثر مما يعيش فى عوائد الحضارة والتمدن ولا يزال يقدر السعادة بكثرة الماشية لا بسعة الارض التى يفلحها

وقد كان القدماء يعرفون تلك السعادة فى العشائر البدوية فكان (هومير) ومن بعده (ايفور) يسميانهم (أعدل الناس) وقال (كوريلوس) الرحالة (هم أولئك القوم الافاضل العدول) وقال (استرابون) (أنهم يعيشون عيشة تقشف ولا هم لهم بجمع المال) ولا يزال هذا رأى السواح فى هذا العصر قال موسيو (هوك) يحدث عن (المنغوليين) وقد عاش بينهم حولين كاملين (أولئك المنغوليون لهم نفوس دينية كما ينبغى فتراهم دائما مشتغلين بالحياة الباقية وكل ما فى هذه الدار صغير فى أعينهم فهم يعيشون فى هذه الدنيا كأنهم ليسوا منها)

ذلك هو مثال الرجل الذى يقلل من رغباته ويرى السعادة فى عيش وسط ليس بالمغبوط عليه . ومرجع هذه السعادة هو الوسط المادى الذى يعيش فيه لكفايته بالحاجات وتوفيره وسائل العيش أى توفير . ثم ان سهولة المعيشة تزداد لديهم بضرورة اجتماعهم فقد تبلغ العائلة منهم مئات من النفوس كما كان عليه اسباط التوراة . فليس الرجل بمعزل عن الناس

أبداً بل الواحد منهم يستعين بأخيه فيصبحا فى مأمن من طوارق الحدثان.
وليس الضعفاء منهم والمقعدون وفاقدوا الاهلية والطائشون مهملين وشأنهم
ولا معرضين لتلك الحالة التعيسة التى تفاقم خطبها بين القوم المتمدنين

والخلاصة أنك ترى الرجل فى تلك المجتمعات سعيداً بوفرة الغذاء
الطبيعى ومعونة الوسط الذى ولدفيه فهو بهما فى مأمن من غوائل الحياة
بعيد عن موجبات الشقاء سعيد لا يبتغى عن حالته بديلا

ويوجد بجانب تلك العشائر أقوام آخرون غير قليلين يعيشون من
الاعشاب مستعينين بجمعيتهم المتكاثفة لكن على حال أقل كمالا من الاولين
فهم أيضا فى مأمن على التقريب من صروف الحياة . وأولئك الاقوام طبقات
بعضها أحط من بعض فى درجة السعادة وهى تبتدى من تلك الطبقة التى
وصفناها لك حتى تصل الى حالة الامم الثانية التى سنتكلم عليها

تلك الامم الثانية هى التى فقدت وسائل الحياة المادية لفقد الاعشاب
الطبيعية وتمزق العائلة فالرجل فيها واقف بنفسه أمام متاعب عيشه ولكنه
لا يقدم على اقتحامها بل انه يفرغ جهده فى الهرب منها . وقد يقال ان
السبب فى هربه هذا مافطر عليه المرء من حب الابتعاد عن الشقاء وهو
سبب صحيح من بعض الوجوه الا أنه يلزمنا البحث عن السبب الذى جعل
التربية وقيام الضرورة لا تزيلان ذلك الداعي الى البطالة والكسل

والعلم الاجتماعي يدلنا على ان هذه الامم التى تسكن القسم الاكبر
من وجه البسيط وناحية من غرب أوروبا قد نشأت اتكالية أيام كان آباؤهم
الاقدمون يعيشون فى تلك البقاع ذاتها مما تنبت الارض بغير عناء

فأمم اليوم سلالة أمم الامس. والفرق بينهما ان الارض لم تعد تنبت شيئاً من نفسها كما مضى

ورجل اليوم من تلك الامم تعود الاعتماد على مايسوق الله اليه من الرزق الطبيعي وما يساعده به الاهل والمواطنون ثم أمسى وقد فقد المعونتين واضطر الى اقتحام الاتعاب ليحصل قوته بنفسه فالحاجة تناديه (اعمل وكن ذا عزيمة ومضاء ولا تركن الى غيرك اذ ليس من سبيل غير هذا فى تحصيل رزقك وسعادتك) وفطرته الأصلية وما شب عليه من العادات يجيب هذا النداء (ان العمل والجد والعزيمة متاعب أحلى منها اجتنابها وفى البعد عنها سعادة الانسان) والغالب هو صوت الفطرة لانه يجد أذنا صاغية هى العادة المألوفة لاسيما وانها مقبولة يرتاح الى الاسترسال معها

ومن المعلوم أنه لاملجأ للمرء من تحمل هاتيك المتاعب الا استعمال ماورثه عن آبائه من الاعتما على الغير والعيشة مما يكسبون أعنى بذلك التمادى في طلب المعونة من الناس شأن الزنبور مع النحلة

نعم زنبور ذلك الفتى الذى بلغ العشرين من عمره وكان سليم الجسم صحيح القوى ثم جعل كل اعتماده على ما يتناوله من عائلته فلا يعيش الا من مكارمها

زنبور ذلك الفتى التى بلغ الخامسة والعشرين أو الثلاثين ثم هو لا ينظر الى الزواج الا من حيث المهر الذى يكون لخطيبته ليكون له منه سبيل سهل للمعيشة على نفقتها

زنبور ذلك الفتى الذى يحتقر المهن الحرة والصنائع المستقلة ويرى الشرف

كل الشرف فى وظائف الحكومة حيث لاجهد ولا عناء ولا همة ولا أقدام فيعيش كلا على بيت المال

زنبور ذلك الرجل متوسط الحال أو الاجير الذى لايرى فرجا من مصاعب الحياة فى الزمن الحاضر غير الالتجاء الى الهيئة كالبلدية أو الحكومة ليطلب المعونة منها ويعيش أيضا من بيت المال

ثم زنبور ذلك الذى اتخذ السياسة مهنة واستخدم سذاجة قومه فتحبب اليهم بوعدهم مايشتهون حتى يعيش على نفقة أولئك القوم الذين يخدعهم ويلحق بهم الفقر والدمار

اذا بلغ الحال فى أمة هذه الدرجة انتفى العجب من ظهور الاشتراكيين فيها وسرعة انتشارهم بين طبقاتها اذ فى مذهبهم وعد للناس بهيئة اجتماعية جديدة يكون الكل فيها من الزنابير . لكن لسوء حظ المبشرين بهذا النعيم لا وجود للزنابير الا اذا وجد النحل ولا سبيل للاكثار من الاولى الا اذا ضوعف عمل الثانية وهذه ضرورة يؤسف لوجودها ولولاها لحلا بالطبع لكل انسان أن يعيش من مال الجميع

ورب معترض يقول أجل ان حالة الزنابير مما ترتاح له النفوس والهم كل الهم فى صيرورة الانسان زنبورا فمن نال ذلك كان سعيدا وعليه فلتحي الزنابير . غير أن الامة التى يكون هذا حالها لاتساعد على تحصيل السعادة كثيراً لان من المعضلات أن يحصل الانسان سعادته بأقل عمل ممكن فى أمة لاقوام لها الا بأكثر عمل ممكن . وطالب هذا شبيه بالرجل الذى يطلب حاجته من وراء نهر جار فهو مضطر الى مقاومة الماء على الدوام

فى كل يوم وساعة والنهر لايزال يجرى ضد مقصده ومن كان هـذا شأنه تعذر أن يكون خلي البال سعيداً

هذه حال لايأمن الضيم معها أولئك الذين صاروا من صف الموظفين أنفسهم مع انهم قد خلصوا بذلك من متاعب كثيرة فى الحياة لان غالبهم يعيش في ضيق وتقتير اضطراراً الى المعيشة هم وعائلاتهم والى تربية أبنائهم برزق قليل . ذلك هو الشقاء تحت الـكسوة السوداء وهو أقسى شقاء فى الوجود . ذلك بؤس لا يتمكن المرء معه من المحافظة على درجته بين الناس ولا هو يخلص من التألم به فهو جرح يتجدد في كل صباح . وزد على ذلك أنه يعيش مسلوب الارادة مؤتمراً بغيره والآمال محصورة وللرجاء حد قريب

ثم الحال أشد فى تلك الامم بالنظر لغير الموظفين الذين يضطرون الى العمل بأنفسهم وهم عليه غير قادرين لانهم لم يتهيأوا اليه من قبـل بالتربية والتعليم والـكسب غير محقق فيوم يسر ويوم فى اعسار . ولهم فوق ذلك أعين يبصرون بها وظائف الحـكومة واطماع تمتـد نحوها وهم على الدوام يرجعون من آمالهم خائبين

وبالجمـلة فالحياة شاقة على الجميع والـكل متأثر بنشأته الاتـكالية وهى السبب فى اعتقاد كل واحد ان مال الاب مال لجميع عائلته لذلك ترى الرجل يتجرد عن أملاكه فى حياته ويهبها مهرا لاولاده متى حان وقت الزواج ووجب على كل والد أن يجمع من المـال ما يكفى لجميع أولاده مع أن من الصعب فى هذه الايام أن يحصل الانسان مالا يكفيه وحده . فلمـا رأي قومنا أن القيام بهذا الواجب متعذر لم يجدوا لهم بدا فى الهرب منـه الا

الاقلال من الابناء وأصبحنا نفضل ان نمهر أبناءنا على الاكثار من نسلنا. ومع هذا لاتزال الحياة تعبة اذ نحن نعيش عيشة ضيق وحرمان و تقتصد اقتصاد الفقراء والمساكين وذلك مما يكدر صفو الحياة ويعطل السعادة فى الامة

ولهذا الضيق فى تلك الامم آثار ينبغي النظر فيها واكتفى بذكر أربعة يرجع كل واحد منها الى دور من أدوار الامة التى ظهر فيها وقد عينت باختيارها فى بلاد مختلفة

فالاول هو يأس النفوس الذى امتازت به الامم الهندية وهو مذهب الغناء المعروف عندهم باسم (نيرفانا) وقد انتشر هذا الروح بسرعة بين سكان الشرق الاقصى مع ان زراعتهم لاتزال قريبة من الحالة الطبيعية الا انهم حرموا من التسهيلات اللازمة فيها و معنى (نيرفانا) هو النجاة أو السلامة وبعبارة أخرى السعادة التى وعد بها الهنديين صاحب المذهب البودي المشهور . ومدار هذه السعادة على ان الناس لايرجعون بعد موتهم الى حياة كالتى فارقوها بل يدخلون فى حياة أخرى غير جسمانية ولا محسوسة ومن الموصلات اليها السبات المستمر والتسليم المطلق وهجر العمل وانكار فضله حتى يكاد المرء ينسى انه موجود : وهو عبارة عن انكار السعادة في الحياة الدنيا فتري الرجل منهم قد استولى عليه اليأس من تحصيل سعادته الدنيوية فلا يجد له ملجأ فى معيشته غير الانكماش والاستكانة لايسعى لتحصيل رزقه ولا يغالب ما يعرض له من الصعوبات فى حياته بل يسلم نفسه لكل جائحة على الدوام والاستمرار

والثانى مذهب العدميين المعروفين فى الامم السلافية الشمالية باسم (نهليست) وهو ضرب من ضروب اليأس أيضاً .وهم أمم خرجوا من حالة المعيشة البسيطة الى حالة أوروبا الغربية ورأوا أنهم ملجأون الى الكد والعمل فأرادوا الهرب من تلك الواجبات الجديدة ولم يهتدوا اليه سبيلا . لذلك تولد فيهم مذهب العدم أى انكار كل مافى الوجود ووجوب العمل بما يقتضى التخريب والابادة . وأولئك قوم لاسعادة لهم فى هذه الدار أيضا.

والثالث مذهب الاشتراكيين وهو اليأس الذى استولى على أمم الغرب الذين لايزالون على الحالة الاتكالية قليلا أو كثيراً .والسبب فى ظهور هذا الروح كما بيناه النشأة الاصلية التى فطرت عليها تلك الامم . وخلاصة المذهب حمل كل فرد على طلب السعادة من أمته وفيه انكار مزايا العمل والاجتهاد والهمة والاقدام . ومن أراد الوقوف على حقيقة رأيهم فليقرأ رسالة موسيو (لافارج) ضد العمل التي عنوانها (حق الانسان فى الكسل) فمنها (لقد استولى الجنون على طبقات الفعلة فى الامم التى ساد فيها أصحاب الاموال ونشأ عن هذا الجنون بؤس حال الناس وضنك الهيئة الاجتماعية اللذين أصيبت بهما الانسانية منذ قرنين كاملين فكدرا صفو العيش عليها. والعمل هو السبب الفعال فى فساد أفكار الامم التى ساد المال فيها وهو السبب فى تشويه الانسان وتركيب الانسان) ثم أراد المؤلف أن يستدل على أفضلية الكسل على العمل فذكر المثل الاندلسى (الراحة هى الصحة)[1]

---

(١) ولو كان يعرف العربية لتمثل بقول بعضهم

ان البطالة والكسل أحلى مذاقاً من عسل

وعلى كل فان ظهور ذلك المذهب يدل دلالة قاطعة على أن أهله لايجدون سعادتهم فى هذه الدار كما خلقت

والرابع مذهب التطير وهو الفكر الذى استولى على طبقات المتنورين في الامم الغربية وأريد به تلك المذاهب الفلسفية أو التى تنتسب الى الفلسفة التى سادت بين الامم الالمانية والسلتية وبنوا عليها نظرهم فى هـذه الحياة الدنيا . نعم لا أنكر ان اليونانيين والتليان يتوسمون الخير فى الحياة أكثر من غيرهم ولكن السبب فى هذا عند الامتين المذكورتين سكناهم بلاداً تكثر فيها النباتات والاعشاب فيسهل عليهم زرعها زرعا بسيطاً وذلك مما يؤيد القاعدة التى ذكرناها وقد يعيش العدد الكثير منهم من جنى الثمار ولا يعملون الا قليلا . والشحاذون فى مدينة نابل هم أعظم مثال لتلك الامم لذلك تتصل الامم التى تسكن جوانب البحر الابيض المتوسط بالامم التى ترى سعادتها العظمى فى سهولة معيشتها

ويتبين مما تقدم ان مسئلة السعادة مفصلة فى الحالة الثالثة غير انها هى الحالة التى ينجح السعى فيها وراءها فقد رأينا الانسان يبحث عن سعادته فى راحته أو فى انه لايشتغل الا القليل ما استطاع وهو فى حالة الراحة يجد السعادة الا انها عفنة مذيلة وهو فى الثانية لايجدها أبداً

لكنه فى الحالة الثالثة يطلبها بجده الذاتى وعمله الخاص فلا يهرب من صعب ولا يجزع لعمل شاق بل يقدم على المتاعب ثابت الجأش ويقدرها كما ينبغى ثم يجتازها بعزم وأقدام

ويخال في أول الامر ان طلب السعادة من الكد والعناء أمر يشبه

التهكم المؤلم أو لعب النصيب وهو صحيح اذا لم يلاحظ الانسان فى الحكم على هذا الا ذاته وما يشعر به لانه بالطبع ميال الى الراحة أكثر من ميله الى التعب أعنى انه يفضل السهل على العسير ولو لم يكن له باعث يدعوه الى الحركة لصبا الى عيشة الزهاد والمتعبدين واكتفى بحشائش الارض طعاما

ولكن لا نبحث عن شعور القارئ أو عما نشعر به نحن بل نتتبع الوقائع ونستقرى الحوادث لنقف عليها كما ينبغى ومهما كانت غرابة الامر فان ادراكه من الميسور عقلا والمرء لم يطلب السعادة بالهرب من الكد والنصب الا لكونه يستعظم الجهد الذى يجب عليه أن يتحمله فى التغلب على الصعوبات الممكنة وعادة الانسان انه لا يقبل العمل المطلوب منه اذا علم من نفسه عدم القدرة على أدائه غير ان العمل الذى لا يتأتى لزيد من الناس فعله لصعوبته عنده يكون سهلا عند كثيرين غيره بل ربما كان من الامور المحببة اليهم واذا ثبت هذا ثبت بالطبع ان أولئك القوم الاشداء الاقوياء لا ينظرون الى الحياة كما ننظر نحن اليها وانه لا تأثير فيهم لتلك المذاهب من يأس وعدم وفوضى وتطيرهم يرون الحياة كلها بعين غير أعيننا فتتجلى لهما فى بهاء وجمال لذلك كان مذهبهم مذهب رجاء وآمال وحسن ظن بالاستقبال

بقى علينا أن نعرف ان كان أولئك القوم موجودين أم لا ولا يشك أحد ممن قرأ الاسطر السابقة فى انهم موجودون ولكنى أريد أن أبرهن على أمر جديد وهو ان الجمعيات الاستقلالية كما توجب رفعة أممها فى العالم وتقدمها على غيرها فانها هى التى تميل بالانسان الى تحصيل أوفى حظ ممكن

من السعادة فى هذه الدار اذا اتفقت فى جميع الظروف مع الامم الاخرى

شرحت فيما تقدم نظام مدرسة غرض القائمين بها تعليم الانسان كيف يقدر على تحصيل عيشه بنفسه وقلت انها تربى العزيمة والارادة والثبات وانها تقوى الجسم كما تربى العقل . وشرح موسيو «روزيه» و«بيرو» فى مجلة «العلم الاجتماعى» تلك الطريقة عينها فى بلاد الانكليز والولايات المتحدة فعرفنا منهما ان الشاب يشب على اعتقاد ان الرجل اذا سقط يجب أن يسقط على قدميه كالهر سواء تعلم فى البيت أو فى المدرسة أو بين اخوانه وهم يعملون فوجهة الشبان هناك الكد والتزاحم في الحياة لا الخلود الى الراحة والكسل وهم لايخافون من تلك الكلمات تزاحم فى الحياة كد نصب لانهم لايخافون من مسمياتها وما عدم خوفهم الا من ان تربيتهم جعلتهم قادرين على مغالبتها

والواقع ان تلك الامة الانكليزية السكسونية قد أخرجتنا من معظم البلاد التى كنا نحتلها فلم يحل علينا القرن مذ كنا أصحاب السيادة والنفوذ فى آسيا وأفريقا وأمريكا وقد انهزمنا فى كل مكان أمامها فهى خصمنا الموروث وهى الخصم الذى يجب علينا أن نقلده فى ارتقائه ولسنا بترداد هذا النصح نعمل كعالم وقف على حقائق الاشياء ليس الا بل كمحب لوطنه يلاحظ المستقبل ويأخذ بالاحوط

الا ان غرضى الآن ينحصر فى بيان ان تلك التربية تجعل الرجل سعيداً أكثر من غيره لما توجده فى نفسه من الاعتقاد برفعته عمن سواه واستخفافه بالمتاعب واستسهاله كل صعب فى سبيل وجوده واليك مثلا لايخلو من

الغرابة فى بابه وهو من ألطف مايحكى عثرت عليه فى جريدة « الطان » بقلم موسيو « دى فارينى » قال « اجتمع فى أواخر يناير الماضى على مائدة فى أحد مطاعم «بوسطون » لفيف من الشبان ذوى البيوت الكريمة تخرجوا حديثاً من كلية « هاروارد » وفاقوا فى العلم والتمرينات الجسمية ثم أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث فقال أحدهم وكان اسمه « بول جونيس » انه لم يبق فى الولايات المتحدة فقير الا الذين لاثقة لهم بأنفسهم وانه لو أضاع هو جميع ماتركه له أبوه من المال وأصبح لايملك فلساً واحداً وكان عريانا كيوم ولدته أمه لوسعه أن يحصل عيشه وأن يرجع من تلك البلاد بخمسة آلاف دولار أى خمسة وعشرين ألف فرنك بعد مصاريفه كلها وذلك بعد سنة واحدة من الزمان . فتراهن معه أصحابه على خمسين ألف فرنك واتفقوا على انه يتوجه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير الى الحمامات التركية وهناك يتجرد عن جميع ملابسه حتى اذا جاء الزمن المحدود بدأ فى طوافه حول الارض وكانت الصعوبة عليه أن يبدأ بسياحته لانه كان عريانا لذلك وجه اهتمامه أولا وبالذات الى ستر عورته باقل مايمكن من المال فجعل يمسح أحذية رجال المكان الذى هو فيه بجد ورضاء كأنه لم يتعود غير تلك الصنعة فى حياته . ثم يتناول الراتب المخصص لهذا العمل وهو زهيد فيقسمه بين قوته وكسائه ومكث هكذا خمسة عشر يوما وهو زمن كبير نظراً للاجل المحدود له وهو سنة واحدة فلما خرج من الحمام قصد مدينة لندره ليسافر منها الى الهند ولكى يحصل أجرة السفر جعل يبيع الجرائد فى الاسواق ويشتغل بالسمسرة ومرافقة الاجانب كترجمان لانه كان يعرف

الفرنساوية والالمانية والتليانية وتوصل بصفته ترجماناً إلى السفر مجاناً على احدى البواخر الامريكية إلى لندره ومعه من المال خمسون دولار أى مائتان وخمسون فرنكا وصار يلقى الخطب فى لندره حتى كثر المال لديه والتحق ببعض الجرائد الانكليزية وتحصل من ذلك على مصاريفه الى البلاد الهندية ولماقام الى تلك البلاد أخذ معه متجراً خفيفاً بما جمع من المال وباعه فى مدينة (كلكوتا) بثمن ربيح ولا يزال الآن سائراً فى طريقه ويظهر من خطاباته لاصحابه وما ينشره فى الجرائد انه متأسف على عدم جعله الجعل ضعفين ولو استلزم ذلك مضاعفة المبلغ الذى تعهد بكسبه لدى عودته من سياحته

ويظهر ان انتشار هذه الروح فى جسم الامريكانيين حرم الانكليز لذيذ المنام فقد قرأنا فى جريدة (بتى جرنال) ان اثنين من شبانهم تراهنا على الامر بعينه واجتازا البلاد الفرنساوية للغاية نفسها حتى يبرهنا انهما غير متأخرين عن اخوانهما

عرفنا السعادة بقولنا انها حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والادبية تغلبا حقيقيا وعليه فكل وسط يساعد الانسان على اجتياز تلك المتاعب كما يجتاز الصبى حواجز الالعاب يساعد من غير شك على تحصيل السعادة أكثر من غيره ولست أدرى ان كان أولئك الشبان الثلاثة الذين ذكرتهم يفوزون بما تراهنو عليه أم لا على ان ذلك ليس محلا للنظر بل الذى يقتضى الالتفات هو تلك الحالة الفكرية التى دبت فى اذهانهم وتلك الهمة الذاتية التى يدل عليها عملهم. ولا

شك انهم ينظرون الى الحياة بنظر يخالف نظر الامتين اللتين قدمنا ذكرهما مخالفة كلية فان الرجل فيهما يلقى السلاح أمام الصعاب اذا اعترضته فى طريقه ويمسى تعيساً لشعوره بما هو فيه من الضعف والانهزام . أما رفيقه ففي نفسه اعتقاد بان همته أكبر من كل صعب يلقاه وهو فى الواقع أشد مراساً وأثبت قدماً واعتقاده هذا سبب فى اطمئنانه وتبسمه للحياة تبسم الموقن بالنجاح . ذلك رجل قد تولى بيده زمام السعادة على قدر ما يسر الله للبشر فى الحياة الدنيا

لهذا لا نرى الزنابير بين صفوف تلك الامة الا نادراً وليس لهم وجود فى الامم الانكليزية السكسونية اللهم الا ان كانوا من تلك الامم الاتكالية الذين استوطنوا البلاد الانكليزية قديماً أو هاجروا الى البلاد الامريكية حديثاً ومن المعلوم أن طائفة السياسيين فى هذه البلاد الاخيرة من الارلنديين وليلاحظ أنها هى الطائفة التى كثر شغبها وقل رضاها بما قسم الله لها

حقيقة ليس من الزنابير أولئك الشبان الذين بلغوا المتممة للعشرين لم يطلبوا مساعدة من آبائهم أبداً وتزوجوا بنساء بغير مهر واحتقروا الوظائف فى الحكومة وفضلوا عليها الاشتغال بالحرف الجارية والصنائع المألوفة المستقلة وجعلوا اتكالهم على هممهم غير منتظرين معونة من الحكومة أو الامة . ومن الواجب علينا أن نعتقد بان هؤلاء القوم الذين قد ترك كل واحد منهم لنفسه أقرب الى السعادة من أولئك الذين اذا صادفتهم صعوبة مدوا الاعناق نحو الغير يرجون معونته . وهذا الشعور هو السر فى نجاح

كتاب موسيو «جون لوبوك» وانتشاره ذلك الانتشار الغريب مما لا ندرك له نحن سبباً فان أدلته ضعيفة لا تؤدى بذاتها الى اقناع واحد من قرائه بالرضى بما نال من رزقه إلا إذا كانت نفسه متشبعة بذلك الارتياح والاطمئنان وتجلت له الحياة بمظاهر الفرح والابتهاج مما يبعد عنا تصوره . وبالجملة فانه كتاب ألفه انكليزى لقوم من الانكليز . وكأنى بمترجم هذا الكتاب الى لغتنا وقد أحسن بهذه الحقيقة حيث قال » لقد شرح هذا الكتاب أجمل صفات الانكليز العقلية فهو انكليزى بما أودع فيه من الاستبشار وحسن الحظ بالمآل وكمال الرضاء والارتياح)وهو استنباط صحيح لان المؤلف يلقب انكلتره بانكلتره المبتهجة ويقول (إذا أردت ان نعرف الحزن الصحيح فول وجهك قبل المشرق إذ ليس شيئاً أشد حزنا من شعر عمر الخيام أو شعر ديواس [1] قالا

(الزمن الذى يقضيه المرء فى هذه الحياة الدنيا قصير وهو لا ينال منها غير حزن وآلام ولا يدرك من حقائق الاشياء الا اليسير وقد أصبحت مسائل الحياة بغير حل ولات حين النظر فيها فقد انقضى الاجل ووجب الرحيل)

(الحياة اشبه برياح ضلت وجهتها ونحن أشبه بصوت بتلك الريح نطلب الراحة فلا نلاقي الا مايوجب التحسر والانتحاب وانهمال العبرات ولا نلاقي الاعواصف تهددنا وحربا تقتتل فيها)

ثم اتفق رأى المؤلف ورأينا فقال (وإذا صح هذا وكانت الحياة

(١) قد بحثنا عن هذين الاسمين فلم نقف على ثانيهما ولم نعثر لا ولهما على منظوم بهذا المعنى ولذلك سقنا الترجمة نثراً

الانسانية على قدر ماقالوا من الايلام والشدة فلا غرابة فى أن العدم أى انقضاء الاكدار يكون من أقصى الأمانى ولو أضاع الناس فى سبيله وجدانهم وما يشعرون) وفى هذا كما قلنا بيان لوجود مذهب التطير في كتب الجرمانيين والسلتيين أى فى الامم التى لم تتعود العمل ولم تترب على الاجتهاد كما هو موجود فى فلسفة الشرقيين وأشعارهم

كذلك اتفق معنا فى القول بان الانكليزى السكسونى لا يهاب الكد ولا يرهب العمل ولا يخشى الصعاب وأيد قوله باقوى الحجج قال فى أول الفصل العاشر الذى عنوانه (الراحة والعمل) ماترجمته (اننى بالطبع لا اعد ضرورة العمل بين متاعب الحياة) وهذه جملة لا اظنها تصدر من قلم كاتب نشأ في أمة اتكالية لانه من غير شك كان يعد العمل في مقدمة تلك المتاعب ما السير (جون لوبوك) فانه يستثنى منها العمل بلطف وصدر رحيب حيث يقول بالطبع لان ذلك أمر طبيعي عنده وفى اعتقادى أن قرائى لن يوافقوه كما أنى أشهد على نفسى اننى من صفهم . ولا غرابة فاننى أقيم هذه الدعوى على نفسى كما إقيمها على قومي. ثم ترقى السير جون لوبوك في فكره فقال (ان العمل وان شق منبع منابع السعادة متى ابتعد المرء فيه عن حدى التفريط والافراط فكلنا يعلم كيف ان الزمان يمر سريعاً على الانسان المشتغل وأن الاوقات تثقل على الكسالى ثم الاشتغال يذهب الهم ويسرى أحزان المعيشة اليومية ولا يجد المشتغل من زمانه وقتا يقتله فى التخيل أو الاضطراب ونحن معاشر الانكليز انما نجحنا وصرنا أمة حية نامية لاننا قوم نحب الشغل ونهوى العمل)

وقد مدح علماء الاخلاق عندنا العمل واجتهد أساتذة المدارس فى غرس محبته فى قلوب الاطفال ولكننا نمدحه ونوصى به ونعلم محبته باعتباره أحد الواجبات وكانه ضرورة لا مفر منها فوجب الرضوخ لحكمها وحمل النفس على القيام بما اقتضته أما عندهم فصيغة الكلام غير ذلك فهم انما يشيرون الى ان الامر يجرى كذلك فى العالم بطبيعة الحال ولا يعدون العمل متعباً بل يقولون انه (منبع من منابع السعادة) وما من أحد يخالف قولهم حتى إننى سألت فتاة من الانكليز فوجدتها على رأى السير جون لوبوك ترى الراحة فى العمل والكد والتغلب على الصعوبة وتقول ان كل الناس فى بلدها على رأيها وكنت أثناء كلامها أظهر الإستنكار فقالت ولا بد للانكليزى من عمل فان لم يكن لديه من الاشغال الاعتيادية ما يعمل فيه عمد الى التجذيف فى النهر أو الى لعب الكرة والرياضة الجسمية أو قصد قمة جبل شاهق يصل اليها ولو كان فى الامر خطر تلذذ باجتياز صعب من الصعاب. ولا شك فى ان الانكليز لا ينظرون الى الشغل بهذه العين الراضية الا لانهم متعودون عليه حتى صار فى جبلتهم أمراً مقضياً قال موسيو جون لوبوك (وقد شاهد أحد السواح الشرقيين جماعة فى أوروبا يلعبون لعبة شاقة ورأى بينهم كثيراً من الاغنياء فعجب وسأل لم انهم لا يستعملون غيرهم فيما شق من هذه اللعبة بأجرة يدفعونها) والسائل إنما جرى فى سؤاله على حسب تربيته لان الامم الاتكالية لا تنظر الى العمل الا من حيث كونه أمراً متعباً. وقد جاء فى المثل التركي (أولى للمرء ان يكون جالساً من ان يكون قائماً وأن يكون نائماً من أن يكون جالساً وأن يموت من أن يكون نائماً)

ومعلوم ان تلك الامانى بعيـدة المنال لذلك كانت الامم التى تودها أتعس الامم فى الحياة الدنيا وهى لذلك أشدها حزنا وكدراً . أما الامم التى تعتقد ان الاولى للانسان أن يكون قائما من أن يكون جالساً فهى بالطبع أوفر حظا وأوفى سعادة اذ يلزم للفوز فى الدنيا ان لايجلس المرء ما استطاع الى الوقوف سبيلا

لـكن ليس من السهل ادخال هذه الروح فى الاذهان فلايكفى لذلك أن ينادى على منابر الخطابة أو فى المدارس بان السعادة فى العمل لان هذه الصيغة بهذا التركيب (السعادة فى العمل) غـير صحيحة حتى عنـد الذين ينطقون بها ولا يعملون بها الا قليلا ولو كانت صحيحة لاصبح الناس أجمعون لا تنثنى لهم عزيمة عن العمل أبداً اذ مامن أحد الا وهو يحب السعادة حباً كثيراً والحقيقة أن معظم البشر لايجد السعادة فى العمل

والواقع ان السعادة ليست فى العمل بل هى فى القدرة عليه وفرق بين الحالتين فمن الناس من يقولون ليتنا نحب العـمل ولـكنهم لايحبونه ولن يحبوه مع مايقرأون فى كتب الاخلاق من الحض عليه والنصح به ومع ماجاءت به الفلسفة وأمر به الدين من وجوبه وأسناد النجاح اليـه . ولن يصل المرء الى اجتياز هذه العقبة الا بعد أن يكون من وسط تعود حب العـمل زمانا طويلا وذلك يقتضي أن الابوين لايريان من واجبهما بالنظر الى أبنائهما الا تربيتهم تربية صحيحة. وان الابناء يرون ان لاملجأ لهم فى الحياة الا أنفسهم .وأن الزوجة انما يقصد بها الرفيق لا المال الـكثير . وان الحـكومة لاتأخذ من السلطة الا مااحتاجت اليه . ولا تتوسع فى الوظائف

لا بقدرة الضرورة لتشجع الناس بذلك على اعتناق الحرف والاشتغال بالصنائع التى تقتضى العمل وتستلزم الجهد وتطلب الهمم الذاتية

وبالاختصار ينبغي أن يقل اعتبار الموظف والسياسى والبطال الذى لاعمل له عن إعتبار الزراع وذوى الصناعة والتاجر وظاهر ان ذلك كله ليس بالامر البسيط غير انه كله لازم فى تحصيل السعادة للناس وكله لازم فى استمالة الرجل الى العمل أولا وغرس محبته فى قلبه ثانيا

ومهما بحثنا عن حل صحيح للمسئلة الاجتماعية لانجد الا هذا

الفصل السادس

﴿ فى ضعف المؤثر الأدبى ﴾
« وفى امارات نهوض الهيئة الاجتماعية »

ظهر فى هـذه الاوقات فريق من الناس يطلب من علم الاخـلاق الأخذ بناصر بنى الانسان للنهوض مما آلوا اليه من الانحطاط ويسعى وراء « تطمين السرائر وتهدئة الضمائر بمعيشة أحسن وأرضى » كما هو اللفظ الذى اصطلحوا عليه ويقولون ان الطريق الى غرضهم هذا هو تربية الانسان على تحمـل الحرمان ومحبة الغـير وان حالة الناس التى هم فيها اليوم ليست « مسببة عن أحوالهم الاجتماعية أو السياسية » بل « مرجعها الى الاخلاق والدين » . ومن هنا كان أنجح الوسائل فى تغيير تلك الحالة هو أن يبدأ كل واحد بتغيير نفسه وأن يولد من جديد » كما هو قولهم وقول انجيل يوحنا

وان « أول عمل يدخل به المرء باب هذا الاصلاح هو العزم على ترك محبة الذات والخضوع الى التعاليم المأثورة » وبالجملة يريد أولئك القوم لاصلاح حال البشر أن يعيدوا « زمان الاخيار » أهل التحقيق والابرار »ويقولون ان منهم من هو الآن بيننا «ولكنها الينا بيع الرائقة والعيون الصافية تذهب سدى واحداً فواحداً فى الاراضى المجدبة والرمال المتربة والناس لاهون فيتركونها تضيع ولا يستقون منها ومن استقى فقليل غير ظاهر» ثم يشيرون بالمحافظة على تلك الينابيع والاكثار منها

وهم مع هذا يتبرأون من الميل إلى إيجاد دين جديداً و إضافة شيعة على التى وجدت من قبل وينادون بانه «ليس من الغرض بناء مربى جديد ترسو اليه الارواح وانما المراد اطلاق الينبوع فى المراسى الموجودة ليملأها الماء فتتصل ببعضها »

والواقع انهم لا يأتون بدين جديد لانهم لا يقولون بمذهب مخصوص بل تلك فكرة دينية أى ميل دينى مخصوص الغرض منه مقاومة مذهب الماديين وأهل اليأس لذلك مدوا أيديهم الى جميع الطوائف والنحل المسيحية وغيرها ممن يشعرون بحاجتهم الى مساعد أجنبي فى محاربة الشهوات والتغلب على الاهواء جاء في كتابهم المسمى « عقلنا » «انا وان اعتبرنا جميع التابعين للكنائس على اختلافها من المساعدين المحبوبين لدينا نرى أيضاً فى المنشقين أو المتفرقين أبناء لنا لانهم فى عزلة شديدة » أعنى انهم يدعون اليهم كل من آلمته الحياة أدبياً وماديا حتى يكوّنوا هيئة جديدة أساسها تضحية المنفعة الذاتية وترك محبة الذات واماتة الشهوات وأغفال الاميال

الشخصية ومحبة الغير ويقولون « ان الانسان يؤثر باراداته فى نفوس الغير بمجرد اقدامه بشجاعته على العيشه الروحانية »

لكن هل تضحية الذاتيات وتذليل النفس وحب الغير وهى التي يجمعها قولهم « المؤثر الادبي » تؤدى كما يؤكدون لزوما الى رفع شأن العالم الانسانى وايجاد النظام الاجتماعى المطلوب

هذا هو محل البحث وموضع النظر . وأنا أجهر بمخالفتهم وأقول بأن المؤثر الادبى مهما عظم فعله لا يكتفي للقيام بحاجة الهيئة الاجتماعية ولا أبالى اذا أخجلتهم بشذوذى عنهم وأخجلت معهم قوما آخرين . على انى لست من اليائسين فالذين خرجوا عن جميع الاديان ولكنى من المؤمنين التابعين لمذهب مقرر فى الدين ولى كنيسة أركن اليها فقولى هذا ليس ناشئا عن بغض أو مجافاة بل العلم هو الذى أملاه على . وإذا أردتم أيها القراء فابحثوا معى فيه

لنا فى البحث طريق سهل حقيقى وهو أن نقيس مرادهم فى المستقبل بما كان في الماضي . وقد نبغ فى بعض الازمان الماضية رجال من الاولياء البررة الاخيار اعتقد الناس بحق فيهم انهم بلغوا من كمال الصفات وتهذيب الاخلاق حد الاعجاز وبرهنوا على تضحية الذاتيات وردجماح الشهوات وحب الغير أى برهان . ولا شك فى أن أصحابنا يرضون كمال الرضى ويصبحون آمنين على صلاح النوع البشرى اذا تيسر العود الى مثل تلك الاوقات وظهور مثل أولئك الاقطاب ورجوع ذلك الينبوع الى مجاريه

ولننظر ماذا نتج عن ذلك فى الايام الاولى لظهور الدين المسيحى

جرى ذلك الينبوع وفاض حتى فار المـاء واستوى على جانبيه وكان بجانبه أيضاً ينبوع آخر يساعده ماؤه يتكون من دماء ألوف المستقتلين حبا في ذلك الدين وأهله فما أزهرت رياض الاولياء في زمن أكثر من تلك الازمان وما بلغ الانسان في الادب والكمال درجـة أعلى من التي بلغها فيها . ومع هذا يخال لي ان الناس لم ينحطوا الى درك أسفل مما هبطوا اليـه في تلك الايام بذاتها . زمان كان الحكم فيه حكم القياصرة أعني ان حكومته كانت أردأ الحكومات التي تولت زمام الناس في جميع الازمان وأفظعها وهي التي سبقت غيرها في أساليب المظالم وأفانين المغارم وليس لما استولى على الانسان من الذل والهوان والخسف والحرمان وفساد التربية العامة وسوء التربية الخاصـة اذ ذاك نظير الا شذوذاً . قال القس « سلفيان » لسنا نجد مثل تلك المظالم في جميع الامم الا عنـد الرومانيين فما بلغ الفرنك من الشره هذا المبلغ وما عرف « الهونس » وأمم « الفندال » و« الجوط » مثل هاتيك الفظائع والآثام بل ان الرومانيين أنفسهم الذين يعيشون بين المتـبربرين لا يطيقون تلك الفعال ولا يتمنون الا انهم لا يعودون الى حكم الرومان مرة أخرى وهذا هو السبب في ان اخواننا هجروا الاوطان وفضلوا الاقامة بين المتبربرين ومن لم يقدر على الرحيل لكثرة عائلته أو ثقل بيته لم ير بداً في الحياة من الالتجاء الى الاغنياء فأسلموا أنفسهم اليهـم ومع ذلك لم يحمهم الموسرون من ظلم الظالمين بل زادوهم بلاء وشقاء »

وهذا الشقاء قديم تكلم عنه « لاكتانس » فقال « مسحت الاطيان حتى قيست الذرات منها وجرى تعداد قوائم مكعبات الكروم وأصول

الاشجار وسجلت أنواع الحيوانات على اختلافها فى الدفاتر والاوراق ولم تغب نفس واحدة عن الحاسبين وقد حشدت الخلائق فى المدن من جميع الجهات وسارت قوافل الرقيق تروح وتغدو فى الخلاء وسمعت أصوات السياط وضربات التعذيب صاعدة من كل جهة ومكان وكان الرجل يدفع الضرائب عن أرض لا يملكها ولا هى فى يده حتى العجزة حتى المرضى حتى الاموات سجلوا فى دفاتر الصيارف وضربت عليهم الجزية أى على الاحياء من أجلهم)

ولم تترك تلك المظالم بغير طعن ولا تنديد بل قام الالوف من القسس والرهبان والاولياء لنصرة المظلوم ورفعوا أصواتهم بالتنديد على المعتدين وجعلوا يعظون الناس باتباع أسلم المسالك وكانوا لهم فى ذلك قدوة حسنة ولكن الانحطاط استمر فى هبوطه وسار سيراً حثيثاً ولم تجد الاقوال ولا نجحت التعاليم ولم يقف الدمار برهة واحدة من الزمان بل ظل يتقدم حتى استحكم الفشل وتم التمزق والانحلال

هنالك أقبل المتبربرون وأتوا بتلك المعجزات التى عجز عنها أولئك الافاضل والاولياء بسهولة لا مزيد عليها ومن دون أن يلتفتوا إلى ما يصنعون ورغما عن توحشهم ومعائبهم وما ارتكبوا من الجرائم والآثام فبرزت من بينهم الامم الحاضرة التى تخالف الامم الغابرة كل المخالفة وتفوقها من حيث الاخلاق والاحوال الاجتماعية

ربما يعترض بأن المتبربرين انما نجحوا فى تغيير الاحوال الاجتماعية لانهم نشروا فى الامة الرومانية بساطتهم فى المعيشة ولانهم كانوا أقل فساداً

فى الاخلاق لقلة المال عندهم الا أن هذا الاعتراض يسقط إذا لوحظ ان الامم المتبربرة ليست كلها هى التى احتلت البلاد وان الذين جاءوا منها اليها لم يكونوا من أبسطهم معيشة واقلهم مالا « راجع في شرح هـذا الدليل ما كتبه موسيودى نورفيل » فى مجلة العلم الاجتماعى تحت عنوان « تاريخ النشأة الاستقلالية »

على انى لاأنسب نجاح المتبربرين الى توحشهم ورذائلهم وجرائمهم وسأبين فيما بعد سبب هذا التحول وأكتفى الآن ببيان أنهم قاموا بما عجز عنه غيرهم وان ذلك يدل على انهم كانوا يحملون معهم روحاً أشد بأساً وأكبر قوة من فعل المؤثر الادبى

ولنا فى أرلانده مثال آخر علي ضعف ذلك المؤثر الادبى فقد سميت تلك الجزيرة فى القرن السادس بجزيرة الاولياء والقديسين وكانت مشحونة بالمعابد والاديرة ومنها ذهب المرسلون لنشر الدين المسيحى فى الامم الجرمانية وكان فى أمكان جمعية الاخلاق ان تجد فيهم أنصاراً بقدر ماتريد لان كل الناس فى جميع الاقطار كانوا مشتغلين بتلك « الحياة الحقيقية » وكانت تلك البلاد غاصة بالرجال الذين اتصفوا بما تسعى اليه من الاخلاق كحب الخير والعقل والتقى وما كان اعتقادهم كنار القش لاتكاد توقد حتى تصير رماداً بل هو اعتقاد متين لان ارلنده لاتزال الى اليوم مهد الحمية الدينية وكان من اللازم ان هـذه الحياة الادبية توجـد فى تلك الامة حالة اجتماع من أحسن الحالات وأكثرها دواما وأرضاها ولـكنها لسوء الحظ ماجنت الا دوام التقهقر وكان مبدأ ظهوره وهى فى أشد حالاتها تمسكا

بتلك الاخلاق ولا تزال هاوية حتى الآن

وهنا أيضاً لا أنسب تأخرها الى نمو الأخلاق والدين فيها لانني أقع بذلك فيما وقعوا فيه من الخطأ اذ قالوا ان بين حركة الاخلاق وحركة الامم نسبة كما بين العلة والمعلول وهو خطأ انا اجتهد فى نفيه والتحذير منه وسأفى هذا المقام حقه لانه مفتاح الموضوع الذى أبحث فيه

بلغت حركة الأخلاق والدين في ايتاليا فى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر مبلغاً عظيما وظهر فيها من القائمين بتلك الحركة كبار من أهل الدين كالقديسين «فرنسوا داسيز» و« كلير» و«انطوان دى بادو» والسعيد «يواقيم دى فلور» و«حنادى پارم» و« فراسا لامبو » و«يعقو بين دى تودى» و«سليستان» و« كترين دى ستين » وغيرهم ظهرت طوائف الفرنسيسكان و« كلاريس» التى ادهشت الدنيا بفقرها وخضوعها وهما الفضيلتان اللتان يحلهما أصحاب المؤثر الادبى أعلى مقام لقولهم انه لاصلاح للناس « الا اذا تجردوا عن التعلق بكل أمر لا يكون ضروريا » ولقولهم «عجباً لقوم يأتون لينصحوا الامة وهم فى العربات راكبون مع أنها لا فائدة لها من اقتنائهم تلك العربات وهم بذلك انما يزرعون الحسد فى القلوب بما يظهرون من التأنق والترفه ويؤكدون بهذا وجود طبقات بعضها فوق بعض مع أنهم يقولون ان ذلك وهم وخيال وعليه فاذا أردنا أن نشفق حقيقة على الامة ونتأسى لما هى فيه من الآلام ينبغى لنا أن نتجرد عن كل شيء من شأنه أن يجعل الحياة فى الظاهر حياة تفاخر وتنعم ولا محيص لنا عن العمل بهذا الواجب وان كان شاقا كما قدمنا اذ يجب علينا أن نعكس سلم أحكام العقل فنجعل الفوقى

تحتياً والتحتى فوقياً وبالجملة لابد لنا من قلب العقول قلباً تاما فاذا لم تتهيأ النفوس الى هذا الانقلاب فلا بد لها من الانتحاب على مفاسد الناس كما يبكى الاطفال» ولو ان هذا الخطاب قرىء على القديس «فرنسوا داسيز» لامضى عليه باليدين لانه كان يريد أيضاً «أن يتجرد المرء عن كل ماليس ضروريا» قال «اذهبوا ولا تلبسوا فضة ولا ذهباً ولا تأخذوا مالا فى جيوبكم ولا وطابا ولا بردين ولا نعلين ولا عصا» ونحن نعلم ما كان لمذهبه من سرعة الانتشار وكثرة اقبال الناس عليه فلم يمض على تأسيسه تسع سنوات حتى تمكن من ارسال خمسة آلاف مريد الى الجمعية العمومية فى «آسيز» وبلغ عدد أصحابه مائة وخمسة عشر ألف نسمة يقيمون فى سبعة آلاف دير وذلك غير اديرة النساء وعامة القوم الذين مالوا الى ذلك المذهب وجروا عليه

ولو أن تلك الجماهير أصغت الى هذا النداء لاصبح أصحاب المؤثر الادبى آمنين على تحسين حال الامة الفرنساوية لكن الحوادث دلتنا على ان انتشار الاخلاق والدين ذلك الانتشار لم يؤثر بأكثر مما كان له من النتائج فى الدولة الرومانية وايرلنده التعيسة. وظلت عوامل التقهقر تنهك الامة التليانية بين فوضى سياسية وفساد أخلاق دينية. منهما أمة الرومان أيام عبادة الاصنام. ولم تقتصر النهضة الجديدة على ارجاع التليان الى ما كانت عليه الامم الغابرة من الاخلاق والفنون بل أعادت اليها أيضاً رذائلهم الاولى. وانتهى الحال فى ذلك البلد بتقويض أركان نظامه الاجتماعى والسياسى ولم يغن عن ذلك سعى القديسين والاخيار وما كان لهم من النفوذ ولم يقتد الناس بهم فيما كانوا به يتظاهرون.

لست أبغي الاكثار من ايرد الامثلة فتاريخ تلك الازمان محشو بها ولكنى أستميح القراء فى ذكر شاهد واحد

ذهب الناس فى هذه الايام الى تعظيم آداب الديانة البوذية واحلوها مكانا علياً وهى فى الواقع شديدة الاشفاق على الضعفاء والبائسين كثيرة الحنان على المظلومين غير ان هذا ليس المراد بل المدار على معرفة ماذا كانت تعاليم تلك الديانة أوجدت حلا للمسئلة الاجتماعية ونهضت بامم الهند والشرق الاقصى التي كان لها عليها التأثير العظيم من وهادالانحطاط الى أوج السعادة والهناء

بلى ان انحطاط تلك الامم غير محتاج الى دليل وما على الباحث الا ان ينظر بعينه ليعلم كيف الحال وليوقن بان آداب تلك الديانة لم تنتشل تلك الأمم من الحضيض الذى هم فيه

ومن أظهر البراهين على عدم نجاح المؤثر الادبى فى تحسين حال الامم ان الذين ينكرون قولنا لا يسعهم أن ينكروا مايشاهدون فى أحوال الامم مثلنا بل ان الحق يخرج من أفواههم بالرغم عن ارادتهم مدفوعا بقوة الحوادث والمشاهدات وهى أكبر الدوافع وألزمها بيانا

اليك ما جاء فى منشور الحزب المشار اليه قالوا « نعم نحن نعلم ان العائلات والمدارس تقول للاطفال انه يجب على الانسان أن يكون صادقا أمينا من أهل الخير وأن يكون صدقه وأمانته قائمين باخلاصه ونزاهته . ولو كان مجرد قول الشيء وسماعه من المخاطب كافياً للعمل به لاصبح فتح

الضمائر واجتذاب القلوب الى الدين أمراً يسيراً . كذلك قد انتشرت الكنائس والمعابد والهيا كل انتشاراً عظيما ويدخلها الكثير من الاطفال ليتلقوا تعاليمها والعدد العديد من الناس ليسمعوا الوعظ والنصائح وتشاهد أعينهم بما يمثل أمامها من المناظر والاحتفالات كيف ينتقل المرء من حالته الاعتيادية فيصير من أهل الخير تقياً . وللوعظ والارشاد رهبان وقسس يعدون بالآلاف وهم لايفترون عن أداء ذلك الواجب . فلو كان هذا كله مما يوصل إلى الغاية وحده وإن عز نوالهـا لاصبحنا بها ظافرين لكننا مع ما نقول لانرى الانجيل سائداً فى الناس ولا هم يعملون بمقتضى قواعد الحكمة الصحيحة التى أسسها عظماء الفلاسفة فى الاعصر الاخيرة والتى تطابق تعاليم الانجيل ومبادئه . والجلى الواضح إن الفرق عظيم بين درجة الكمال التى يشعر بها الوجدان بعد هذا العناء وبين ما نجرى عليه فعلا من الاخلاق والآداب » « راجع كتاب عقلنا صحيفة ١١ »

ولو انى القائل لما أجدت كما أجادوا والعجب من كون الذين كتبوا ما نقلنا لم يدركوا مكان الضعف فى مذهبهم الذى أسسوه على المؤثر الادبى دون سواه . يعترفون بان « ألوفا من القسس والرهبان يعملون على الدوام لانجاح مقصدهم » في الاخذ بناصر الامم من وهدتها وأولئك القسس والرهبان هم من جميع المذاهب والاديان فنهم الكاثوليكى والبروتستانتى واليهودى وياليتهم كانوا وحدهم بل أضافوا اليهم «عظماء فلاسفة العصر» وخرجوا من هذا كله يعترفون والحزن ملء قلوبهم بانهم كلهم أمسوا خائبين وبان « الناس لايعملون بما قضى به الانجيل وما قرره الحكماء وأعجب

منه انهم بعد ذلك يقولون وهم مطمئنون هادئون بوجوب « الابتداء في العمل من جديد » ويؤملون النجاح حيث لم تنجح الكنائس والمعابد على اختلاف مذاهبها مع ما كان لها من قوة السلطان ونفوذ الكلمة وعلو الشأن كأنهم لم يعرفوا إن عدم نجاح تلك المساعى مع ماسوعدت به من الأعمال والاخلاص والتجرد عن الذات وفعل الخيرات وتضحية النفوس والأرواح وحب الجار دليل على إنه لاشىء ينفع ولا مريد ينجح إن دام يسلك من ذلك الطريق . وكل عالم خابت تجربته لايغيب عنه هذا الخاطر البديهى البسيط ولكنهم لم يعرفوا حتى الآن إن المؤثر الأدبى لايكفى لتحقيق سعادة الأمم ودوام نعيمها وتحصيل مجدها الاجتماعى وإنه ينقصه شىء آخر فقدانه هو السبب فى تخلف الغرض المراد

فلنبحث حينئذ عن ذلك الشيء الذى يعوزنا

وليسمح لى القراء أن أضرب فى البيان مثلا أستعيره من الانجيل وأظن بهذا التشبيه لا أغضب أصحاب المؤثر الأدبى

يمكن تشبيه المؤثر الادبى ببذرة تنبت إن غرست فى أرض صالحة ولا تنبت إن خبث مغرسها . وعليه فلجودة الارض وفسادها تأثير عظيم . ولست بهذا أقول قولا جديداً وانما هو قول متفق عليه اجماعا بالتقريب وقد قرره الوعاظ وعلماء الاخلاق والمتكلمون من كل مذهب ودين الف الف مرة من يوم ان ظهر الانجيل وصار من العاديات لصحته وبداهته

غير أنهم لسوء الحظ أقاموا بجانب هذه الحقيقة خطأ البسها من الظلام ثوبا فاخفاها اذ حسبوا أن جودة البذرة تولد جودة الارض وتقتضي

الانبات وقالوا « ليس من أرض غير صالحة وما الفساد الا فى البذور » وظاهر انه لم يبق بين هذا القول وبين اهمال النظر فى طبيعة الارض التى يراد الغرس فيها الا مرحلة قصيرة وقد اجتازوها بأسهل مايكون فانتقلوا من قضية الى قضية حتى قالوا مانصه بالحرف الواحد « ليس محل البحث معرفة ما اذا كان الزمن الحاضر أردأ من الزمن الماضى لانه ليس فى استطاعة أحد أن يحقق شيئاً فى هذا الباب فمن العبث أن يسأل عنه » ومعناه أن من العبث البحث عن طبيعة الارض المراد غرسها . إدعوا هذا بغير دليل وملأوا اليدين من بذور الاخلاق ثم بذورها في كل صوب ومع كل ريح تهب وعجبوا بعد ذلك من تخلف نبتها أو إنهم أخفوا عجبهم بما ذهبوا اليه من انتظار النبت يوما لايعرفون له وقتاً فقالوا « ان المقصد خطير والعمل جليل فلا يطمعن أحد منا فى أن يدرك بوادر تحققه غير ان هذا لايغير من واجبنا لأن النجاح ليس من أعمالنا (راجع كتاب عقلنا صحيفة ٢٦)

أجل إنما النجاح هو الذى من عملنا وهو كل العمل بل لاعمل لنا الا هو . ومن المستغربات أيها الناس أن تدعوا القيام بذلك المقصد الامجد الرفيع الشأن وهو النهوض بالامم من حضيضها من حيث الأخلاق والأحوال الاجتماعية ثم أنتم تدعون مع هذا إن النجاح أى نهوض الامم ليس من عملكم . انكم إذن قوم تحبون الفنون لذاتها ومكارم الاخلاق لمكارم الأخلاق

ماعدم نجاح أصحاب المؤثر الادبى وحده ممن خلوا من قبلكم الا مسبب عن ذلك الاعتقاد الفاسد بانه لاتأثير لطبيعة الارض التي تلقي

البذور فيها وبانه من (العبث) الالتفات اليها . إنما طبيعة الارض الاجتماعية سبب من الاسباب الجوهرية التي لها التأثير الاعظم في نجاح المؤثر الادبي وخيبته . ولا أريد الاستدلال على ما أقول الا بتجارب موسيو (بول دي جاردان) صاحب الدعوة الى تأليف القلوب حول المؤثر الادبي فقد التقينا في إيدنبورج أيام قصدناها لالقاء بعض الخطب هناك هو في مؤثره الادبي وأنا في العلم الاجتماعي ورأيته متعجبا من اقبال الناس علي مذهبه ويرى كما أخبرني (ان الارض صالحة جداً والواقع انه لقي من أهل تلك المدينة قوما يصغون اليه بكمال الالتفات ويسمعون حديثه بجد واهتمام وعلى أفكار تليق كل اللياقة بمذهبه ونشر مباديه وكان مندهشاً من الفرق بين استعداد الافكار في هذه المدينة وبين حالة الافكار في فرنسا اذ يوجد بين أصحابه أنفسهم عندنا من يتبعه لمجرد الانضمام اليه حباً في التقليد والتمسك بكل شيء جديد جريا على أميال الفرنساويين في هذه الايام الى علوم الادب والأخلاق فان الرجل منا اليوم يتمذهب بمذهب كذا أو كذا ليقال كما جرى على السنتهم ذلك أظرف وأحلى . ذلك أحكم وأدق ذلك هو الرأى الاخير ذلك ميل من الاميال وهكذا من الالفاظ الغريبة التي درجت بينهم . فاذا تبدل الحال أو جد جديد رأيتهم يتسارعون الى ترك ما تعشقوا وذهبوا يتفرجون على الرأى المطل كما يترك الرجل رداء الصيف ليلبس ثوب الشتاء وفي كل هذه الادوار ترى عامة القوم يقلبون ذاك الجد هزلا كما هي عادة الفرنساويين في قلب كل شيء تهكما

تلك أرض ليست صالحة لوضع البذور فيها والنشأة الاجتماعية الحاضرة

ليست مستعدة لقبول فعل المؤثر الادبى كما قامت فى وجهه عند الامة الرومانية وفى إيرلنده وإيتاليا وفى الشرق حيث لم يأت بما كان ينتظر منه من المزايا ولا بما أرادوا أن يكون له منها

وجب إذن أن يبدأ بتغيير النشأة الاجتماعية ذاتها إن كان المراد الوصول الى فائدة صحيحة أعنى انه ينبغى البدء فى الاصلاح بأوله

وأول ما يجب البدء فيه عندنا حتى يكون المؤثر الادبى صالحا للغرض المطلوب تربية الرجال وإعدادهم للحياة الحقيقية . ونحن اليوم نعلم أبناءنا ان منتهى الامل ومنتهى الحكمة هو الاخلاص بما فى الجهد من متاعب الحياة وتقلباتها . يقول الوالد لولده (يابنى توكل أولا علينا فى دنياك فانك ترى كيف نقتصد وندخر لنجمع لك مالا جزيلا نقدمه لك مهراً يوم زواجك ولقد بلغ حبنا لك مبلغا لا نستطيع معه أن نترك أمامك عقبة من عقبات الحياة الا ذللناها ما استطعنا . ثم توكل بعدنا على أقاربنا وأصدقائنا فى معونتك والتوصية بك حتى تنال مرتزقا . وتوكل أيضا على الحكومة فلديها من الوظائف عدد لا يحصى وهناك يبيت المرء مطمئن البال آمنا من التقلبات يقبض راتبه فى آخر كل شهر على التوالى ويترقى بطبيعة الحال لمجرد وجود المعاش وحق التقاعد والوفاة حتى انك لتعرف راتبك متى بلغت سن كذا وكذا ومتى تنال المعاش فتقعد عن العمل آمنا مستريحا بحيث إنك بعد أن تكون قضيت زمنا من حياتك وكأنك لم تأت عملا يمكنك أن تعيش بقية عمرك من غير أن تأتى عملا أبداً وان كنت لاتزال فى سن يكد فيه المرء ويتعب . ولما كان أيها الولد العزيز راتب الوظائف زهيداً وما كل

ما يتمنى المرء يدركه ينبغى لك أن تتوكل أيضاً على المهر الذى تأتى به لك زوجتك وعليه فمن واجبك قبل كل شىء أن تبحث عن زوجة غنية وليطمئن بالك من هذه الجهة فسنبحث لك نحن عليها وسنجدها ان شاء الله . تلك أيها الولد العزيز هى النصيحة التى يمليها علينا حبنا لك وميلنا اليك »

هذا هو القول الذى يسمعه الولد كل يوم فى بيت أبيه ومن جيرانه ومخالطيه وانى ذهب ولا شك في انه يعوده من غير شعوره على الاعتماد على غيره أكثر من نفسه ويبعده عن حب المرتزقات التى تقتضى الجد وتستلزم الهمة والاقدام وقد يصيب فيها أو يخيب كالزراعة والصناعة والتجارة ويجعله ميالا الى الحياة المستريحة

ومتى صار هذا نظره فى الحياة جمدت ارادته وخملت همته وارتخت منه العزيمة وصار غير قادر على الكد والعمل ميالا الى الهرب من الصعاب لا راغبا فى مغالبتها يبحث عما فى الحياة من المسليات لا عن الجديات ويمسى غير قابل لتأثير ذلك المؤثر الادبى الذى يطالب الكد ويوجب على الانسان أن يقهر نفسه ليملكها

هذا هو المانع الاكبر للعمل بمقتضى الارشاد الادبى وحده ولا يمكن ازالته بالمؤثر الادبى وحده. لان الوسط الاجتماعى كله متضافر عليه فالمؤثر الادبى يقول « يجب على المرء أن يكون مستعداً لاجراء ما فيه كلفة عليه» ووسطنا الاجتماعى كله يصيح بضد هذا ويفشى بصوته كل صوت عداه . وجب إذن تغيير هذا الوسط قبل كل شىء وأن يكون تغييره على النحو الذي يوجب نمو همم الافراد الذاتيــة وبعبارة أخري توجيــه الناس الى اعتناق

« الحياة الحقيقية »

يقولون ان هذا أمد بعيد ولكن أقرب الطرق هو الذى يؤدى الى الغرض المقصود والمؤثر الادبى باعتراف أهله لا يؤدى اليه

على أن الطريق ليس بعيداً كما يظنون لان الزمان يدفعنا نحوه ودافع الزمان أشد البواعث كلها والواجب علينا أن نوجه أعمالنا ونلفت هممنا الى معرفة هذه الحركة ونساعدها فى فعلها ونستبطئها لا أن نقاومها ونعيقها ونؤخرها

وها أنا أذكر بوجه الاختصار علامات تلك الحركة وبوادرها

العلامة الاولى اختلاط الجنس الانكليزى السكسونى ومنافسته انا لا يمكننا أن نتخلص من تلك المزاحمة والمنافسة فانا نلتقى مع ذلك الجنس المقدام المغير فى جميع الاقطار التى يمتد اليها نفوذنا . نجده على أبوابنا فى أوروبا ونجده انى ذهبنا فى البلاد الاجنبية وهو الذى نجده فى كل مكان نتخذه مستعمرة لنا أو نضع فيه أى عمل كان . ينافسنا حيث وجدنا بزراعه ومستعمريه وصناعه وتجاره . وأنتم تعلمون ما فى منافسته من الخطر علينا لما امتازت به من عزم القائمين بها وثباتهم وخبرتهم بالمسائل العملية وتعودهم الاعتماد على أنفسهم . فيجب أن يكون لنا مشجع من هذه المزاحمة وتلك المنافسة لان المرء ينبعث الى العمل اذا ضاق الفضاء أمامه وخاف التقهقر من المواقع التى يحتلها ويستفيد من التمثل بخصمه ويتأثر فى أحواله وأعماله

ونحن انما نحث الشبان الذين يحضرون درسنا فى العلم الاجتماعي على الذهاب الى لندره لكى يتلقوا ذلك الدرس المفيد بالخبر والعيان فيها اذ

يجتمعون هناك باهل تلك الامة ويتعلمون منها المزايا التى تفضل بها من عداها

غير ان هذه العلامة لاتكفى للدلالة على ان الترقى بدأ فينا اذا لم تقترن بغيرها مما هو كائن فى الامة نفسها

العلامة الثانية خيبة طريقة التعليم عندنا كما أجمع الناس على تحقيقه

خيبة التعليم ظاهرة لجميع الناس لذلك يزداد عدد المنددين يوما فيوما كما يزدادون جرأة فى التنديد واقداما وفيهم من كل صنف حتى من المدرسين ووزراء المعارف العمومية وجميع الاحزاب السياسية والكل متفق تقريباً على ان المدارس لم تأت بما كان يرجى منها . والمشتغلون بالتعليم يشاهدون سقوطه وانحطاط درجته على وجه العموم . نعم تعلم المدارس شبانا يخرجون منها حائزين للشهادة الثانوية «بكالوريا» أو موظفين ومستخدمين ولكنها لاتربى رجالا قادرين على تحصيل عيشهم بانفسهم

ودليلنا على وجوب ادخال التحوير فى طريقة التعليم عندنا ما قرأناه ضمن خطاب ألقاه فى هذا الموضوع على أحد النوادى موسيو « لاڤيس» رئيس فريق من رجال التعليم عندنا يسعون فى الوصول الى تلك الغاية حتى يكون التعليم صالحاً لاستثمار ما أودع فى المرء من القوى والملكات وهو «انى أذكر كلمة قالها لى أحد الشبان الانكليز» وهى أرجوك أن لاتظننى من العلماء فان المدرسة لاتعلمنا شيئاً كبيراً اللهم فيما أظن الا كيف نسير فى الحياة» وما أجمل هذا الفخار الانكليزى الذى اندرج طى هذا التواضع فى المقال ولا شك عندى فى ان زائرى ما كان ليرضى أن يستعيض عن علم

السير فى الحياة بمعارفنا المدرسية ولو انى عرضت المعارضة عليه لاجابني ان انكلتره محتاجة الى رجال تعودوا الاعتماد على أنفسهم وشبوا على الاستقلال والاقدام ليكونوا لها تجاراً وساسة وصناعا»

وليس بيسير اننا قد عرفنا حاجة طريقة التعليم عندنا الى التغيير والاصلاح وانها لا تعلمنا «كيف نسير فى الحياة» ولا تعودنا على «الاعتماد على أنفسنا» فان ادراك الخطأ أول خطوة نحو الحقيقة

العلامة الثالثة تقدم التمرينات الجسمية عند الشبان

كفانا ما احتقرنا من التربية الجسمية فقد جهلنا منها حتى اسمها . وكلنا يعرف مدارسنا وطول دروسها وقصر أوقات الاستراحة منها وعدم وجود تمرين من أى نوع كان ونزهتها التى تشبه نزهة المسجونين حيث يروح التلامذة ويغدون بين أربع حيطان مرتفعة تحزن النفوس ثم فسحة يوم الخميس ويوم الاحد على النظام العسكرى اذ يخرج الطلبة صفاً صفاً كما يتريض الشيوخ لا الشبان . ولاشك فى ان البقاء تحت هذا النظام يطفئ همة الجسم ويجعله عائقا لصاحبه لا مساعداً له . وعليه فلا يتأتى نمو القدرة والإقدام وحب العمل والميل الى الاستقلال . والرجل اذا كان متمكناً من آلة طبيعية جيدة يكون أشد وثوقا من نفسه . وأقدر على مغالبة الحياة واقتحام متاعبها وأكثر ميلا الى العمل لا الى البطالة والبقاء تابعا كما لو كان موظفاً ويشعر من نفسه شعوراً أعظم برجوليته وهو كذلك فى الحقيقة . وقد انتشرت التمرينات الجسمية انتشارا عظيما منذ بضع سنين كما هو المعلوم ودارت أسماء الالعاب المختلفة الانكليزية على ألسنة الفرنسويين ودخلت

فى لغتهم وخصصت كل جريدة قسما من صفحاتها لنشر ما يتعلق بتلك الالعاب وأنشئت فيها جرائد مخصوصة تطبع بعضها ما يزيد على عشرة آلاف نسخة فى كل مرة وصار يجتمع للتفرج على تلك الالعاب فى بعض الاماكن ما ينوف على العشرين ألف نسمه وقد يغص المكان فيرد الزائرون ولا شبهة فى أن الشبان الذين جذبتهم تلك التمرينات الى هذا الحد هم أقدر من غيرهم على تحمل اتعاب الحياة وأكبر همة وأشد عزما لانهم تعلموا كيف يتغلبون على تكاسل أجسامهم ويحكمون على حركاتها وتلك أحسن الوسائل للنجاح فى ما تقتضيه الحياة من الاعمال وأصبحت هذه الشبيبة محل الأمل وموضع الرجاء

العلامة الرابعة كثرة التزاحم على الوظائف الادارية والحرف الادبية

غصت وظائف الحكومة والحرف الادبية بأهلها حتى ضج الناس كلها وأمسى على باب الوظيفة أو الحرفة الواحدة عشرة طلاب وعشرون ومائه لان كل الناس راغب فيها وزاد عددهم حتى ملئت بهم دهاليز المصالح الادارية وضاقت رحابها وتهافتوا على حمل كتب التوصية وباتوا حيارى. ولما اشتد الامر ظهر فى الوجود فكر جديد وهو ان الناس صاروا يشعرون بصعوبة نوال تلك الوظائف وقل الامل فيها وهى لا تجزي عن الاتعاب التى يقاسونها للوصول اليها وبدأت العيون تشخص الى الحرف المستقلة التى هي أيضاً أكثر ربحا وأوفر كسبا الا انهم لا يزالون مترددين ولكن الشخوص موجود فلنترك الامر لفعل الزمان اذ لابد لهذه الحركة من الظهور تماما وقد ظهرت من قبل فى الشبان الذين هم أكبر استعداداً وأبعد نظر

العلامة الخامسة هبوط فائدة المال

بعد ان كانت فائدة النقود خمسة في المائة نزلت الى أربعه ثم صارت ثلاثة فى هذه الايام بل ان فائدة أحسن القراطيس أقل من ذلك ووجب حينئذ ان لا يعتمد الانسان على ايراده أو مهر زوجته وصار من الصعب كفاية الحاجات برواتب الوظائف لقلتها وأصبحت معيشة الرجل من ايراده الخاص أصعب وأشد حرجا اذا اكتفى به وركن الى البطالة وتلك حال من أقوى البواعث فى حمل المرء على العمل بنفسه وأن لا يعتمد الا على نفسه . وليس فى قدرة الناس أن يستعصوا زمانا طويلا على اجابة هذا النداء لانهم بعد أن يطرقوا أبواب الاقتصاد كلها لابد لهم من دخول ذلك الباب

العلامة السادسة فداحة الضرائب الى الحد الاقصى

الفرنساويون هم الامة التى كثرت ضرائبها عن غيرها وهم يحتملون وقرها بقوة التوفير والاقتصاد لا بقوة العمل والاجتهاد لان الناس اذا ارتقوا فى الامة عندنا تركوا الزراعة والصناعة والتجارة مع ان الذين يرتقون هم الذين كان فى قدرتهم أن يصلوا بها الى الغاية القصوى من التحسين والاتقان بما أوتوا من العقل وما جمعوا من الاموال . ومن هنا نقص إيراد هذه المصادر الثلاثة التى عليها مدار الثروة العامة سنة بعد أخرى وأصبح من المتعسر الاعتماد على الضرائب لانها تصعب حينا بعد حين اللهم الا اذا عرفنا طريق الاعتماد على أنفسنا لنقوم ما اعوج من حال الزراعة والصناعة والتجارة ونوجهها نحو النمو المستمر فهى المنبع الذى تستقى منه جميع الحرف الدخيلة

التى اتخذت لها موطناً مختاراً فى الميزانية

العلامة السابعة ميل الناس ثانيـة الى المعيشة الخلوية والاحـتراف بالمهن المستقلة

والسبب فى هذا الميل هو الازدحام على أبواب الوظائف وهبوط فائدة المـال وعدم كفاية الميزانية بحاجـة الامة وقد بدأ الناس يقللون من إحتقارهم لتلك المهن التى هجروها لمجرد الاستحسان لا بالبرهان ولتوهم انها دون الرتبة والنفور من كل عمل يقتضى الـكد ويطلب الهمة ويكون صاحبه فيه مسؤولا عنه وسيعودون اليها خاضعين لحكم الزمان . ظهرت هذه الحركة على الخصوص فى الزراعة فقد التجأ اليها اضطراراً عدد من أرباب الاملاك الذين خسروا بانحطاط الزراعـة وهبوط فائدة الاموال والتزاحم حول الوظائف الادارية وهم مع ذلك يودون اطالة مدة اقامتهم فى المدن ولـكن طبيعة الحال تدفعهـم الى الريف وقد انتهى بهم الحال — وكان لا بد من ذلك — فتعودوا على الاشتغال باستغلال أراضيهم التى هجرها المستأجرون أو أضروا بها وصار بعضهم يسكن وسط أملاكه ويقضى القسم الاكبر من السـنة فيها ومنهـم من أقام فيها نهائياً طلباً للاقتصاد ومما يدل على تلك الحركة أيضاً انتشار الشركات الزراعية وكثرة الجرائد الزراعية والجمعيات الزراعية فقد ظهرت هذه الجمعية مئات مئات فى كل ناحيـة وكان تأليفها بسعى أصحاب الاملاك الواسعة الذين كانوا فى مبـدأ الامر يستخدمونها فى أغراضهم السياسية وتأييد نفوذهم ولـكنهم صاروا يتأثرون شيئاً فشيئاً بذلك الوسط الجديد وأصبحوا يتعرفون مسائل السماد والآلات الزراعية

التى احتقروها الى هذا الحين وانقلبت الجمعية زراعية محضة بحكم الضرورة ومن جهة ثانية فطن بعض أصحاب الاموال الى هبوط أسعار الاطيان لانحطاط الزراعة فعكفوا على مشترى الاراضى لان غلة الاطيان مائلة الى التقرب من فائدة النقود

العلامة الثامنة التشجيعات على الاستعمار

ان قوة الامة فى الاستعمار من أدل الدلائل على قوتها الاجتماعية لانها تدل على ما لاهلها من الهمة والاقدام والقدرة على الانتشار فى الدنيا وهذه الصفة هى التى أصبحت بها الامة الانكليزية السكسونية تهدد من سواها . نعم لا يسعنا أن نقول بأن فرنسا دخلت فى هذا الطريق حقيقة لانا لا نزال نبعث بالعساكر وللوظفين أكثر من المستعمرين غير ان من المشاهد حصول التشجيع على الاستعمار والاجتهاد فى بيان مزاياه وقد أسست لهذا الغرض شركات وأنشئت جرائد ونظمت بعثات الاكتشاف وصار عدد الذين يهتمون بعلم تقويم البلدان يكثر فى كل يوم كأن الفرنساوى الذى ألف بيته أخذ يلتفت الى انه يوجد خارج فرنسا بلاد تمكن الاقامة والمعيشة فيها . ومع اعترافنا بأن ذلك كله لا يزال فى عالم القوة نرى ان العلامات التى سبق ذكرها تبعث الهمم أيضاً الى الاستعمار وتساعد على نمو تلك الحركة .

العلامة التاسعة سقوط منزلة السياسة والذين اتخذوها حرفة سقوطاً مستمراً

كما ان قوة الامة فى الاستعمار دليل على قوتها الاجتماعية كذلك ثقتها

بالسياسة والمحترفين بها برهان على ضعفها وانحطاطها لما فى ذلك من الدلالة
على ان الناس يعتمدون على الحكومة أكثر من اعتمادهم على انفسهم وانهم
ميالون الى الارتزاق من الوظائف أكثر من ميلهم الى الكسب من المهن
الحرة المستقلة . والذى تطمع فيه الاحزاب بعد انتصارها انما هو التهام
الغنيمة أعنى الوظائف فى الحكومة فالاسلاب لمن ظفر ومتى رسخت
هذه الافكار فى العقول أبعدت أهلها عن الحرف المستقلة والحرف المستقلة
هى التى فيها قوة الامة الحيوية كما ان تلك الافكار تثبط العزائم وتثنى
الهمم . وعندنا اليوم من العلامات الصحيحة مايشير الى ان الفرنساويين
بدأوا ينفضون عن أفكارهم غبار هذا الخيال فصرنا نعقل ان السياسة لم
تأت لنا بما كنا نرجوه منها وان أملنا قد خاب فى كل صوب فلم ننل حظنا
من الحرية والمساواة والاخاء ولم نحظ بحكومة قل مصرفها ولم تخفف عنا
ضرائبنا ولم تحصل المسالمة والاحتمال فى الآراء السياسية والمعتقدات الدينية
ولم ولم بل رجعنا من اليأس الى قلب الحكومات واسقاط الوزارات واكثر
من ذلك تنقيح القوانين وتعديل النظام وأصبحنا وقد اختبرنا كل شىء
وصرنا عالمين بما فى جوف السياسة كلها . ومن أجل ذلك تولد هذا الروح
الجديد الذى نشاهده وهو زيادة عدد الذين يقل اهتمامهم يوما بعد يوم
بالجرائد السياسية المحضة . ارجع الى زمن « الاصلاح » أو زمن « حكومة
شهر يولية » أو زمن « الامبراطورية الثانية » نفسها تر ان كل جريدة
سياسية كانت قوة بذاتها يحترمها الناس ويسمعون قولها وكانت لصاحب
الجريدة قوة كبرى حتى كان أعظم رجال العصر من أصحاب الجرائد ومنهم

من أمسك عليه جريدته فى منصبه وكانت جرائد «ناسيونال» «وجلوب» و« كونستيتيسيونيل» و «الديبا» تقلب الرأى العام كيفما شاءت وتوقد نار الثورة فى بضعة أشهر ان أرادت ولم يكن فى الامة من الجرائد الا السياسية وكانت كل جريدة تشخص فريقا مستقلا من أقسام الرأى العام. ولكن ما أعظم تقلبات الزمان فقد أضاعت الجرائد السياسية قسما كبيراً من سلطانها وقسما أكبر من قرائها وانتقل الرواج إلى الجرائد المسماه جرائد الطريق التى أزوت السياسة الى ركن صغير واعتبرتها تشد الخناق على الناس والى الجرائد الاخبارية التى تنقل الحوادث البرقية من غير أن يكون لها رأى فى السياسة والى النشرات الموضوعية التى تكتب فى الاعمال وتترجم عن حال المهن والصنائع أو تخدم المنافع المحلية وكان هذا الصنف مجهولا تماما قبل أربعين أو خمسين عاما. ومن علامات ذلك السقوط أيضاً ان المراتب السياسية لم تعد وحدها صاحبة المنزلة الرفيعة والمكانة العالية فى نظر الناس ولم يعد للموظفين من الاعتبار ما كان لهم أيام الحكومات السابقة بل الفرق بين الحالتين عظيم. أين ذلك المدير أيام الامبراطورية الذى ما كان يقع بصر أحد عليه إلا وارتعدت فرائصه وتولاه الفزع والاضطراب. أين تلك المحاكم التى عرفناها منذ أربعين عاما حيث كانت كل محكمة اقليم منها أشبه بقديسين تحصنوا فى الوظائف وامتنعوا فى حصون القضاء. لقد أصبحنا شاعرين بان تلك الوظائف أقل ثباتاً وأضعف مكانة مما كنا نظنه من قبل وبانها تقيد استقلال صاحبها بسلاسل وأغلال وبانها قليلة الراتب عديمة المكاسب. هذا ولست اذكر فى بيانى حوادث «بناما» التى تشمئز لاجلها

من السياسة نفوس الذين هم أقل الناس نفوراً منها

اليوم انكشف غطاء الابهة والجلال الذى كان يغشى الدولة ووزراءها وموظفيها ونعم الحال فالذي تخسره الحكومة ايكسبه الافراد والحياة الخصوصية والحياة المحلية وتلك هى الدعائم الحقيقية المتينة التى يشاهد عليها بناء الهيئة الاجتماعية وعلى هذا فى الحال تقدم من تلك الجهة أيضاً

العلامة العاشرة قيام الرأى العام حقيقة ضد سيادة الجندية

ان انتشار الجندية عقبة فى طريق الاصلاح الاجتماعى فانه يضر بثروة الامة ويدفع الشبان الى المدارس العالية فيثنيهم عن الاشتغال بالفنون الجارية والمهن النافعة والذين لا ينجحون فى سبيل الجندية لا يكونون أهلا لاعتناق الحرف المستقلة التى تقتضى الهمة والاقدام الذاتى لان تلك التربية أضرت بهذه الملكات . غير انه يمكننا أن نبشر قومنا بان الجندية أصبحت فى انزواء منذ الآن اذ لم يعد للامة قدرة على تحمل أثقالها زمنا طويلا ولان السلم بهذا الثمن أشد ضرراً من حرب تكون وبالا . وقد فرغت خزائن ايتاليا بما أنفقته حكومتها فى هذا السبيل ولا بد لها من الاقتصاد فى حربيتها . ولا تزال المانيا وفرنسا تقومان باعباء جيوشهما بغاية الصعوبة وان دام الحال زمنا فانه يضر بحياة الامتين . ولا بد لهذا البرهان المالى من الفوز على أدلة الجندية كلها . على ان أنصار الجندية أصبحوا اليوم يذمون ما آلت اليه وأصبحت أعمالهم تكذب أقوالهم وعلموا ان طول الاقامة فى الثكنات يجعل الاحتراف بغير الجندية صعباً بعيد الامكان ومن أجل ذلك تراهم أسرع الناس الى تخليص أولادهم منها والفائز من وجد له

مهربا من ذلك النظام الذى يقولون أمام الناس بضرورته وفوائده . هذا هو السبب فى اقبال الناس على المدارس التى يعفى طلبتها من سنتين فى الخدمة العسكرية منذ صدر القانون الجديد اقبالا حتى صار القاصدون يدوسون بعضهم على أبوابها وفى ذلك من الادلة أظهرها على النفور من الخدمة العسكرية لانها حالة شعرت بها الامة من غير منبه اليها وليس أمام الآباء والامهات فى العائلات الكبيرة من المعضلات التى لا ينفكون يلتمسون لها حلا الا كيف ينجوا بأولادهم من الخدمة المشار اليها وهى مع ذلك أبهى النظامات عندنا . وأما أهل الطبقات النازلة فيخضعون لحكمها وهم يزمجرون ويحسدون أهل الطبقات الرفيعة على تخلصهم منها ومتى هرب الناس من نظام وهجره ألصقهم به وأشدهم دفاعا عنه فقد أدركه الضعف وصار منحطا ولا أظن أن نمو الجندية الى هذا الحد يدوم دوام أعمارنا فان لم يكن فينا من سلامة الذوق ما يكفينا مؤنته لقام بتلك الوظيفة عسر الحال من جهة المال ومنفعة العموم

العلامة الحادية عشر سقوط منزلة المشروعات الخيرية

نعم ان المقصد الذي توجد لاجله جمعيات البر والاحسان وجمعيات الاعانة وجمعيات الخير العام من أجل المقاصد واسماها لكنها مضرة من جهة كونها تحمل الناس يعتقدون بانها كافية لحل المسئلة الاجتماعية مع انها من قبيل المسكنات لا الادواء فهى تخدر الالم كالمورفين ولا تشفيه . والمساعدة الحقيقية انما تكون بجعل المساعد قادراً على الترقى لا تقديم المعونة اليه ومن هذه الجهة كان البحث على حل المسئلة الاجتماعية بتلك

الوسائل لايخلو من الخطر

ومن المحقق ان اقبال الناس على هذه الاعمال وتعظيمهم للقائمين بها أخذ فى التناقص لان المساعى التى بذلت فى سبيل ذلك ذهبت أدراج الرياح ودام خذلانها زمنا طويلا وفقد الناس ما كان لهم فيها من الثقة الحسنى وتيسر لهم أن يقفوا على ضعف تلك المساعى المجتمعة مع ماهى عليه من مظاهر القوة والنجاح لانها ليست في الحقيقة الا برهانا على ضعف الانسان وأيقن الكل بان رئيس المعمل أو صاحب الاطيان أو مدير المتجر اذا اهتم بأمر رجاله أتى بفائدة أكبر مما يأتيه خمسون رجلا من رجال تلك المشروعات فى تحسين حال قوم تشتتوا فى كل صوب وهم لا يعرفونهم وليس بينهم وبينهم أقل رابطة طبيعية فعلية

العلامة الثانية عشرة تدفق المذاهب الاشتراكية

ان العلامات التى سبق ذكرها تدفعنا بلا شك فى طريق غير طريق الاشتراكيين لانها تساعد على نمو الهمة الذاتية وحصر السلطة العمومية. ومن جهة ثانية نرى أعظم الامم تقدما على البقية وهى الامة الانكليزية السكسونية انما حازت هذا التقدم بهمة أفرادها فمذهب الاشتراكيين يناقض حينئذ مجرى الاحوال الحاضرة. أما سبب ظهور هذا المذهب من جهة وكوننا اتخذناه دليلا على تقدم الامم نحو الترقي من جهة أخرى فظاهر وبيانه ان التحول الذى قدمنا ذكر علاماته لايحصل فى أمة بالسهولة من دون أن يضر ببعض المصالح فيها وايلامها بعض الالم. كان الرجل متعوداً على مساعدة أهله وأصحابه والحزب السياسى الذى انتمى اليه

والحكومة وكانت الامة التي يعيش فيها مائلة الى المحافظة على حالتها لا متجهة نحو الترقي وكان التسابق فيها قليلا لضعف وسائل النقل وكل ذلك يؤدي الى بقاء التقاليد كما كانت ودوام وسائل الارتزاق على ماهي عليه . غير ان تسهيل وسائل النقل واتساع نطاق معامل الصناعة على أثر اكتشاف الفحم حطمت جميع تلك الحواجز ومزقت دائرة ذلك الوسط العتيق الذي كان يحتضن الانسان بين جوانبه وأصبح الزارع والصانع والتاجر عرضة لمنافسة جميع الزراع وكل الصناع والتجار في الدنيا فمن كان من القوم ذا عزيمة وهمة واقدام رأى في ذلك الحال الجديد تغييراً لابد منه في الدنيا واتخذ له منه حظا فاندفع يطلب الزيادة في الهمة والاكثار من الاقدام ووصل الى درجة من الغنى والقوة لم تكن لاحد في حساب . ذلك شأن الامة الانكليزية السكسونية لانها كانت في مقدمة الكل من حيث همة افرادها واقدامهم ومن ذلك الحين أخذت تنتشر في ارجاء المسكونة وتهدد جميع الامم الاخرى . ومن كان منهم أقل عزما وأضعف اقداما تولاه الاندهاش وأن تحت أثقال الحياة الجديدة ولم يتخذ لنفسه سلاحا من عزمه ولم يتدارك قواه ليقاوم ماأقبل عليه من المتاعب وأحتفه من الصعاب بل استسهل النحيب أولا وعمد بعد ذلك الى مناجاة وسطه المتمزق البالي من أهل وأصحاب وحكومة وأمة جريا على سنة أسلافه الاولين ثم التفت تلك الجموع الضالة ببعضها وتداعى المتأخرون والضعفاء وفاقدوا الاهلية الى صعيد واحد فاحتشدوا تحت لواء مذهب الاشتراكيين ومامذهب الاشتراكيين الا صورة من صور روكية الشرق التي أدت بامه الى الضعف والانحلال .

هكذا لما رأت طوائف العمال فى القرن الماضى ان منيتها قد حانت باتساع نطاق العامل جمعت ما بقى فيها من القوى وقامت تقاوم التقدم الجديد جهدها فأكثرت منها اللوائح وشددت القيود والاحكام التى كانت تحفظ لها احتكار العمل وتحميها من منافسة الاجنبي ولكن ذهبت اتعابها ادراج الرياح كما يعلمه كل واحد منا ونسف التيار الجديد تلك النظامات العتيقة فجعلها نسيا منسيا

أخطأ الاشترا كيون إذ جهلوا التاريخ فجاؤا بمذهب درجت عليه الاعوام وجعلوا يصادمون الحوادث الطبيعية التى تدفع العالم الانسانى فى طريق جديد . ومهما اجتهدوا وشددوا العزائم فانهم انما يزيدون فى قوة البرهان على هذا المصير الجديد الذى تألبوا لمغالبته بما بقى فيهم من القوة كما فعلت الطوائف التي ذكرناها من قبل وأصبحوا على فعلهم نادمين. وليس لمذهب الاشترا كيون فائدة تنتظر إلا زيادة الضعف فى نفوس أولئك الذين عميت بصائرهم فأصبحوا يرجعون السلامة من منبع لا وجود له الا فى الخيال

ما مذهب الاشترا كيين بجديد يبدو ولكنه قديم يتفانى وعليه فهما قلبنا الحوادث وغيرنا وجهة البحث فيها لا نستفيد منها غير ان العالم متقدم ونحن معه نحو انماء الهمة الذاتية فى الانسان ولا سبيل للنجاح فى هذه الايام إلا بهذا

والآن أسأل ان كان واجبنا اليوم هو فى الاكتفاء بفعل المؤثر الادبى والنداء به نداء مبهما أوفى اننا نقف على حقيقة أحوال المعيشة الجديدة التي

يتوقف عليها رغد الامة لانه ثبت ان المؤثر الادبى وحده لايقوم بحاجتنا فى هذه الازمان وفى اننا ننشر تلك الفضائل الاجتماعية وندافع عنها لانها دار السلام

ولا خوف من هذا على المؤثر الادبى ان ينسى وتثقل عليه وطأة نمو الهمة الذاتية واعتماد كل امرىء فى الحياة على نفسه كما انه لايخشى من حط درجة الانسان وجعله محبا لذاته واماتة الامل وقتل روح الاحتمال وعاطفة الاحسان وحب الجار فيه فانى لن أفرغ من كتابى إلا إذا أسكنت روع القراء مما يخافون

أقول لهم ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى أن الامم التى بلغت فيها همة الانسان منتهاها هى ملجأ الحياة الادبية الصحيحة حيث تثبت الاخلاق وتبقى المحامد . وبيانه ان المؤثر الادبى انما يجعل المرء قادراً على قهر النفس والتغلب على هواها. وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلاً من الحياة الملية التى يتعلم فيها أنه لااعتماد له الا على نفسه . وليس من ضرب يأخذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة فهى التى تقود المرء الى « الحياة الحقيقية » وهى المدرسة الطبيعية التى ترنه كيف يحتمل المتاعب والرزايا وهى الاسهل تناولا والاكثر شيوعا وطلابا . تلك ضرورة أشد فعلا فى النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج من الاخرى ذلك لان الاعمال تدعوا الى العمل أكثر من الاقوال

جاء فى الكتاب « انك لتنال عيشك من عرق جبينك » حكمة هى

أسّ القوة الاجتماعية ومبنى الآداب وبها تتمكن الاخلاق وما من أمة هربت من حكم تلك الحكمة التى تقضى على المرء بالكد والعمل بما تلتمس من الحيل الا انحطت أخلاقها وتأخرت الآداب بين قومها . كذا أهل الجلود الحمر أمام الشرقيين . كذا الشرقيون أمام الغربيين كذا أمم الغرب اللاتينيون والجرمانيون أمام الانكليز السكسونيين

«تم»



فهرست

صحيفة

الباب الثاني

صحيفة

الباب الثالث

الفصل الثاني



تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

أحمد فتحي زغلول باشا

وكيل نظارة الحقانية

خليل صادق

صاحب مجلة مسامرات الشعب

مطبعة الشعب بشارع محمد علي بمصر



الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنساوى المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب « تمدن العرب » وضعه فى بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه « روح الاجتماع » ورأيت فى نقله الى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف فى ذلك فتفضل بالأجازة

طُلب منى أن أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلا صادقاً صحيحاً فان معانيه تنساب فى نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان ؟

القاهرة فى   اكتوبر سنة ١٩٠٩   احمد فتحى زغلول

اهداء الكتاب من المؤلف

الى تيوفيل ريبو مدير المجلة الفلسفية واستاذ علم النفس فى المدرسة الفرنساوية
علامة مودة

جوستاف لوبون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحث فى الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد فى افراده بالتوارث لكن اذا اجتمع عدد من أولئك الافراد للقيام بعمل من الاعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب وقد تختلف عنها فى كثير من الاوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير فى حياة الامم الا ان هذا التأثير لم يبلغ فى زمن من الازمان مبلغه فى الزمن الحاضر فقد حل فى أيامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الافراد المقصود لأربابه بالطبيعة وأصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة

وانى أحاول البحث فى موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضة أعنى انى أريد ان اتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الامور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة ولا سيما اذا كان الموضوع مما يشغل الافكار مثل موضوعنا فالعالم الذى يرمى ببحثه الى تقرير أمر من الامور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح ـ قال عنى أحد كبار المفكرين وهو موسيو « جويليه دالفيالا » فى كتاب نشرناه حديثاً انى كثيراً ماخالفت فى نتائج ابحاثى ما اتفق عليه الباحثون من أرباب المذاهب العصرية لانى لست تابعاً لواحد منها وانى لأرجو ان يكون حظ كتابى هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه اذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام ما فيه من الأوهام

على انى أرى من الواجب ان أوضح للقراء السبب فى انى استخلص من بحثى نتائج تخالف التى يظهر بادىء بدء انها تتأتجه اللازمة كتقريرى مثلا انحطاط القوة الفكرة عنـد الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضل وذهابى مع ذلك الى انه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها

ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلتنى دائماً ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالافراد سواء بسواء فليس فى يدنا أن نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق ان تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً الاّ ان ذلك لا يكون تابعا لأرادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من أسوأ المؤثرات فى الامم مهما دلّ النظر على حسنها لأنها لا تكون مفيـدة الاّ اذا كان فى الامكان تغيير روح الأمة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين انما هى الافكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والنظامات الا صورة من صور النفس العامة التى لنـا وممثـلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم أنه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الامم التى ظهرت تلك الاحوال فيها لأنه ان صح نظراً أن لهذه الاحوال قيمة مطلقة فمن المحقق أن قيمتها عملا نسبية دائمـاً

لذلك ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع أن ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلى للباحث أن تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملى وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة الاّ يسـيراً انظر الى مكعب أو دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لهـا صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً لـكنها قد تحضر أمام العين بصور مختلفة فقـد ترى المـكعب هرماً أو مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطاً مستقيما ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك

الصور الحقيقية لأنها هى التى تتراءى أمامنا وهى التى يمكن للرسم أو لآلة التصوير أن تنقلها لنا ومن هنا جاز القول بأن الصورى حقيقى أكثر من الحقيقى فى بعض الاحوال لأن تشخيص الاشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم الا رسم الاشياء أو نقلها بآلة التصوير من دون أن يتمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية فى اذهانهم على أن معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعنى العلماء لا يفيد الا فائدة صغيرة جداً

اذن وجب على الحكيم الذى يبحث فى الأحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الاحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الأولى هى التى لها شيء من الأهمية فى تطور المدنيات وملاحظة ذلك تقتضى الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطقى بادىء بدء

وهناك أسباب أخرى تدعو الى هذا الحذر منها أن الاحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر أن الأولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو فى الغالب فوق بحثنا فتمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التى تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع فى جوفه من الاضطرابات التى خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتى من الاعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطاً كلياً غير أن لها أعمالا أخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً أو طبيعة أو يداً صمدانية وسماها أهل هذا الزمان (صوت من فى القبور) وعلى كل حال لا يسعنا أن ننكر ما لها من القوة وان جهلنا كنهها وكثيراً ما يظهر أن فى باطن الأمم قوى كامنة ترشدها وتهديها انك لا تجد شيئاً أكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً واجمل خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشيء الغريب فى نظامه العجيب فى أسلوبه الا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة وأعلم المجامع العلمية وأرقى

النحويين انما يجهدون النفس فى تدوين قواعد اللغات وهم لا شك عاجزون عن خلقها كذلك لسنا على يقين من أن الافكار السامية التى يحدثها النابغون من فطاحل القوم انما هى عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها ولكن لا ينبغى أن ننسى أن ذرات التراب التى تراكمت فصارت منبتاً لتلك الافكار انما كونتها روح الجماعات التى وجد اولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائماً عن الشعور بعملها وقد يكون هذا هو السر فى قوتها على أنا نشاهد فى الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجرد الألهام تأتى بأعمال دقيقة يحار الانسان فى معرفة جليل صنعها ذلك أن العقل جديد فى الوجود الانسانى وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الافعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها فى مكانها ان نصيب اللاشعور فى جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية والاول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا

وعليه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة فى معرفة الاشياء من طريق العقل ولا نهيم فى أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا أن نقتصر على تقرير الحوادث التى تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبنى على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً فى غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التى نراها جيداً حوادث لا نراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلا

تمهيد

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى — فى أن تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم — اعتقاد أهل هـذا العصر بقوة الجماعات — فى أن هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية — كيف تسود سلطة طبقات الامة وكيف تجرى تلك السلطة — النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات — فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم — فى أنها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها — فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية — أهمية الوقوف على تلك الأحوال عند الشارع والسياسى

—

يخال الناظر فى أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الامم مثـل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سـياسى عظيم كاغارة الامم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا لـكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغير الـكلى فى أفكار تلك الامم فليست التقلبات السياسـية الحقيقيـة الـكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها وانمـا الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغيـير حال الامم المدنيـة يحصل فى الافكار والتصورات والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغـير خفى فى افكار الناس واذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى أن أشد اخلاق الامم رسوخا عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آبائها

وأحرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان اصليان

الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التى تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة

والثانى قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة فى الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية

ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت الافكار التى ستحل محلها فى دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر أن تتكهن بما قد يتولد يوماً من الايام من هذا الوقت المشوش كما اننا لا نعرف حتى الآن على أى الافكار الأساسية والمبادىء الاولية يقوم بناء الامم التى تخلفنا ولكن الذى نراه منذ الساعة انه سيكون أمام تلك الامم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لأنها اكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات تلك القوة التى قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التى كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد أن حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تتحكم فى الناس وهى القوة التى يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها فى القريب العاجل ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن آساسها وان اساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هى وحدها التى لا يهددها طارىء بل هى تعظم وتنمو وعليه فالدور الذى نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأى الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب — أما الآن فالسياسة التقليدية هى التى أصبحت لاوزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذى يرسم للملوك خططهم وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء اليه وأمسى مصير الأمم راجعاً الى ما تحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه اصحاب مشورة الامراء

لجلوس طبقات الامم على عرش السياسة اعنى تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها هو من أخص مميزات زمن التحول الذى نحن فيه وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هذا التطور لأن هذا الحق بقى ضعيف الأثر زمناً طويلا وكان فى مبدأ أمره سهل القياد وانما تولدت سلطة الجماعات رويداً رويداً بانتشار بعض الافكار التى رسخت فى الاذهان أولا وبتدرج الافراد فى تكوين الجماعات للوصول الى تحقيق تلك النظريات ثانياً فالاجتماع هو الذى ولد فى الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادراكا تاماً فهو ثابت متين والاجتماع هو الذى جعلها تشعر بمالها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات) التى تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الاخرى وغرف التجارة (البورصات) التى تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت فى حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة

والجماعات هى التى تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأى الا ما رأته اللجان التى انتخبتهم

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى فى مراتب الوضوح وهى لا ترمى الى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها الى حالة الاشتراك الأولى التى كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية — تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك

الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير وقد أصبحت بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى وعما قريب يكون للمذاهب التى نراها اليوم فى دور التكون من السلطان العظيم على الأفكار ما للمذاهب التى رسخت أصولها فى الاعتقادات أعنى سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال

وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الاقدسين

ولقد استولى الهلع على قلوب الكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوسطى فى الامم وهم الذين يمثلون اكثر من غيرهم أفكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غير المبنى على التأمل الصحيح وحب الذات البالغ غايته فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذى أخذ ينمو ويعظم ومالوا الى مقاومة ما استحوذ على الافكار من الاضطراب فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الادبى وتأثيرها الروحى بعد أن بالغوا فى احتقارها وغالوا فى اهمال جانبها ونادوا بافلاس العلم فى طريق تهذيب النفوس فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا الى الرجوع للتمسك بحقائق الوحى والتنزيل وفات اولئك المتدينين من جديد أن الوقت قد فات —

واذا صح أن الفيض الالهى أخذ من نفوسهم فانه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتد كثيراً بما يقلق ضمائر اولئك الزهاد فلم تعد ترغب فى الأرباب التى رغبوا هم عنها بالامس وكان لهم نصيب فى تحطيمها وليس فى طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الالهية جعل مياه الانهار تصب فى ينابيعها

ما أفلس العلم ولا ذنب له فى فوضى الافكار التى انتشرت فى هذا الزمان ولا فى سلطة الجماعات التى تنمو وسط تلك الفوضى انما العلم وعدنا كشف الحقيقة أو على الأقل بيان النسب التى تربط الأمور بعضها ببعض مما نقدر على ادراكه لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة أبداً والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا وأصم لا يصل اليه صراخنا وانما نحن الذين يجب عليهم أن يحملوا أنفسهم على الاتفاق معه اذ لا شيء يقدر أن يعيد لنا تلك الأوهام التى فرّت أمام نوره

توجد علامات عامة ظاهرة فى جميع الأمم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لا رجاء فى وقوفه آجلا ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا فكل قول فيه باطل لا فائدة منه ومن الجائز أن تولى الجماعات قياد الامم يكون خاتمة أدوار مدنية الغرب فيرجع الى الانغماس فى أودية الفوضى التى يخال انه لا بد لكل أمة من اجتيازها قبل الوصول الى دور الحضارة والرقى ولكن

أين السبيل الى منع ماهو كائن

ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن فى هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على انه كلما وهنت القوى الادبية التى يقوم عليها بناء تقدم أمة من الامم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التى سميت بحق متبربرة أما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكننا لم نر حتى الآن للجماعات أثراً مثل هذا فهى انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لأن المدنية لاتقوم الا على مبادىء مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على انها غير أهل لتحقيقها اذا تركت وشأنها ـ ومثل الجماعات فى قوتها الهادمة مثل المكروبات التى تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادىء بدىء أن العامل فى حوادث التاريخ هو كثرة العدد

انا لنخشى أن يكون هذا أيضاً مصير مدنيتنا لكن ذلك الذى لا نعرف منه شيئاً حتى الآن

وكيفما كان الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات لأن أيدياً طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التى كانت تمنع من طغيانها

كثر الكلام على الجماعات ونحن لا نعرف من حالها الا يسيراً لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها فجهلوا أمرها على الدوام وانما اشتغلوا بها فى الايام الاخيرة من جهة ماقد ترتكب من الجرائم والآثام نعم توجد جماعات شريرة الا ان هناك أيضاً جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة وهكذا فالنظر اليها من حيث الشر وحده نظر للشىء من جهة واحدة ولا يتوصل الباحث لمعرفة ادراك الجماعات ببحثه فى الجرائم التى قد تصدر عنها كما انه لا يتوصل الى معرفة ادراك

الفرد بالبحث فى عيوبه خاصة

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك ممن شرعوا الاديان وأسسوا الدول ورسل المذاهب كلها وأقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة كانوا دائما من علماء النفس وهم لايشعرون فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة فى أغلب الاحايين ومعرفتهم لذلك جيداً هى التى مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون واسع الخبرة بأحوال الجماعات النفسية فى البلاد التى انبسطت يده عليهاولكنه جهل غالباً روح الجماعات فى شعوب أخر كذلك كان شأن أكبر مستشاريه فانهم أيضاً لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الاجنبية عن أمتهم فقد كتب له (تايلزان) اناسبانيا تلاقى جيوشه لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو انه كان على شىء من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال . ذلك هو السبب فى ان نابليون قام فى بلاد الاسبان وفى بلاد الروسيا على الاخص بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم اخر ملجأ يأوى اليه السياسى العظيم لا لاجل أن يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها

واذا أردنا أن نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات فى الجماعات فانما السبيل الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على أحوالها النفسية وبذلك نفقه ايضاً انه لا قدرة لها على تكوين رأى او التفكير فى شىء خارج عن الدائرة التى رسمت لها وانها لا تقاد بقواعد العدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها فلو اراد وازع فرض ضريبة جديدة وجب عليه ان لا يختار التى هى اقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد فى ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل اكثرها قبولا بالفعل عند الناس فان كانت هذه الاخيرة ايضاً اقل وضوحاً وأخف حملا فى الظاهر كان ذلك أدعى الى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على أقسام صغيرة عند شراء

حاجاتهم اليومية فهى لا تضيق عليهم فيما الفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير محمود فاذا بدلت هذه الضريبة بضريبة الايراد أو الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت أصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هذه الضريبة أخف من تلك عشر مرات ذلك لأن مبلغاً ذا قيمة ظاهرة حل محل فاس يدفع بالتدريج يوما بعد يوم ووجب اداؤه دفعة واحدة وفى ذلك من موجبات الضجر مالا يخفى ولو انهم اقتصدوه درها الى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله ولكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضى شيئاً من التبصر وذلك مالا تقدر الجماعات عليه

المثال الذى قدمناه من أسهل الامثال ومعرفة صحته ميسورة للكافة وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون لكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه لأن التجارب لما تعلمهم ان الناس لا يسيرون أبداً على مقتضى قواعد العقل وحده

ومن السهل الاكثار من الامثلة التى ينطبق عليها علم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاما عدداً كبيرا من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل ادراك حقيقتها بدونه وسأبين فى حينه ان السبب فى كون أكبر مؤرخى الأعصر الحاضرة . وأعنى به المسيو (تاين) لم يفقه تماما بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث فى روح الجماعات بل استرشد فى الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التى هى تصوير الحوادث ووضعها غير ان القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون الا شذوذاً مع ان تلك القوى هى التى تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة أحوال الجماعات النفسية ضرورية سواء أردنا من ذلك جانبها العملى أو الرغبة فى مجرد الوقوف على ماهو كائن فمن المفيد استكناه أسباب الافعال التى تصدر عن الانسان كما انه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الغراس

سيكون كلامنا فى روح الاجتماع موجزاً بمعنى أنه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القارىء منه الا بعض افكار ترشد الى غيرها ولغيرنا أن يوغل فى

الموضوع أما نحن فانما نخططه على أرض لا تزال عذراء [١]

(١) قلت ان القليل من العلماء الذين بحثوا فى علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهـة الجنائية منها أما أنا فلم اخصص لهذه الجهة الا فصلا صغيراً من هذا الكتاب لذلك ارجع القراء الى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التى سماها (الجماعات الجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غـيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على أن ما استخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقليـة وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم

وسأنشر عما قريب كتاباً أتـكلم فيه على روح الاشتراكية وهنـالك تتبين اهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على أن تلك القواعد تنطبق على موضوعات اخر تخالف الموضوع الذى نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ما شاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقى بمدينـة بروكسل فى رسالة كتبها على الموسيقى وسماها اسما جديراً بمسماه وهو (فن الجماعات) وبعث الىّ بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — ان كتابيك هما اللذان ساعدانى على مسألة كنت أرسيء قبل الآن حلها مستحيلا وهى قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواء كانت تلك القطعة جديدة أو قديمة وطنية أو أجنبية بسيطة أو مركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت فى رسالته ان القطعة الموسيقية قد لا يذوقها اشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة فى كسر بيتهم ويدركها لأول وهلة سامعون ليس لهم أدنى المام بقواعد الفن وأصوله

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس — فى أن مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لا يكفى لتكوين جماعة — فى اتحاد وجهة أفكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم — فى أن الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور — انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية — انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً — فى أن ذلك الاحساس المتغيريكون أحسن أو اردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم — سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الجماعات بالمعنى المتعارف اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفو جنساًوحرفة ذكوراً كانوا أو أناثاً وعلى أى نحو اجتمعوا اما فى علم النفس فلها معنى أخر ففى بعض الظروف يتولد فى الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفى الذات الشاعرة وتترجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الا انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصاً لم أجد

لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة أو الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذي تخضع الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم أن مجرد اجتماع أفراد كثيرين اتفاقاً لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وان الف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لا بد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم أن اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والافكار نحو غرض واحد وهما الصفتان الاوليان للجماعة أبان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود أشخاص عديدين فى مكان واحد بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الامة فان اجتمعوا اتفاقا وهم تحت ذلك التأثير لبست أعمالهم ثوب أعمال الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقا وقد تصير الامة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة

وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية الى انواع وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التى تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على أنواع الجماعات ينبغى أن نأتى على بيان الصفات العامة

لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون أولا الخواص التى تصدق على جميع أفراد كل فصيلة قبل أن يشرحوا الخواص التى تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة فى تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقاً لأن نظامها يختلف أولا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التى تقع على الجمعيات المذكورة غير أن هذه الصعوبة حاصلة عند البحث فى نفس الفرد الواحد لأن الفرد لا يحيى حياة واحدة لا تتغير الا فى القصص والروايات وغاية مافى الامر أن وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق فى الظاهر ليس الا وقد بينت فى غير هذا المكان أن فى جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغييراً فجائياً هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية افراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل أو موثقين أولى سكينة هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنابوليون منهم أعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا أن نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب أن يكون بحثنا فى التى كمل نظامها فنعرف حينئذ ما قد يؤول اليه أمر الجماعات لا ماهى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ أن الجماعة التى وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هى التى تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على مافى مجموعها من الصفات الثابتة التى لعامة الشعب وهى التى تتحد فيها الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهى التى يظهر فيها ذلك الناموس الذى سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ما تشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ما هو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين ما لها من الاهمية

أهم ما تمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل

واحد منهم على انفراده وذلك كيفما كان اؤلئك الافراد وكيفما تباينوا أو اتفقوا فى أحوال معيشتهم وفى أعمالهم اليومية وفى اخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد أو يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الاّ عند الفرد فى الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى اجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له تقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وانما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية ألا ترى أنك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة وبين الفرد وحيداً غير أنه يصعب الوقوف على السبب فى ذلك

ولكى يقرّ بنا البحث من معرفة هذه الاسباب على وجه ماينبغى أن لا نغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهى ان للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الاول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وان حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان أدق الباحثين تأملا وابعد المحققين نظراً لايسعه أن يقف الاّ على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل ان حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموع أسباب لاشعورى متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الآباء والجدود التى لايحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب أو الامة التى نحن منها فوراء أسباب أعمالنا التى نقصدها أسباب خفية لا ارادة لنا فيها ووراء هذه أسباب كثيرة أخر أشد خفاء وأكثر غموضاً بدليل اننا لا نفقه شيئاً منها وجلّ أفعالنا اليومية صادر عن أسباب خفية

تفوتنا معرفتها

يتشابه أفراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التى تكوّن روحه العامة وهم انما يفترقون بالخواص الشعورية التى هى نتيجة التربيـة وبالأخص نتيجة وراثة استثنائية وأشد الناس افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر وأعظم الرجال لايتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين الرياضى الـكبير و بين صانع حذائه بعد مابين السماء والارض من حيث العقل والذكاء ولـكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو هو ضعيف للغاية

هـذه الصفات العامة فى الطباع المحـكومة باللاشعورية الموجودة فى جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هى التى لها المقام الاول فى حركة الجماعات فتختفى مقدرة الافراد العقلية فى روح الجماعة وتنزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولـكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر فى عدم قدرتها أبداً على الاتيان بأعمال تقتضى فـكراً عالياً وعقلا رجيحاً حتى انك لاتجد فرقا كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الـكفاآت المختلفة وما يقرره جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة لانهم لايمكنهم أن يشتركوا فى هذا العمل الا بالصفات العادية التى هى لـكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لا الفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كمايقولون غالباً بل الواقع ان فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لـكن لو كان كل فرد فى الجماعات لايأتى لها الا بما اشـترك فيه من الصفات مع غيره لـكانت النتيجة حداً وسطا فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتى تلك الخصال . هذا الذى نبحث فيه الآن

الاسباب التى تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة الاول أن الفرد يكتسب من وجوده وسـط الجمع قوة كبيرة تشجعه على

الاسترسال فى أمياله مما كان يحكم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى

السبب الثانى من الاسباب التى تولد فى الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التى يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهى من فصيلة الحوادث المغناطيسية التى سيأتى الكلام عليها وكل شعور فى الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معد الى حد أن الفرد يضحى مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد فى أفراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابلية التأثر التى هى أصل فى العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة ادراك هذه الظاهرة يلزمنا أن نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دل عليها علم وظائف الاعضاء منها أنه أصبح من الواضح امكان وضع الشخص بطرق شتى فى حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذى أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه وعادته وقد دل النظر الدقيق فى أحوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لا يلبث أن يصير فى حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل اليه من الجماعة او بأسباب أخر مما لم نقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبى اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفىء الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك أيضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله

وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الأخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعا لا قبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة أشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض أخر كما وقع أحياناً من أن لفظا سعيداً أو خيالا يمثل فى الوقت المناسب أمام الجماعة يصدها عن ارتكاب افظع الاعمال .

والخلاصة أن انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة. واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التى أشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن أجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته وفيه منه سهولة التأثر بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه وبالجملة فالانسان فى الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ما هبت .

ذلك هو السر فى أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من أفرادها اذا عرضت عليه وحده وفى أن المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال ما يرفضه كل عضو من أعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير أفظع الاعمال حتى اسلموا للاعدام اظهر الناس برآة من

الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس فى ذواتهم وحسد بذلك بعضهم بعضاً

ليس هذا هو كل ما يفترق به الفرد فى الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقا كلياً بل انه قبل أن يفقد استقلاله الذاتى تتغير أفكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفا والمتردد سريع الاعتقاد والتقى شريراً والجبان شجاعا هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً بتاً

نستنتج مما تقدم أن الجماعة دائماً دون الفرد ادراكا ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه أو اردأ على حسب الاحوال والامر فى ذلك راجع الى الكيفية التى تستفز بها وهذا هو الذى اهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح أن الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح أيضاً أنها شجاعة فى أوقات كثيرة أخر تلك حال الجماعات التى يستفزها قوادها الى التقاتل فى نصرة الدين أو تأييد المذهب أو يستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين أو للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ١٧٩٣ نعم ذلك الشجاع لا يقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فأنا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التى فعلتها الامم وهى هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك الا يسيراً

الفصل الثاني

مشاعر الجماعات واخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب ـ الجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة ـ البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تنمحى أمامها المنفعة الخاصة ـ لا شىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية ـ تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق ـ طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة ـ علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة ـ بعض أمثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم ـ فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة ـ فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من ارداً الادلة على اثبات أمر معين ـ ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها ـ الجماعة لا تعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف ـ فى أن مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم ـ فى علة تلك الصفات ـ فى خنوع الجماعة امام السلطة القوية ـ فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتاً من الاوقات لا يمنع من كونها محافظة للغاية ـ فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة ـ قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من أخلاق افرادها وقد تكون أرقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها ـ علة ذلك

وامثلته ـ قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله ـ شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

بعد أن اجملنا القول فى اهم خواص الجماعات ينبغى أن نأتى عليها بالتفصيل

كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك وملكة النقد والتطرف فى المشاعر وغير ذلك يشاهد ايضاً فى الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكنى لا اذكر هذه المشابهة الا عرضاً اذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على أن ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف احوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الاولى ثم هو لا يقنع من لا المام له بتلك الاحوال اقناعاً تاماً

ولنشرع فى شرح كل صفة من الصفات التى توجد فى أغلب الجماعات



قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام فى صفات الجماعة الأولية انها منقادة عادة الى العمل من دون أن تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبى فى أفعالها أكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطرى وقد تكون الافعال التى تصدر عنها كاملة من حيث التنفيذ الا ان العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعا للمؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة ألعوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها نعم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ماقد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بأن فى الرجل وحده

قدرة يتمكن بها من ضبط أعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شيء من ذلك

تتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة أو قاسية عليها مسحة الاقدام أو الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت أنواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائما لزم أن تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى انها تنتقل فجأة من أفظع الاعمال الى أكبرها رحمة وكرماً فما أسهل ماتصير الجماعة جلادة ولكن ما أيسر ماتكون ضحية أيضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها تأييد كل عقيدة فى الوجود الا من بطون الجماعات ولسنا فى حاجة الى أن نذهب بعيداً فى التاريخ لنعلم ماتقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ أعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو انه أراد لوجد مائة ألف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له (١)

وعلى ذلك لايوجد من أفعال الجماعة ماهو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها فى ذلك مثل أوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتى بأمثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله خصوصاً اذا وقع فى يدها قسط من السلطة العامة ولولا ان مقتضيات الحياة اليومية تفعل فى

---

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا والتفت حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا انه عاجلته المنية لجدد زمان نابليون وأتى الفرنساويون تحت امرته مالم يكن فى الحسبان

الامور كمنظم خفى لتعسر جداً البقاء على الدمقراطية (الحكومات النيابية) الا انه بقدر ماتتطرف الجماعة فى ارادة الشىء تسرع بالعدول عن تلك الارادة فانها لا قدرة لها على الأرادة المستمرة كما انها لاتقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ماتمتاز به الجماعة بل هى مع ذلك كالهمجى لاتطيق وجود حائل بينها وما تريد والذى يساعدها على أن لاتعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيها شعوراً بقوة لاحد لها فتصور المستحيل بعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجل منفرداً بعجزه عن احراق قصر أو سلب حانوت فان دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى أن يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسياباً لايثنيه عنه شىء فان كان في طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام الغضب لقلنا ان الحالة الطبيعية للجماعة التى خولفت فى مقصدها هى الغضب الدائم

وليلاحظ أن خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التى سنأتى عليها فالأولى هى الاساس الذى ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت فى ذلك كثيراً فالفرق جلىّ بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية سكسونية واقرب الحوادث فى تاريخنا يوضح ذلك بأجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نبأ برقى عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ماكان أشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ آخر بانكسار تافه لجيوشنا فى (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة فى الحال وفى ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية أمام الخرطوم انكساراً أكبر من هذا بكثير فلم ينزعج له الرأى العام الانكليزى الا قليلا ولم تتزحزح من أجل ذلك وزارة عن مركزها . كل الجماعات فى كل الأمم كالنساء وأشدها شبها بهن الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز ان يرقى الى الذرى فى وقت قصير لكنه يكون على

الدوام مماساً لصخرة ز بيان[1] وموقناً انه سيتدهور يوماً من الايام



قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات أن من أخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر معد فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعة شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر أو اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لا على ما يرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل أو الاحجام عنه كما فى الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهى لا تعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول (٢)

ثم أن سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع الاقاصيص

---

(١) هى صخرة عالية كان يرمى ببعض الجناة من حالقها

(٢) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل من ذلك أنهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة أميال

التى تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى خيال الجماعة بلا ابطاء لأن الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ما قد يتوارد علينا من الأفكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة أن العقل يرشدنا الى ما بين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها أن تصل الى مثل هذا التمييز وان كل ما احدثه خيالها من التشويش تضيفه الى أصل الحادثة فهى لا تفرق بين الشيء وما يرمى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وما وقع تحت الحس أولا

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لأن أمزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لأن أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولا (١) فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية جسما مرئيا

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى فى رد ماتقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراجح والذكاء الوافر لأنه لاتأثير لتلك الصفة فى موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على النظر والتمييز ماداموا فى الجماعة ورب معترض يقول

---

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

إن تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا ان بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير انى لا أريد أن أترك القارىء أمام قضايا لا دليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين ألوف الحوادث التى يمكن سردها

وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة فى موضوعنا لأنها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد صنوفا وأنواعاً مابين جاهل غبى وعالم ألمعى رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس فى كتابه الذى ألفه فى مجارى مياه البحر وسبق نشرها فى (المجلة العلمية) قال

كانت المدرعة (لا بيل بول) تبحث فى البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافية وبينما هى سائرة اذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقا مشحونا بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة كل ذلك كان خيالا فقدأ نفذ الربان زورقا صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط أكداساً من الناس يموجون ويمدون أيديهم وسمعوا ضجيجاً مبهما يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطىء القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد فى الجماعة بحال لا تحتمل الشك ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهناك رائد يشير الى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضرورى أن تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة ابصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض افراد تألفت منهم جماعة لها ما لكل الجماعات من الصفات وان

كانوا من اكابر العلماء ولبست هذه الصفات كل واحد منهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمى وفى الحال تنزوى ملكة التمييز وتنطفىء روح النقد فى كل واحد منهم ومن الامثلة الغريبة على ذلك ما رواه لنا موسيو (دافى) وهو أحد علماء النفس المحققين وقد نشرته حديثاً مجلة (اعصر العلوم النفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء انكلتره هو المستر (ولاس) وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم أجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الارواح من تجسيم الارواح والكتابة على (الأردواز) وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها ان المشاهدات التى وقعت أمامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات فى يده أعرب لهم ان ماكان انما هو شعوذة ما ابسطها قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب فى بحث موسيو (دافى) ليس ابداعه ومهارته فى الحركات التى قام بها بل ضعف الشهادات التى كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطاء وانه لو صح وصفهم الحوادث التى يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على أن الطريقة التى استنبطها موسيو (دافى) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير فى أفكار جماعته ما جعلها ترى ما لم تكن ترى

ذلك هو تأثير المنوم فى المنوم دائماً واذا تبين ان هذا التأثير جائز فى عقول سامية بعد أن أنذرت فكم يكون من السهل التأثير فى عقول الجماعة العادية

والأمثلة التى من هذا القبيل لاتحصى . أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين وانتشالهما من نهر (السين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة اكيدة واتفقت أقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك فى ذهن قاضى التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما اؤلئك الشهود بالاجماع وبان أنهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الاّ شبه بعيد جداً والذى وقع هنا هو بذاته

ماوقع فى الامثلة التى سردناها . تخيل الشاهدالأول انالغريقتين هما فلانةوفلانة فقال ذلك وأكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير فى هذه الحوادث وأمثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند أحدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة فى ذاكرته ثم يتدرج من ذلك الى القول بما تخيل فتنشأ عدوى التأثر بذلك الخيال الاول فاذا كان أول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفى أن يكون فى الجثة التى تعرض عليه علامة أو أثر خاص كالذى قد يكون فى الجسم الذى سبقت له معرفته ليتخيل انها هى ولو لم يكن بينهما أدنى شبه حقيقى فى الخلقة اذ ذاك يصير الخيال الأول أشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الادراك وتعطل ملكة التمييز تماماً . وحينئذ لايرى الانسان الشىء الذى أمامه نفسه بل الصورة التى خيلت اليه . ومن هنا نفهم السر فى خطأ الأمهات التى يخيل اليهن انهن يعرفن جثث أولادهن كما وقع فى الحادثة الآتية وهى وان تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها أخيراً ومنها يدرك القارىء درجة التأثر الذى بينا كيفيته . عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان أشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الاول . وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة أمر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة فى اليوم الثانى وهى تصيح : ربى انه ولدى . فلما دخلت عليه أخذت تقلب ثيابه فرأت جرحا فى الجبهة فقالت نعم هذا ولدى فقدته منذ شهر يوليه الماضى ولقد سرقوه منى ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت) ثم جيء بزوج اختها فلما وقع نظره على الجثة الا وقال هذا فيليبير . كذلك عرفه كثيرمن سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى فى عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة . أجل كل أولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة اسابيع ان الجثة جثة ولد من اهل مدينة (بوردو) قتل هناك وحملته شركة النقل الى باريس [١]

---

[١] اقرأ جريدة (اكلير) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

والذى تجب ملاحظته هو أن هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعنى من الاشخاص شديدى التأثر اكثر من غيرهم . وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات أمام القضاء . فالواجب أن لا يلتفت الى قول الصبى بحال من الاحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لا يكذب . ولو أنهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا أنه فيه يكذب على الدوام . نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل محال يكذبون والا لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهى الدينار (طره ولا ياز) من أن تبنى على شهادة صبى

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول أنها اكثر المشاهدات خطأ وأنها فى الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقد لا نفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا الحذر والحيطة فى الاخذ بشهادة الجماعة . فقد حضر ألوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقى لهذه الحملة نظراً لتناقض أقوال من شهدوها . واثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره أخيراً أن الرواة أخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن فى سرد أهم الوقائع فى حرب (سدام) وهى التى أجمع الثقات من الناس على صحتها [1]

---

(١) انى أشك كثيراً فى أننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه انما هو الغالب والمغلوب وأظن أنا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جمع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول الثقات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الأوامر ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل أنتم مخطئون ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو داركور هذه الحكاية ليبرهن على أن الوصول الى معرفة حقيقة اشهر الحوادث

هذه الحودث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الأدلة التى يمكن اقامتها لاثبات أمر من الأمور ولكن الذى نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى انه يجب أن تؤلف كتب المنطق فى هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك فى الوقائع التى رواها الجم الغفير والقول بأن الأمر شوهد فى الزمن الواحد من الوف من الشهود هو فى الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق اؤلئك الشهود عليه

نتج من هـذا أنه ينبغى النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهميـة لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس وأردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فأن عمل أى عمل كيفما كان رديئاً أولى من قتل الوقت فى وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ أنه لا ثبات للأقاصيص وأن سجلت فى بطون كتب التاريخ لأن خيال الجماعات لا ينفك يغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذى جاء ذكره فى الانجيـل ويهوذا آله الحب الذى ذكره القديس « تيريز » . وبدليل أن « بوذا » الذى تعبده الصين لم يبق بينه وبين « بوذا » المعبود فى اليابان وجه شبه ما

بل أنه لا يلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغـير صور عظماء الرجال فى خيال الجماعات فأن هذا الانقلاب قد يحصل فى بضع سنين . انا شاهدنا قصة أعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات فى أقل من خمسين عاما . ففى عهـد آل « بوربون » كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقاً للضعفاء ولو صدق الشعراء لبقى ذكره فى اكواخهم « الفقراء » زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا استباب الحكم والحرية وأهلك ثلاثة آلاف الف من النفوس فى سبيل اطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابليون فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذاك الزمان أمام

= حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

هذه الروايات المتناقضة فى وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن فى وجود بوذا وقد لايرون فيه الا خرافة أو صورةمكبرة من صورة « هرقل »اليونانى غير أنه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يسرى الحزن عنهم لقاء هـذا الشك وخفاء الحقيقة اذ يعلمون أن التاريخ انما يخلد الخرافة والاقاصيص



غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة أى سواء كانت طيبة أو رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية. وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً فى أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التمييز الدقيق. ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد فى غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ما ينتشر بعامل التأثر والعدوى . واجماع الـكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لاتعرف الشك ولاالتردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لا يقبـل البحث . والرجل منفرد قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فأنه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً

وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد . لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب . وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لـكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً فى الشر . وتلك بقية

مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى أقبح درجات التطرف .

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام باكرم الاعمال والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيها . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما أن الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها الا المشاعر الغالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة . لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض ابداً الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

. تطلب الجماعة من ابطالها الغلو أيضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها أن يفخموا فى القابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية . وقد شوهد أن الجماعة تطلب من أبطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة واخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيقى .

والكثير ينسب هذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد غير أنها قواعد لا تنطبق غالباً على ما يقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية . والواقع أن فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منحطة . الا أنه يقتضى صفات مخصوصة وكثيراً ما يحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى أن مديرى الملاهى انفسهم عندما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها الا اذا لبثوا ثوب جماعة متفرجين [1] ولو أنه أتيح لنا التوسع

(١) وبما تقدم ندرك السبب فى أن الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحاً دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد أن رفضها مديرو الملاهى

فى هــذا البحث لبينا رجحان تأثير الاخلاق القومية فى هذا المقام .لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلتفت اليها فى بلاد غيرها الا بقــدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لاتحرك فى غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة أبداً . فقد سبق لى بيان ان مدارك الرجل فى الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيما ذلك هو ما شاهده أيضاً أحد أفاضل القضاة موسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقى أو تنحط فى دائرة المشاعر

٤

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم

قلنا ان الجماعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفاً بسيطاً وهى لذلك تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها أو ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على أن هذا هو الشأن فى

= الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى. كذلك رواية لامارين دى شارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فاتفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فمثلت مائتى مرة فى فرنسا وأكثر من الف مرة فى بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى فى الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهم كيف جاز أن يصدر عنهم مثل تلك الاحكام أو يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع كبيرة من شأنها أن تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه . هذا موضوع لايسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بأن يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرسى

المعتقدات التى تتحصل من طريق التاقى لا التى تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير فى عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة فى كل ما اعتقدت أنه حق أو باطل وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت امرتها مساوية لعدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلف . أما الجماعة فلا تطيق ذلك أبداً وأقل خاف يأتى به الخطيب الذى يتكلم فى المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والآمرة شائعان فى الجماعات كلها غير انهما يختلفان فى كل واحدة منها وهنا أيضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القوميـة المتسلط على جميع مشاعر الناس وأفكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والآمرة توجد فى الجماعات اللاتينيـة اذ بلغت عندها الى حد انها اماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هى أشد اخلاق الانكليزى السكسونى فلا تهتم الجماعات اللاتينية الا باستقلال المجموع الذى هى منه . وأخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأى لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصر ولم يكن فى قدرتهم أن يعرفوا سواه

الآمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهى تدركهما بسهولة وتتلقاها بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى الا قليلا لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة المستبدين الذين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لانه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون . فأعز الابطال لدى نفوس

الجماعة من كان شبيهاً بقيصر يخابهم جلبابه ويرهبهم سلطانه ويخيفهم صولجـانه

. الجماعة فى استعداد دائم للانتقاض على السلطان اذا ضعف وهى تحنى الرأس أمام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملتـه بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقة الاجتماع من يظن ان الروح السائدة عـلى الجماعات دائمـاً هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك انما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة ان انفجار بركان الثورة منها وصدور أعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهى ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التى هى فيها ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان أشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثـورة تغطرساً وتطرفا لما ألجم جميع الحريات وأثقل بيده التى من حديد

ومن الصعب أن تفهم التاريخ لاسيما تاريخ ثورة الامم اذا لم نكن على علم تام بتأصل ميل الجماعات الى المحافظة . تبغى الجماعات اسـتبدال أسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لـكن لب هـذه النظامات من حاجات الأمة التى تلقتها عن الآباء والاجداد فهى ترجع اليـه على الدوام . أما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة فى الجماعات قوية كما هى عند أهل النشأة الاولى. يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو ان سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية مابلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لـكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتـل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجمـاعات ما بدأت فى الظهور الا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية

٥
أخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاختفاظ بما اصطلح العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا أن تقول بأن الجماعات أهل للتجمل بأخلاق عالية

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا فى أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا ان أعمالها من هذه الجهة كثيرة .

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته ان العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لايجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن أعمالها فاذا هو إنخرط فيها أمن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . ألا ترى انه لما لم يجرأ على الشر مع أمثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة الصيد عند المغرمين به فهى تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بأنيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس

بقى ان الجماعة كما انها أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل أنواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هى أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار أو باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وأمثلة الصليبيين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد اهل لعظائم الاعمال فى باب النزاهة

والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وافكار وكلمات كانت تكاد لاتفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التى تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة بذلك اليها اكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الأجر الزهيد الذى اقتنعت به من قبل لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد فى عمل الفرد فليست هى التى ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون ان يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هى التى جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه

حتى الأوغاد كثيراً ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة فى نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الاموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع أنه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر (التويلرى) فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة أيام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرذولة الاثر

نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى أحوال أقل شدة من التى تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بأن جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وأرفع الفضائل ومن السذاجة ان تقول بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالباً بمظهر الكمال هكذا المنغمس فى الموبقات والديوث والوغد يزجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب أو سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه فى ندواتهم

ثبت مما تقدم أن الجماعة كما أنها تميل الى الدنايا هى أهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح أن يكون التنزه فى العمل والجلد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمى أو صحيح من الفضائل الادبية جاز القول بأن للجماعة فى الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء الا قليلا حقاً هى تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ما ضرنا

من هذا ونحن لا ينبغى لنا أن نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها الاّ النادر لأنها لو تعقلت أحياناً ورجعت الى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من اركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

الفصل الثالث

افكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) افكار الجماعات — الافكار الاساسية والافكار التبعية — فى اجتماع الافكار المتناقضة — تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها — أثر الافكار فى الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ـ درجة تعقل الجماعة منحطة دائما ـ لاتشابه ولا تلازم بين الافكار التى تجمع الجماعات بينها الا فى الظاهر

(٣) تخيل الجماعات ـ شدة تخيل الجماعة — انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها اصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ـ خلابة الاشياء ومافيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية ـ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة فى الامم — كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير فى تخيل الجماعات

١

افكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار فى تطور الامم وبينا أن كل مدنية

تقوم على أفكار أساسية محدودة قلما تتجدد وشرحنا كيف تتمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لاتدخل عليهـا الا بالصعوبة وما هى القوة التى تكون لها متى احتلتها ثم أوضحنا كيف ان التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليه لانعود الى بسط الكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى وانما نوجز القول فى الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التى تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين الاول الافكار العرضية الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد أو مذهب من المذاهب والثانى الافكار الاساسية التى تكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتاً مثال ذلك العقائد الدينية فى الماضى والافكار الدمقراطية والاجتماعية فى الزمن الحالى

فالافكار الاساسية أشبه بالماء الذى يجرى الهوينا فى النهر . والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التى تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة أهميتها أظهر أمام العين من سير النهر نفسه

وقد أخذت الآن الافكار الاساسية التى عاش بها آباؤنا فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ماكان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من أجل ذلك النظامات التى كانت تقوم عليها وفى كل يوم تظهر أفكار وقتية كثيرة مما ذكرنا الاّ ان القليل منها هو الذى ينمو وهو الذى يكون له فى المستقبل تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التى تلقى فى نفوس الجماعات فانها لاتسود ولا تتمكن الا اذا وضعت فى شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هـذه الافكار المصورة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم فيجوز أن يحل بعضها محل بعض كالزجاجات السحرية التى يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب فى قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عنـد الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التى اجتمعت فى

مدركتها فتأتى بأشد الاعمال تناقضاً وتضاربا

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هى تشاهد أيضاً فى الافراد لا فرق فى ذلك بين من لايزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحى العقل كالذين غلت ثورة الدين فى رؤوسهم بل انى شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيرى الهندستان الذين تربوا فى مدارسنا الأوربية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو افكارهم الاجتماعية الوراثية مجموع أفكار غريبة لا علاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه أو تلك تظهر فى الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال واقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على انه تناقض فى الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيقى لان الافكار الموروثة هى التى لها فى الفرد قوة تصدر عنها أفعاله وانما تكون أفعال المرء متناقضة حقيقة اذا تجاذبته قوتان وراثيتان جاءتا من اختلاط المصاهرة بين عنصرين مختلفين ولا أطيل الكلام هنا على هذه المشاهدات وان كانت أهميتها فى علم النفس كبيرة جداً فانى أحسب أنه يجب لادراكها عشر سنين يقضيها الباحث سائحاً بين الامم

ولما كانت الجماعات لا تقبل الافكار الا اذا صارت بسيطة جداً لزم عليه ان هذه الافكار لا تنتشر ولا تصير عمومية الا اذا تغيرت فى الغالب تغيراً تاماً واكثر ما يشاهد ذلك فى الافكار الفلسفية أو العلمية الراقية فانه لا بد من تغيير عظيم فيها حتى تهبط من طبقة الى طبقة الى مستوى الجماعات . ويختلف التغيير باختلاف الجماعات أو الامم التى هى منها وهو على كل حال صيرورتها صغيرة بسيطة فاذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية نرى اذ ليس من الافكار ما هو راق ومنها ما هو وضيع اذ كيفما كان الفكر جليلا راقياً فانه بوصوله الى الجماعات وتأثيره فيها يتجرد عن رقيه وجلاله

على أن منزلة الفكر لا أهمية لها من الوجهة الاجتماعية اذ المعول عليها انما هو

الأثر الذى ينتج عنه الا ترى أن الافكار الدينية فى القرون الوسطى والافكار الديمقراطية فى القرن الماضى والاجتماعية فى زماننا هذا ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر فان الفلسفة لا تعتبرها الا اغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لا حد لأثرها فيما مضى وستكون ولا حد له فيما يأتى ستبقى هى العوامل الاساسية فى حياة الدول والممالك زمناً طويلا .

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله فى مقدور الجماعات لا يظهر أثره الا اذا دخل فى عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو ما يقتضى زمناً طويلا ولذلك وسائل سنأتى على بيانها فى موضع آخر

فلا يتوهمن القارىء أن أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر فى السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير أنهم لقرب عهدهم بالايمان لا يلبثون أن ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم بعد قليل من الايام رأيتهم يسوقون اليك حججهم الأولى فى ثيابها الأولى بلا تغيير لأنهم خاضعون لسلطان افكار أصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهى وحدها الفعالة فى موجبات اعمالنا وأقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وانتج اثاراً متعددة لا بد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التى أدت الى الثورة الفرنساوية فى سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت أمة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التى تنتهى اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالى الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى أى

حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما أن وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضى زمناً طويلا كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائماً متأخرة فى أفكارها عدة أجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما فى الافكار الاساسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون أن سلطانها لا يزال متمكناً لذلك هم مضطرون فى قيادة الأمم الى مراعاة مقتضياتها ولما يعتقدوا بشىء من صحتها

٣

تعقل الجماعات

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير أن طبقة الأدلة التى تقيمها هى تأييداً لأمر من الأمور أو التى تؤثر عليها منحطة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل الا من باب التشبيه

وتلك الادلة المنحطة مبنية على قاعدة القياس كالأدلة الراقية الا أن رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب فى الفم وكالمتوحش الذى يتصور ان أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل أو كالأجير الذى هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها الا فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزئى الى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا ترو والادلة التى يقدمها اليها اؤلئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لأنها هى الادلة التى تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل أو هى تتعقل خطأ وانها

لا تتأثر بالمعقول وكثيراً ما يعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذى احدثته فى سامعيها على مابها من الضعف والركاكة وكأنى بالمتعجب وقد نسى أن تلك الخطب انما صيغت لتؤثر فى الجموع لاليقرأها العلماء . فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها فاذا نجح فذلك ما أراد ولو القيت خطب فى عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لهـا من التأثير ما احدثته تلك الـكلمات التى دخلت فى الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان أن عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منهـا بملـكة النقد أى يجعلها غير قادرة على تمييز الخطأ من الصواب وان لا تحكم حكماً صحيحاً فى أمر ما . أما الافكار التى تقلبها هى فهى التى تلقى اليها لا التى يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات فى هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الافكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتى

٣

تخيل الجماعات

الجماعات كالذوات التى لا تتعقل فى حدة التخيل وفعله الدائم وفى قابليتهـا للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان أو واقعة أو رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات أشبه بحال المنوّم الذى تقف فيـه حركة العقل هنيهة فتحضر فى ذهنه صور مؤثرة جداً لـكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولمـا كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف أن شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا فى النفس غالباً

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة اكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر فى حضارة ما وجدناها إنما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن اكبر من الواقع والوهمى سائد على الحقيقى

لا تتعقل الجماعات الا بالتخيل ولا تتأثر الا به فالصور هى التى تفزعها وهى التى تجتذبها وتكون سبباً لأفعالها .

لذلك كان التشخيص فى الملاهى من اكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الاشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش واللهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرت القرون وتعاقبت الدهور ولم يتغير هذا الخيال الا قليلا ولا يزال التمثيل اكبر مؤثر فى الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى انه فى عالم الخيال وانه انما ضحك او بكى متأثراً بحوادث تصورية على انه قد يقع ان الصورة تفعل فى النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل اذ كثيراً ماسمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما ارى من اكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمى عليها من ذلك ما للحقيقى تقريباً وهى ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير فى ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد اركان المسيحية والاسلام وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة فى هذه الايام انما هى نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة فى تخيل الجماعات .

ذلك هو العلة فى ان جميع اقطاب السياسة فى كل عصر وفى كل أمة حتى أشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم آساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوما فى ان يحكموا الناس بدونه .

قال نابليون فى مجلس شورى الحكومة (انى اتممت حرب الفنداثيين لما تكثلكت واستوليت على مصر اذ اسلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لانى قلت بعصمة البابا ولو كنت احكم شعباً يهودياً لأعدت معبد سليمان) ويظهر الى انه لم يقم منذ الاسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نديه فى انتصاراته وخطبه وأحاديثه ولا فى عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

فاما كيفية التأثير فى تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفى هنا بالاشارة الى ان ذلك لا يكون ابداً بمخاطبة الادراك والعقل اعنى بطريقة البحث والتقرير بدليل ان (انطوان) لم يهج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل اثارها لما قرأ وصية المقتول واشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو ما يتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة الا بما فيه غرابة أو سر مكنون كانتصار باهر أو معجزة بالغة أو جرم فظيع أو امل دونه الامل فينبغى أن ترمى الاشياء جملة على علاتها وان لا يوضح كنهها ابداً لان مائة جرم صغير أو مائة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماً واحداً كبيراً أو رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها أثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه أن القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى أخذت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضعة اسابيع لان هذه المقتلة لم تبد أمام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصا آت اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثا واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد وفى الطريق العام كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منه تأثراً عظيما

انقطعت أخبار احدى بواخر الاطلانطيق فظن انها غرقت وكان لذلك فى

خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانيـة أيام ودل الاحصاء الرسمى عـلى غرق ٨٥٠ مركب شراعى و ٢٠٣ مُركب تجـارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الأرواح والارزاق مالا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها فى تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعهـا وكيفية تمثيلها أعنى انه يجب أن يتكون من مجموعهـا صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجمـاعات عرف كيف يقودها

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ماهو الشعور الدينى — الشعور الدينى مستقل عن عبـادة الالوهيـة — مميزات الشعور الدينى — قوة المعتقدات التى لها صبغة دينية — أمثلة شتى — فى ان آلهة العامة لم تزل — فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة — الشكل الدينى للالحاد — أهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخية — فى ان الاصلاح أو قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميـع الحوادث المماثلة هى أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

بينا ان الجماعات لاتتعقل وانها تقبل الافكار أو ترفضها جملة وانها لاتطيق المعارضـة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات التى تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ماتنتقل من التأثر الى الفعل وانها اذا حسن التـأثير فيها تضحى نفوسها فداء للمقصد التى وجهت اليه وكـذلك عرفنا ان مشاعرها شديدة

متطرفة فالميل عندها لا يلبث أن ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات أيام سيادة الأديان أو فى أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتى حصلت فى القرن الماضى رأينا انها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم انها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التى تظن لها والخضوع الأعمى لأوامرها واستحالة البحث فى تعاليمها والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى سواء كان محله ألهاً لا يرى أو معبوداً من الحجر أو من الشجر أو بطلا من الشجعان أو رأياً سياسياً فكله شعور تدخل فيه المعجزات وخوارق العادات والجماعات ترى ان فى كل ماخلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذى يعبد الهاً بل متى استلم الانسان عقله وارادته ومافيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصودة ومرمى أفكاره وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور دينى ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة وهاتان الصفتان توجدان فى كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن « الهول » متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين فى القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشى والاكراه فى الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الدينى وما البطل الذى تهلل الجماعة له الا اله فى نظرها. هكذا كان نابوليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود قيادة النفوس الى حتفها

اكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه

ان جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموها الا لأنهم تمكنوا من أحداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة والطاعة ويهيئه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو « فوستان دى كولنج » حيث قال فى كتابه على بلاد الغلوا الرومانية أن الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى النفوس من الاعجاب بها أعجابا دينياً قال « ولم يرو لنا التاريخ أن دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والا لتعذر أن نفهم كيف أن ثلاثين كوكبة من جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة » انما أطاع القوم لأن الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له فى كل قرية حتى الحقيرة محراب . وقد سرى فى المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة . وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين مدينة هيكلا للامبراطور (أوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون) وكان لقسوس هذا الهيكل المقام الاول فى نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فأن الخنوع لا يوجد فى أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة هى التى تعبد الامير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا

ليس لفاتحى النفوس فى هذا الزمان معابدوهيا كل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن الهاً لها فليس شيئاً مذكوراً

لا يقولن قائل تلك أوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل فى هذه الايام لأن العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور أبداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الإلوهية والدين الذى دانت لحكمه ذلك الزمن المديد ولكن معبوداتها لم

تكثر كثرتها منذ مائة عام وهى لم تقم للآلهة السابقين من التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هـذه الايام والذين تقبوا عن الحركة العمومية المسماة « بولنجية » التى حصلت فى السنين الاخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الدينى فى الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة فى قرية الا وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليـه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان فى اخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع فى التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرار أنه لا بد للجماعات من دين ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الآلهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها الا اذا لبثت ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو امكن ادخال عدم الاعتقاد فى الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد دينى ولصار فى الخارج ديناً يتعبد به الناس ومن الامثلة الغريبة على ما نقول ما كان من أمر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمى « نهيلست » الذى روى لنا العلامة « دستو فيسكى » قصته قال اشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمى فعمد الى صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين احد المعابد وحطمها وأطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و « موليشوت » ثم تولاه التقى فاوقد الشموع حول هاتيك الكتب فحل اعتقاده الدينى كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت أبداً

وعليـه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الا اذا وقف على الصبغة الدينية التى ينتهى حتما اليها اعتقاد الجماعات . ومن الحوادث الاجتماعية ما ينبغى البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم « تاين » لم ينظر فى الثورة الفرنساوية الا نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفـل عن البحث فى روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما اثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من

الدماء والتوحش والقسوة فلم ير فى أبطال ذلك الزمن الكبير الا قطيعاً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا امامهم نماً يصدهم عما كانوا يشتهون

على انه لاسبيل لادراك حقيقة ماكان فى الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الا اذا فطن الباحث أنها أى الثورة أثر معتقد دينى جديد حل فى نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح «البروتستانتية» ومقتلة صانت بارتلمى و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه أن يدفع الذى حل فى قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعترض قيام المعتقد الجديدمن دون أن تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هى وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو أنهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر فى الوجود أمثال الانقلابات التى مر ذكرها الا اذا قذفت من جوف الجماعة وليس فى استطاعة اكبر المستبدين اثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا أن الملك هو السبب فى واقعة صانت بارتلمى كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لأن مثل هذه المظاهرات لا تخرج الا من قلب الجماعات ولا يقدر اكبر الملوك وأشدهم استبداداً على اكثر من تعجيلها أو تأجيلها فليس الملوك هم الذين احدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما أن (روبسبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين أحدثوا (الهول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك

الباب الثانى

افكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وأفكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ فى أن ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وماله من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ما ترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ أهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية فى أنها تصير مضرة بعد أن كانت لازمة ـ فى أن الجماعات أشد احتفاظاً للأفكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيىء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ فى انه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ فى الخطأ فى تقدير تأثيرها ـ فى ان تأثيرها ضعيف جداً ـ فى انها آثار لا مؤثرات ـ فى انه لا يتيسر للأمم أن تختار منها ماتظنه الأحسن ـ فى ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ فى انه لا بد لبعض الأمم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربيه ـ خطاء الناس فى أفكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم فى الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق

في التأثير الذي يمكن ان يكون للتعاليم ـ أمثلة عن أمم مختلفة

—

فرغنا من البحث في تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث في كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها في نفوسها

العوامل التي تولد الآراء والاعتقادات في الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فأما العوامل البعيدة فهي التي تهيء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض أعني انها تعد التربة التي تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه في انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة الا ان الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغي البحث عنه

وأما العوامل القريبة فهي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي الى العمل أعني انها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع مايحتمل من النتائج فهي التي تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الأعمال وهي علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج أو ضد حكومة تهبط الى الدرك الأسفل

تتعاقب هذه العوامل بقسميها في جميع حوادث التاريخ العظيمة ففي الثورة الفرنساوية وهي أكبر مثال لتلك الحوادث كانت العوامل البعيدة هي كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهي التي هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك في اجراء اصلاحات لاتعد شيئاً كبيراً وهي التي أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ماهو عام بمعنى انه يؤثر في معتقدات كل جماعة وفي آرائها وهي الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

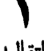
وسنبحث في شأن كل واحد من هذه العوامل

١

الشعب

بدأنا به لأن له المقـام الاول بين العوامل فله وحده من الاثر مايربو على آثارها كلها وقد وفينا البحث فيه حقه في كتابنا (النواميس النفسية لتطور الامم) حتى لم يعد من المفيد أن ترجع اليه هنا اذ بينا هناك ماهو الشعب من حيث التاريخ وكيف انه متى كملت ممـيزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليها اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عنـاصر مدنيته كـذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ جـداً يتعذر معه انتقال أحـد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاما وخصصنا أربعـة فصول منه لشرح هذه القضية لـكونها حديثة العهد ولانه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارىء انه رغم ظواهر الحال التى قد توجب اللبس يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الا اذا أصابها التغير . والتحول . نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هى فيه وقد يكون لها تأثير كبير لـكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب أعنى مع سلسلة تلك المؤثرات الوارثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من ممـيزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافا كبيراً وكذا المؤثرات التى تتأثر بها



التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضى الامة فى أفـكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص

روح الشعب ولها فى القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم أن بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى فى تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ أيضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لأن انتشاره لم يعم بدليل أن كثيراً من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون أنه يتيسر للأمة أن تنخلع عن ماضيها وتنشىء نفسها من جديد غير مستهدية فى ذلك الا بنور العقل وحده وفاتهم أن الأمة جسم منظم أوجده الماضى فهى كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور الا بتراكم اثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليد وهم لا يسهل عليهم أن يغيروا منها سوى الاسماء والاشكال

وليس هذا مما يوجب الأسف اذ لولا التقاليد ما كان هناك شىء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى أن هم الناس منذ وجدوا أن يكون لهم شنشنة تقاليد فاذا زال نفعها اجتهدوا فى هدمها والحاصل أنه لا مدنية الا بالتقاليد ثم الرقى موقوف على هدمها . والصعوبة فى ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الا انها صعوبة كبرى فاذا تأصلت فى الأمة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر عليها الانتقال واصبحت كالامة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتى الا باحدى نتيجتين فاما أن الحلقات التى تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضى الى التربع فى سيادته بدون تغيير ما . واما أن تبقى تلك الحلقات منثورة فهى الفوضى وخليفتا التقهقر والانحطاط

لذلك كان اكبر النعم التى يجب أن تصبو اليها الامة هى المحافظة على النظامات التى ورثتها وان تسير فى الانتقال بها من طور الى اكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به الا دولة الرومان فى الازمان الخالية وأمة الانكليز فى الازمان الحاضرة .

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية واصعبهم مراساً فى معارضة من

يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى أن افضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت أن أشد الثورات عنفاً لا تؤدى الا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على أهل الكثلكة كان يظن أن السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة فى تقريره اذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « ان ما هو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الأحد والتردد على الكنائس يدل على أن مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الامة لأن السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر ـ وهو خطأ وقعت أنا فيه أيضاً ـ القول بامكان ايجاد تعليم عام يكفى لازالة الاوهام الدينية ووجه الخطأ ان فى الدين سلواناً للقسم الاكبر من المساكين ومن أجل ذلك يجب أن نترك للامة قسوسها ومعابدها وعبادتها

هكذا اختفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التى لا يستهان بها هى التى تسكن المعابد ولا فى القصور يقيم عتاة المستبدين أولئك يبادون فى طرفة عين انما الذى لا قبل لنا به هم أولئك الارباب الذين تمكنوا فى النفوس فتحكموا فى الارواح فلا يزول ملكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل



الزمان

أهم العوامل فى المسائل التى يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك

فى المسائل التى يبحث عنها علم الاجسام المنظمة . فهو الموجد الحقيقى الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الى مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لاتتغير ولا تتحول الا بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجودا تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان في آراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها له كذلك الأثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التى لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر آراء الجماعات ومعتقداتها وهو مهيء التربة التى تنبت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذى يركز المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيء بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقا بل ان لكل واحد منها جذورا تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا أردت أن تعرف كنهها فارجع الى ماضيها . هى بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا أن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وما علينا الاّ أن نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التى تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض أركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها . ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو (لافيس) : ما من نظام يقوم فى يوم واحد بل لا بد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الأعصر والأجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطرباً

غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قروناً قبل أن تهتدى الى الاصول المنظمة التى تدير بها حكومة البلاد وكم من اضطراب وقع فى أدوار هذا الانتقال »

٤

النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون الى أن النظامات تقوم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الامم أثر من آثار اتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن احداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الاوامر والقوانين . كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية فى بدايتها واليه يذهب الآن ايضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهباً

ذاك وهم تأصل فى الافكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى اقامة الدليل على أن النظامات نبات الافكار والمشاعر والاخلاق وان الافكار والمشاعر والاخلاق لا تتغير بتغيير القوانين وان الامم لا تختار نظاماتها كما تشتهى كما انها لا تملك اختيار لون اعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذى هى فيه فليست هى التى تخلق زمنها ولكنها هى التى اوجدها زمانها . وليست الامم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما تشاء اخلاقها وطباعها وكما أن كل نظام لم يستقر الا بعد قرون عدة كذلك ينبغى لتغييره قرون عدة. وليس للنظامات قيمة نوعية فى ذاتها فلا هى حسنة لذاتها ولا هى رديئة لذاتها وان ما صلح منها لأمة فى زمان يجوز أن يكون مضراً فى أمة أخرى

لهذا كان من المحقق أن الامة لا تملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم فى امكانها أن تبدل اسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لكن اللب يبقى كما كان أما الاسماء فهى عناوين لا يلتفت اليها المؤرخ الذى ينقب عن حقائق

الأشياء الا ترى أن أعظم أمة ديمقراطية فى الارض هى الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت أمرة حكومة ملكية وان اكبر أمة حفها الاستبداد هى الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهورى الذى يحكمها ذلك مايعترف به للانكليز اعظم الجمهوريين تقدماً فى الولايات المتحدة وانى أذكر للقراء ماجاء فى جريدة (فروم) الامريكية ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لاينبغى أن ينسى الناس حتى الذين هم من أكبر أعداء الشرفاء ان انكلترة هى أول أمم الارض فى الدمقراطية أعنى الأمة التى بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والتى بلغ أفرادها من الحرية أعلى مقام » وبالجملة قائد الامم أخلاقها وطباعها لا حكوماتها . تلك قضية حاولت بيانها فى كتابى السابق وأثبتها بأوضح دليل وأقوى مثال

لذلك كان من العبث جداً اضاعة الزمن فى خلق نظام جديد من جديد بل لا فائدة من شد رحال علم المعانى والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان . هذا الذى اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذى يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولى) ضمن كلام يجب على ادعياء السياسة فى الامم اللاتينية أن يحفظوه على قلوبهم . بدأ المؤرخ ببيان ما أحدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على مايظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما التى اختنقت بين تقلصات الامم اللاتينية فى أوربا وأمريكا وأوضح ان الاول لم ينله التغيير الا على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمى أبداً ثم قال « القواعد التى سار عليها الاثنان وخمسون برلمانا من عهد حنا الى عهد فيكتوريا فى مداولاتها وقراراتها هى انها ما اهتمت مطلقا بحسن التنسيق بل كان كل همها فى الفائدة ولم ترفع شاذاً لشذوذه ولم تأت بجديد الا اذا تحققت ان حرجاً استولى على النفوس من أجله ولم تجدد الا بمقدار ماتتفادى من هذا الحرج ولم تقرر مبدأ

أعم من الضرورة التى اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين فى كل أمـة منتزعة من روحها وانه لايمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً. للزم أن نأتى عـلى كل قانون ونخوض فى كل نظام . فمثلا يجوز الجدل فلسفياً فى هل حصر السلطة وارجاعها فى النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها أم العكس أولى . لـكن اذا رأينا أمة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت ألف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة أخرى ان ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت فيه كان لنا أن نقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التى لامفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الامة وأن نرثى لحال أولئك الذين قصرت احلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو ان الصدفة ساعدتهم على نيل مايبتغون لـكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هى عليه والذى يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة فى أجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعهـا أيام الثورة وعقب الحـرب الفرنساوية الالمانية يتبين له ان العناصر المختلفـة التى لاتزال حية فى بلادنا لاتزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البـلاد تقسيما اعتبارياً لا طبيعياً الى أقسام متعددة توصـلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض فاذا أمكن اليوم تحقيق مايصبو اليه أولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمـال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسى تاريخنا

نتج مما تقدم ان التأثير الحقيقى فى روح الجماعات لايكون من طريق النظامات واذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأينـاها ترفل فى حلل الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديمقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكية — ألفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى أذيال التقهقر والفوضى

وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لافى سعادة الاولى ولا فى شقاء الثانية وبأن الذى يحكم الأمم انما هو أخلاقها وكل نظام لايندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لايدوم . نعم قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد النـاس أنها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال أن النظامات تؤثر فى نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات ـ والصحيح أن لاتأثير لها البتة لأنا قد عرفنا أنها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كانت الغلبة لها ام عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات أوهام وألفاظ وعلى الأخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التى سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لـكل عصر أفكار تسود فيه وان كانت فى الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا فى غير هذا المـكان ما لتلك الافكار من القوة وما هى عليه من القلة

ومن الأفكار السائدة فى هذا العصر ان فى التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وان نتيجته التى لا يشكون فيها هى اصلاحهم بل ايجاد المساواة بينهم . ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين واصبح التعرض له من أصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الـكنيسة فى الزمن السابق

ولـكن آراء الديمقراطيين فى هذا الموضوع كما هى فى كثير من الموضوعات الأخر مناقضة كل المناقضة لما اثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فمما أثبته الـكثيرون من كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصاً (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التى

تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره اكبر من نفعه وأيد علماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم أوهو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان الد أعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينالون غالباً الى مذهبهم مما حازوا السبق فى المدارس وأشار موسيو (أدولف جيو) وهو أحد أعاظم القضاة انه يوجد الآن فى كل أربعة الآف مجرم ثلاثة الآف متعلمون والف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) أعنى بنسبة (١٣٣) فى المائة ولاحظ أيضاً هو ورفقاؤه أن الجرائم تكثر بين الشبان الذين ابدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعلمها فى المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان أن التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عمليـة ذات فائدة كبـيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر فى رقى الاخلاق فانه ينمى الـكفاآت الفنية ولـكن من سوء الحظ أن الامم اللاتينية أسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منـذ خمس وعشرين سنة ومع كون فطاحل العلماء مثـل (بريال) و (فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قـد انتقدوها لا تزال تلك الامم على خطتها فيها وقد شرحت أنا أيضاً فى كتاب لى أصبح قديمـاً أن طريقة التعليم الحالى عندنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى اعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً فى أصحاب اشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

وأول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا أن الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوى الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ ما استطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاستاذية لا يعمل الا للحفظ وهو فى ذلك كله لا يدرب مداركه وهو لا يمرن ملـكة الاقدام على العمل من نفسه لأن التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفى الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الاقدمين

« أن حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو أو مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هى من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بأن المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج الا نقصنا وضعفنا »

ولو أن ضرر هذه التربية كان قاصراً على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على اؤلئك الاطفال المساكين الذين يحفظون فى المدرسة نسب « كلوتير » ومصارعات « نوستيرى » وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من أن يتعلموا أشياء كثيرة أخر نافعة لكن ضررها أكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لا يختار لابنائه عملا الا فى وظائف الحكومة والمدرسة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وانما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك المتعضين المتهيئين دائماً للثورة . وفى اعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التى تعتقد اعتقاداً دينيا فى قدرة الحكومة وبعد امكانها وهى مع ذلك لاتنفك عن القدح فيها والتى تخطىء ثم تؤآخذ الحكومة بماأخطأت والتى لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه

أما الحكومة التى تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها ان تستصنع منهم الا القليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هؤلاء احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة أى من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لا يجد الا مع المشقة نائباً يتولى أعماله فى المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة أمام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن فى مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون

الفاً لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختارون منهم قليلاً فعدد الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لأن اكتساب معارف لا يجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من انجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على أمته (١)

ومن الواضح أن الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما التجارب وهى آخر مرب للأمم ستظهر لنا خطأنا فهى التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما أوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

---

(١) على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة كذلك الحال فى الهند فمن يوم أن فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون فى انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم « بابوس » اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا أعداء الداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط أخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد أفضت الكلام عن ذلك فى كتاب « تمدن الهند » ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

كتب أحد كبار المفكرين موسيو « تاين » صفحات فى هذا الموضوع ما اجلها وسأنقل للقراء طرفا منها فيما يلى فابان بأوضح برهان أن تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز او الامريكان فى الوقت الحاضر او ما يقرب من ذلك ثم اتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بأفصح لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لا عدّ لها مما يرقى ملكات العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار هذه التربية التى تعودناها ولولم تخرج الاعطلة ممتعضين فهل لها هذا الاثر ؟ لا والاسف يملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هى عدة الحياة ولا نجاح الا بها وليس شىء من ذلك فى الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

أما كون التعليم الفنى يربى العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية فذلك ماشرحه موسيو (تاين) شرحا وافياً اذ قال « لاتتولد الافكار الا فى مولدها الطبيعى الاعتيادى والذى ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التى يتأثر بها الشاب كل يوم فى المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامى ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئا كان الصنع أو حسناً غالى الثمن أو رخيصاً . هذه هى الملتقطات الصغيرة التى تتناولها العين والاذن أو الأيدى أو الشم أيضاً التقاطا غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزاً تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلا أو آجلا الى تركيب جديد أو تبسيط مركب او طريقة اقتصاد أو تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذى هو أحوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع سنين أو ثمان فى المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى

تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الأشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات عدة من عمرهم سنوات ماكان أنفعها واكبر أهميتها بل قدكانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك اولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان أو الثلثين انهم لاينجحون وأخرج من بين الناجحين نصفهم او ثلثيهم وهم الذين ابلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون . كلفوهم بما لايطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد أو امام لوحة أن يكون مدى ساعتين أشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ماعلم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك أو مايقرب منه مدة ساعتين ولكنهم لايبقون كذلك بعد مضى شهر من الزمان فلا يقدرون ان يجوزوا الامتحان مرة اخرى لأن معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منهاجديداً لأن الملكات ألقت سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذ ذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التام وهو فى الغالب الرجل الذى قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على ان يدور فى دائرة معينة وان يستقر على الدوران فى الدائرة عينها وينزوى الى العمل الضيق الذى اقام فيه. وصار يؤديه بانتظام . ولا شىء بعد ذلك . هذه هى الثمرة فى المتوسط ولا شك فى إن الوارد لايساوى المنصرف أما فى انكلترا وفى امريكا كما كان فى فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ماصرف او تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان أن ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة ما لنا . وان التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشىء نفسه فالمهندس مثلا يتكون فى المصنع لا فى المدرسة. وهو ما يسمح لكل واحد أن يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا أو رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند

هذا القدر . وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقاً على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة قال موسيو (تاين)

« يدخل التلميـذ والعود اخضر فى المستشفى أو المعدن أو المصنع أو مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدىء فى الحرفة عندنا ويكون قد تلقى أولا بعض دروس عامة مختصرة أو وجدت فيه محيطاً تعشش فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليهـا فى أوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها . هذا نظام تنمو فيه القدرة العلمية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملـكات التلميذ وتسير فى طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من أن ينتزع من نفسه كل ما ملـكت ويصير منـذ الخامسة والعشرين وأحياناً قبل ذلك ان ساعدته كفاءته ومادته منفذاً نافعاً بل مبدئاً مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو أيضاً المحرك لها

أما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الاخرى وصارت تقرب من طريقة أهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحـكيم الـكبير ممـا تقدم النتيجة الآتية التى تدل عـلى مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى فى ادوار التعليم الثلاثة الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الـكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة أو الامتياز لا انتظاراً لشىء آخر وقد أعدوا لذلك اردأ الوسائل فأخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامـذة

فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد وأجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لا بد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقى الذى أضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعه أو اخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى الذى يلزم المرء فيه أن يأخذ أهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائماً على قدميه . مدارسنا لاتكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم مايجب أن يقتنى . لاتكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الارادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من أن تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى أول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية أمره كلما مد يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زمانا طويلا وقد يصير كالاعرج ويبقى كذلك دائما . تجربة قاسية ذات خطر تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الأسى[1] .

(١) راجع تاين (النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩٤) وهذه الصفحات هى آخر ما كتب تاين تقريباً وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف أرى أساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمناً خارج فرنسا لايدركونها على ان التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الأمة ومن سوء الحظ انه لايكاد أحد عندنا يدرك ان طريقة التعليم التى نجرى عليها هى من أشد عوامل الانحطاط العاجل وانها لاترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

ومما يفيد القراء أن يجمعوا بين ما كتب « تاين » والمشاهدات المتعلقة بالتربية فى أمريكا التى ذكرها موسيو « بول بورجيه » فى كتاب « بحر آخر » فقد لاحظ هو ايضاً ان تربيتنا لا تخرج الا اواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام

كأنى بالقراء يظنون انا قد بعـدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لـكن نحن ما زلنا فيه لانه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التى تتولد الآن فى الجماعات ان نعرف كيف هيئت الارض التى تنبت فيها فالتعليم الذى يعطى الأمة هو المرآة التى يرى فيها مصيرها يوماً من الأيام والذى يبذل منه الآن لشباننا يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن أو تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب أن نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عنـدنا فى التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعد أن كانت لاهية بنفسها أو لا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من المتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المتهوسـون أهل التخيلات أو المتفيهقون تجار الـكلام فالآن نحن نعلم أن الاشتراكيين والفوضويين يربون فى المدارس وان فيها تحضر أوقات انحطاط الامم اللاتينية عما قريب

الفصل الثانى

العوامل القريبة فى افكار الجماعات

(١) الصور والالفاظ والجمل ـ فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية ـ فى ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقى ـ

= على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم او فوضويين قال « وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط اخلاقه وعجزه او فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب » ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع إتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربيـة تفوق الوصف هناك يتبين الفرق بين الامم الديمقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا ما جاء على السنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

فى أن تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات — اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف معنى ديموقراطية فى أوروبا وفى أمريكا

(٢) — فى الاوهام — فى اهمية الاوهام — فى أن الاوهام موجودة فى أساس كل مدينة — ضرورة الاوهام فى الاجتماع ـ فى ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) — التجارب — يجوز أن تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم أوهاماً ضارة ـ انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ماتقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) ـ العقل ـ عدم تأثيره فى الجماعات — فى أنه لا يمكن التأثير فى الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق فى التاريخ ـ فى الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيء نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا أن نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى فى الفصل الآتى كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر آثارها كلها

وقد بحثنا فى القسم الأول من هذا الكتاب فى مشاعر الجماعات وافكارها ومداركها ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أى العوامل يفعل فى تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها فى شكل صور ترتسم فى الخيال ولما كانت مناشىء المؤثرات مختلفة كانت العوامل التى لها قوة التأثير فى نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهذا ينبغى الكلام فى كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان أحوال الجماعات

تشبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القدماء فاما أن نتمكن من حل طلاسمها واما ان نستسلم لها فتأكلنا .

١

الصور والالفاظ والجمل

تبين عند البحث فى تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست الصور ممكنة فى كل وقت لكن من السهل استحضارها فى الذهن بالحذق فى استعمال الالفاظ والجمل ومتى كان المستعمل لها بارعاً فانها قوة السحر عند معتقديه فى الزمن السابق فهى التى تثير فى نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب وهى التى تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لامكن أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوبس القديم

السر فى تأثير الالفاظ للصور التى تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية بل الغالب ان أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماما مثال ذلك كلمات ديموقراطية . اشتراكية . مساواة . حرية . وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج فى تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم ان لها سلطانا ينساب فى النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تتمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل فى تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون ان فيها قوة الهية. ألفاظ وجمل تثير فى النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام ابهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد اذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن معانيها كانت مختلفة

باختلاف الأجيال والأمم واذا تحدت صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على الاثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ماهو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ماتكون له تلك القوة أولا ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماما وتصير أصواتا فارغة تنحصر فائدتها فى اعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذاحفظ فى صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها أن يجتاز الحياة بهامن دون احتياج الى اجهاد نفسه بالفكر فى أمر من أمور الدنيا

من تأمل فى لغة من اللغات وجد ان الالفاظ التى تتركب منها لاتتغير مع الزمان الا ببطء عظيم انما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التى تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى ان ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصا اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنساوية كلمة يونانية أو لاتينية أو سنسيكريتية أو أردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين أو ثلاثة فذلك عبارة عن احلال الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لأمم لا نسبة بين حياتها وحياتنا. نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان ألفاظا وظنوا انهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم انما أثبتوا لألفاظ قديمة معانى ما كانت لها أبداً فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء ألسنا نعلم ان كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه أفراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات أشراف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ماعاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان أكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند أهل اثينا أو أهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية

لأنها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هى التى أوجدت وطن الغلوى بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن فى نفوس الامراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن اذ كانوا يحاربون الاجنبى على ملكهم كما فعل البرنس كوبديه ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التى هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما اكثر الالفاظ التى تغير معناها تغيراً كلياً من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الا مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ماكان يفهمه آباء اجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق .

نتج من هذا أن معانى الالفاظ غير ثابتة وانها عرضية أى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فأذا اردنا أن نؤثر فى الجماعات لزمنا أن نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لامعناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها فى الفكر والمعقول

ومن أجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان أخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التى تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم أن يسارعوا الى تغيير تلك الالفاظ من دون أن يتعرضوا لتغيير المسميات لأن هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد وكان نقاداً أن حيل أعمال القنصلية

والامبراطورية (فى فرنسا) كان الباس القسم الاكبر من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ أعنى الاعتياض من الفاظ أصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بألفاظ لا تثير فيها هذا التأثر لحدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن أهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التى صارت الجماعات لاتطيق سماع اسمائها المعروفة باسماء مقبولة أو على الاقل لا مقبولة ولا مكروهة لأن قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفى تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات بأسماء مختارة لترضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) أن اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان فى زمانهما عند الناس « من اقامة استبداد أحق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك »

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم الى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافا كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة

رأينا فى الامثلة التى اتينا عليها أن الزمان هو اهم العوامل فى تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعانى فى الزمن الواحد اختلافا كلياً عند الامم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر ادراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الامم فلا أطيل الكلام فيه ولكنى أشير الى أن اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالها الآن

الأفكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافا بينا عند الجنسين اللاتينى والانكليزى السكسونى فمعنى الديموقراطية عند الأول انزواء ارادة الفرد واقدامه على العمل من نفسه امام ارادة المجموع وهمته والمجموع

تشخصه الحكومة (١) فالحكومة هى المكلفة بادارة كل شىء وحصر كل شىء واحتكار كل شىء وصنع كل شىء وهى التى تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلااستثناء من أحرار الى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزى السكسونى وبالاخص الامريكى من كلمة ديموقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتى الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما أمكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشىء حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد فى بلد جمود ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتى واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد فى بلد آخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول (٢)



الاوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر الدنية لتأثير الاوهام فأقامت لموجديها أكثر التماثيل والهياكل والمعابد وما من مدنية وما من حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض الا وكانت تلك الملوك الهائلة فى طليعة جيوشها أريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هى التى شيدت هياكل الكلدان ومصر وأقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الاوربية من الرأس الى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع فى جبين كل ما أبرزه العقل من المستحدثات الفنية أو السياسية أو الاجتماعية. يهدمها الانسان أحيانا ولكنه يعانى فى ذلك هول الانقلاب العنيس ثم هو محكوم عليه دائماً

---

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التى بيدها زمام الامر فى البلاد

(٢) شرحت القول باسهاب فى كتابى (ناموس تطور الأمم النفسى) على الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (بول بورجيه) فى كتابه (بحر اخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته

أن يقيمها من جديد فلولا هى ماخرج من بربرته الاولى ولولا هى لراح مسرعا يتخبط فى أودية الخشونة والتوحش نعم هى خيالات باطلة وهى من نبات الاحلام ولكنها هى التى ساقت الامم الى ايجاد مافى الفنون من رفيع وجميل وما فى الحضارة من عظيم وجليل

قال (دانيال لوزيار) لو أبيد مافى دور العاديات وما فى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والاثار الفخمة التى أبدعتها الفنون والاديان مابقى فى العالم شىء مما ولدته الاحلام وما كانت الآلهة والابطال ولا الشعراء الا لتحدث فى النفوس شيئاً من الرجاء وبعضاً من الخيال اذ لا حياة للناس بغير الأمل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه أصبح غير قادر على الوعد بادائها كانها عاجزاً عن الكذب الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قرونا وأجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا أيضاً منابع الرجاء وأغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطا بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها والجماعات لاغنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت الى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء . ان الحقيقة لم تكن أبداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه الباطل على الدوام واذا بحثت عن السبب فى قوة مذهب الاشتراكية فى عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لا يزال حيا فى العقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم أنوار العلم التى تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كافيا يجرئهم على وعد الناس بالسعادة فى الحياة والآن أصبح هذا الوهم سائداً فوق اطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت

الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت امامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترضي الأمرة عليها لمن أضلها والويل منها لمن هداها



التجارب

التجارب هى على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة فى نفوس الجماعات وازالة الاوهام التى عظم ضررها انما ينبغى أن تكون عامة ما أمكن وان تتكرر اذ تجارب جيل لا تؤثر غالبا فى الذى يليه ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخيـة للدليل بل تصلح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل الى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل فى نفوس الجماعة

ومن المحقق ان مؤرخى العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذى تقدمه لاحتوائهـا على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها فى زمن الازمان

واكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار الفتن والقلاقل فى اوروبا كلها مدى عشرين عاما لنعرف ان الامة لا تخلق خلقا جديداً بارشاد العقل وحده وقمنا بتجربتين منهكتين فى خمسين عاما لنثبت من طريق التجربة ان القياصرة تكلف الامم التى تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما أرادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة أجنبية على البلاد والثانية أدت الى سلخ أقليم عنها وضرورة ايجاد جيش مستديم مـع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من عهد قريب وهى واقعـة لا محالة يوما من الايام وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التى استنزفت ثروتنا لـكى تقلع الامة كلها عن الوهم بأن جيش الالمان العرمرم لم يكن الاعبارة عن حرس ملى[1]

---

(١) كان رأى العامة فى هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين فى ذهنها

لا خوف منه كما كانوا يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاما

ولو أردنا أن نبرهن للأمم التى تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الاجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاما ومن السهل الاكثار من الامثلة على ماتقدم

٤

العقل

لولا الحاجة الى بيان أن لا تأثير للعقل فى الجماعات ما احتجنا الى ذكره بين العوامل التى تؤثر فيها لأنا قدمنا أن البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات وانها لا تعقل الا بالمشابهات الرديئة ولهذا فأن الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها [1] فلاجل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها

= لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى فى ذلك الزمن مؤلفا من صغار الباعة أهل الدعة الذين لايعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم فى الذهن على الصورة التى عرفها من قبل ولا يتوجس الناس منه خيفة وكان خطأ الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالبا بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول مايأتى ضمن خطابه الذى ألقاه على مجلس النواب فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ ونقله موسيو أوليفيه فى كتاب نشره حديثا وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائما أفكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر أبدا قال ناقلا « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الا حرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لا أهمية له » وهى رواية تبلغ صحتها مابلغه رأى ذلك السياسى فى ضعف مستقبل السكك الحديدية .

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار « باريس » رأيت ذات يوم أناسا يسوقون أحد قواد

ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص أمامها صوراً مؤثرة وينبغى أن يكون مقتدراً على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى وان يتفرس فى كل لحظة أثر كلامه فى نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التى تلجىء الخطيب الى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل فى نفس السامع هى التى تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لأن الخطيب يتبع فى هذه الحالة سلسلة افكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه أقل تأثير عندهم

أما الناطقة فلانهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لايمكنهم الخروج عن عادتهم هذه فى مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقى اعنى الجمع بين الشيء ونظيره فى الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو أن فيها قدرة على أن تتمثل النظائر » وهو مسلم غير أنه لا فرق بين

= الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزمجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان يأخذ رسم أحد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين فلما وصلوا به خرج أحد اعضاء الحكومة وكان خطيباً ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله أن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت ـ كنت شابا فى ذلك الحين ـ اذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل أخذا لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الامة [١] تتم التحقيق الذى بدأتموه وسنزجه فى السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة الا والفريق فى داره ولو انه خاطبهم بما جال بخاطرى من الادلة المنطقية التى اعتقدتها دامغة لمزقوه اربا

---

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين .

الجماعة والمادة فى عدم ادراك النظائر بل فى عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجة العقلية والدليل المنطقى وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى اقناعهم

على انه لا داعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا ان نذكركم من القرون امسكت الاوهام الدينية بالعقول على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية وان اكبر الناس عقلا وأسماهم فكراً انوا تحت حكمها الفى عام وبقى الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وامكن البحث فى صحتها ولقد كان اصحاب العقول النيرة كثيرين فى القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وارشده الدليل الى ما كان فى الاوهام التى استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوماً فى صحة اساءة الشيطان أو فى ضرورة احراق الساحرين

رب سائل أىما يوجب الاسف ان العقل ليس هو الذى يهدى الجموع على الدوام . نحن لا يسعنا أن نقول به بل نرى انه لو كان الهدى للعقل ما اندفعت الانسانية فى سبل المدنية والحضارة بالهمة التى اوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لنا غنى عن الاوهام لأنها نبات الغرائز

كل شعب يحمل فى كيانه العقلى نواميس مآله فى الوجود والظاهر انه يسير محكوماً بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى فى نزعاته التى يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر أحيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التى تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها أو التى تدور بها (ذوات الاذناب) فى دائرتها

على انه لا يسعنا أن نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها فى حركة تطور الأمة العمومية لا فى الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر أن التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة . فلقد كان مما لا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو

« غاليليه » [1] يصير مدة الفى عام كأله جلت قدرته يؤسس باسمه اهم اركان المدنيات فى الدنيا . وكان مما لا يصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التى عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر . كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير فى أوروبا التى لها قدم راسخة فى التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه أن يتداخل كثيرا فى حكم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فى غالب الاحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وانكار الذات والايمان بالدين وحب المجد والوطن وهى الصفات التى كانت ولا تزال أقوى دعائم المدنيات كلها

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

(١) قواد الجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد والتكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الأمة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وأنواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى ـ أمثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

---

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنة ١٦٤٢

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقى علينا أن نذكر كيفية استعمال هذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها استعمالا مفيدا

١
قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان أو من بنى الانسان الا جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب الا ان له بذلك شأنا كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول ارادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لأن تصير طائفة خاصة

والعادة ان القائد يكون قبل ذلك مقوداً . أعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الا ما كان منها وان كل ماخالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) أسكرته افكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها.

ليس القواد غالباً من أهل الرأى والحصافة بل هم من أهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر . على انه ليس فى قدرتهم أن يكونوا بصراء . لأن التأمل يؤدى غالباً الى الشك ثم الى السكون . وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد مااعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ماقصدوا بالغاً منه الخطل مابلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوساً وعناداً . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون فى الغالب أجراً على عملهم الا أن يكونوا من ضحاياه . تزيد شدة اعتقادهم فى قوة تأثير أقوالهم . والجموع تصغى دائما الى قول ذى الارادة

القوية الذى يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار النـاس جماعة فقدوا ارادتهـم والتفوا كلهم حول من كان له شىء منها

وجد القواد فى الامم على الدوام . غير أنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه . بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً الا أنه سريع الزوال . أما أصحاب المعتقدات الصحيحـة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و (لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد أن سكروا بخمر المذهب الذى اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله .

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لافرق بين أن يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً . ولا أن يكون محله عملا أو انساناً أو رأيا بهذا كان تأثيرهم عظيما جداً . لأن الايمان اكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله أنه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمنا زادت قوته عشر أمثالها . والذى قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الا الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا أهل البأس على الاخص هم الذين أقاموا الاديان الـكبر التى سادت على الدنيا . واختطوا الممالك الشاسعة التى امتدت فوق السطحين

غير أن الامثلة التى ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهـل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف فى قهوة أطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون أن يدرك معانيها . ولـكنه يؤكد أن فى العمل بها تحقيق جميع الأمانى والآمال

لا يلبث الانسان أن يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك أمر واقع فى جميع الطبقات ارقاها وادناها . فاما أفراد طبقة العامة فأن الواحد منهم متى خرج عن حرفته أو مهنته لا تجد عنده فكراً واضحاً فى امر من الامور . وكلهم غير كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما امكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التى تصنع لقرائها افكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير الا أن البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القوادأن تكون مستبدةعلى ان استبدادهم هوعلة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً ان فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم اشد عربدة واصعب مراساً مع تجرد أولئك القواد من كل شيء يستندون عليه فى سلطتهم فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات ويفضونها بميقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هى الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها . وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة اكثر مما اطاعت حكوماتها . واذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفكك الاجزاء ولا قدرة فيها . فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير فى باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته . انما الحاجة التى يشتد شعور الجماعة بها هى الخضوع لا الحرية وقد بلغ منها الظمأ الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول أصحاب حدة ونزق وشجاعة وأقدام . وهم على الأخص نافعون فى تنفيذ ما دبر أو كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفى جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناي) و (موزات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدى) فى عصرنا .

هذا فانه كان رجلا هجوما لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولى) القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بهـا على ضعف مدهش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لا يستطيعون التصرف فى أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين فى تصريف غيرهم . أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم الا اذا كانوا أنفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الافكار وساروا فى طريق مرسوم من قبل

أما الفريق الثانى من القواد وهم ذوو الارادة الثابتة فان تأثيرهم أعظم بكثير وان كانوا أقل ظهوراً فى الشكل وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و(كريستوف كولومب) و (دولسبس) . وسواء كان قواد هـذا الفريق من الاذكياء أو الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التى اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شىء الا ان الناس لا يدركون دائما ما عسى ان يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذى يكون من ورائها هو انه لا شىء يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ما تأتى به الادارة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذى فصل الدينين . وأنجز عملا قصرت عنه همة اكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعد ذلك فى عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قد أدركته وكل شىء ينطفىء أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ما تأتى به الارادة وحدها فما عليه الا أن يذكر العقبات التى ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال فى أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذى خلد التاريخ

ذكره فقال « كان ـ يعنى دلسبس ـ يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة، رحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاقى من الصعاب التى ذللها . وكيف جعل المستحيل ممكناً وروى المقاومات التى صادفته . والتحزبات التى اعترضته واليأس الذى كان قد استولى عليه قلبه والخيبة التى كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهى تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوى أشد الجميع معارضة فى البدء بالعمل . حتى انه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء الفرات . ولا تنسى ان ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذى الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علما بأن الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف أو الخسوف »

ان الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هى التى كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ

٣

وسائل القواد فى التأثير

التوكيد والتكرار والعدوى

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة فى الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة . والأمثولة أشد ذلك تأثيراً فى نفوسها الا انه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وان يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتى الكلام فيه

لكن اذا كان الغرض بث أفكار فى عقولها أو معتقدات فى نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما تقدم . وأخص مايستعمله القواد منها ثلاث

التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطيء الا انه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمنا طويلا

فأما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطا خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها .

الا أن قيمة التوكيد هى بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك . وأظن أن نابوليون هو القائل بأن أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشيء رسخ فى الاذهان رسوخا تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة .

للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب افعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هو السر فى تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة ان احسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهى باعتقاد صحة الخبر . ويقرأ الف مرة أن دقيق فلان شفى أعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة أن اصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم فى الصحف أن زيداً من الانذال وعمراً من الفضلاء فينتهى باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً فى جريدة أخرى ما يخالفه فأنه لا يفل التكرار الا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر واجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكرى يتلوه ذلك المؤثر العظيم اى العدوى كما وقع ذلك فى بعض المشروعات المالية الشهيرة التى تمكن اصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لأن للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى فى الجماعات تماثل فى قوتها عدوى

المكروبات وذلك امر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله الخيل كلها . وتجزع الشاة أو تضطرب فى حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان فى الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب فى سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم . حتى أن اختلال القوى العقلية معد . وكثير ماهم اطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعا من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب فى العدوى وجود الافراد الكثيرين فى مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التى تتحد لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدة التى مر ذكرها . ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت فى باريس وماعتمت ان امتدت الى قسم كبير من اوروبا وهزت اركان كثير من الممالك

قالوا أن لحب التقليد تأثيراً كبيراً فى الناس وليس التقليد الا أثراً بسيطاً من العدوى . وقد بينت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة فى غير هذا الكتاب فاكتفى بايراد ما قلته اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هى التى تجعل للبدىء « المودة » تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك فى الافكار أو الاراء او الادبيات أو اللباس لأن الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر اناس قليل عددهم يستحدثون البدىء فيقلدهم ابناء عصرهم فيها . وانما يشترط ان لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لايصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما . ومن هنا قل تأثير الاوروبى فى الشرقى مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه أهل كل عصر فى كل أمة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل

انهم متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على أفكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على انهم أبناء عصر واحد . ولا يلزم أن يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذى يصبو اليه . والعمل الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها [١]

ويبلغ تأثير العدوى الى حد انه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هى التى تنفر من الشىء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان أشد الناس بغضاً له كما وقع فى (تانها وزر)[٢]

والعدوى هى الاصل فى انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففى الخمارة تتولد أفكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى. وقليلا ماتولدت أفكار الجماعات فى كل عصر من غير هذا الطريق . وقد أصاب (رنان)[٣] اذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين «بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة الى أخرى» وقال (فولتير)[٤] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « انها استمرت لايدين بها الا أخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة ان العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها الى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لأنه بدأ يمتد بين الذين يخال انهم سيكونون أول ضحاياه لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف أمامها أثر المنافع الذاتية

هذا هو السبب فى ان الفكر اذا انتشر بين طبقات العامة لابد له من

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجنر نفر الناس منها أولا ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى أواخر القرن الماضى وكان قسيساً فى مبدأ أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح)

(٤) أشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

الانتشار أيضاً بين بقية طبقات الأمة الى أرفعها وان كان فاسداً بعيداً عن الصواب.
وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا . وذلك من أغرب المشاهدات الاجتماعية لأن الافكار العامة لاتأتيهم دائماً الا من أفكار عالية تخلف عنها أثرها فى البيئة التى ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعات بعد أن تتمكن منهم ويشوهونها ثم يؤلفون فئة تزيد فى تغييرها . ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير . ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تصعد الى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية . وعلى هذا يكون العقل هو الذى يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد . فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير تراباً ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل أن تسود الافكار التى أوجدوها



النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت فى الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لاتقف أمامها قوة أخرى . وكل سلطة سادت فى الوجود سواء كانت سلطة الافكار أو الرجال فهو السبب فى قيامها وسيادتها . والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة . ولذلك لم يكن من السهل تعريفها . وقد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب أو الرهبة . وربما كان الاثنان أصلا له فى احوال كثيرة . الا انه قد يوجد بدونهما . مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم . ودليل ذلك ان أكثر من نشعر بنفوذه فينا هم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا . كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير فى النفوس وان كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون فى معابد الهند التى تحت سطح الارض

ويمكن أن يقال ان النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولى بها على العقول. وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراما. ولا يمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن فى كل شعور . الا انه لابد أن يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوما مغناطيسياً . والنفوذ اعظم مقوم لكل سيادة فى العالم اذ لولا هو ماساد الآلهة والملوك والنساء

ثم النفوذ انواع يمكن حصرها فى قسمين . النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى . فالاول هو الذى يرجع لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته. وقد يكون منفصلا عن النفوذ الشخصى وأما النفوذ الشخصى فهو أمر ذاتى قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه . وقد يكون وحده

وأكثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب أو العرضى فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فللجندى فى لباسه وللقاضى فى زيه الرسمى نفوذ ما ارتديا لباسهما. ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة[1] .

ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكى كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشىء من الاضطراب اذا رأى اميراً أو عظيما من الشرفاء ويكفى أن يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذى أشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذى يكون للافكار أو الادبيات أو الفنيات وغير ذلك وهو فى غالب الاحوال ناشىء

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير فى الجماعات فى كل بلد حتى التى بلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات . وانى أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بيانا لنفوذ بعض العظماء فى انكلترة قال : « لاحظت مراراً ان اجتماع أحد الحائزين لقب (بير) مع اكبرهم عقلا وتمييزاً يحدث فى نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص . فمتى كان له

من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الآداب والفنون الا تكرار رأى سبق ولم يعارضه أحد فيؤول الامر الى ان كل واحد يكرر ماقرأ فى المدرسة ووجدت بذلك أسماء وأشياء لا يجرأ أحـد على الحديث فيها فما لا شبهة فيه ان مطالعة « هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً الا انه لا يجرأ أحد على القول به و « البارتينون » أصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض ولا فائدة منها . الا أن نفوذه لا يزال قويا حتى انهم لا يبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوفا بأبهته وفخامته فمن خواص النفوذ أن لا يجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائما والافراد غالبا الى آراء حاضرة فى جميع المباحث وانتشار هذه الآراء غير مرتبط بمـا اشتملت عليه من الصواب أو الخطأ بل مرجعه ما لها من النفوذ

ننتقل الآن الى النفوذ الشخصى وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وان ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم أفكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم واولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضه . وان كان فى استطاعته افتراسه بالسهولة لو أراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى

=من اليسار مايرتكز عليه لقبه فهم يحيونه قبل أن يروه. فاذا التقوا به تلقوا منه كل شيء فرحين . تحمر وجوههم سروراً بمقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر فى العينين بريق غير معهود . اللوردية فى دمهم كالرقص عند الاندلسى . والموسيقى عند الالمانى والثورة عند الفرنساوى . شهوتهم فى الخيل وشكسبير أقل من شهوتهم فى الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم فى رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك و نابليون . وهو السبب فى تمكنهم فانما تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطا لادخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان أولئك العظماء ذوى قوة أخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هى السبب فى شهرتهم . فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . الا انه كان له شىء منه يوم لم يكن له شىء من السلطة ولم يكن معروفا لدى أحد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لايزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد ايتاليا فوجد نفسه بين لواآت عتاة أشداء وكانوا قدأجمعوا أمرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم اياه دخيلا بينهم . ولكنه ماعتم أن أخذ بزمامهم من أول التقائه بهم بلا كلام ولا اشارة ولا وعيد بل بأول نظرة من ذلك الذى قدر له أن يكون من العظماء واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء « اوجيرو » وهو جندى عظيم الجثة غليظ الطبع . مختال بطول نجاده فخور بشجاعته وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم ان سمع به وعرف اوصافه فسماه صنيعة « باراس » ولواء الشارع ونعته بالدب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير و بالخيال فلما اكتملوا ادخلوهم غرفة الاستقبال فأبطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه واخبرهم بنياته وانفذ اليهم اوامره واشار اليهم بالانصراف اما « اوجيرو » فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه الا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه اقر مع زميله (مسينا) ان هذا القائد الصغير اوقع الرعب فى قلبه وانه حائر فى التأثير الذى اخذه به اول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما اوتى من المجد واصبح

فى اعين الجماعات مساويا للآلهة عند المتعبدين اتفق ان القائد « فاندام » وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق اكثر من زميله (اوجيرو) قصد ذات يوم سراى تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد (اورنانو) فقال الاول للثانى وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون (ايها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان فى نفسى تأثيراً لست ادرك كنهه حتى انك لترانى مع كونى لا اخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذنى الرعشة كالطفل الصغير ويخيل الى انه قادر على ادخالى فى سم الخياط واحراقى بالنار) وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير فى جميع من يقترب منه (١)

هذا التأثير الذى فاق حد الاعجاب يبين لنا السبب فى الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « الب » وكيف أنه افتتح ثانية بلا امهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وأمامه جيوش تلك الأمة المنظمة وكان الناس يظنون أنها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين ارسلوا للقبض عليه أن يفعلوا فلم تكن الا نظرة منه اخضعتهم وهم صامتون

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم انه يزيد فيه بمعاملته اكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على انه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين ازعجوا اوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة فى هذا الموضوع فمنها انه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقترب منه نابليون وقال له (اثاب اليك رشدك ايها الابله الكبير) . وكان بونيو واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على اذن الكبير . قال (بونيو) (علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف) . هذه الحوادث وامثالها تدل على ما يفعله النفوذ فى النفوس اذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار . وتبين درجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم انهم لا يصلحون الا حشوا للمدافع .

وكتب القائد (واسلى) فى ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد الفرنساوية وليس معه الا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة (الب) الصغيرة التى كانت كل ما يقدر ان يتسلط عليه فما لبث بضعة اسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملكها الشرعى وذلك من غير أن يريق قطرة دم لواحد من أهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل فى الدنيا واعجب منه ماكان له من التأثير فى حلفائه أثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العمومية فانه كان يلجئهم الى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير

مات نابليون ولكن نفوذه بقى حياً بعده أو صار ينمو وتأثيره هذا هو الذى حمل الناس على الاعتراف بابن اخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وها نحن أولاء اليوم نشهد ظهور اقاصيصه من جديد وذلك برهان على أن خياله لا يزال قوياً فى النفوس . اسيء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على البلاد غارة وغارة انك فى حل مما تصنع ما دمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ما تحمى به ذاك النفوذ

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثال عزيز المثال والحق انى اخترته عمداً لابين للقراء كيف ثبتت أركان الديانات الكبر . وقامت المذاهب العظام . وانشئت الممالك الواسعة اذ لولا تأثير النفوذ فى الجماعات ما كنا لذلك مدركين

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصى والفخار العسكرى والرهبة الدينية دون سواها . بل يجوز ان يتسبب عن أمر أصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً . ولنا من القرن الحاضر امثلة كثيرة اكبرها مثال سيتوارثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل . وهو الذى نراه فى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه البسيطة كما غير طرق المواصلات التجارية بين الأمم يوم ان فصل بين القارتين وقد كان السبب فى نجاحه ما اوتيه من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذى

كان ينفذه الى نفوس مخالطيه • كان الناس كلهم اضداداً له فاذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين • واذا خاطبهم اسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور احبة صادقين ولقد انفرد الانكليز بالشدة فى معارضته فلما ظهر فى بلادهم صاروا له اعواناً مخلصين . ثم مر بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحاً بمقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين • قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال فقهر الكل وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناما . وشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد اقبلت . واليقين لا يزحزح الجبال الا اذا لم تتصل بذروتها السماء . هنالك استعصى الجبل . وحم القضاء . ونزلت الكارثة فهدمت صرح مجد اقامه ذلك البطل العظيم ان فى حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذ وكيف يموت . بلغ الرجل فى المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال . . وانزله قضاة امته الى اخس دركات المجرمين فلما مات مرت جنازته كأنها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقع لأعاظم الرجال (١)

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة (نوى فراى بريسه) النمساوية بمدينة (فينا) مقالة فى مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك ننقلها للقراء قالت (لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١) الذى يثير الحزن والاسى بعد الحكم على (فرديناند دولسبس)لانه اذا كان فرديناند دولسبس نصابا فكل امل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من اهل العصور الاولى لتوجه اهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار . ولسقوه الرحيق فى حجرة آلهتهم التى كانوا يعبدون لأنه غير وجه الارض • واى من الاعمال ما يدعو الى تحسين الخلق فى الوجود

---

(١) هو الذى اكتشف امريكا

الأمثلة التي قدمناها تعد أقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا أردت ان تعرف ماهية النفوذ مفصلا وجب ان تضع تلك الأمثلة فى أعلى السلم ثم تتدرج من منشئ الديانات ومقيمى الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذى يحاول أن يبهر جاره بثوب جديد أو وسام

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها فى جميع أركان المدنية من علوم وفنون وآداب . وترى النفوذ أول مؤثر فى تحصيل الاعتقاد . فالناس

خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه فى التاريخ بحكمه على دولسبس لأن الامم لاتنفك تسأل عن اسم الذي اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره . وألبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجداً وفخاراً لمعاصريه

ألا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين فى مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد . الا ان الامم فى حاجة الى رجال ذوى عزم واقدام يثقون بأنفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين الا انه لا حذر لنابغ اذ لو كان حذراً ما أمكنه أن يرقى هامة العصر الذى هو فيه

« ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الجذل . السويس وبناما . وهنا يحق للنفس أن تغضب من آداب الفوز والانتصار فلما أفلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهانى . واليوم لما أدركه الفشل أمام صخور (كورديليير) كان نصابا حقيراً ، ان هذه الا حرب تقوم بين الطبقات فى الامم يثيرها حقد الموظفين الذين ألفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقاما ممن يصبو الى المجد والمعالى، ولقد يحار مشرعو هذى العصور امام تلك الإفكار العالية التى يولدها النبغاء ، والعامة فى ذلك أقل فهما وأدنى ادراكا ، لكن من السهل على الافوكاتو العمومى اقامة البرهان على ان ستانلى من القتلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له   مايشتهى ولأم المخطىء الهبل

يقلدون ذا النفوذ عمداً أو بمحض الفطرة سواء كان انسانا أو رأيا أو شيئاً آخر . ويتولد فى أهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحدون بها ويترجمون عما به يشعرون . ويكون التقليد فى الغالب فطريا لذلك يبلغ حد الكمال والاتقان . ومن ذلك ان مصورى هذه الايام أخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التى تمثل أناساً من أهل الفطرة الاولى . وهم لا يشعرون من أين جاءهم هذا الميل ويظنون انهم هم الذين أوجدوه لأنفسهم وفاتهم انه صنع أحد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر الى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها فى فن التصوير . ومنهم من قلدوا أحد المشاهير فجعلوا يكثرون فى مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع انهم لا يرون هذا اللون منتشراً فى الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاما . والواقع انهم متأثرون بفعل أستاذ من عظماء اساتذة الفن كانت له فى ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريباً . وأمثال المصورين كثيرة فى جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم ان النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فمتى نجح الآمر فى أمره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول والدليل على ان النجاح أقوى عامل فى تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك . فالناس يهللون فى المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرون منه فى الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى فى صاحبه اذا تولته الخيبة فتراه الجماعة من اندادها فتميل الى الانتقام منه جزاء ذلها أمام سلطانه الذى لم تعد تعترف له بشىء منه . هكذا كان نفوذ روبسبير شديدا يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه . فلما ضاعت منه بعض الاصوات وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته . وشيعته الجماعة الى المشنقة وهى تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه • لكن ذلك لا يتم الا بالتدريج • وهذه الوسيلة هي أضمن الوسائل لاضاعته وما من اله أو انسان دام له النفوذ زمنا طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه • انما تعجب الجماعات بمن يترفع عن مقامها

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وافكارها

(١) فى المعتقدات الثابتة — فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — فى أن هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية — فى صعوبة ازالتها — فى أن التعصب أحد فضائل الأمم من بعض الوجوه — فى ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — فى أن تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد — فى حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه الغير — فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى أن أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى أن تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية أى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام .

فمن الاولى ما هو ثابت أو لا يتغير الا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا وبين الطوفان . ومنها ما هـو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى . وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غـير المتأمل وكذلك الحال فى الخواص الادبية . فمن اخلاق الشعب ماهو ثابت لايغيره كرور الايام . ومنها ما هو متقلب يتغير . ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وأفـكارها يرى دائما فى اخلاقها أصلا ثابتاً ترسب فوقه أفـكارمتقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر .

وعليـه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الاول المعتقدات الدائمة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية الامة كلها .كالافطار التى سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وافكار الاصلاح « البروتستانتية » وكالجنسية . والافكارالديموقراطية والاجتماعية فى أيامنا. والقسم الثانى يشمل الافكار الوقتية المتغيرة . وهى مشتقة فى الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب فى الجيل الواحد كالنظريات التى تسترشد بها الفنون والادب فى أوقات معلومة ومذهب حرية الـكتابة « الا نشأ » [1] ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفيـة . وهكذا . وتلك الافـكار كلها سطحية سريعة التغير كالبدىء (المودة) فمثلها كمثل الامواج الصغيرة التى تظهر وتختفى من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الـكبيرة العامة قليلة جداً . وقيامها وسقوطها فى كل امة ذات تاريخ يمثلان اعظم دور فى حياتها . ولا قوام للمدنية بدونها

ومن السهـل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لـكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسهـا كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً الا بالثورات العنيفة بل أن الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها اثر المعتقد فى النفوس . فهى تصلح لـكسح تلك

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائمـاً بما جرى عليـه السلف فى فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

البقية التى تكاد تكون فى حكم المهمل لولا أن سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تحديد اليوم الذى يندك فيه أحد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتقاد لأن كل اعتقاد عام يكاد يكون امراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء الا بشرط عدم البحث فيه

غير أن النظامات التى اسست على اعتقادعام تستمر حافظة لقوتها ولاتتحلل الا ببطء وان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل أمة اصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لابد لها عاجلا من تغيير جميع اركان حضارتها فهى تغير وتبدل فيها حتى تهتدى الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش فى فوضى حتى تعثر عليه فالمعتقدات العامة هى دعائم الحضارة التى لا بد منها وهى التى ترسم للافكار طريقها الذى تسير فيه وهى التى توحي بالايمان وتفرض الواجبات

أدركت الأمم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى أن يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها . عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا أجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شىء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم فى دفاعها المستميت عن معتقداتها . اذ الحقيقة ان هذا التعصب هو أرقى الفضائل فى حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما أحرق أهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد فى النفوس وما مات الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى ملء قلوبهم الا لانهم لم ينالوا قسطا من العذاب لأجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة الا للدفاع عنها . وما ماتت الملايين فى ساحة الوغى الا بسببها . وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمناً طويلا وكيفما كان خطأ من الجهة الفلسفية فانه يتسلط على أكبر ذوى الالباب . بدليل ان الأمم الأوروباوية دانت لاقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرنا . والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج[1] كأقاصيص (مولوخ)[2] هكذا بقى العالم قروناً وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بأن الهاً أذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه . ولم يجل بخاطر أعظم الرجال عقلا وادراكا مثل (غاليليه) و (نيوتن) و (لايبنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هذه الافكار . ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها النفوس . ولكنه يبرهن أيضاً على ان العقل محدود بحدود مخجلة

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها. هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها . فترى أهل العزائم لا يفكرون الاّ فى تحقيقها . وواضعى القوانين الا فى الأخذ بها والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب الاّ فى تمثيلها على صور شىء

وقد يتولد عن العقيدة العامة أفكار وقتية ثانوية الا انها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين فى القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها •

---

(١) اقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اما عملا فقد اوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة • وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) اله عبده الكلدانيون واهل قرطاجة وكانوا يحرقون الاطفال قرباناً له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائماً ليتلقاها (م)

من هذا يتبين ان الفضل للعقائد العامة فى احاطة أهل كل عصر بتقاليد وأفكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والذى يهدى الناس فى سيرهم انما هى الافكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على أعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لا نفكر فى الخلاص منها . اذا الاستبداد الحقيقى هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذى لا يتمكن المرء من محاربته . فلقد كان (تيبير) و (جنكيزخان) و (نابوليون) جبارين مستبدين ولكن استئثار « موسى » و « بوذا » و « عيسى » و « محمد » صلى الله عليه وسلم و « لوتر » وهم فى القبور أشد وأبقى . ان مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولكن ماذا ينفع الكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس . قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحى وكانت الجماعات فى ظواهر الامر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التى أوجدتها الامم لنفسها

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شىء من الهزء الخفى واذا كانت مذاهب الاشتراكيين فى العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذى يكون سبباً فى عدم استيلائها على نفوس الجماعات . وانما السبب فى انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى أن السعادة التى وعدت بها الديانات لا تتحقق الا فى الدار الباقية فلم يكن لاحد أن يمارى فى تحقيقها . وأما السعادة التى وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب أن تتحقق فى الحياة الدنيا ومتى شرع فى ذلك بان ان الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة ان تم لها الظفر الا الى اليوم الذى يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب فى ان هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التى سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ

٢

فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التى شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافكار والآراء التى تتجدد وتزول دائما . فمنها مايدوم يوماواحداً • وأهمها لا يدوم اكثر من الجيل الذى نشأ فيه • وقد قدمنا ان التغيير الذى يطرأ على هذه الافكار صورى اكثر مما هو حقيقى فى الغالب • وانهامصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذى توجد فيه • ومثالنا لذلك بنظام بلادنا السياسى فأوضحنا ان أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع الى طبيعة شعبنا النفسية أو الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود أسماء هذه النظامات وانها عند أمم أخرى ودلالتها على شىء آخر وبأن وضع الاسماء للافكار والباس الشىء ثوبا يريه فى صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشىء • كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بأدبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم (١) وارديتهم واجتهدوا فى تقليدهم فى نظاماتهم وأحوالهم ومع هذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخية ووظيفة الحكيم هى استخلاص ما بقى من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز فى معمعة الافكار المتغيرة ما يرجع منها الى روح الشعب وعقائده العامة

واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفى جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء • والظاهر ان التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة أو الدين أو الفنون أو الآداب . لانا اذا نظرنا فى تاريخنا الى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ أعنى ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التى كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا فى السياسة وأما فى الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهيـة ثم رجعت الى الـكثلكة الضيقة الى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وانكروا الله والسلطان أمسوا خداما خاضعين لنابوليون • وأصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم فى احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما اكثر الانقلابات التى طرأت على أفـكار الجماعات فى السبعين سنة التالية فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابوليون • وكانوا فى أول القرن أعداء ماكرين وأغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

وأسرع من ذلك تقلب الافـكار فى الآداب والفنون والفلسفة فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة • وكنا طبيعيين وكنا صوفيين • وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى وكان الناس يتغنون باسم هذا الـكاتب أو ذاك المصور فى المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه

واذا دققنا البحث فى هذه التقلبات التى يخال انها حقيقية متأصلة فى النفس رأينا أن ما كان منها مخالفا للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم الا يسـيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها . فمن المعلوم انه يستحيل دوام الافكار التى لا رابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارىء والاتفاق تتغير بأقل تغيير فى البيئة التى وجدت فيها . ومما يدل أيضاً على عدم بقائها انها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت بسرعة الرمـل الذى يتكون اكداساً على شاطىء البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا

ولقد كثرت فى ايامنا هذه افكار الجماعات التى لا بقاء لها . ولذلك ثلاثة اسباب الاول أن الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى

الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لا رابطة بينها هى والماضى ولا يرجى بقاؤها فى المستقبل

السبب الثانى أن قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا أن الجماعات كثيرة التقلب فى افكارها فالنتيجة انها اصبحت اكثر حرية فى اظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيهامن كثرة الافكار المتناقضة التى تعرضها على الجماعات فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهى تموت قبل أن تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة فى تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهى ضعف الحكومات عن قيادة الرأى العام

كان زمام الرأى فى الزمن السابق ما هو فى يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم . وأما الجرائد فأن وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأى وأما السياسيون فأنهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه . وقد اخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

نتج من هذا ان رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة وقد وصل الآن الى الجاء الامم لعقد المحالفات كما وقع أخيراً فى المحالفة الروسية التى كانت حركة الرأى العام مصدرها الوحيد • ومن أعجب مايشاهد الآن استسلام الباباوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث[١] ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آراهم فى أمر من الامور الى حكم الجمهور • قالوا فيما مضى ان السياسة

(١) يشير الى ما ألفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء ونشر أحاديثهم فى الكتب والصحف

ليست من الأمور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى انه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان ان نزعات الجماعات تقودها كل يوم أكثر من الذى قبله والجماعات لاتعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر

وأما الجرائد فبعد أن كانت تقود الرأى العام كالحكومات اضطرت الى التسليم امام سلطان الجماعات نعم للجرائد أثر شديد فى الناس لكن ذلك سببه انها صارت مرآة لارائهم ومتغيرة بتغير أفكارهم المستمر . أصبحت الجرائد رسل أخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى أو تقرير مذهب بل هى تسير خلف اهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم والا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل) و (الديبا) و (السييكل) وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على انها ان وجدت ما كان لتلك الآراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً يقرأونه أو نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى و نصيحة توجه اليهم اذ يظنون ان وراءها طمعاً فى ربح أو سعياً لمنفعة خاصة . بل ان أهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً . أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد أو ابداء الآراء الشخصية فجعلت تقلل منه فى عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين أو ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهى

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأى العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى انما هو أثر ذلك فى الناس وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها

فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له

ينتج عن فقـد ان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامـة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشيء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شيء أوهم كثيرو التقلب

التطور الذى تم من هـذه الجهة فى الخمس والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية . وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكيا افكار واراء ثابتة فى التاريخ وفى العلوم . وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهوريا افكار وأراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد أن الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد الضد تماماً . الاول يرى من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة أن يغضب وينفر والثانى أن يعجب ويبالغ فى التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه الا مقرونا بالخشوع والاجلال مثـل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعا بالترذيل والامتهان مثـل (قيصر) و (اوغسطس) و (نابوليـون) . وعم هذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون) نفسها [1]

(١) يوجد فى هـذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملـكة النقد الناشيء عن طريقة التربية فى المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسـة (السربون) المذكورة قال « ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من أكبر أعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ أوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم » وقال عن (روبسبيير) (أن استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان اشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار) (صفحة ٩١ و ٢٢٠)

ليس لفكر ولالرأى فى هذه الايام وقع فى النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيراً للبقية والذى ينفرد به أهل هـذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئا

على انه ينبغى أن لا نحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهـة فى انه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق أن تأثير أهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم اكبر جداً من تأثير اهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشىء لـكن لا يذهب عنا انه اذا تمكن راى واحد من النفوس والجماعات على ماهى عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث أهـله أن يصيروا مستبدين استبداداً يذل له كل مافى الوجود ويغلق باب حرية الافكار وحرية النقد زمناً طويلا . لا يقال أن من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهى هوائيـة سريعة الغضب والانفعال . فاذا قدر لحضارة أن تقع فى يدها اصبحت هدفا للطوارىء والمضادفات وقصر بذلك اجلها . وان كان يرجى تأجيـل زمن الانحدار والسقوط فأنما يكون ذلك من شدة تقلبات اراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول

أقسام الجماعات

أقسام الجماعات العامة — أنواعها

١ — الجماعات المختلفة العناصر — أوجه اختلافها — تأثير الشعب — في ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية — في ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

٢ — الجماعات المؤتلفة العناصر — أنواعها — الافتاء والطوائف والطبقات

—

بعد أن بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغي أن نبين الصفات الخاصة التي تنفرد بها المجامع عن بعضها اذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية الى ذلك

ولنبدأ بقول موجز في تقسيم الجماعات

فأولها الجمع مطلقا وأدنى مراتبه ماكان مؤلفاً من أفراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم الا ارادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفي الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها الجموع التي احتفتها أحوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت

بأن صارت شعباً واحداً . ولهـذه الجموع فى بعض الاحيان الصفات الخـاصة بالجماعات الا ان هذه الصفات الخاصة تكون دائمـاً متأثرة بصفات الشعب العامة

فاذا اجتمعت فى هذه المجامع بقسميها العوامل التى ذكرناها فى هذا الـكتاب صارت جماعات منظمة أو نفسية وهذه الجمـاعات تنقسم الى الاقسام الآتية

أولا
الجماعات المختلفة العناصر وفيها
(١) الجماعات التى لا اسم لها (كجماعات الطريق العـام).
(٢) الجماعات التى لها اسم خاص (كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا)

ثانيـاً
الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها
(١) الافناء (كالجمـوع السياسية والدينيـة وهكذا)
(٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا)
(٣) الطبقات(كجموع الأواسط وجموع أهل الريف وهكذا) .

واليك قولا موجزاً فى بيان مميزات كل نوع من هـذه الانواع

القسم الاول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هى التى شرحنا صفاتها فى هذا الـكتاب وهى التى تتألف من أفراد أياً كانوا وكيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهـم ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت أحوالهم النفسية الاجتماعيـة مع أحوالهم النفسية الفردية اختلافا عظيما وان العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لانه لا تأثير له فى الجماعات وان الذى يؤثر فيها انما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزاً تاما

وهو الشعب وقد ذكرناه مراراً وقلنا انه أعظم المؤثرات التى تنبعث عنها أفعال الناس ونقول ان له كذلك أثراً ظاهراً فى صفات الجماعات فالجماعة المؤلفة من أفراد أياً كانوا وهم انكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التى تتألف من أفراد أياً كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلا

أشد مظاهر الافتراق الناشىء عن الوراثة العقلية فى كيفية الشعور والنظر فى الامور يعرض فجأة متى اجتمع أفراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب — وذلك نادر — كيفما اتحدت، فى الظاهر المنافع التى اجتمعوا لأجلها . حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نوابا عن جميع العمال فى كل أمة فأدى ذلك دائما الى خلف عنيف . والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ماتريد تستوى فى ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهى تميل بطبعها الى حصر السلطة وجمعها فى يد واحدة والى من يجمع تلك السلطة فى يده . وأما الجماعة الانكليزية أو الامريكية فانها لاتعرف الحكومة ولا تستعين الا بهمة الافراد الذاتية . أول ماتهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة . وأول ماتهتم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديموقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائما روح الجماعة فهى لها كالدائرة المنيعة التى تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغى أن تقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة فى الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هى الهمجية وتسلطها رجوع الى الهمجية . ولا يخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التى لا يحكمها العقل الا اذا كانت له روح قوية شديدة وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التى لا اسم لها كجماعات الشوارع ثم الجماعات التى لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية والذى يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً فى انفعالهما هو ان الاولى لا تشعر بتبعة ما نتج عن أعمالها

بخلاف الثانية فانها تقدر تبعة عملها كما ينبغى

القسم الثانى

الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤتلفة العناصر الى افناء وطوائف وطبقات فالافناء أول المراتب وهى تتألف من أفراد مختلفين فى التربية والحرفة والبيئة أحيانا ولاجامعة تجمعهم الا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية

والطوائف أرقاها وهى تتألف من أفراد متحدين فى الحرفة فهم متشابهون فى التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين

والطبقات هى التى أفرادها من مناسىء مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه فى حالة المعيشة والتربية كطبقة الاواسط فى الامة وطبقة الزراع وهكذا

ولما كان بحثى فى هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن نيتى ان افرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتابا خاصا فلا أطيل فى بيان صفات هذه الاخيرة واختم الكلام على الاولى بذكر بعض أنواعها مثالا للبقية

الفصل الثانى

الجماعات الجارمة

يجوز أن تكون الجماعة جارمة شرعا لكنها لاتعد كذلك فلسفياً — فى ان أفعال الجماعة لاشعورية محضة — أمثلة شتى — روح جماعة شهر ستمبر — أفكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

—

بعد أن يمضى زمن على الجماعة وهى فى هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الالقاء فى نفسها ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفياً كيفما

كان الحال وانما جريت فى الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لانى آقرأه فى بعض كتب علماء النفس الحديثة . نعم ان بعض اعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هى لكن كما يعتبر عمل النمر الذى يلتهم الهندى بعدأن يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه

تصدر الجرائم عن الجماعة غالبا بسبب تحريض قوى . ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها انهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم وهذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجلى بيان

فمن أمثلة ذلك قتل موسيو (لونى) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار اليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب . وهذا يشير بشنقه وذاك يضرب عنقه وثالث يربطه فى ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحداً من الجماعة . اذ ذاك اقترح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة قال راوى الواقعة «وكان المضروب طباخا خاليا من العمل ويقرب من أن يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر ما ذا يجرى هناك . فلما سمع الاجماع ظن ان الفعل مما تقضى به الوطنية . وانه ينال وساما اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفاً ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فألقاه وأخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض اسود واستعان بخبرته فى تقطيع اللحوم فساعده الحظ وأتم عمله ».

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر أفعال الجماعة فقد انقادت هنا الى تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل انه اتى عملا شريفاً اعتقاداً مكنه من نفسه ذلك الاجماع . وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس كذلك فى حكم علم النفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهى بعينها الصفات التى شاهدناها فى غيرها . من قابلية التأثر . والتصديق . والتقلب والتطرف فى المشاعر طيبة

كانت أو رديئة . والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك .

وستظهر لنا هذه الصفات كلها فى احدى الجماعات التى تركت فى تاريخنا اقبح ذكرى محزنة وهى جماعة شهر سبتمبر[1] وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى) شبه عظيم . وانى أنقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذى استخلصها من المفكرات التى كتبت أيام حدوثها

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون أو غيره [٢] فالذى يهمنا هو انه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التى وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم اشتات فهى تمثل الجماعة المختلفة العناصر اكبر تمثيل اذ لم يكن فيها من الغوغاء الاتفر يسير والباقون من اصحاب الحوانيت والصناع فى كل حرفة وكل مهنة من حذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذى وقع عليهم. كالطاهى الذى مرّ ذكره . وكلهم يعتقد أنه قائم بواجب وطنى . وقد قاموا بعملين . فكانوا قضاة وجلادين . ولكنهم لم يروا انفسهم من الجناة أبداً . بل وقر فى نفوسهم انه واجب من اكبر الواجبات . وأول ما بدأوا به أن شكلوا محكمة . هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها . ذلك أن المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً فقررت أولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون فى نظر كل وطنى جناة بمقتضى صناعتهم . وان يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص . وأما الباقون فيحكم عليهم

---

[1] ( ) هى كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية فى باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح أصله طبيب انقلب صحافياً دمويا صرفا فكان يطلب اعدام مائتين وسبعين الف نفس مدعياً ان فى ذلك فداء الوطن

(٢) هو (مارات) على ما ذكر فى معاجم التاريخ كما تقدم

بناء على سمعتهم أو شهرتهم . فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهـذا القرار انطلقت تنفـذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناهما من قبل . والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً فى المجامع . الا أن الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن فى الجماعات . ولذلك كان يوجد فى تلك الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ فى شدته تلك القسوة الهائلة .

كان لأولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك أن احدهم علم أن المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع فى قتل السجان لولا شفاعة السجناء وكانوا اذا برأت المحكمة التى أقاموها واحداً من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقاً طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره اكداساً . كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياهم . يغنون ويرقصون ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهى فرحة قتـل الشرفاء . وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن احد الموكلين بالتقتيل شكا من ان النساء لا يشاهدن القتـل لبعدهن عن مكانه . وان القليـل من الناس هو الذى ينال حظ ضرب الشرفاء . فصوب الجميع شكواه وقرروا ان يمشى المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين . وأمروا هؤلاء أن لا يضربوهم الا بظاهر السيوف حتى يطول امد العذاب . وكان فريق يأتى بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون اجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم

ومع ذلك كنت تشاهد الامانة لا تزال ملازمة للقاتلين فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون أن يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التى انفردت بها روح الجماعات تظهر فى أفعالهم . من ذلك انهم لما فرغوا من قتل الالف والمائتين أو الالف وخمسمائة العـدو للأمة لاحظ بعضهم ان السجون الأخر تضم أناساً لا فائدة منهم وان الاولى اعدامهم

فسارعت الجماعة الى الموافقة على هذا الرأى . وكان من فى السجون الأخر أناساً من الشحاذين والهمل (المتشردين) والاولاد فرأت الجماعة انه لا بد من وجود أعداء للأمة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسم اذ قال بعضهم « لا بد انها متغيظة من وجودها فى السجن . ولو تمكنت لوضعت النار فى باريس ولا بد أن تكون قد قالت ذلك . بل قالته . اذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة . وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاما ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقالوا فى قتلهم انهم اذا عاشوا لا يبعد أن يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم .

ولما أتم القاتلون عملهم بعد أن زاولوه مدة أسبوع كامل فكروا فى الراحة واعتقدوا انهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من أجلها . ورغبوا الى حكومة ذلك الزمن ان تكافئهم ومنهم من طلب وساما

وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ أمثلة كثيرة كالتى قدمناها وسنرى كثيراً غيرها مادام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف.

الفصل الثالث

المدول المحلفون أمام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول ـ فى ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم ـ كيف يتأثر العدول ـ ضعف تأثير الدليل العقلى ـ طريقة الاقناع التى استعملها أشهر المحامين ـ الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها أو التى يقسون من أجلها ـ فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

—

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع أنواع العدول فى هذا الكتاب رأينا أن

نقتصر على اهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم أحسن مثال يمثل به للجماعات المختلفة العناصر التى لها اسم خاص . واذا بحثنا عن الصفات التى لها نجد قابلية التأثر . وسيادة المشاعر الغريزية . وضعف التأثر بالمعقول . والانصياع الى القواد . وهكذا . وسنبين اثناء بحثنا فى هذه الجماعات بعض الغلطات التى يرتكبها من لم يكن خبيراً بعلم روح الجماعات لما فى ذلك من الفائدة

نجد اولا فى العدول المحلفين من حيث القرارات التى يصدرونها مثالا حسنا يبين ان تأثير الاذكياء الذين يوجدون فى جماعتهم ضعيف لماتقدم من انه لاتأثير للعقل المستنير فى رأى الجماعة اذا كان فى موضوع غير فنى . وان رأى جمع من العلماء وأهل الفن فى موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لايختلف كثيراً مع رأى جمع من البنائين أو البدالين فى ذلك الموضوع . كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى فى كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وامثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة العدول وأقر القضاة أنفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من أعداء هذا النظام واليك ما كتبه موسيو (بيراردى جلاجو) أحد رؤساء محاكم الجنايات فى مفكراته « أصبح الآن اختيار العدول فى يد نواب المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أميالهم السياسية وأحوال الانتخابات. وصارت أغلبية العدول من تجار أقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن ومن مستخدمى بعض المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه. لان جميع الافكار تمتزج بجميع المهن فى وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث فى الايمان . ولأن الطبقة الدنيا لاتخلو من أهل المروآت »

والذى يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها . ولا

غرابة فى هذا الضعف لان المحامين والقضاة لايعرفون فى الغالب روح الجماعات ومنها العدول . والدليل على ذلك ماذكره الرئيس المشار اليـه من أن (لاشو) وهو من أشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لا ينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب . وماكان لغيرها أن يقيم هذا البرهان . على ان ذلك العمل كان عقيما حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة فى باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو (جلاجو) فلا هى أحسن مما كانت عليه ولا هى اردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلا فهم كما قال أحد المحامين «لا يثبتون امام امرأة ترضع طفلها أو امام صغار يتامى اذا نظروا اليهم »

قال موسيو (جلاجو) : ويكفى أن تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التى يخشون هم منها . وهذه الجرائم هى التى تهم الهيئة الاجتماعية ـ ورحمـاء بمرتكبى الجرائم التى مصدرها الغيرة والحب وهكذا .

فقلما يقسون على البنات الامهات اللاتى يقتلن مواليدهن ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لاخطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وانه مادام القانون لا يحمى البنت التى هجرها من خدعها يكون نفع جنايتها أكبر من ضررها لأن فى ذلك للخداع مزدجراً [١]

(١) مما تجب ملاحظته ان هذا الفرق الذى جاء به العدول لا عن قصد بين الجرائم المضرة بالهيئة والتى لاتكاد تضرها لايخلو من صواب اذ يجب أن يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقاً . غير ان الغالب على واضعى قوانينا وعلى قضاتنا هى فـكرة الانتقام التى كانت سائدة فى زمن الشرائع القديمة . ودليلنا على هذا الميل فى قضاتنا ان الـكثير منهم لايزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذى يبيح ايقاف التنفيذ

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ . لاحظ الرئيس (جلاجو) انهم ديموقراطيون فى جمعهم شرفاء فى عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة . والشهرة والاستعانة . بمحام ذائع الصيت . وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى فى يد المتهمين

أراد بعضهم بيان الطريقة التى ينبغى استعمالها فى هذا المقام فوصف احد محامى الانجليز وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه أمام محاكم الجنايات ومما قاله :

أول مايجب على المحامى اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور العدول . والاقلال من التقرير والاستدلال أو اختيار السهل البسيط من الأدلة العادية كما هو الشأن مع بقية الجماعات (كان يترافع وهو يرقب حركات العدول وتحين مناسبة الوقت فكان يقرأ فى وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة والتجارب ليعرف ماينبغى بعد ذلك وكان يتفرس أولا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم فى خطابه الخطوة الاخيرة التى تمكنه من انحيازهم اليه ثم يلتفت لمن يشعر منه بالانحراف عنه ويجتهد فى استكناه سبب ميله عن المتهم وهذا أدق مافى عمل المحامى . لان الاسباب التى تبعث الرغبة فى الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلا أم ظلما)

ولقد تلخص فن الخطابة فى هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب فى عدم تأثير ماحضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب الى تغيير الكلام طبقاً لأثره فى نفوس السامعين

وليس من الضرورى أن يكسب الخطيب ميل جميع العدول . بل يكفيه

= فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع ان جميع القضاة يعلمون جيداً ان تنفيذ العقوبة الاولى يجر حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل ذلك مبالغ فيه م) وكأنى بالقضاة يعتقدون انهم اذا أفلتوا محكوما عليه لا يكونون قد انتقموا للأمة فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الاجرام على عدم الانتقام .

اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكون رأى الاغلبية . فالذى يقود العدول انما هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك فى كل الجماعات . قال المحامى الذى مر ذكره «عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفى واحد أو اثنان من أهل العزيمة فى الرأى لاقناع البقية »

فالواجب اذن اقناع هذين الاثنين أو الثلاثة باستعمال الحذق فيما يلقى فى نفوسهم . وأول ما ينبغى فعله هو الاجتهاد فى اعجابهم لأن الرجل فى الجماعة اذا أعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع . وقبل بالسهولة الادلة التى تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت فى بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية (من المعروف عنه انه كان فى مرافعاته أمام محكمة الجنايات لايفتر عن ملاحظة العدلين أو الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم أصعب مراساً من البقية وانهم أهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة فى الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقناعه أشد وسائل الخطابة ثلاثة ارباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً فى أول الصف الثانى وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تتدفق من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلا «سيدى الرئيس أتسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى أمامنا فان الشمس تخدش عينى حضرة العدل السابع» فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع)

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم الفطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع ان وجودهم هو الضمان الوحيد الذى يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها [١] ومنهم من يذهب الى وجوب حصر اختيار العدول فى طبقة المستنيرين ولكننا أقمنا الدليل على ان قراراتهم فى هذه الحالة

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على أعمالها ومع ما أتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الآن قانون مثل قانون (الافراج) الذى تفتخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا

لن تختلف مع التى تصدر الآن . ومنهم من يتذرع بالخطأ الذى يقع من العدول فيذهب الى تبديلهم بالقضاة . ونحن لا ندرى كيف غاب عنهم ان ذلك الخطأ الذى بالغوا فى نسبته الى العدول انما سبقهم به القضاة . لان المتهم لا يمثل بين يدى أولئك الا بعد اعتباره جانياً من كثير من هؤلاء . من قاضى التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام . الا يرى انه لوسلم الحكم النهائى عليه الى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول الى اظهار براءته . ان يخطئ العدول فقد أخطأ القضاة من قبلهم . فالوزر على هؤلاء وحدهم فى كل خطأ قضائى مفزع كالحكم الذى صدر أخيراً على الطبيب (فلان) اذ اضطهده أحد قضاة التحقيق المعروف بقصر العقل لان شابة تكاد تكون من البله اتهمته بأنه أسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا . ولولا ثورة الرأى العام وصدور العفو عنه لذلك عقب الحكم عليه لارسل الى سجن الاشغال الشاقة . ظهر فى هذه الحادثة ان خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار اجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه . وكان القضاة انفسهم مقتنعين بذلك لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم الى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البرىء . والحاصل انه متى كانت الدعوى ذات أحوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين

جميع الظالمين . ولكننا أقمنا فى كل مدينة قاضياً يتصرف فى شرف أهل الوطن وحريتهم كما يشاء . قويضى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفردة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه فى اجرامهم . وليس من يحاسبه على عمله . وله القدرة على ابقائهم فى سجنهم ستة أشهر بل بسنة بحجة التحقيق ثم يخلى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار يفعل ذلك بمقتضى (أمر القبض) وهو مساو (لخطاب السجن) الذى عرفه آباؤنا الاولون غير ان هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر وأما الاول فهو اليوم فى يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن أن يكونوا الاكثر تهذيباً والاكبر استقلالا

الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم ان الذى حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل» • وليت شعرى من يكون المخطىء الحقيقى حينئذ آلعدول أم القضاة يجب أن نحرص على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لا يمكن أن يقوم الفرد مقامها • وهم الذين يتيسر لهم وحدهم أن يخففوا من شدة القانون • فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس أعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ • أما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب • ولا يعرفون الا النص • وهم قساة بمقتضى صناعتهم • فلا يفرقون فى الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها لكن العدول يشعرون بفطرتهم ان تلك الفتاة التى خدعت أقل اجراما من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه • وانها جديرة بكل عطف وحنان

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الاخرى . ولكنى لم أوفق الى معرفة حالة اكون متهما فيها بجرم وافضل القضاة على العدول ليحكموا فيها • لان لى بعض الامل فى البراءة أمام هؤلاء والامل ضعيف امام أولئك •. حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تلين الاولى ولكن الثانية لا تلين أبداً

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب ـ طريقة اقناعها ـ الصفات التى يجب أن تكون للمترشح ـ ضرورة النفوذ ـ السبب فى أن العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم ـ سلطان الالفاظ والجمل على الناخب ـ صورة المناقشات الانتخابية ـ كيف يتكون رأى الناخب ـ بسلطان اللجان ـ فى انها تمثل أشد صور الاستبداد ـ لجان الثورة الفرنساوية ـ من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت

قيمته ضعيفة ـ فى بيان أن النتيجة تكون هى بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين ـ فى معنى الاقتراع العام عند كل أمة

—

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب أعنى المجامع التى تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة ولما كان عملها محصوراً فى دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين أفراد معينين لا يظهر فيها الا بعض الصفات التى تقدم بيانها . فالذى يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل . وفقدان ملكة النقد . وسرعة الغضب . والتصديق . والسذاجة . ويرى فى قرارتها أثر القواد وأثر العوامل التى مرّ ذكرها . أى التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى.

فلنبحث فى طريقة اقناعها لانا اذا عرفنا أنجع الوسائل فى ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

أول صفة يجب أن يكون للمترشح هى النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتى اذا فقد الا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى أن الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التى تؤدى الى النجاح كثيراً فى هذا الباب

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لأنه العدة الكبرى التى تمكنه من التسلط على النفوس بدون أن يتناظر فيه والسبب فى كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو أنه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم واذا اختاروا فى النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكى يضربوا به أحد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائماً فينزع هذا الى مخالفته متخيلا انه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان

الا أن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه فى الانتخاب لأن الناخب يجب أن يتملق ويمنى بنيل ما يصبو اليه من الرغبات فينبغى أن يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والامانى . فان كان عاملا فكل ذم فى معلمه قليل . أما المترشح المزاحم

فانه يجب أن يدخل اليــه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لأثبات أنه أخس الناس وأنه مجرم أثام . ومن البديهى أنه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك فان كان الخصم لايعرف روح الجماعات مال الى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل أن يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل فى النجاح

أما البرنامج الذى يحرره المترشح ببيان ما ينوى من الاعمال فينبغى أن لا يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومـه حجة عليه . لـكن يجب أن يطيل فى البرنامج الشفهى ما استطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء اعظم الاصلاحات فان ذلك يؤثر حالا فى نفوس الناخبين وهو فى حل منه آجلا اذ القاعدة المطردة ان الناخب لا يبحث أبداً فى هـل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التى كانت السبب فى انتخابه

ومن هنا يتبين أن جميع عوامل الاقناع التى تقدم ذكرها هى فى جماعات الانتخاب . بقى علينا أن نذكر الالفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحرى فى النفوس الخطيب الذى يعرف كيف يتصرف بها يمكنه أن يوجه الجماعة حيث يشاء . فلمثل (رأس المال الدنس) و (أولئك المحتالين الادنياء) و (العامل الجليل) و (جعل الاموال شائعة بين الجميع) وهكذا . لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان كان الناس قــد صاروا يمجونها . فاذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لايجاد صنغة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك أهواء النفوس المختلفة كان نجاحه باهراً وفوزه محتما . والذى أوقد نار الثورة الدموية فى اسـبانيا سـنة ١٨٧٣ انما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعانى المضطربة التى يفهم منها كل واحـد حسب ما يشتهى . ولقد يحسن بنا ايراد كيف كان ذلك نقلا عن أحد كتاب ذلك الحين قال « ظن المتطرفون أن الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع أن تكون الجمهورية اتحادية من غـير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه . لأن الصنيعة كانت قـد اخذت بلب الناس اجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا فى طلاوتها وقالوا لقد قامت

فى الارض مملكة الفضيلة والسعادة » . وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) . وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) . أما المعنى الذى كان يحضرهم من هذه التسمية فمنهم من كان يذهب الى أنه عبارة عن اطلاق الاقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن أن النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة فى أمريكا . واخرون يرون أنه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم فى البلاد . والبعض كان يفهم أن كل سلطة قد بادت وان الوقت حان لتصفية حساب الهيئة الاجتماعية . ونادى الاشتراكيون فى برشلونه وفى الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الاسبانية كلهم أحرار لا يحكمهم غير أنفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة ولم يمض الا قليل حتى أخذت الثورة تمتد فى الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى . فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقية والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة الا نزعت الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق فى الاقاليم علاماته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح فى كل صقع وناد

أما تأثير المعقول فى جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه الا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى فى اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شىء غير تناول التوكيدات المتناقضة . والشتائم والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان. واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لان احد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح سؤالا يعجزه الجواب عنه . وذلك يلذ دائماً للسامعين . الا أن هذه اللذة لا تدوم طويلا لان صوت السائل لا يلبث أن يغيب فى صخب المعارضين وانى ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئاً مما يجرى فى الاجتماعات العمومية ليكون مثلا على ما تقدم . (اقام بعضهم اجتماعاً وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة واسرع الفوضويون الى

محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف فى وجههم الاشتراكيون فتلاكم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء • وبائع ذمته • وهكذا وخرج احد الحاضرين وعينه مورمة • وانتهى الحال ببقاء اللجنـة فى مكانها وسط الهياج والاصطخاب • وتمت الرئاسة للوطنى فلان • واخذ الاشتراكيون يقطعون عليه الـكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة • فقابلوه بالوغد • قاطع الطريق • الدنىء وهكذا من النعوت • فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها أن الاشـتراكيين من البـله أو النصابين)

وهذا مثـل آخر (نظم الحزب المنحاز لالمانيا مساء أمس فى قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال أول شهر مايو • وتقرر أن يكون الهدوء سائداً والسكون شاملا وقد طعن الوطنى فلان على الاشتراكيين بأنهم أوغاد نصابون • وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة فاشتركت الـكراسى والموائد فى الخصام الخ)

ولا يحسبن القراء ان هـذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين • وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة فى كل جمعية أياً كانت حتى التى تتألف من مسـتنيرين • وقد بينت ان الافراد فى الجماعات يتقاربون الى حد التساوى فى ملـكات العقل • ونحن نجد الدليل على ذلك فى كل مكان • اليك ما دار فى اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلا عن جريدة الطان الصادرة فى ١٣ فبراير سـنة ١٨٩٥ « كلما أوغل الليل ازداد الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون أن يقطع الـكلام عليه اذ الصراخ كان يعلو فى كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات هؤلاء يصفقون وأولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين فترى العصى تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة • والاصطخاب مقذوفاً الى المشوشـين • هذا يقول أخرجوه • وذاك يصيح • الى منبر الخطابة ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله هذا اجتماع ما أشد قبحه وجبنه •

هذا اجتماع وحشى • دنئ • رذيل • متعصب . ثم أعلن انه سيهدمه الخ)

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء • غير ان هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التى توجد فى المجامع . وان آراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الاقناع . والذى يكون الآراء ويجرى الانتخاب فى الحالة التى تبحث فيها هى اللجان • واللجان يقودها فى الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم فى تأجيل ثمن مايشربون . قال موسيو (شيرر) وهو من اكبر انصار الديموقراطية فى الوقت الحاضر « أتعرفون ما هى لجنة الانتخاب . انها عبارة عن مفتاح نظاماتنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا ان الذى يحكم فرنسا الآن هى اللجان [1] »

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان المترشح مقبولا وذا يسار يفى بما يحتاج اليه فى مثل ذلك • فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين أنفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) فى مقاطعات عدة

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا أردأ

---

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادى والشركات هى أشد الجماعات خطراً من حيث المقدرة . فهى التى تمثل أعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها . ولذلك كانت أقسى الجماعات يداً واكبرها تسلطا فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم . فهم يضربون فى كل صوب آمنين . وما كان يخطر على بال أشد المستبدين عسفاً أن يأمر بمثل ما أمرت به اللجان الثورية التى فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس) ظل (روبسبيير) قابضاً على الحكم كله بيده طول الزمن الذى كان ينطق فيه باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد فى الرأى وانفصل عنها أدركته الداهية . أجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان أعنى حكم القواد ولن يهتدى الانسان الى حكم أشد وأقسى .

وعليه فانى لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب العام . ولوان الامر بيدى لابقيته كما هو لأسباب عملية تنتزع من بحثنا فى روح الاجتماع . فلنذكرها

لا يسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس . فلا يمارى فى ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية . وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للامة وعظمة المدنية لا تتوقف طبعا على رأى العناصر الوضيعة التى ليس لها من القيمة الا كثرة العدد . ومن المحقق أيضاً ان آراء الجماعات خطرة فى غالب الاحيان فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا واذا تم لها ما تعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون ان اهواء سيادة الامة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً

الاّ ان هذه المطاعن القوية نظراً تفقدقوتها تماما من الجهة العملية اذا فكرنا فى قوة الآراء التى لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التى وجدت فى القرون الوسطى من حيث الضعف فى كل غير ان ما كان لهذه من القوة فى ذلك الزمان هو للاولى فى هذه الايام فهى منيعة حينئذ كما كانت أفكارنا فى تلك القرون لنفرض ان رجلا من أهل الافكار الحرة أى المطلقة السراح وجد فى القرون الوسطى أتظن انه كان يتحرك لمقاومة الافكار الدينية المتمكنة فى القوم بعد أن يرى مالها من السيادة المطلقة . او كان يفكر فى انكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت اذا مثل امام قاض يريد احراقه بالنار بتهمة انه حازب الشيطان أو ذهب الى المعبد يوم السبت . انه لا مناقشة مع الجماعات كما انه لاجدال مع العواصف . ولعقيدة الاقتراع العام فى ايامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية فى ذلك الزمان . فترى الخطباء والكتاب يذكرونه مقرونا بالتجلة والاحترام مصحوبا بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر . وجب اذن ان يسار معه كما يسار مع العقائد الدينية . وللزمان ان يفعل فى الجميع فعله على انه لا فائدة من التحفز لزعزعة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدها فى الظاهر . ولقد أصاب موسيو

(توكفيل) حيث قال « ليس لاحد فى زمن المساواة اعتقاد فى أحد . لما بين الكل من التشابه . غير ان هذا التشابه يجعلهم يثقون تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورن ان الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين »

قد يذهب بعضهم الى ان حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاآت . أما أنا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذى قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتساوون فى الجماعة دائما . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف فى مسألة عامة أحسن من رأى أربعين سقاء . ولا أظن ان رأيا أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو ان المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لأن الذى يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية أو الرياضيات أو كونه معماريا او طبيباً بيطريا أو طبيباً أو محامياً . أنظر الى علماء الاقتصاد عندنا تزهم كلهم من المستنيرين وأغلبهم مدرسون أو أعضاء فى جمعية المعارف ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة أبداً كحماية التجارة أو توحيد معدن النقود وهكذا ذلك لان علمهم ليس الا صورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى امام المسائل الاجتماعية التى لا حصر للمجهول فيها

وعلى ذلك اذا قصرنا الانتخاب على قوم أفعموا علما لا نصل الى نتيجة أحسن مما لو تركناه فى يد أهل زماننا لان أولئك العلماء يعملون على الأخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم . فلا نكون قد ذللنا شيئاً من العقبات التى أمامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذى تنفرد به الطوائف

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التى للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاما أو محصوراً فى طبقة أو طبقات. فى جمهورية أو ملوكية . فى فرنسا او البلجيك او اليونان او البرتقال او اسبانيا

ومتوسط المنتخبين فى كل أمة يمثل روح شعبها . وهو لايكاد يتغير من جيل الى جيل

وهنا نجد مرة أخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى وتلك النظرية الأخرى المشتقة منها وهى ضعف تأثير النظامات والحكومات فى حياة الامم . هذه الامم انما تسير طبقاً لأرواح شعوبها . وبعبارة أخرى طبقاً لما ورثته عن آبائها وهو ماتمثله تلك الروح . فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك الاحتياجات هى الملوك الخفية التى بيدها زمام مآلنا

الفصل الخامس

المجالس النيابية

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد فى الجماعات النيابية ـ بساطة الافكار ـ الانفعال وحدوده ـ الافكار الثابتة والافكار المتقلبة ـ السبب فى ان التردد هو الغالب ـ شأن القواد ـ سبب نفوذهم ـ هم الذين لهم الكلمة فى المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع الى رأى عدد محدود من الاعضاء ـ سلطان القواد الشامل ـ اركان خطابتهم ـ الالفاظ والصور ـ فى ان الضرورة تقتضى ان يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الآراء وأن يكونوا من قصار النظر ـ فى انه يستحيل ان تقبل آراء الخطيب الذى لانفوذ له ـ غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة او رديئة ـ فى انها تتحرك احيانا بحركة نفسية ـ فى جلسات «المتعاهدين» ـ فى الاحوال التى لايكون للهيئة فيها صفة الجماعة ـ تأثير الاختصاصيين فى المسائل الفنية ـ منافع النظام النيابى ومضاره فى كل امة ـ فى ان النظام موافق لاحتياجات العصر لكنه يؤدى الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً ـ خلاصة الكتاب

—

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهى تتشابه كثيراً فى صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان . ولروح الشعب فيها أثر هو اضعاف تلك الصفات أو تقويتها . الا أنه لا يمنع من ظهورها البتة. وتتشابه المجالس النيابية فى البلاد المختلفة كاليونان وايتاليا والبرتقال واسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابها عظيما فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك أمام جميع الحكومات .

النظام النيابى هو أقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة فى العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد فى الناس وان كان علم النفس يراه خطأ وهو أن العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت فى الامور بالعقل والروية والاستقلال

والصفات المميزة للجماعات توجد فى المجالس النيابية من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير والغلو فى المشاعر ونفوذ القواد . الا أن لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لا تشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

أما بساطة الافكار فمن أهم مميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصاً عند الامم اللاتينية الميل الى حل المسائل الاجتماعية العويصة بابسط المبادىء النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال . ومن الواضح أن المبادىء تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل فى الجماعة يرمى دائماً الى تقدير تلك المبادىء باكثر من قيمتها ويذهب فيها الى آخر ما تؤدى اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التى تمثلها المجالس النيابية هى المتطرفة

واكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة « اليعاقبة » أيام ثورتنا الكبرى فقد كانوا كلهم من ارباب المذاهب وكلهم من المناطقة . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادىء المقررة من غير التفات لظروف الاحوال . فصح ما قيل عنهم من انهم عبروا الثورة ولم يروها . فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا انهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية

جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية الى مدنية كانت للأمة قبل تطورها الحالى .
كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق أحلامهم من أبسط الوسائل. فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وان كانوا فرقا شتى

وأما التأثر بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة . والتأثير يأتى من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها الا ان لقابلية المجالس النيابية فى هذا الباب حدوداً واضحة يجب ذكرها .

فلكل عضو رأى ثابت فى المسائل المتعلقة بأقليمه لا يمكن زحزحته عنه . ولا تؤثر فيه حجة أو دليل . فلو بعث (ديموستين) ما أمكنه أن يقنع عضواً بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض أصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك لان التأثير الذى وقع عليه أولا من الناخبين أوجد له رأيا ثابتاً وعطل فيه ملكة الاقتناع بما يخالفه . ولعل أحد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم فيه كان يشير الى تلك الافكار التى رسخت من قبل فى ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال : « سمعت مدى خمسين عاما قضيتها فى (ويستمنستر) الافا من الخطب فالقليل منها حملنى على تغيير رأيى ولكن لم يكن لواحدة منها أن تحملنى على تغيير صوتى عند الاقتراع »

واذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة أو تقرير ضريبة جديدة وهكذا تقلبت الآراء وظهر نفوذ القواد . لكنه لايساوى ما لهم فى الجماعات الاعتيادية . اذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر. فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون . فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصاً يهدم المبدأ الذى أقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم . ثم الاقرار فى الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثراً بعد عين

وضح مما تقدم ان لكل مجلس فى كل دور أفكاراً ثابتة وأخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هى المسائل العامة كان التردد فى الآراء هو الغالب لما يجتمع فى نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد فى المجالس

على ان القواد هم أصحاب الكلمة فى أغلب المسائل التى ليس للاعضاء فيها رأى ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون فى كل هيئة نيابية عند جميع الامم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين فى كل مجلس . لان الرجل فى الجماعة لا يستغنى عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابية لا تمثل الا رأى عدد صغير من أعضائها

والقليل من تأثير القواد فى تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيره مستمد من نفوذهم . برهانه أنهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم

وهذا النفوذ شخصى لادخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الامثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) فى عرض كلامه فى مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذى كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابوليون شيئاً مذكوراً قبل أن يتم له السلطان بشهرين »

ارتقى (فيكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحا بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس پايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله . قال لى (فولايل) عن (پايات) انه لا يحب أفكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا كذلك (ادجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته

والمجالس النيابية هى المكان الوحيد فى الارض الذى يضعف فيه نور الذكاء الفائق . فليس هناك للفصاحة قيمة الا ما وافق منها أحوال الزمان والمكان . ولا اهتمام الا بالخدم التى أديت للاحزاب لا للوطن . واذا كانت المجالس النيابية قد أكبرت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و (تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك الا بتأثير الضرورة الشديدة الحالة ولهذا بعد أن زال الخطر شفى الناس من واجب

الشكران ومن الخوف معاً »

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذى اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً بأحوال النفس . اذ الجماعة لا تكون كذلك اذا عرفت لقائدها ما قد يكون أداه من الخدم للوطن أوللاحزاب على حد سواء . والجماعة انما تطيع قائدها موقتة بسلطان نفوذه فيها من دون أن يقترن ذلك عندها بمنفعة أو شكران

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذى كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما أوتى من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفي لقلب الوزارة وقد أوضح أحد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب فى الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة أضعاف ماتساويه وبكوننا لم نضع فى مدغشقر الا قدما متزعزعة . وبكوننا غبنا فى مملكة كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا أضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص فى الديار المصرية الا ان نظريات موسيو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر اكثر من مصائب نابوليون الاول [١]

على انه لا ينبغى تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان اكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأى العام . ولم يكن الرأى العام اذا ذاك فى المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن . ومن النادر أن يسبق القائد الرأى العام والغالب انه يسير خلفه ويتبعه فى الخطأ

للقائد فى اقناع قومه وسائل غير النفوذ هى التى ذكرناها مراراً . ولا بد له فى قيادتهم من أن يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من

---

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كليمانسو الذى سمى هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لتغير المؤلف رأيه فى الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع فى رئاسة نظارها ونظارة خارجيتها وله فى السياسة العامة مقام كبير (م)

طريق الوجدان وعرف طريقة الـكلام معهم . فينبغى له على الأخص أن يعرف مالبعض الالفاظ من التأثير الذى يجذب نفوس السامعين وان يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التى تقوم بالتوكيد الشديد الخالى من الدليل وبالصـور الآخاذة المحلاة بالحجج الناقصة . هذه فصاحة موجودة فى كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزى الذى هو اكثرها اعتدالا

. قال الحـكيم الانكليزى (ماين) « من السهل أن نقرأ دائما مداولات لمجاس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فلمثل هذه الصيغ الـكلية تأثير كبير فى خيال آهل الديموقراطية المحضة . ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة اذا قدمت لها بألفاظ جذابة ولو كانت من القضـايا التى لم يحققها أحد . وربما كانت لا تحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك انه لاحد لتأثير « الالفاظ الجذابة » المذكورة وكم اتيناعلى بيان قوة الالفاظ والجمل . وما ينبغى أن يختار منها مما يمثل صـوراً مؤثرة . واليك جملة تمثل ما تقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا « يوم يركب السياسى الافين والفوضوى السفاك ظهر باخرة واحـدة تقودهما الى منفاهما فى الاراضى الحمية ذلك هو اليوم الذى يتحادث فيه الرجلان ويظهر كل واحد منهما لأخيه ممثلا احدى صورتى نظام اجتماعى واحد »

فالصورة التي يمثلها هذا المقال واضحة . وقد شـعر خصوم الخطيب كلهم انهم مهددون بها . فهم يرون الاراضى الحمية مقرونة برؤية الباخرة التى تقودهم اليها لانهم من حزب أولئك السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم الفزع الذى كان يدخل قلوب (المتعاهدين) اذ يسمعون (روبسبيير) يهـددهم بمنجلة [1] الاعدام فيدينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التى لا يجوز فى العقل تصورها فمن ذلك ما اكده الخطيب الذى نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه احد معارضة

---

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

تذكر من ان ارباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت . وان مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذى يستحقه الفوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائما أثر فى الجماعات . ولا يرمى الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد كما انه لا حرج عليه وان تعسف فى الطعن واشتد فى الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير فى السامعين لانهم أن جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة أو الاشتراك مع المجرمين

سادت هذه الفصاحة فى المجالس النيابية فى كل زمان كما قدمنا وهى تشتد فى أزمنة الشدة . ومن أفيد المطالعات قراءة الخطب التى كان كبار الخطباء يلقونها فى مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحيناً لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة . ثم تنهمر الشتائم من أفواههم على الظالمين . ويقسمون انهم اما أن يعيشوا أحراراً واما أن يموتوا . ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة . ثم يسكن جأشهم فيجلسون

قد يكون القائد أحيانا ذكيا متعلما ولكن ذلك يكون مضراً به فى الغالب لان الذكى يميل الى بيان ما فى المسائل من أوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم وذلك يؤدى الى التسامح والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة وحدة العقيدة لازمة للرسل . وكان اكبر القواد فى الأمم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً وكان اكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً فى العقل . فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو (روبسبيير) ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على كل لسان . وشقشقة فى الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعنا فى نفس خلوها اكثر من انحطاطها . نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع الا ماتعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله « هل من مبارز » وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة . فاذا فرغ القارئ من تلك المطالعة

الملة شعر بالحاجة الى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف (كاميل ديمولان) من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله . على انه لا بد لاستجماع ذلك فى الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالالهام يهديها الى معرفة الرجل الذى أودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته

انما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التى يقيمونها . وأصدق شاهد على ذلك انه اذا وقع لاحدهم ما يفقده نفوذه فانه يفقد معه تأثيره أعنى قدرته على ادارة الآراء كما يشاء

وأما الخطيب المجهول الذى يذهب الى الجلسة بعد أن يكون قد أعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه الا الحجج والادلة فلا رجاء له حتى فى الاصغاء اليه . وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو أحد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذى لا نفوذ له فى السطور الآتية « اذا استوى ـ الموصوف ـ على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقا فنشرها أمامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئناً. وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكين روح سامعيه . لانه وزن أدلته وحررها . وأعد شيئاً كثيراً من الاحصاآت والحجج . وأيقن ان الحق فى جانبه. وان معارضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة التى يأتى بها. هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه واصغاء اخوانه لاعتقاده انهم لا يطلبون الا السجود أمام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتفزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون. وما السبب يا ترى فى هذا الانصراف العام . وما الذى يدور على ألسنة أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم وما السبب القوى الذى يحمل ذاك على ترك مجلسه. يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع. فيزيد الاعضاء فى عدم الاصغاء اليه . فيجهر ويهتز . فتزداد الجلبة حواليه . ويعود لا يسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى ثم يخشى أن يدعو

سكوته الى أصوات (الاقفال الاقفال) فيرجع الى خطابته بما فيه من قوة .
وهناك تعلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لايقدر على وصفه الواصفون»

ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت فى الهياج الى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية فى مشاعرها . وتذهب الى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف فى القسوة اذ ذاك لايصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير مايخالف منافعه كل المخالفة

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك الى أى حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لمايطلب منها وان خالف أعز المنافع لدى أفرادها كان من أكبر الضحايا أن يتنازل الشرفاء عن امتيازاتهم ومع ذلك فعلوه غير مترددين ذات ليلة من ليالى « الدستورية » وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذراً لهم بالويل والدماء ولكنهم فعلوا وما خشوا تقتيل بعضهم بعضا ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم انه مسوق الى الاعدام لامحالة كما يسوق هو اليوم اخوانه اليه غير انهم كانوا قد وصلوا الى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على ماوصفنا فلم يعد هناك من الاعتبارات مايقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم اليك ماقاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكر « ماكنا لنريد القرارات التى يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحد ولكن المحنة هى التى كانت تمليها » وما أصدق ما كتب

كانت جلسات التعاقد متفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج قال تاين « لقد أقروا وشرعوا ماكانوا يجزعون له أشد الجزع ولم يكتفوا فى ذلك بالحماقيات والجنونيات . بل شرعوا الآثام وقتل الابرياء واعدام الاصدقاء وانضم حزب الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال (دانتون) الى المنجلة وكان رئيسه الطبيعى وموجد الثورة وقائد زمامها ومال اليمين الى الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد أفظع الأوامر التى أصدرتها

الحكومة الثورية وبين اصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربوا) و (كوطون) و (روبسبيير) لجدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصده اصطلاح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على اعدامهم ثم فى يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير »

قد يكون الوصف أقتم ولكنه الحق الواقع والصفات المتقدم ذكرها توجد فى المجالس النيابية المتهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو (سبوللر) وهو شورى لا يشك أحد فى صدق افكاره الديمقراطية وصفا دقيقا نذكره للقراء نقلا عن (المجلة الادبية) ويرى القارىء فيه جميع المشاعر المتطرفة التي قدمنا ذكرها وتتمثل فيها التقلبات الشديدة التى تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة الى أخرى . قال موسيو (سبوللر)

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التى لانهاية لها أوردت الحزب الجمهورى حتفه فلقد كان له من السذاجة مالا يساويه الا سوء ظنه المطلق . لايدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى. ذعر وآمال لاتنتهى حالتان يستوى فيهما الريفى والطفل فسكونهما يضارع قلقهما. ووحشيتهما تماثل طاعتهما ذلك شأن المزاج الذى لم يرتب والتربية التى انعدمت. لايندهشان لامر وكل أمر يفقدهما الصواب يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة. فيقتحمان النار . ويجفلان من الظل. ويجهلان العلل والمعلولات ويسارعان الى الفتور مسارعتهما الى التهوس. فيهما استعداد للفزع والذهول . ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذى ينبغى أبداً . ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الالوان . ويتشكلان بكل الصور أى رجاء فى حكومة تؤسس

فوقهما »

لكن من حسن الحظ ان جميع الصفات التى أتينا على ذكرها فى المجالس النيابية لاتظهر دائما . لان تلك المجالس لاتكون جماعات الا فى بعض الاحايين. والغالب ان كل عضو من أعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها أن تسن من القوانين الفنية ماهو حسن للغاية . نعم ان الذى يضع هذه القوانين انما هو اختصاصى واحد يحضرها فى سكون مكتبته وكل قانون أقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله . ولكن القوانين التى وضعت بهذه الكيفية هى أحسن مايشرع وانما يكون القانون ضاراً اذا أدخلت عليه فى الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة ذلك لان صنع الجماعة أحط درجة من عمل الفرد دائما وفى كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع فى الاعمال المضرة التى لايهذبها الاختبار . فالاختصاصى يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر فى المجالس ولا تأثير للمجلس فيه

المجالس النيابية هى أحسن الوسائل التى اهتدت اليها الامم فى حكم نفسها وبالاخص فى التخلص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ماعليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة . وهى على التحقيق أرقى أشكال الحكومات ان لم يكن عند الكافة فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التى تتكون منها ذروة الحضارة فى الامم

على اننا اذا نظرنا اليها من الجهة العملية لانرى لها الا ضررين كبيرين. الاول تبذير الاموال تبذيراً لامناص منه . والثانى الترقى فى تحديد الحرية الشخصية

فأما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية . فاذا قدم أحد الاعضاء طلبا لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو فى الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لايسع الاعضاء والآخرين أن يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضى الى تقرير ضريبة

جـديدة • اذن يستحيل عليهم الرفض • أما نتائج الزيادة فى المصروفات فهى بعيدة ولا تأثيرها فى اشخاصهم الا قليلا بخلاف مالو رفضواالطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف امام الناخبين وما ذلك اليوم ببعيد

وهناك سبب قوى أخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطراب لمنح المصروفات المحلية اذا لا يجرأ عضو فى المجاس على رفض طلبها لـكونها فى منفعة الناخبين مباشرة • ولانه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه الا اذا أقر مايطلبه زملاؤه لمراكزهم (١)

وأما الضرر الثانى وهو التدرج فى تقييـد الحرية الشخصيـة تدرجا قهريا كذلك فهو ضرر محقق وان كان أقل وضوحا من الاول . وهو نتيجةالقوانين العديدة التى لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة أفكارها ولـكونها تحسب أنها مضطرة لتقنينها وليست القوانين الا قيوداً .

---

(١) ذكرت جريدة (ايكونوميست) فى عـددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التى تتكلفها تلك المصالح المحلية فى سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديديةفكان كما يأتى : الخط بين(لانجاى) وسكانها(٣٠٠٠) نسمة وهى منزوية فى أحـد الجبال و (بوى) خمسة عشر مليوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران) سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (براد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعةملايين وهكذا . وبلغ مجموع كلفـة السكك الحـديدية التى تقرر انشاؤها فى سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقاً تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر الماليـة أو ٨٠٠ مليون بحساب (لورو ابوليو) عضوجمعية العلوم ولا يخفى أن استمرارزيادة المصروفات على هذا النحو يؤدى الى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك فى أوروبا مثل البرتقال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما اصبح قادما عليه مثل ايتاليا .

والظاهر أنه لا مفر من هذا الخطر لان انكلترا نفسها لم تتمكن من اتقائه مع أن نظامها النيابى اكمل النظامات لأن النائب الانكليزى اكبر النواب استقلالا أمام ناخبيه وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد الى أن الزيادة الظاهرية فى الحرية الشخصية لا تلبث أن تتبع بنقص حقيقى فيها ثم عاد الى هذه النظرية فى كتابه الذى سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله « جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذى أشرت اليه . فما اسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمى الى تحديد الحرية الشخصية . وذلك من طريقين . الاول ان كل سنة قد أربت على سابقتها فى كثرة اللوائح التى تلزم الافراد بواجبات كانوا احراراً منها وتفرض عليهم أعمالا كانت مباحة ان شاؤا فعلوها وان شاؤا اهملوها . والثانى زيادة الضرائب العامة التى يجب على الافراد القيام بها وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد فى المال الموكول صرفه الى مشيئة الموظفين العموميين »

وهذا الترقى فى تحديد الحريات يظهر فى جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر) وهى أن أحداث تلك القوانين المقيدة ينتج حتما زيادة عدد الموظفين المكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى نفوذهم . ومآل أولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين . لأن طائفتهم هى التى لا ينالها أثر التقلبات المستمرة التى تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها فى الوظائف فهى الطائفة الوحيدة التى لا تبعة عليها من أعمالها ولا شخصية لاحد فى مجموعها وهى باقية على الدوام ومن المعلوم

=الا أنه لا داعى للاهتمام كثيراً بما ذكر لأن الناس قبلوا نقض الفائدة التى تدفعها تلك البلاد على ديونها بفقدان أربعة الاخماس من دون امتعاض كبير . وهى تفاليس محكمة التدبير تسمح لامها بأصلاح ميزانياتها . على أن الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب أشد وانكى . وقد دخلنا فى زمن التفكك والانحلال العام . فعلينا الرضا بالعيش يوماً بيوم . وان لا نهتم بالغد لانه ليس فى ملكنا

آن أشد صور الاستبداد هى التى اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث

ان الاستمرار على سن هـذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتى تحيط بكل حركة من حركاتهم وان صغرت بسور من الاجرا آت (البيزنطية) من شأنه أن يضيق دائرة العمل الذى لا قيد فيه لكن الامم قد خدعت فى خيالها فحسبت أن الاكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواة وصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلا

على أنها لامهرب لها من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النير كل يوم يفضى بها الى تطلبه وفقدان ملكة الاقدام وقتل العزيمة فتصبح حينئذ أثراً بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا ارادة ولا صلابة ولا قوة

واذا فقد الانسان المقدمات فى نفسه اضطر الى طلبها فى غيره وكلما ازداد عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة. هنالك تضطر الى ابدال اقدامهم على الاعمال بأقدامها والقيام مقامهم فى الاخذ بيد المشروعات كلها والتداخل فى تنظيم سير الافراد دونهم لانهم أضاعوا ملكة ذلك كله — وتصبح الحكومة مكلفة بأن تعمل كل شيء وتدير كل شيء وتحمى كل شيء فتصير آلهاً قادراً . الا أن التجربة دلت على أن قدرة مثل هذا الإله لم تكن قوية ولم تدم الا قليلا

والظاهر أن الترقى فى تقييد الحريات عند بعض الامم التى تظن أنها متمتعة بها لما هى فيه من الاطلاق الصورى ناشيء من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام كان . وذلك نذير دور الانحطاط التى لم تنج منـه مدنية حتى الآن

واذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التى تبدو من كل صوب حكمنا بأن عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة قد وصل الى اقصى حدود الهرم الذى هو طليعة الانحطاط والظاهر أنه لابد لجميع الامم من عبور هذه السبيل لان التاريخ يروى لنا انه دور كثيراً ما تجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التى تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهوالذى

نريد أن نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لأسباب قوة الجماعات

اذا سبرنا المدنيات التى سبقت مدنيتنا فى حالتيها الرقى والانحطاط فما الذى نعثر عليه

نعثر فى فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعتهم عفواً الهجرة والاغارات والفتوحات ولكونهم اختلفوا فى المحتد وتباينوا لغة وديناً لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها . وفى تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بأرقى صورها فلها منها الائتلاف الوقتى . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شىء من ذلك . ان هم الا قوم متوحشون

ثم دار الزمان فأدى وظيفته ، وأخذت جامعة البيئة وتكرار التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر أثرها شيئاً فشيئاً وبدأت اجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض وتكون شعباً أى تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم هكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الامة أن تخرج من دائرة الهمجية

على أنها لا تخرج منها الا اذا تكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لا يتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها الحصر ، وسواء كان المقصد العام الوهية روما أو تعظيم اثينا أو نصرة الله فهو يكفى لتوحيد أفكار أفراد الامة وهى فى دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون وينجر الشعب وراء مقصده ويصل الى ما ينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام نعم تعرض له أحوال يكون فيها جماعة الا انه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوى أعنى روح الشعب فهى التى تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظاما مسنوناً

فاذا أتم الزمان صنعه الايجادى يبدأ بصنعه الاعدامى الذى لم ينج منه عابد ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى

وقفت اسرع اليها الانحطاط لا محالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الاجل علامة تلك الساعة التي لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذى اتكأت عليه روح الشعب وكلما ازوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التى كانت تستمد منه حياتها

كلما ازوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه . وداعى وحدته . وموجد قوته. وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير أن ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية . ووزاءه انطماس الاخلاق. وضعف القدرة على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذى كان يكون امة — أى وحدة وانشئت فقل كتلة — جمعاً مؤلفاً من افراد غير مؤتلفين . لا رابطة بينهم الا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات ومتى وصل الناس الى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتداء الى طريقة يحكمون بها أنفسهم جدوا فى طلب من يقودهم فى جميع اعمالهم وان صغرت فتأتى الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شيء

واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الامة . فتعود خليطا من الناس كل يعمل على شاكلته . وترجع الى ما كانت عليه فى بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية . فلا شعور . ولا أمل . هنالك تنعدم أساطين المدنية . وتمسى هدفا لحوادث الاتفاق . وتصير العامة سلطانة فى الناس . وتبدو طلائع المتوحشين . وقد يلوح على المدنية أنها باقية فى بهائها لان محياها لا يزال يضيء بما اكتسبته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ولكن الحقيقة انه بناء اكله السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأى عاصفة

فمن همجية الى حضارة وراء مقصد فى الخيال . ومن حضارة الى ازواء . فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار حياة الامم

فهرست

صحيفة

الباب الأول

روح الجماعات

صحيفة

الباب الثاني

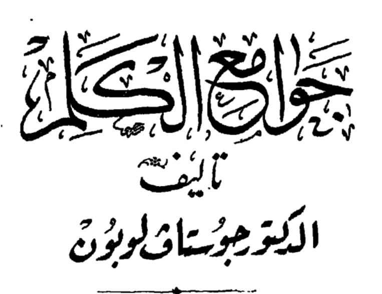
أفكار الجماعات ومعتقداتها

صحيفة

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان انواعها

تم الكتاب



ترجمة من اللغة الفرنساوية

المرحوم

أحمد فتحي زغلول باشا

« عني بتصحيحه ونشره »

توفيق الرافعي

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

« كلمة للناشر »

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فهذا كتاب « جوامع الكلم » لنابغة الفلاسفة الدكتور جوستاف لوبون قد لخص فيه كثيراً من آرائه فى مؤلفاته على ما قاله فى مقدمة هذا الكتاب وتراه مبثوثاً فى تضاعيف أسطره وثنايا أوراقه .

والدكتور جوستاف لوبون ليس بدعا من الفلاسفة فقدما سارت حكمهم وأمثالهم مسير الشمس فى الفلك والنور فى الحلك يتناقلها الرواة ويشيد بذكرها الركبان يرد نميرها الملك والامير ويهتدى بهديها الغنى والفقير هذا ومكانة صاحب هذا المؤلف مكانته بين فلاسفة الغرب والشرق ومنزلته منزلته عند رجال الحكمة وأمراء البيان .

ولذا اعتنى علماء الامم وكتابها بجميع ما خط يراع هذا

الفيلسوف العظيم وفى مقدمة هؤلاء الاستاذ العلامة المرحوم احمد فتحى زغلول باشا .

فقد كان لهذه المؤلفات منزلة خاصة فى نفسه جعلته يحرص كل الحرص على ترجمتها وتعميم فائدتها فنقل الى اللغة العربية منها «سر تطور الامم» و«روح الاجتماع» وهذا الكتاب وحالت المنية بينه وبين اتمام ترجمة باقيها

ولما كانت هذه الكتب مما تحتاج اليه الامم الشرقية لاسيما فى أيام نهضتها ودور انتقالها آثارنا إعادة طبعها ونشرها إلى الناس فنشرنا لهم سر تطور الامم — وروح الاجتماع وهذا الكتاب والله نسأل أن يوفقنا لخدمة هذه الامة والعمل لمصلحتها والسلام

القاهرة فى مارس سنة ١٩٢٢ توفيق الرافعى

مقدمة المؤلف

الغرض من هذا الكتاب تلخيص بعض الافكار المنشوره فى مؤلفاتى على اختلاف أنواعها وإبرازها فى صورة قضايا جامعة ، لأن الصيغ المختصرة تأخذ باللب ، وتبقى فى الذاكرة ، ولذلك شاعت جوامع الكلم فى عالم الادب

يتناول العقل أكثر الحقائق المقررة عندنا ، أعنى ما يرتسم فيه من صور المعلومات على شكل أفكار موجزة ، وما فتىء الناس يلخصون تجاربهم فى قضايا وحكم ترسل أمثلة ، هى جوامع كلم الأمم ، فالمرء يفكر بواسطة القضايا الموجزة ، ويسير فى حياته مدفوعاً بها ، ذلك لانها تعفيه من إطالة التفكير قبل الاقدام على فعل ما يريد

بجانب هذه المزايا مضار . فالمثل خلاصة تقريرات ينبغى للمرء أن يستحضرها . فاذا سهل تصور الدليل ، كان المثل صيغة من البديهى ، وإذا عسر تناول ذلك تعذر فهم المراد منه ، ويظهر من ذلك أنه لا يفيد الا فى استحضار الحقائق الاجمالية البديهية غالباً ، وذلك هو الواقع فى معظم الامثله ، ولكنى لم أحجم عن ضم بعض القضايا ، وان صعب إدراك الغرض منها وحدها لاول وهلة ، لانها مبسوطة فى مؤلفاتى ، فهذا المختصر جامعها

باريس : مارس سنة ١٩١٣ — جوستاف لوبون

الفصل الأول

الحياة الشاعرة

١

الخُلُقُ والذات

المرء مُسيَّر بخلقه لا بذكائه

***

تتكون الذاتية من عناصر متنافرة غالباً ، فوحدتها صناعية كوحدة الجيش

***

روح الفرد مؤلفة من أرواح مجتمعة : روح الشعب ، وروح العائلة ، وروح الفريق الذى هو فيه عادة ، وقلما أفلت من هذا الجمع المطبق عليه

***

سبب تغير الخلق تغيراً فجائياً ، طروء حوادث من شأنها إيقاظ إحدى الارواح الكامنة فينا

من المتعذر الحكم على مشاعر الانسان بما قد يأتيه فى أمر معين ، فالمرء فى حال ليس هو هو فى جميع الاحوال

*
* *

انما يعرف المرء عند عظائم الامور ، ولا سيما حين الفتنة (الثورة) فهناك تظهر مكنونات خلقه

*
* *

أصل ثبات الخلق ثبات البيئة

*
* *

قلما تكون الاسباب التى ينتحلها المرء لاعماله هى الداعية اليها حقيقة ، وانما هى تصلح لتعليل نزعاته الداعية إلى العمل الصادرة عن المشاعر أو التدين

*
* *

سبب تناقض خلق المرء ، راجع فى الغالب الى مغايرة ارادته الشاعرة لارادته اللاتنبُّهيّة

*
* *

قد تكون الفطنة والارادة اللاتنبُّهيّتان ، أرقى من الفطنة والارادة الشاعرتين ، لذلك تجد من الناس من سقم رأيه وحسن عمله

*
* *

من ظن لغيره من المشاعر ما عرفه لذاته ، فقد سد على نفسه باب معرفة الناس

*
* *

العادة تهدى المرء فى كل يوم الى ما يجب التفكر فيه وقوله وعمله

*
* *

المتردد لا يسير بمقتضى رغباته ، بل بمقتضى ما يفترضه من ذلك لنفسه وقت اضطراره للعمل

*
* *

من لم يزاحم بارادته ، أضر غالباً بسكونه

*
* *

ليس الذى تكبر الجماعات شأنه متصفاً حتما بما يعزى اليه من الاخلاق ، ولكنه كثيراً ما يكسبها فى النهاية

*
* *

قلما تترتب عظائم الاعمال على مجهود عظيم ولكنها فى الغالب ثمرة مجهودات صغيرة

*
* *

مثل « من قدر على الكثير قدر على القليل » ليس صحيحا دائما فذو العقل الكبير ينجح فى العظائم ، أكثر مما ينجح في الصغائر

*
* *

الغرور علة رضا البليد عن نفسه ، لانه يسهل عليه أن يرى لنفسه من الفضائل مالا يكون له أبداً

*
* *

من وثق من نفسه . غير محتاج إلى مدح غيره إياه . ومن طلب الثناء ، فقد دل على ارتيابه فى قيمة نفسه

*
* *

من انحاز لمذهب ، فقد أضاع ذاتيته ، ومن لم يكن من فريق فلا يطمحن إلى النفوذ فى الناس

*
* *

أخطأ من قال : إن كبار الافكار تأتى من القلب ، فمصدرها العقل ، وإنما هى تستمد من القلب قوتها

*
* *

قلما اجتمع لامرء خلق وذكاء ، لذلك ينبغى له أن يختار أصدقاءه من أهل الخلق ، ومعاشريه من أهل الذكاء

*
* *

روح من كان سريع التأثر كالبحر المائج : تنعكس فيه أشعة الاشياء فى كل يوم بلون جديد

*
* *

ما أشبه العقول الكبيرة بالنباتات الضخمة التى تعظم بالمعالجة ويرجع خلفها على الدوام الى المثال الوسط لنوعها

***

لا يملك الانسان رغباته ، ولكنه يملك إرادته غالباً

***

لاشيء يقف أمام إرادة قوية دائمة ، حتى الطبيعة ، حتى البشر ، حتى القدر

***

من كان له إرادة قوية ، غلب أن يكون له رغبة قوية تدعمها فالرغبة روح الارادة

٢

الشعور والمعقول

المشاعر أس الحياة ، فاذا ما حل التعقل محل الاخلاص والبر والحب والخيالات ، وهى التى تسير المرء فى الحياة ، فقد انتفى كل داع إلى الحركة

***

انما ظهر شأن العقل فى كوكبنا الارضى متأخراً ، فكم عاشت الكائنات و تقلبت بدونه

*
* *

تطور المشاعر مستقل عن الارادة ، وليس فى طوع امرء أن يحب أو يكره كما يهوي ، وأقوى الناس نفساً ، لا سلطان له على مافيه من إحساس وشعور إلا بقدر ما يكسر من حدتهما

*
* *

المشاعر قليلة التغير ولكن محلها متغير غالباً ، ومن هنا يظنون أنها متقلبة

*
* *

ما أسرع تولد اليقين من الخيال فى دائرة المشاعر

*
* *

قد يودى التظاهر بمشاعر كاذبة الى اكتسابها

*
* *

قوة البديهيات الاحساسية، تظهر فى عدم الاعتداد بالبديهيات العقلية

*
* *

قد تجتمع فى النفس الواحدة معقولات شتى ، كالتى منشؤها الدين والشعور والعقل ، ولكنها لا تأتلف أبداً

إنما يعالج الشعور بالشعور ، أو يتصور الشعور فى الذهن .
ولكن المعقول لا ينجع فيه

***

ما يأتيه المرء كبراً ، أكبر مما يأتيه وجوباً

***

دوافع الشعور والاعتقاد أشد فعلا فى سيرة المرء من مستظهرات العقل كلها

***

إذا لم يكن للرأى سند من الشعور أو الدين ، بطل فعله وأشبه الطيف لا نفوذ له ولا قوة ولا بقاء

***

حياة الامم قائمة على المشاعر ، والمؤثرات الدينية والاجتماعية

***

صحة الأمر عقلا ، لا تقتضى الاخذ به دائماً

٣

اللذة والألم

ماعرف المرء الا حقيقتين مطلقتين: اللذة والالم ، فعليهما تقوم

حياته منفرداً ومجتمعاً

***

ماهتدت الشرائع الدينية ، ولا القوانين الاجتماعية ، الى أس تدعم به تعاليمها ،الارجاء اللذةوخوف الالم : فعقاب أوثواب، وجنة أو جحيم .

***

أطوار الشعور محدودة .لذلك لايلبث المرء أن يصل الى غاية اللذة أو منتهى الالم

***

لكثرة تجدد الاحساس بذاته أثر نفسى ، قد نسميه قانون الفتور وهو يلجىء الى تنويع الرغبات غالباً

***

يعترف المؤمنون بأن شدة الشوق الى الجنة آتيةمن خوف الجحيم

***

اللذة عارضة ، والرغبة أبقى . لذلك يقاد الناس برغباتهم ، أكثر مما يقادون باللذات

***

الغالب فى السعادة أنها أمل محقق ولما يتحقق

*
* *

الرجل الذى يعمل بمشورة البوذية ، فيقتل الرغبة فى نفسه، يفقد كل باعث له على العمل

*
* *

الرغبة مقياس مقدرة الرجال . وخيال كل أمة جامع رغباتها

*
* *

اكبر قواد الرجال خلاقون للرغبات . وما المصلحون إلا قوم يحلون رغبة محل رغبة

*
* *

لولا الامل فى السعادة الوهمية ، والاسف على عدم تحقيق مايتصور منها لسئم الناس طول الحياة

*
* *

الرجل العاقل يملك نزعات قلبه كلها ، غير أن العقل لا يقتضى السعادة حتما

*
* *

السعيد نفور من مرأى التعاسة . وقلما تدوم المحبة بين شقي وسعيد

*
* *

الجذب والدفع يحكمان تطور العوالم كلها . والحب والكراهية صورتان منهما يسودان تطور الاشخاص

***

ماطول الحياة بعدد سنيها ، بل بتنوع المشاعر فى مداها

٤

الروح النسائية

خلقت المرأة أشد تأثراً بالمشاعر والدين منها بالمعقول

***

الغالب أن الالهام فوق العقل . فبه تفطن المرأة ، وان ضعف معقولها ، الى أمور لايفقهها الرجل قويم النظر

***

النساء حساسات أكثر منهن متعقلات ، فلا يحسن حالهن بقهرهن على إطالة التفكير

***

تفضل المرأة الرجل أو يفضلها على حسب متعلق حركة كل منهما . ولكنها لاتساويه فى موضع منها

***

ليس للمرأة فى عالم الفنون والازياء الا ذوق مستعار

***

لا تغتفر المرأة للرجل أن يستنبط ما يجول بخاطرها من خلال كلامها

***

اما أن تسود وإما أن تساد ، كذا شأن النساء ولا وسط

***

من المتعسر الاعراب عن المشاعر بألفاظ مناط معانيها العقل. فمحاولة تعقل الحب ضرب من الهزيان

***

لو صح للنساء كسب فضيلة الاخلاص ، لفقدن سلطانهن على الرجال

***

قلما يصدق الرجل المرأة الا إذا كذبت ، وهو بهذا يلجئها الى الكذب غالباً .

***

اصرار النساء والسياسيين عادة على انكار البديهيات ، هو أهم الاسباب التى تحمل الناس على الشك فيما يقولون

تلوم النسـاء الرجال لـكونهم لا يفهمونهنّ ، وأى عقلين تنافرا وتفاهما ؟

* * *

انما يطيب المرء فى الحب بالـكلام هرباً من سماع معقول

* * *

الحب يرفع أو يخفض ، ولا يدع المرء كما كان

* * *

لا تزال أفعال المرأة صادرة عن الالهام لذلك تفضل الحب ، وان كان خاملا ، على المجد وان علا

* * *

عجباً للحب يخاف الريب . والشك ينميه ، واليقين يميته

* * *

أبقى المشاعر أكثرها اعتدالا ، والافراط فى الحب مهدد بسرعة الضجر منه

* * *

بشر الحب إذا أبصر بالزوال

* * *

من يحـاول استبقاء حب ينصرم ، كمن يحـاول استبطاء تعاقب الايام

٥

الآراء

آراؤنا على الدوام مقدمات لمعتقدات تتكون ولما تستقر.

*
* *

مصدر الرأى إما شعور أو دين أو عقل ، والأخير أندرها

*
* *

رأى السواد الاعظم من الناس ليس قائماً بالدليل ، بل مبناه كراهية ، أو عطف ، أو رجاء

*
* *

البيئة تلد الآراء . والشهوات والمنافع تقلبها

*
* *

معظم الناس ضعيف عن الرأى الذاتى ، ولكنه يتناول ما يختمر من الرأى فى عشيرته

*
* *

قل من يقدر على النظر فى الاشياء على حقيقتها : فنهم من لايرى الا ما يريد ، ومنهم من لايرى الا مايريه غيره اياه

*
* *

لا يتحصل للمرء مدى الحياة خمسة أفكار ذاتية أو ستة الا إذا كان عقله مطلقاً من كل قيد

*
* *

السبب فى أن الآراء السقيمة أعلق بالنفوس ، كونها قائمة على شعور أو دين ، مما لا سلطان للعقل عليه

*
* *

قد يتغير الرأى هنيهة من مطالعة كتاب ، ولا تلبث الاراء اللاتنبهية أن تعود إلى سلطانها

*
* *

التشدد فى الرأى يغلب على التسامح فيه ، لان الاول مبنى على الشعور أو الدين والثانى مبنى على العقل

*
* *

عدم التسليم برأي مبناه الشعور أو الدين ، تقوية له

*
* *

لا تخلق الجماعة الرأي ، ولكنها تكسبه قوة ، لان رأى الجماعة شديد العدوى

*
* *

قلما تجد فى هذا الزمان صحيفة بلغ من استقلالها أن تسمح لمحرريها برأى من عندياتهم

فقدان ملكة النقد ، يسهل قبول الآرء العامة اللازمة فى حياة الامة ، فاذا انتشرت روح النقد فى كل فرد من أفرادها ، حان حينها .

*
* *

قوة الرأى إذا عم لاتصد : من أوجده ملكه ، ومن لم يقدر على ايجاده وجب عليه أن يذعن إليه

٦

الالفاظ والصيغ

لامقابل للشعور من العقل . فلا يتيسر الاعراب عنه بلفظ مناطه العقل . وعليه يتعذر ترجمة المشاعر بالألفاظ ترجمة دقيقة

*
* *

من الالفاظ مايشعر بوجود أفكار عدة لا تتناولها تلك الالفاظ

*
* *

إذا شاع اللفظ تشعبت معانيه ، بحسب معقول مستعمليه

*
* *

لا دواء لعدم التفاهم بين من اختلفوا جنساً ومكانة ، وذ كورة

وأنوثة، فاللفظ بذاته يثير فى نفس كل معنى خاصاً، فكأنهم لا يتكلمون لغة واحدة

*
* *

ليس للألفاظ الدالة على صور ذهنية فى لغة، ترجمة محكمة فى لغة أخرى ، فاللفظ يدل على صورة عند أمة ، وعلى صورة تخالفها عند أمة أخرى

*
* *

قد تثير الألفاظ الواحدة معانى مختلفة ، فى نفوس الذين تباين معقولهم ، وتلك علة الخلف بين الامم فى أحوال كثيرة كما رواه التاريخ

*
* *

من ضرورات فن سياسة الامم ، معرفة طائفة من الالفاظ المؤثرة ، لان فعلها أشد من فعل الادلة العقلية غالباً

*
* *

لبعض الصيغ الدينية قوة سحرية هائلة . فكم من أناس ضحوا نفوسهم، فى سبيل أقوال لم يدركوا مراميها ، وان تجردت عن كل معنى معقول

*
* *

أهمية المسميات فى السياسة ، دون أهمية الاسماء، فكم نفذت

نظريات من الخرق بمكان ، في ظل ألفاظ حسنة الانتقاء

***

لبعض الالفاظ والجمل ، قوة فى استحضار الصور . لكنها لاتدوم طويلا ، فتبلى ولا تعود ذات أثر فى الناس

***

لايتغير اللفظ المخطوط الا ببطء . أما معانيه والصور التى يحدثها ، فسريعة الزوال ، وعليه لايدل الكلام القديم ، الا على معنى قديم

***

اللسان يسبق العقل فى كثير من الناس ، أولئك إنما يعرفون مايجول بخواطرهم ، بعد أن يسمعوا ما يقولون

٧

الاقناع

١ — الالقاء فى النفس ، والتكرار ، والعدوى

التوكيد والتكرار والنفوذ والتلقين والعدوى ، خمسة أبواب لكتاب تام فى فن الاقناع

***

الاقناع حمل المخاطب على العمل ، لا إلزامه الحجة

*
* *

قد تلزم الادلة المخاطب الحجة ، ولكنها لا تحمله على العمل دائماً ، وأما التلقين والتكرار والعدوى ، فانها تنفذ الى المشاعر اللاتنبهية فتنقلب أفعالا .

*
* *

عدوى العقول آكد عامل في نشر الافكار والمعتقدات ، وقلما تأتى المعتقدات السياسية من غير هذا السبيل ، ثم يحاول صبغها بصبغة المعقولات لتبريرها

*
* *

سبب خطأ الجماعات دائماً فى نظرها كونه فى الاصل خيال فرد تسرب الى الجماعة بالعدوى

*
* *

متى ثبت فى النفوس رأى بالعدوى أو الالقاء ، اختفى هزيانه ، وقصر العقل عن النيل منه ، وساد هو على الارادة ، وقاد الخطى

*
* *

إذا كثر تكرار النظريات الباطلة ، نزلت الى عالم اللاتنبهى وأمست بواعث للأفعال

*
* *

نيل المراد بالالقاء فى النفس ، أفضل دائماً من نيله بالرهبة

*
* *

ينحصر فن كبار قائدى الأفكار ، فى كونهم يخلقون فيمن يقودون أرواحاً جديدة

*
* *

إذا أردت أن يكون لك سلطان مؤقت ، كفاك غالباً أن تقنع الغير بأنه لك

*
* *

تقاد الامم باستثارة شهواتها ، أسهل مما تقاد بالاهتمام بمرافقها

*
* *

إذا أردت أن تؤثر تأثيراً صحيحاً فى الامة ، فاقصد روحها اللاتنبهية ، واجتنب مخاطبة روحها الشاعرة

*
* *

من عرف كيف يهيمن أو يخلب ، استغنى عن الخطاب ليقنع

---

٢ — النفوذ

ذو النفوذ غنيٌ عن القوة

*
* *

قد يغني النفوذ عن القوة ، ولا تغني القوة عن النفوذ

القوة تقهر النفوس على الطاعة ، والنفوذ ينزع منها خاطر العصيان

***

لا طاعة بالاختيار من غير احترام ، ولا احترام لمن لا نفوذ له

***

النفوذ يملأ النفوس إعجاباً واحتراماً ، فيعطل ملكة النقد ، ويسهل تأثير الالقاء فى النفس

***

الخطأ يمده النفوذ ، أفعل من الحقيقة وحدها

***

إذا فقدت الحكومات والامم نفوذها ، أوشكت أن تفقد كل شىء

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

١

روح الشعوب

الشعب الصحيح لا وجود له الا عند القوم الاولين، أما الامم المتحضرة فان كثرة اختلاط التناسل ووحدة البيئة ، ولدت منها شعوباً تاريخية جديدة تشبه الشعوب الصحيحة

***

صفات الشعب النفسية ثابتة ثبات صفاته الجسمانية ، وتنتقل بالوراثة على قاعدة واحدة وبالاستمرار

***

قد يخضع السيف أمماً شتى لسلطان واحد ، ولكنها تحتاج، فى تكوين روح ملىّ عام ، الى التناسل ووحدة أحوال الحياة عدة قرون

***

تاريخ الامة عبارة عن حكاية مجهوداتها ، لإقرار روحها والخروج من همجيتها

*
* *

قوة الامة بوحدة المشاعر المتولدة من تمكن روحها الملى، أكبر من قوتها بالجند . فلقد ساد الرومانيون على الدنيا بروحهم، فلما أضاعوها أضاعوا ملكهم

*
* *

التقهقر أسرع من التقدم ، فالامة تشيد بناء مزاجها العقلى في أحقاب ، وتفقده فى زمن يسير

*
* *

الامة المتحضرة جماعة ثبت روحها ، بتراكم آثار الآباء والاجداد

*
* *

روح الامة الثابت فى حرب دائم مع روح الجماعة المتقلب، فالثورات عن عمل الجماعات ، وروح الجنس تؤثر في امتداد زمنها أو قصره

*
* *

لكل شعب تاريخ . ولكل دور من أدوار حياته نظامات خاصة ، وآداب وفنون وفلسفة كذلك ، ولا تحتمل غيرها ، وما

استعارت أمة مدنية أجنبية عنها، إلا حوّرتها تحويراً كليًا

* * *

محاولتنا إلزام أهل مستعمر عادتنا وشرائعنا، كمحاولة إبدال ماضى أمة أخرى

* * *

لا دوام لروح الآباء والاجداد، ان لم تكن متصلبة وإذا لم يكن فيها بعض المرونة تعذر انطباعها على مقتضيات تغير البيئة الناشىء من تطور الحضارة، وكان نصيبها عدم الرقى

* * *

لا يفل الوراثة الا الوراثة. والتناسل بين أفراد غير متساوين يفكك أواصر الروح الوراثى، وكم هلكت أمم لجهلها هذا الناموس

* * *

الوطنية خلاصة ماترمى اليه روح الامة

* * *

المولّد رجل تتجاذبه مؤثرات مختلفة: من الوراثة، والذكاء والآداب، والاخلاق

* * *

أمة أهلها كلهم مولّدون لا تساس

* * *

الماضى لايموت أبداً ، فهو حى فينا ، وهو أقدم مرشد فى حياة الافراد والامم ، وما روح الاحياء الا مؤلفه من أفكار الاموات

***

ماأشد استبداد الاموات ، فى غالب الاوقات

***

خلق أفكار تؤثر فى الناس ، معناه نقل المرء جزءاً من نفسه الى من يخلفه

٢

روح الجماعات

إذا اجتمع القوم ، تولد فيهم روح كلى مغاير كل المغايرة لروح كل فرد منهم

***

روح الجماعات خاضع لمعقول خاص غير تنبهيّ ، هو معقول الجمع

***

الرجل فى الجماعة ليس هو الرجل الفرد ، لاختفاء ذاتيته ، واندماجها فى ذاتية الكل ، ولفقدان ملكة النقد ، والقدرة على

التعقل بالدليل ، فيصير رجلاً فطرياً ، له شجاعته ونزعاته وقسوته

* * *

أخص مميزات الجماعة : سرعة الانفعال ، والتعجل بالغضب ، وعدم قابليه التعقل ، والغفلة المتناهية والتعصب الأعمى ، والخنوع للقواد

* * *

الجماعة دون الفرد معقولا دائماً ، ولكنها قد تفضله فى الشعور وقد تكون دونه فمن السهل صيرورتها شجاعة أو آثمة

* * *

الجماعة كائن ساذج ، لا تريد إلا بقوادها ، ولا تعمل الا بهم ، فكأنما روحها معتقلة فى روحهم

* * *

الجماعات مغالية فى مشاعرها ، وتطلب الغلو من قوادها

* * *

التأثير فى الجماعة ، أسهل من التأثير فى الفرد

* * *

علة غلو الجماعة فى تعصبها ونزقها ، اعتقادها بقوتها ، وعدم التبعة عليها

* * *

الجماعة أكثر قابلية للشجاعة منها للفضائل

***

لابد للجماعة من معبود : شخصاً كان ، أو مذهباً ، أو صيغة

***

شدة قابلية الجماعات للتأثر ، تجعل مشاعرها متقلبة جداً ، فتراها تنتقل بالسهولة من الاعجاب الى الجفاء

***

روح الدين المنتشر في الجماعات ، يجعلها تظن في الصيغ السياسية التي تشوقها ، أو في الشخص الذي يخلب لبها ، قوة سحرية خفية

***

الجماعة تعيش في جو قوامه التأثر والتدين ، فلا قدرة لها على استكناه مايراه الفرد واضحاً جلياً ، لذلك يغلب عليها الخطأ فيما ترى

***

قلما تحفظ الجماعة من الحوادث ، غير جهتها التي أثارت الاعجاب ، لذلك كانت الاقاصيص عندها أبقى من التاريخ

***

أول ماتطلب الجماعات آمال ، وهي بعيدة عن تصور الطوارىء كثيرة التصديق ، فهي تقبل حتى الاماني التي لا يحتمل تحققها

تتأثر الجماعات بالمشاعر ، والهزات النفسية ، والمعتقدات المطلقة تأثراً سريع الشيوع فيها ، لا تنفع فيه حجة ، ولا يوهنه دليل

***

التأثير كل التأثير في الجماعات، للتوكيد، والتكرار، والعدوى، والنفوذ

***

لا يروج في الجماعة فكر الا إذا صيغ لها في قالب موجز قوي اللهجة

***

محبة الغير فضيلة اجتماعية ، والمنفعة الذاتية الشديدة التأثير في الفرد ، لا تؤثر في الجماعة الا قليلا

***

تتأثر الجماعات دائماً بالقوة ، وقلما يستميلها المعروف

***

لا تحترم الجماعات الا الأقوياء ، وقد كان احتقار الضعف على الدوام شعارها

***

تفضل الجماعات غالباً ، المساواة في الذل على الحرية

***

متى تفللت القيود الاجتماعية التى ترد الجموع عن الاسترسال مع شهواتها ، هوت على عجل الى درك الهمجية الاولى

***

قد يستفيد السياسى من نسبة الحكمة وسداد الرأى والاعتدال للجماعات . لكن اعتقاد هذه الصفات فيها ، يجعله غير أهل لتولى زمامها

***

الاستسلام مرة للجماعة ، اعتراف بقوتها ، وقضاء على النفس بالرضوخ لحكمها على الدوام

***

تحل قوة العدد شيئاً فشيئاً محل العقل . غير أن العدد ، وان قهر العقل ، فانه لا يقوم مقامه

***

قلما تدرك الجماعات حقيقة ما يأتى على يدها من الحوادث .

٣

روح الجمعيات

للجمعيات الكبيرة ، ما للجماعات من المميزات الاولية :

كضعف المعقول ، وسرعة التهيج ، وفجائية الغضب ، وعدم التسامح المطلق ، والخنوع للقواد

* * *

ليس للجماعة الا روح عرضية ، ان تألفت من عناصر مختلفة ، اجتمعت على غير موعد . لكن إذا اتحدت العناصر ، كما فى الجمعيات السياسية أو الصناعية أو الطوائف ، تولد لها روح عام يستقر بوحدة المنافع

* * *

لا تسير الجمعية السياسية غالباً سير الجماعة ، وان كانت خاضعة مثلها لمقتضيات الاجتماع النفسية . وذلك لاختلاف منافع الاحزاب التى تتألف منها ، ولان لكل فريق قواداً

* * *

الرجل العاطل يزداد قوة بانضمامه الى فريق ، والرجل الكبير يصغر بذلك

* * *

قد يتمكن بعض القواد ذوى الحدة والنفوذ ، من ضم جميع الفرق فى الجمعية الى جماعة خاضعة لارادتهم . وفى الجمعيات الثورية الكبيرة أمثلة كثيرة لذلك

* * *

كثيراً مايقود الروح الكلى الجمعية الى الاقرار على أمر لا يريده كل فرد من أفرادها بذاته . ولا يفهم تاريخ الثورة ، الا من تمكنت من نفسه هذه القاعدة

*
* *

لا يمكن التأثير فى قوم ، الا إذا بدىء بالتأثير فى دعاتهم

*
* *

الاقلية العنيفة الجريئة ، تقود على الدوام الأغلبية الخائفة المترددة

*
* *

الخوف من أكبر بواعث العمل فى الجمعيات السياسية وشدة الخوف هى التى تحملها أحياناً على كل شىء من الاقدام

٤

حياة الامم

ليست الكثرة شرطاً فى صلاح المبادىء الكلية لسير الامة . وانما اللازم هو استقرارها فى الاذهان واحترامها من الكافة

*
* *

يتوقف مصير الأمة على خلقها ، أكثر مما يتوقف على ذكائها

تطور الامة محكوم بروح آبائها الاولين ، ولا تؤثر الانقلابات السياسية الا في مظاهر ذلك الروح

* * *

من عوامل القوة فى الامة : الاحتفاظ بنظاماتها الاصلية، وتقاليدها الاولية ، والتأنى فى تعديلها شيئاً فشيئاً . وقلما وجد بين الامم من حقق هذا المقصد الا الرومان قديماً ، والانكليز فى هذا الزمان

* * *

ما حاولت أمة أن تنخلع عن ماضيها ، الا قلبت حالها رأساً على عقب

* * *

نير العادة يبهظ الفرد ويعطل حركته ، ولكنه يقوى الامة ويزيد فى مكنتها

* * *

خلو الامة من ماض كالولايات المتحدة : قوة لها ، وضعف فيها معاً

* * *

لا تستطيع أمة أن تنقل الى أمة نظاماتها ، كما أنها لا تستطيع

أن تنفخ فيها روحها

*
* *

ليس الفتح الدائم الاثر ، فتح البنادق والمدافع . وانما يدوم الفتح ، متى تولد بين الغالب والمغلوب ، اشتراك فى المشاعر ، والمنافع ، والافكار

*
* *

لاتكون الامة قوية فى الواقع ،الاإذا كثرت المنافع المشتركة بين طبقاتها . لأن الفرد يعمل إذ ذاك لمصلحة الكل ، مدفوعاً بحب الذات

*
* *

إذا كانت الروح الملية متمكنة من أمة ، انمحت الخلافات السياسية عندها على عجل ، أمام كل حادث له أثر فى مصالحها الكلية

*
* *

الامم اللاتينية أسرع الى التعب من الحرية ، منها الى الضجر من العبودية

*
* *

إن لم يكن للأمة ضابط من نفسها ، فعليها احتمال ضابط من دونها

رقى الأمة بنخبتها ، وقوتها بأواسطها

* * *

لا يفيد فى حياة الامة الا مجهود دائم . أما المجهود المتقطع فقد يحدث انقلاباً ، لـكنه لا يوجد رقياً دائماً

* * *

إذا كثر النسل في أمة ، تعسر عليها البقاء هادئة ، واندفعت الى شن الغارة على جاراتها ، ممن وقفت حركة النسل فيهن

* * *

لاتنمحى الاوهام أبداً من نفوس الامم ، فلا تزال تعتقد بقوة تأثير القوانين والنظامات والحـكومات ، وان فى قدرتها تغيير مجرى الحوادث كما تشتهى .

* * *

روح الرجل فى بداوته متأثرة بروح جماعته . لذلك ضعف الفرق بين الروحين

* * *

تشتمل الحضارة الراقية على رواسب من جميع المراحل التى قطعتها ، فلا تزال فيها بقية من تقاليد سكان الـكهوف ، وشىء من روح البرابرة أصحاب (آتيلا)

* * *

لن يأتي برابرة الغد من الخارج ، بل يخرجون من تلك الجموع التي تخلفت عن اللحاق بالحضارة وهي سائرة في طريق رقيها

***

مهما انحطت كفاءة رجل ممن يقال لهم رجال الدولة ، فان قوة حكمه في الامور ، وبصره بها ، أكبر من قوة جمع من السياسيين وبصرهم . لان هؤلاء يكتسبون من اجتماعهم معقول الجماعة ، وهو من درجة منحطة . لذلك ساء حال أمة جرت على رأى المؤتمرات

***

حضارة أمة رداء روحها ، وشامة ظاهرة تدل على القوى الخفية التي تسيرها

***

الحضارة تستخدم العلم ، ولكنها لا تقوم عليه

***

اليقين المتين يمنع أهله ، الا إذا لقوا من هو أشد يقيناً

***

تخرج الأمم من الهمجية ، بما تضع لشهواتها من القيود . فاذا كسرتها ، عادت الى همجيتها

***

لاترقى الامة بحكومتها أو ثورتها ، بل باجتماع مجهودات أفرادها

*
* *

الامم كالعناصر الحية : تزال إذا طال الامد عليها وهى واقفة مكانها ، متعلقة بماضيها . فتفقد بذلك ملكة الانطباع على مقتضيات فائدة غير حياتها

٥

النظامات والقوانين

لا حياة لقوم مجتمعين الا قهراً . وأيسر القهر قبولا قهر القوانين

*
* *

حاكم الأمم معقولها ، لا ما تلتزمه من النظامات . فوجب أن تكون هذه صادرة عن ذلك المعقول . ورب قانون نافع في أمة ضار في أمة أخرى

*
* *

ليس من وظيفة القوانين الاشتغال بالقواعد المنطقية لانها بنات حاجات مستقلة عن هذه القواعد

يجب أن تكون القوانين مقررة لحاجات الامة لا لشهواتها ، فان بنيت على الشهوات لا تدوم

* * *

القوانين تقرر العادات ، وقلما تحدثها

* * *

القانون الذى لا يقتصر فيه على تقرير مألوف ، أى تجربة سابقة ، انما يسجل جهل واضعه بالمستقبل

* * *

تطور مقتضيات الحياة ، أسرع من تطور القوانين ، فعلى القضاء أن يكمل النقص ، ويجمع بين النص والمصلحة

* * *

لا تحدث مشاعر الامة من نظاماتها ، لأن الثانية ثمرة الاولى

* * *

النظامات التى تلتزمها الامة بقاهر الاوامر ، تحدث دائماً اضطراباً فى العوامل السياسية : غير أن المقتضيات الطبيعية لا تلبث أن تعيدها الى نظامها

* * *

القول بقدرة النظامات على حمل الامة على التطور ، كما يذهب

اليه المتسيسون ، جهل بأن وراء الحوادث الظاهرة ، قوة خفية هى العلة فيها

*
* *

إنما زادت القوانين فى الأدواء التى وضعت لعلاجها ، لأن الذين وضعوها لم يفقهوا آثارها

*
* *

قد يكون القانون ظالماً ، فاذا لم يقصد بهفريق دون فريق فلا تحكم فيه

*
* *

إذا انسل القوم من سلطان القانون ، عاجلهم الاستبداد

*
* *

توشك المخالفة يعم ارتكابها ، أن تصبح حقاً سائغاً

*
* *

لا مقوّم للقوانين الا القوة ، لذلك هى لا تدوم كثيراً

*
* *

من السهل تغيير القانون على القرطاس ، إلا أن ذلك لا يغير من روح الأمة شيئاً

٦

الحق

الطبيعة تجهل الأنصاف ، والعدل من صنع الانسان

*
* *

الحق يكون حيث القوة تؤيده

*
* *

لا يستنجد بالعدل قوى

*
* *

لا قيمة للحق ولا للعدل بين أمم اختلفت قواها

*
* *

الحق لا يعترض القوة ، فكأنهما شيء واحد ، إنما الحق قوة مستمرة

٧

الأخلاق

ليست نواميس الأخلاق أموراً فرضية ، ولكنها ضرورات لازمة .

*
* *

أخلاق كل زمن خلاصة حاجاته ، وكل مجتمع لابد له بمقتضى وجوده من ميزان يتميز به الخير من الشر

***

لا بقاء لحضارة من دون أخلاق ، فمهما اشتدت صرامة القانون لتأييد مبادئ الاخلاق ، لا تعد شدتها غلوا

***

لما كانت الأخلاق نتيجة ضرورات الأمة ، في كل دور من أدوار حياتها ، لزم أنها تتطور بتغير تلك الضرورات

***

ما كل ضرورة حقيقة ، يستوى فى ذلك الاخلاق والقانون. لكن من العبث الجدل فى الضرورات

***

لا ثقة بالاخلاق إلا إذا صارت غير تنبهية ، بفعل الوراثة والتربية والقوانين

***

لا تكتسب الاخلاق قوة صحيحة ، إلا إذا صار الناس لا يعدون مراعاتها من الفضائل الممتازة

***

إذا جرت الفضيلة بغير جهد فهى ملكة لا فضيلة

من الخطأ الضار ، محاولة بناء الاخلاق على المعقول وحده ، كما ذهب اليه كثير من الفلاسفة . لانه إذا لم يكن للاخلاق سند من المشاعر والروح الدينى ، فلا بقاء لها ولا قوة

***

إنما تكتسب الاخلاق بمزاولتها ، فهى كالفنون من المعلومات التى لا تكتسب من الكتب

***

البيئة والقدوة مؤثران كبيران فى الأخلاق

***

قد تقطع الامة قروناً حتى تكتسب أخلاقاً ، وقد تضيع ما كسبته فى بضع سنين

***

أخلاق كل أمة مقياس كفاءتها

***

أقل حظ للامة من الاخلاق ، ما أمرت به القوانين ، وقامت الشرطة بحراسته ، فاذا لم يراع هذا النذر فتلك فوضى الأخلاق

***

هناك مرتبة أخلاقية أرقى من مرتبة الاخلاق المأمور بها

فى القانون ، وهى التى تفضل فيها منافع الكل على المنافع الخاصة وقد تعيش الامة بالمرتبة الاولى ، أما رقيها فتوقف على الثانية

* * *

مما يصح اتخاذه شارة قوية على سقوط الامة ، انحطاط أخلاق الطبقات المحكومة

* * *

لما لم يكن بين الامم قانون عام معترف به من الكل ، فشلت مساعى الذين يقولون بعلم أخلاق عام ، والمعروف منه هو ماتعرفه جمعية من الذئاب : افتراس الضعيف وخوف القوى

* * *

الشعور الواحد يكون فضيلة أو رذيلة ، نظراً لفائدته الاجتماعية . فالاثرة تعد فضيلة ، إذا اتصفت بها العائلة أو القبيلة أو الوطن بأكمله ، كذلك الخيلاء فى الفرد عيب ، وفى الجماعة فضيلة

* * *

لايندر أن يكون الخلق الواحد فضيلة فى الفرد ، وعيباً فى المجموع ، فلو لانت طباع أمة إلى حد أنها لا تثأر لنفسها من اهانة لحقتها ، أصبحت هزءاً بين الامم

* * *

التسامح ممكن بين الافراد ، ومتعذر بين الامم

ربما كان عدم التسامح فضيلة فى الامة ، تدفعها إلى عمل وجب

* * *

إذا أخذنا بآثار مذهب حب الانسانية ، صعب علينا التسليم بأنه من الفضائل ، بل رأيناه أشد أعداء علم الاخلاق ، لانه إذا عظم ذلك ضعفت هذه

* * *

تزداد الجرائم فى الامة ، بتقدم مذهب حب الانسانية فيها لانه يقلل من دواعى الزجر ، فيضعف بذلك مافى العقوبات من الردع

* * *

إذا أغضيت عن الضرر ، فقد ساعدت على انتشاره

* * *

سرعة أهل هـذا العصر فى هـدم الاخلاق ، أكبر من سرعتهم فى تحصيلها

* * *

لاتدفع الفضيلة صاحبها دائماً إلى العمل ، وقدكانت الرذائل أهم بواعثه : كالكراهية وحب الانتقام والغيرة والميل إلى السلب وهذه النزعات هى التى تجعل أوروبا على أهبة من الحرب دائمة

* * *

الرجل الفاضل يتسلى عما يلتزمه من الحرمان ، بما يحدثه في نفس الغير من الضجر

*
* *

العمل المجرد عن المنفعة الذاتية ، يعظم فاعله أمام نفسه . وكثيراً ما يجب عليه السرور ، أكثر من الاعمال ذات الفائدة الشخصية

*
* *

الشجاعة الصغيرة الدائمة ، أصعب مزاولة من الاقدام الكبير عرضاً

*
* *

من أقوى دعائم الاخلاق ، الخوف من نقد الناس

*
* *

تعلو حضارة الامة بقدر تمكنها من ضبط نفسها ، أعنى بقدر ثبات أخلاقها وتمكنها

*
* *

اذا تداعت أخلاق الامة ، عاجلها الفناء

٨

الغاية

مبنى الرجاء فى الحياة شعور فطرى وتدين ، وقد قالوا انه يرجع أيضاً الى نظريات عقلية ، غير أنا لا نعلم غاية تولدت من تلك النظريات

* * *

الثورة والفوضى دليل على حدوث أمر خطير فى حياة الامة وهو تغير غايتها

* * *

من كانت غايته فداء معتقده بحياته كالثوريين الروسيين ، تعذرت استمالته

* * *

لاقوة لامة ليس لها غاية مجمع على احترامها ، وتلك الغاية هى التى تهديها فى حياتها كما تهتدي الباخرة بالبوصلة

* * *

اذا اعظمت غاية أمة وقلت حاجاتها ، تغلبت دائماً على الامة التى ضعف غايتها وكثرت حاجاتها

هدم غاية فرد ، أو طائفة ، أو أمة ، تجريد لها مما به رابطتها ومجدها وحركتها .

*
* *

الوطن مشخص حياة الآباء والاجداد ، فهو غاية طلبها من أمتن الاسس الاجتماعية

*
* *

تفنى حياة الامة فى تكوين غايتها وفى هدمها

٩

الأرباب

لاتؤمن بكثرة الأرباب ، فما عبد الناس فى جميع العصور إلا رباً واحداً ، وان اختلفت الأسماء ، وذلك المعبود هو الأمل

*
* *

ما الروح الدينى الذى ساد فى جميع الازمان الا اعتقاد بسلطان خفى لمؤثرات علوية مثلت فى النصب والأزلام والصيغ الكلامية

*
* *

كثيراً ما غير الانسان اسم ما عبد من الأرباب ، لكنه ما استغنى عنها فى زمن من الازمان ، كأن التدين حاجة من حاجات

العقل لايؤثر فيه مؤثر أبداً

*
* *

قد يستعلي الروح الديني على المشاعر إلى حد أنه يعطل فى المرء غريزة المحافظة على الذات

*
* *

الشجعان والارباب صورة شفافة لما للأمم من النزعات الخفية

*
* *

الدين عنوان عاقلة الامة

*
* *

تتطور الأرباب وتبقى الأصول التى جاءت بها الكتب على حالها ، وانما الذى يتغير منها هو معناها ، فانه يختلف باختلاف الامم والأزمان

*
* *

مظهر الدين مستقل عن الاصول التى يستقي منها فلقد كانت العاقلة واحدة عند يعاقبة (الهول) وقسوس (محكمة التفتيش)

*
* *

ضعف الانسان عن الحياة بلا يقين ، ففضل المعتقدات وإن وهن أساسها على الزندقة وان وضح برهانها

*
* *

لو انتشرت الزندقة لصارت ديناً لا قبل لأحد بمعارضته كما هو شأن الديانات القديمة

***

عدم احتمال المناظرة من بعض ذوى العقول المطلقة ، آت فى الغالب من تشبعهم بالروح بالوراثة وهم لا يشعرون

***

الخلو من الاعتقاد هو فى الغالب يقين يعفى صاحبه من تعب التأمل والنظر

***

ميل المرء الى تعقل دينه خطر دائم

***

لقد أفادت الديانات الامم باحداثها الامل فى الحياة الباقية أكثر من جميع من خلق الله من الفلاسفة والحكماء

***

انما الديانات قوة ينبغى الانتفاع بها لا معارضتها

***

اذا صح أن الدين كان سبباً فى تأجيل اكتشاف بعض الحقائق العلمية فمن المشكوك فيه أن الانسان كان يستفيد كثيراً من هذه الحقائق فى الادوار الأولى من تطوره

انما تظهر منفعة الازباب بعد هدم معابدها

***

العقل خالق الرقى غير أن مشيدى الديانات هم قواد الأمم ولا يزال عظماء الخياليين مثل (بوذا) و (محمد) يخضعون الملايين من الخلائق بجلال أحلامهم

***

قلما تعيش الامم بعد موت معتقداتها

١٠

الفن

ظهرت الفنون دائماً قبل الفلسفة والعلم ، لأنها بنت مشاعر الأمم وروحها الدينى ، وسيادة هذين الأصلين سابقة على سيادة العقل ، لذلك صح ازدهار الفنون فى أعصر الهمجية

***

الفنون ولا سيما الموسيقى لغة المشاعر والروح الدينى ، والكلام لغة العقل

***

يصغر الفنى إذا استعمل عقله بدل شعوره .

***

لما كان الفن ابن المشاعر ، تعذر التعبير عنه الا من جهة أجزائه الاصلاحية

* * *

الفن كالسياسة . زمامه بيد بعض القواد . والجموع من خلفهم

* * *

الجميل ما أعجبنا . والاعجاب لا يصدر عن ذوقنا الخاص بمقدار ما يصدر عن مشاعر بعض ذوى النفوذ الذين تؤثر فينا عدواهم العقلية ، فتحملنا على أن نحكم حكمهم

* * *

ليس للتنسيق قواعد ثابتة ، لهذا احتقر السلف المبانى (الغوطية) ورسوم بعض المصورين قبل أن يعجب بها أهل هذا الزمان

* * *

يحدث فى بعض الأحايين جو خاص يسود فيه على الناس ذوق واحد وشعور واحد وإن بلغ استقلال فكر بعضهم ما بلغ

* * *

عدوى الفنون شديدة التأثير الى حد أنها تلبس صنع بعض الأزمان ثوباً عائلياً يستدل منه على زمن ظهورها

* * *

يتأثر الفن تأثراً شديداً بالمكان والأمة الى حد أنا لا نجد أمة

استعارت فن أمة أخرى الا حورته وبدلته ، ولا عـبرة ببعض الظواهر الدالة على خلاف ذلك

* * *

الطرف الفنية الفائقة الصنع تصدر عن شعور لا تنبهي، فان كانت تنبهية فهى شخصية ولا تدل على روح العصر الذى صنعت فيـه

* * *

الموسيقى تثير في النفس خواطر مبهمة تصحبها انفعالات شديدة ، لذلك يسهل تأثيرها فى غير ذوى العقول الـكبيرة متى رق شعورهم ، ولقد أصاب من قال . انها فن النساء والجماعات

* * *

رجل الفن يبتدع وان احتذى

١١

الطقوس والرموز

الطقوس والرموز ، أعنى الاحتفالات والاعلام والأعياد العامة والعرف المألوف فى عـلاقات الناس بعضهم مع بعض كلها فوق إرادة الانسان . وهى أقوى سند تقوم عليه الحياة الدينية والاجتماعية

* * *

من ظن أنه أكبر من أن يتقيد بطقوس أمة واحتقر تقاليدها فهو أجنبي عنها

إنما تصير المعتقدات الفردية عامة بعامل الطقوس والسنن

*
* *

إذا تجرد القضاء من الطقوس والرموز فليس قضاء

*
* *

يقوم المعتقد الديني أو السياسي على اليقين به ، لكنه لا يدوم الا بالطقوس والتقاليد

*
* *

بلغ من أخذ الطقوس والرموز بالنفوس أنها تبقى بعد زوال المعتقد الذى حدثت لأجله

*
* *

أكبر الناس استقلالا وأشدهم إطلاقا فى الفكر ، يخضعون حياتهم طوعاً لطقوس سياسية وعرف جار فى روابطهم الاجتماعية أو الشخصية تنزع منهم الحرية الصحيحة

*
* *

الطقوس تخلص الانسان من شر التردد : فبها يعرف بلا تأمل مايجب قوله وفعله في جميع الاحوال

*
* *

أهم طقوس الأمم تقاليدها من عمل أسلافها

*
* *

الفصل الثالث

الحياة القومية

١

الدين والعلم

الدين والعلم طريقان تجرى فيهما حركة الانسان ، وليسا من أصل واحد

*
* *

لا يكون العلم أبداً إلا تنبهياً وعقلياً ، أما الدين فغير تنبهى ولا دخل للعقل فيه

*
* *

أخف مميزات الدين أنه لا يتغير بالنظر ولا بالتعقل ولا بالتجربة

*
* *

تحصيل أحقر المعلومات العلمية يقتضى جهداً كبيراً وتحصيل

الاعتقاد الدينى لا يقتضى من الجهد شيئاً

* * *

ينتشر العلم بالكتب ، والدين بالرسل

* * *

العلم أكبر العوامل فى تقدم الحضارة المادىّ ، والمعتقدات تقود الافكار والمشاعر ، فهى هادية المرء فى حركته

* * *

العلم يقرر الحقائق ، والمعتقدات تمثل الرغبات ، لهذا فضّل الناس المعتقد على العلم

* * *

الدين يكسو الخيال المتولد عن الرغبة صورة الشىء الواقع ، وأنما العلم هو الذى يوجد الحقائق مجردة عن الرغبات

* * *

المعتقد السياسى أو الدينى أو الاجتماعى أمر وجدانى لا تنبهى ولا يدركه النظر إلا وقد رسخ فى النفوس

* * *

قوة المعتقد راجعة إلى ما يولده فى النفوس من الآمال ، وما يحدثه من الصور الذهنية التى تقتضى السعادة

* * *

لن تجد في التاريخ معتقداً سياسياً أو دينياً رده النظر والاستدلال فالعقل يتحطم دائماً على أسوار الدين

* * *

الدين التزام لا استدلال : فاذا ما بحث الناس فيه فذلك لكونه ضَعُفَ ومال إلى الزوال

* * *

قلّما تجد من يخاطر بحياته في نصرة حقيقة عقلية ، ولكنك تجد عشرات المئات يضحون حياتهم لما يعتقدون

* * *

يعيش أهل كل زمان بقليل من المعتقدات السياسية والدينية والاجتماعية ولا يتحولون عنها إلا بكر الدهور أو بحلول معتقد جديد

* * *

ايجاد معتقد ، ايجاد وجدان جديد ، تصدر عنه حركة جديدة في سير الناس

* * *

أقل تغيير في معتقد أمة ، يغير من مصيرها

* * *

إذا احتدم الخلاف في بحث، صح القول بأنه من طائفة

المعتقدات لا من مباحث العلم

*
* *

ليس العقل هو الذى يقوم فى وجه المعتقدين يضطهد الدين من السياسة ، بل هذان معتقدان اعترض كل منهما صاحبه

*
* *

الخلف على المسائل العلمية سهل الاحتمال ، ولا احتمال فى خلف دينى لذلك كان التنازع الدينى أو السياسى دائماً شديداً

*
* *

التشدد مصاحب للمعتقدات القوية ، وهو بين أهل المذاهب فى المعتقد الواحد ، أشد منه بين أهل مذهبين مختلفين

*
* *

إنما يبحث العقل عن اليقين فى المعتقدات غالباً

*
* *

الفرضيات معتقدات يظنونها فى الغالب معلومات

*
* *

لما كانت أحوال المعتقد غير خاضعة لمقياس العلم ، فتصديق العالم والجاهل بها سواء

*
* *

إذا استولى المعتقد على المرء سهل عنده جمع النقيضين عقلا

لا يعيق انتشار المعتقد ما فيه من الخطأ والهذيان ، لأنه ليس مبنياً على النظر والاختيار

* * *

عدم تصديق الشيء الممكن يجعله مستحيلا ، ومن قوى اليقين جعله بالمستحيل

* * *

المعتقد القوى يحدث الارادة القوية ، فلا تقوى عليه إرادة ضعيفة

* * *

خلق الانسان فى حاجة إلى معتقد يهدى فكره وأعماله ، ولما تقم مقامه الفلسفة ولا العلم

* * *

أوجدت المعتقدات مصنوعات فنية من العدم ، ما كان لمجرد العقل ايجادها

* * *

المعتقدات تقوم الأمم ، وإن ضعفت فى نظر العقل ، وهى التى تمنعها من الوقوع فى همجية لا رابطة بين أفرادها ولا قوة فيها

٢

التعليم والتربية

التربية فن تنتقل به المعقولات إلى مشاعر

*
* *

إذا حسنت تربية الشعور اللاّ تنبهى ملكناهوأفادنا ، وإذا ساءت ملكنا وأضرّ بنا

*
* *

قيمة المرء خلقه لا علمه كما يذهب اليه أساتذة التعليم عندنا

*
* *

عدة المرء الداخلية المتينة فى خلقه لا فى علمه ، فان لم تكن له هذه الأداة ، أصبح ألعوبة فى يد الأحوال والظروف .

*
* *

من أكبر خطأ اللاتينيين اعتقادهم بتلازم التعليم والاخلاق والذكاء .

*
* *

ليس التعليم تربية فالأول يغني الحافظة ، وأما التربية فانها تولد فى الانسان ميولا نافعة ، وتمكنه من قمع الميول الفاسدة

*
* *

يكفيك لتعليم رجل من الهمج بضع سنين ، وقد تحتاج إلي قرون فى تربيته

* * *

إنماء الفكرة وملكة الحكم والهمة والثبات ، أشد لزوماً من تكليف المرء رص الجمل الباردة كما تفعل المدارس الآن

* * *

حصر العقل فى دائرة صناعية ، وافقاده قوة النظر والتأمل ، نتيجة محققة من طريقة تعليم أحوال الدنيا بين سطور الكتب

* * *

تعلو الرجولة بالعلم أو تنحط ، بحسب طبيعة عقل من يتلقاه ، ولا يستفيد من المعارف العالية إلا أهل العقول السامية

* * *

إذا أردت منحط الفكر على علم راق ، فقد أفسدت عاقلته ، وضعفها يفقده ملكاته الفطرية فيصبح فى عالم المعقول كالمولدين

* * *

دلت التجارب المتكررة فى الألوف من أهل المستعمرات على أن التعليم الذى لا يناسب حالة المتعلم يضعف الذكاء ويحط الخلق والآداب

* * *

ما أشد خطر القضايا الكلية مجردة عن مناشئها ، فانها تؤدّى الى الاستهتار وسوء الفهم

*
* *

لا بد من جهد كبير قبل أن تصير العادات الطبيعية غير تنبهية فى الانسان ، فاذا تمكنت منه مكنته من العمل بلا عناء

*
* *

اذا ضبطت حركات العقل وسيرت فى سبيل قويم ترقى ، وان كان فى الاصل ضعيفاً

*
* *

كسب ملكة ضبط العمل يكسب فن توفير الوقت ، وذلك يؤدى الى اطالته

*
* *

محاولة تعليم الاحداث أشياء كثيرة تجعلهم لا يحرزون شيئاً ، وقد غفلت مدارسنا عن هذا المبدإ الاولىّ

*
* *

ينبغى أن يكون المربى قادراً على أن يميز ما فى كل تلميذ من الملكات الطيبة القابلة للرقى ، أما اذا ترك اختيار الدرس والحرفة الى الاتفاق انحط عمل المتعلمين

*
* *

من أكبر أوهام الديمقراطية ، تخيلها أن التعليم يسوى بين الناس ، وهو لا يصلح فى الغالب الا فى تجسيم الفروق

***

الامتحان الذى يدور على قوة الحافظة يزيد الفروق الاجتماعية أكثر من طريقة الخلف ، والغالب أن هـذه الفروق تكون غير عادلة

***

آل الامر بطريقة التربية عنـدنا الى إيجاد نخبـة من أهل الحافظة ، لا علاقة بينها وبين نخبة أهل العظمة وقوة الحكم

***

التعليم إما أن يربى الحافظة ، أو ملـكة النظر . ويتخرج عن الاول أهل اللسن وعن الثاني أهل الجد والعمل

***

استقر التعليم بالاستظهار في الأمم اللاتينية وحدها فصار علة كبيرة في ضعفها ، لأن نتيجته تفويض الوظائف الاجتماعيـة الـكبرى الى أناس هم غالباً من ذوى الـكفاءة المنحطة

***

اختيار طريقة التعليم أهم في مصلحة الامة من اختيار حكومة مناسبة لها

٣

الطبقات الممتازة فيها

لاتقاس قوة الامة بعدد أهلها بل بقيمة الطبقة الممتازة فيها

* * *

نخبة الامة صناع حضارتها فلا ترقى الا بهم ، واذا فقدتهم حاق بها الفقر وتولتها الفوضى

* * *

العامة خزانة قوة الامة ، لكن لاتنفع هذه القوة الا اذا وجهتها الخاصة فى الاغراض العامة

* * *

الاختراعات الراقية أفرادية دائما ، ويعم نفعها متى صارت فى ملك المجموع

* * *

اذا اجتمع أفراد ممتازون بطلت ميزتهم ، لأن العقل الممتاز لايبقى كذلك الا اذا دام منفرداً

* * *

تنوعت أسباب الامتياز الى حسب ونبوغ ومال ، وما استغنى العالم قط عنها

لمـا كانت الملكات العقلية وراثيـة كما كان الشرف كذلك قديماً ، لزم أن الجماعات ، وهى من طلاب المساواة المطلقة ، تعد التمايز العقلى اجحافا كالتمايز بالشرف

* * *

تنازع الجموع الجاهلة والطبقات الممتازة التى هى روحها ، دليل على بقاء الحياة القومية . والتاريخ يدلنا على أن غلبة العـدد كانت دائمـاً نذيراً بزوال الحضارة

* * *

ماسادت الحضارات العظمى الا بتمكنها من ضبط عناصرها الدنيا

* * *

الخاصة تبنى والغوغاء يهدمون

٤

النظريات الفلسفية

العقل أقرب للانشاء منه للتفسير، فقد غير وجه المسكونة، ولكنه لما يبين لنا الناموس الخفى الذى تتطور بمقتضاه الحشائش

* * *

البون شاسع بين عاقلتنا ونظام الكون ، فلا أمل لنا باكتناه سره

* * *

إذا قيل أن كل ما لا يدركه العقل معجزة ، فحياة كل كائن معجزة دائمة

* * *

بعدت الشقة بين القوى الخفية التي تبدىء الكائنات وتنميها وتعدمها وبين ادراكنا ، حتى انثنى العلم فى هذه الأيام عن محاولة تفسيرها

* * *

أصغر الخليات الحية يحمل ماضياً عتيقاً ومستقبلا غامضاً

* * *

رأينا الفلسفة تجيب فى غابر الزمن على : هل العالم قديم أم حادث ؟ حقيقى أم خيالى ؟ وهل جنس الانسان أبدىّ أو قابل للعدم ؟ ونجدها الآن قد تراجعت عن الجواب

* * *

من المسائل الخطيرة ما ينبغى عدم التعمق فيه : كمن أين أتينا ؟ والى أين نسير ؟ حتى يكون لها لباس من الشك لا يزول معه كل أمل للانسان

ربما كان أفضل نظريات الحياة الثلاثة وهى الرجاء واليأس والاستسلام هذا الأخير ، لكنه أقلها حملا للانسان على العمل

***

المرء فى الحياة بين حرب معها ، أو انطباع عليها

***

أبان العلم أن المادة غير خالدة ، فهدم أحد مقاصد الفلسفة التى بقيت لها

***

الفلسفة الحقيقية للوجود فى جانب ، والفلاسفة فى جانب ، فلا يد لهم فى تكوينها

***

قد تبطل النظريات الفلسفية ، لكن لابد للانسان من فلسفة يرى الحوادث من خلالها

***

آخر ما وصلت اليه الفسلفة ، أنه لاقدرة للعقل حتى الآن على فهم أسرار العالم

***

لكل حادث سر ، والسر هو الروح المجهول فى الاشياء

٥

المبادىء العلمية

إنما العلم فى الحقيقة خروج من الانسان على الطبيعة وجهد يحاول به التملص من القوى العمياء التى يئن تحتها

* * *

كان الانسان فى أول أمره يرى تسخير الطبيعة إياه قدراً مقدوراً . فلما تمكن بالعلم من تحليل الاقدار ، جعل يجردها شيئاً فشيئاً من صبغتها القدرية

* * *

اللزوم شىء والقدر شىء آخر ، فقد يتبين من تعرف لزوم الأمر أنه غير مبرم

* * *

قالوا ان علة نظام الكون سابقة فى الأزل ، والواقع أنه ثمرة التوازن اللازم بين القوى التى يتكون منها

* * *

حياة الحقائق العلمية مهما كانت دقيقة فهى قصيرة

* * *

مبنى كل علم مبادىء معدودة : فعلم الـكيمياء قائم على مبدأ عدم تغير المجموع ، كما أن الطبيعة والميكانيكا قائمتان على مبدأ حفظ القوة

* * *

المبدآن الثابتان للسكون هما المقاومة والحركة ، ومصدر الاولى السكون، ومنشأ الثانية القوة

* * *

تتولد صور القوة وحوادث الحياة من اختلال التوازن السكوني الناشىء غالباً من اختلاف السموت [1]

* * *

تقدم العلم سريع فى استقراء الحوادث ، وهو مستقر مكانه منذ زمن فى بيان عللها

* * *

قدم العلم ثابتة، لـكنها على جزيرة صغيرة فى بحر من المجهولات لايدرك غوره

* * *

تقدم العلم إنما ينقل حدود المستحيل من مكان الى مكان عالم اللانهائى

---

(١) جمع سمت .

حسب الماديون أن مذهبهم يحل محل الدين ، غير أن المادة أصبحت سراً من الاسرار كالأرباب الذين جاءت هى لتحل محلهم

*
* *

ربما كان تقرير القضايا العلمية ستاراً يختفي من ورائه التردد فى تقرير حقيقة المبادىء

*
* *

من مميزات العالم على الجاهل معرفة الأول أين يبدأ الغموض

*
* *

اذا وصلت نظرية علمية إلى حد الجمود وقف الرقي من جانبها

*
* *

يتولد عن العلم من الاسرار الغامضة ، أكثر مما يكشف لنا منها

٦

المادة (١)

ظنوا قديماً أن المادة لا تفنى ، وهى تزول على مهل بتفكك ذراتها المستمر

*
* *

من متحصل تحول المادة عن ماديتها ما له خواص تجعله وسطاً بين الاجسام القابلة للوزن وبين الأثير الذى لا يقبله ، وهما أمران كان العلم يفرق بينهما تفريقاً كلياً الى هذا العصر

*
* *

ظنوا قديماً أن المادة جامدة لا تصدر منها إلا قوة تكون قد اكتسبتها من قبل ، والواقع أنها مصدر هائل للقوة المسماة القوة الكامنة فى الذرات وتلك القوة قابلة للانتشار بذاتها

*
* *

---

(١) قال المؤلف : كانت القضايا التى ستمر عليك جديدة جداً لما صغتها أول مرة وهى خلاصة أبحاث وتجارب دامت نحو عشر سنين وضمنتها ثمان عشرة رسالة جمعت فى مؤلفين وهما (تطور المادة) و(تطور القوى) وقد عدلت عن هذه الابحاث لما كثرت نفقتها وعدت على مضض الى الابحاث النفسية

أغلب قوات الكون وعلى الاخص الكهربائية وحرارة الشمس آتية من القوة الكامنة فى الذرات والتى تنتشر من تحلل المادة

***

القوة والمادة صورتان لشىء واحد فالمادة صورة من صور القوة الكامنة فى الذرات وهى اكثر استقراراً، والحرارة والضوء والكهربائية وما هو من نوع ذلك صورة ثانية لتلك القوة ولكنها أقل استقراراً

***

فصل الذرات بعضها عن بعض ، أو بعبارة أخرى إفقاد المادة ماديتها ، عبارة عن تحويل صورتها المستقرة الى صورها غير المستقرة المسماة : كهربائية أو ضوءا أو حرارة أو غير ذلك

***

توازن القوى الهائلة المتجمعة فى الذرات علة استقرارها ذلك الكبير ، غير أنه يكفى الاخلال بهذا التوازن بواسطة جوهر كشاف مؤثر لتأخذ تلك الذرات فى التفرق والانفكاك ، ومن هنا نرى الاجزاء السطحية من جسم ماتتفكك بتأثير بعض الاشعة الضوئية

***

لما كان الضوء والكهربائية وأكثر القوى المعروفة متولدة من تحول المادة ، صح أن الجسم متى تشعع فقد جزءا من جرمه بمجرد هذا التشعع ، فاذا استطاع أن يشعع قوته كلها تفاني بتمامه فى الاثير

***

تتحول المادة الى قوة على صور شتى ومن المؤكد أن القوة تكاثفت فى مبدإ التكوين فقط فصارت مادة

***

إن قانون التطور الخاضعة لحكمة الكائنات الحية ، سار أيضاً على الاجسام الجامدة البسيطة، فلا الانواع الكيماوية ولا الانواع الحية ثابتة أبداً

٧

الحقيقة والخطأ

كانت حاجة المرء الى التحقق ، أشد دائماً من حاجته الى الحقيقة

***

قيمة الحقيقة عملا ، على قدر درجة الاعتقاد بها

لا فرق بين أثر الاعتقاد السطحي ، فى أفعال المرء ، وبين أثر الاعتقاد الصحيح

***

قد لا يتحرى المرء اختيار معتقده ، ولكنه يصعب عليه دائماً احتمال معارضته فيه

***

لا يصلح المعقول الالهامى ولا المعقول الدينى لكشف حقائق غامضة بل لاخفاء ما خيف منه من الحقائق

***

يكفي غالباً إلباس الخطإ ثوباً جذاباً ليقبله الناس حقيقة ثابتة

***

قد تحتاج الحقائق بعد تقرير صورها إلى زمن طويل فى قبولها مما يضر باكتشاف الحقيقة النظر اليها من جهة تقدير فائدتها كما يفعل البراغماتيست (١)

***

ليست الحقيقة وحدة ولا راحة ولا منفعة ولكنها ضرورة

***

ما كان الانسان يعرف قبل العلم من الحقائق إلا ما كان

---

(١) هم المتعسفون فى الاستشهاد بالحوادث سعياً وراء تقرير المبادىء

نسبياً أي له متعلق معلوم ، فكان من وظيفة العلماء أن أظهروا أن هناك حقائق لذاتها .

***

تتسلل الكائنات في هذا العالم ولا تتأيد

***

ما من حقيقة أبدية عند الانسان ، كما إنه لا يوجد كائن أبدى أمام الطبيعة .

***

الحقيقة كالجسم الحي لا تعرف ماهيتها إلا بمعرفة حالاتها السابقة

***

تتبدل الذوات والاشياء بلا انقطاع . ولكل أمر وقع ، حقيقة واقعة تلحق به

***

الحقيقة مرحلة عرضية من طريق لا نهاية له

***

من الحقائق ما هو حقيقة مطلقة من حيث حياتها ، وليس منها ما هو كذلك أبد الآبدين

***

كثير من الحقائق ينقلب خطأ بمرور الأيام

تختلف صور الحقائق باختلاف الامزجة التى تتلقاها

***

اذا صيغ الخطأ فى صورة حسابية صحيحة ،كان كبير التأثير وأشد الناس جحوداً يعتقد أن للمعادلات الجبرية سراً عجيباً

***

كثير من الناس يستغنى عن الحقائق ،وما من أحد يستغنى عن الخيال

***

خيال يعتبر صحيحاً ، مؤثر كالواقع

***

فقدان الخيال ليس دليلا على معرفة الحقيقة

***

أغلب الرقى جاء من تشبث المرء بتحقيق خياله ، لا من جده فى طلب الرقى نفسه

***

اذا سرى الخيال من الفرد الى الجماعة ، اكتسب قوة الحقيقة

***

ربما كانت فائدة الناس من الخطإ ، اكبر من فائدتهم من الحقيقة

٨

القصص والتاريخ

يسير التاريخ بعيداً عن المعقول . وقد يجرى على نقيضه

* * *

كثير من الحوادث يبقى غامضاً ، مادام الاعتقاد سائداً بأن لها عللا معقولة

* * *

لاهم للتاريخ بتحقيق مقدار انطباق المعتقد على المعقول .. وإنما همه معرفة مقدار أثر ذلك الاعتقاد فى نفوس أهله

* * *

كل جيل يتناول حياته العقلية من الاجيال التى سبقته ، فمعظم نسيج المستقبل من سدى الحاضر .

* * *

الاقاصيص أصح غالباً من التاريخ ، فهى تترجم مشاعر الامة الحقيقة ، وهو يسرد حوادث متأثرة بعاقلة من يحكيها

* * *

لاسبيل الى كتابة التاريخ على وجهه الا اذا كان الكاتب

بعيداً من جميع الاحزاب ، حتى لاتكون له الاغراس التى هى قوام الحزبية

*
* *

تنازع الحوادث النفسية قائد التاريخ . فان أكبرها راجع على الاكثر الى تنازع المعتقدات منه إلى تضارب المنافع

*
* *

الأثر الغالب فى التاريخ آت من المشاعر والدين ، وقلما جاء المعقول ، فمحرك الكون الحقيقي هو غير الواقع



الفصل الرابع

الفكر والعمل

١

العمل

العقل مفكر ، والاعتقاد فعال

* * *

لو أن الانسان بدأ بالتفكير قبل العمل ، لانتهت دائرة التاريخ من زمن بعيد

* * *

الاعتقاد يبعث على العمل ، سواء بنى على الخيال أو على الواقع ، والرجل لا عقيدة له ، كالسفينة لا دفة لها ، أو هو آلة بلا محرك

* * *

اذا تمكن الاعتقاد بعث الى العمل ، وان كان باطلا أو مستحيلاً

* * *

انما يستدل على عقل المرء وخلقه بعمله

* * *

التفكر نافع ، وقد يجب العمل دون اطالة النظر ، فأعظم نزعات الشجاعة ، كانت لقوم ما فكروا الا قصيراً

* * *

الافكار مثل جميع مظاهر الحياة : علتها توازن غير ثابت متحول على الدوام

* * *

قلما تتحول الافكار الكلية من المطالعة ، وانما الكتب تسجل فى الغالب تغير الافكار

* * *

كل عمل متبوع بآثاره والمرء يدعو تسلسل هذه الاثار مقدوراً

* * *

علمك ما يجب عمله غير علمك بما أنت فاعل

٢

أوهام الديمقراطية

يظن دعاة الديمقراطية أنها نظرية عقلية ، والحقيقة أن مبناها المشاعر والدين مما لا دخل للعقل فيه

*
* *

الديمقراطية عند العامة شيء ، وعند المتعلمين شيء آخر

*
* *

أول مايفهمه العامة من الديمقراطية المساواة ، فلا يقولون بالاخاء بين الطبقات وليس لهم أقل عناية بالحرية ، أما المستنيرون فظمأهم الى الحرية شديد ، وميلهم للمساواة قليل

*
* *

ذاتية الديمقراطى الحقيقية فانية فى فريقه ، فليس له شخصية الا بها

*
* *

يمتاز علم النفس عن الديمقراطية بكونه يرى أن ذاتية المجموع المسمى أمة أحط بكثير من ذاتية الفرد

*
* *

لا فرق بين تعدى فريق العمال فى هذا الزمان ، وتعدى الشرفاء ورجال الدين فى الزمن السابق ، مما تعبت الملوكية زمناً طويلا فى محاربته

*
* *

كم من أمم تحتمل الاستبداد بلا عناء ، ولا تطيق الحرية الا بالجهد ، وهى على الدوام تبدى كراهيتها للأول وحبها للثانية

*
* *

مبادىء الديمقراطية من فريق الافكار التى يرح الانسان لالزام الغير بها ، ولا يرضاها لنفسه الا قليلا

*
* *

كلما سطرت المساواة فى القوانين ، اشتد ميل الناس الى الفروق الظاهرة المميزات بينهم

*
* *

حاجة الديمقراطية الى الزهو والظهور ، من أغلى الحاجات ثمناً وأقلها نفعاً

*
* *

السر فى شدة الميل الى المساواة ، هو فى الغالب رغبة المرء فى أن يتقدم على غيره ، ولا يتقدم أحد عليه

*
* *

المساواة نظرية صناعية ولدت كراهية كل تفوق يبنى عليه مجد الامة

***

عاقبة الديمقراطية اقامة حرب الطبقات المستمر ، مقام حرب الامم المتقطع

***

الطبيعة لا تعرف المساواة ، وما كان من رقى فسببه التفاوت المتزايد كل يوم

***

لا تميل الحضارة الى التسوية بين الناس ، بل هى تزيد فى فرجة الفروق دائماً

***

ادعت الديمقراطية للعلم قوة لا وجود لها الا فى الخيال ، وآل أمرها الي أن عبدته وهو رب كاذب

٣

الاوهام الاشتراكية

الاشتراكية غاية مبدإ المساواة القصوى ، وما هى الاحالة

ذهنية أكثر من كونها مذهباً

*
* *

الديمقراطية والاشتراكية بعيدان بعداً سحيقاً عن بعضهما، وان كان الظاهر غير ذلك

*
* *

الاشتراكية تدعو الى تسوية المقامات، فهي نقيض الديمقراطية في رأى المستنيرين الذين يقولون باعلاء كلمة الكفاءة والنبوغ

*
* *

ابهام المبادىء الاشتراكية احدى علل انتشارها ، فمن حاجة المذهب أى كان أن لا يتحدد ويستبين الا بعد انتصاره

*
* *

انتشار الاشتراكية راجع فى الأكثر الى كونها صورة من صور مذهب (الحكومية) ، وهى غاية الغايات لجميع الاحزاب السياسية فى البلاد الفرنساوية

*
* *

مما يكثر أنصار الاشتراكية ،قساوة بعض أصحاب المال وضعف أخلاقهم

*
* *

إذا مالت الحكومه الى المغالاة فى حماية الافراد ، قعدوا

عن حماية أنفسهم ، وفقدوا فضيلة الهمة الذاتية

*
* *

لما كانت المعتقدات لا تحتمل التكذيب ، وضعت جناتها حيث لا وصول اليها ، وانما ضعفت الاشتراكية فى كونها جعلت دار نعيمها فى هذه الدنيا

*
* *

السعادة المنكمشة ، وبعبارة أخرى المساواة فى التسخير ، مما تبشر به الاشتراكية ، ليست خيالاً قوياً يأخذ بلب الأمم طويلا

*
* *

من لوازم تقدم الحضارة في هذا الزمان ، ايجاد منبوذين يكثرون يوماً عن يوم ، لاينطبعون على عصرهم ، ولا ينفكون عن محاربته

*
* *

أولئك هم السواد الاعظم بين الاشتراكيين

*
* *

كانت الثروة قديماً ، قائمة على جمود رأس المال فى مكانه ، فأصبحت لا حياة لها الا فى تداوله ، أعنى فى الفطانة التى يقتضيها استخدامه

ستفضي الاشتراكية الى استعباد عام ، وكذلك شأن مذهب النقابات ، غير أن هذا محدود فى دائرة منافع كل فريق بحسب مهنته ، فهو يمكن الفرد من مغالبة استبداد الهيئة الحاكمة

*
* *

السبب فى معظم ما وصلت اليه الحضارة من الرقى ، أمور معدودة : هى الهمة الذاتية ، والمخاطرة ، والمسابقة ، وما كان من قبيل ما ذكر ، مما ترمى الاشتراكية إلى إعدامه

*
* *

إقامة همة الجماعة وتبعتها ، مقام همة الفرد وتبعته ، إنزال الانسان الى أحط دركات الكفاآت البشرية

*
* *

من المجاميع الانسانية ما تفنى فيه روح الفرد ، وذلك تقهقر تتطور به الامة الى الوراء

*
* *

ما خرج الانسان من الهمجية إلى الحضارة ، الا بهزوبه من مساواة العصور الأولى ، مما ترمى الاشتراكية الى ارجاعنا اليه

٤

السّلْم والحرب

الحياة جهاد ، والجهاد ناموس عام ، ولو أن الناس كانوا سلميين لما ارتقوا

*
* *

لولا أنه لا رحمة فى الطبيعة بالضعفاء ، لسادت الوحشية ، ولما انبثق شعاع واحد من نور الحضارة

*
* *

الأمم التى يحق لها أن تجنح الى السلم وتطيقه ، هى التى كثرت مدافعها

*
* *

أحكام الأهبة ، وقوة الاعتقاد ، وشدة كراهية العدو ، هى شروط الظفر فى الحروب دائماً

*
* *

الإحجام لتصور نافلة الإقدام ، رغبة من أول الأمر عن النجاح

إذا تألف الجيش من جنود يجادل بعضهم بعضاً ، ظفر به الجيش من الهمج الذى لا قدرة لهم على النظر ولكنهم سباقون الى الطاعة من غير جدال

*
* *

الخوف من الهزيمة يزيد التعرض لها ، وحمل الجيش على الاعتقاد بأرجحيته يضاعف شجاعته وحظه فى النصر

*
* *

شجاعة الفرد أندر من شجاعة الجماعة

*
* *

قد تكون عاطفة الميل وحدها ، سبب المحبة بين الافراد ، وأساس المصافاة بين الجماعات ، المنافع المادية ، تدوم بدوامها ، وتنعدم بانعدامها

*
* *

منافع الأمم الاقتصادية تحملها على حب السلام . ولكن اختلاف المشاعر والمعتقدات ، يدفعها دائماً الى الخصام

*
* *

لو أن هناك أمة سلمية بطبيعتها لمحيت من التاريخ على عجل

*
* *

٥

الثورات

أبقى الانقلابات ما كان فى المعقولات

* * *

أساس الانقلابات العلمية ، تصورات عقلية ، أما الثورات السياسية والدينية فمنشؤها مشاعر ومعتقدات وأفكار عامة

* * *

تتأثر حياة الامم من الانقلابات العلمية ، أكثر كثيراً من الثورات السياسية

* * *

قد تبنى الثورة السياسية فى أول أمرها على اعتبارات معقولة لكنها لا تنتشر إلا بضغط المشاعر والمعتقدات والجماعة ، مما لا دخل لشىء من العقل فيه

* * *

الثورات والحروب دليل على انتقال تنازع القوى النفسية من عالم السكون إلى عالم الظهور

* * *

ليست الثورة على الدوام حادثاً ينقضي متبوعاً بحادث يبتدى بل قد تكون حادثة واحدة مستمرة سريعة الخُطى

* * *

تشدد الأمة في الاحتفاظ بالتقاليد ، يسلمها الى الثورة العنيفة لأنها لا تقدر على التطور فتضطر الى التحول فجأة

* * *

الشقي من ألقي في قلبه أنه شقي ، وكذلك يفعل القواد ليضرموا نار الثورة في النفوس

* * *

يظن قواد الثورة أن العقل رائدهم ، وما هم إلا مسيرون بمشاعر ومعتقدات ، وروح جماعات لا يتنبهون لها

* * *

العدوى الفكرية أعظم البواعث على انتشار روح الثورة

* * *

الجماعات محط الثورة لا مصدرها

* * *

أساطين الثورة : أفكار ، وقواد ، وجند وجماعة

* * *

كل ثورة ناجحة تقوم بها العامة ، رجوع وقتي الى الهمجية ،

لما فيها من انتصار الشهوة على العقل ، وتخطى القيود الاجتماعية التى هى الفارق بين المدنى والهمجى

* * *

لاتذهب الثورة ببناء شاده العقل جيلاً بعد جيل ، وانما تنال من صورته فقط

* * *

اثر الثورة القريب ، الخروج من رق إلى رق

* * *

ليست الاصلاحات الاجتماعية الكبرى من عمل الثورات، بل لها ،كالتغيرات الجيولوجية ، أسباب صغيرة تتوفر على مهل

* * *

يطلب السواد الأعظم من الناس أن يساسوا لا أن يثوروا

* * *

قلما تعقل الامة شيئاً من الثورة التى تقوم بها.

* * *

لاتدرك الأمة سبب ثورتها إلا بعد أن تكون هذه انطفأت منذ زمن طويل

* * *

من السهل نزول الملك عن عرشه ، لكن المبادىء التى يمثلها

تدوم من بعده ، فأغلب الثورات انما تأتى بملوكية بدل أخرى

***

اذا تفككت روابط الجيش فانذر الامة بالثورة ، وقد ماتت الملوكية فى فرنسا يوم تمرد الجند فقعد عن حماية الملك .

***

الثورة عند بعض الناس حالة عقلية بقطع النظر عن محلها ، وإذا كان هذا مصدرها فلا شىء يطفىء نارها

***

الغالب أن سبب الثورة المقبلة نهاية معتقد مدبر

٦

حكومة الامة

ماحكومة الأمة الا حكومة طائفة من الزعماء .

***

أبعدمايرى اليه خيال المتسوسين ، اعتبار الامة إلهاً معصوماً لا يسأل عما يفعل

***

شرط بقاء الحكومة الديمقراطية ، عملها بالافكار الباطلة السائدة فى الجموع

الحكومات الديمقراطية مسيرة على الدوام بالمغالاة والتظاهر بمحبة الانسانية والخوف

*
* *

لا إنصاف ولا تسامح فى حكومة الأمة ، لأنها خاضعة لشهوات كثيرة ، وهى لا تدوم إلا بالايغال فى الاستبداد

*
* *

استبداد الفرد أقل عسفاً ، حذر التبعة ، من استبداد الجماعة إذ لا تبعة عليها

*
* *

من السهل قلب الاستبداد الفردى ، ولا حيلة للمظلوم من استبداد الجماعة

*
* *

ليس الظلم هو المكروه غالباً ، بل المكروه دائماً هم الظالمون

*
* *

أقسى المظالم محتمل ، اذا جهل مصدره

*
* *

لا يستقيم أمر حكومة الأمة إلا إذا ساد فيها روح اليعاقبة [1]

---

(١) فريق من أهل الثورة الفرنساوية اشتهر بالعسف والقسوة

تتولد روح اليعاقبة من ضيق الفكر ، وتطرف الشهوة وثورة المعتقد وعدم قابلية التعقل الصحيح

*
* *

ليس اليعقوبى من أهل النظر العقلى . بل هو من أهل الاعتقاد فهو لا يحاول مطابقة معتقدة للعقل . بل يعمل على ادماج العقل فى معتقده

*
* *

تنقسم بعض الأمم من حيث السياسة الى يعاقبة لا يفقهون للماضى سراً ، والى محافظين لا يدركون ضرورات الحاضر

*
* *

سياسة الجمع منحطة دائماً ، وليس لحكومة الامة إلا هذه السياسة

*
* *

لولا أن الضرورات الاقتصادية تصدمن شهوات حكومة الأمة ، لكانت يدها معول خرابها

*
* *

تبدأ الديمقراطية اذا انتصرت بهدم الطبقات الممتازة قديما ثم توجد طبقات ممتازة مرة أخرى

*
* *

جرائم الملوك لا تعد بجانب آثام الأمم

*
* *

ورثت حكومة هذا العصر فى نظر الجموع سلطان الملوك أيام كانوا ظل الله فى الارض

*
* *

لطيف الخوف شأن كبير فى حكومة الامة ، فالخوف من الجيش ومن الكنيسة ومن العمال ومن الموظفين ، هو الذى على أكثر قوانيننا منذ عشرين عاماً

*
* *

سلطة الحكومة الديمقراطية التى تنتقل وزاراتها مسرعة من وزير إلى وزير ، بيد المصالح التابعة اليهم . فالوزراء يحسبون أنهم يحكمونها . وهم بها محكومون

*
* *

كلما ضعفت الحكومة عظم سلطان فريق الموظفين

*
* *

ما أسرع الفوضى إلى أمة ، إذا حلت فيها كلمة الجماعة محل كلمة القانون

*
* *

يخف عسف حكومة الامة بقلة ثباتها، لان سرعة تعاقب الاحزاب فى دست الحكم ، يجعل ظل كل منها سريع الزوال

* * *

إما تصير الحكومة الديمقراطية هيمنة عسكرية ، وإما تؤول الى حكومة ذوى الاموال، وتلك صورة من أشد صور الاستبداد ظلماً

* * *

لا يستدل على حقيقة حال الأمة السياسى بدستورها ، ولا بقوانينها ، وإنما مقياس ذلك فى المقابلة بين شأن الحكومة وشأن الافراد فى الأعمال العامة وفى الاعمال الخاصة

* * *

ترى حكومة الأمة أن إقفال المعابد أقل ضرراً من إقفال حانات الخمور ، وسترى أن الأول أعظم خطراً

* * *

أمة تنشد المساواة على الدوام ، هى قاب قوسين من الاسترقاق

٧

روح السياسة

المسائل السياسية فى هذا الزمان ، شبيهة بأسئلة أبى الهول المذكور فى القصص القديمة : إما أن يحلها من يزاولها ، وإما أن يغتال

*
* *

لا يدرك السياسة من جهل روح الشعوب والامم والافراد والجماعات

*
* *

الامة وحدة ذات قوى متنافرة تحتاج إلى التوازن ، فاذا اختل توازنهم بدت الفوضى

*
* *

تنحصر السياسة فى أمرين : علم وبصر

*
* *

الحكومة بنت عصرها ، لا أمه

*
* *

إذا لم يكن من القوى مايمهد للذرات الطبيعية والخلايا الحية

والافراد البشرية طريق فعلها ، فهى عثير لا فائدة منه

*
* *

سلطان الحكومة بخضوع المحكومين طوعاً أكبر من سلطانها بقوتها

*
* *

ماعرفت الامم حتى الآن من أشكال الحكومات إلا أثرة الفرد أو أثرة الجماعة ، والثانية كانت على الدوام أقسى من الاولى

*
* *

العلم بالنتائج البعيدة للاعمال السياسية متعذر ، ولهذا كان الشغف بالاصلاحات الكلية خطراً كبيراً

*
* *

لا تنبت الحوادث السياسية فجأة ، ولكنها نتيجة سلسلة أسباب سابقة

*
* *

عدُّك الحادث لا مفر منه ، يجعله قضاء محتوماً

*
* *

الفوز فى السياسة كما فى الحياة لأهل اليقين ، وقلما فاز المترددون

*
* *

ضعف ثقة طائفة بحقوقها يضيعها كما وقع للشرفاء قديماً ، وما هو واقع لأهل الطبقة الوسطى حالا .

* * *

الامور المعروفة الواضحة أقل أهمية من التى يغشاها الابهام سيان فى ذلك السياسة والحياة الفردية

* * *

لا تتولد الحرية بنقل الاثرة من يد إلى أخرى

* * *

ليس ضرر الحكومة المطلقة من المستبد بالامر فيها ، بل من ألوف صغار المستبدين الذين يتقاسمون سلطانه

* * *

اختلاط السلطات نتيجة اختلاط الأفكار

* * *

النظريات السياسية كالمعتقدات الدينية ، لا ينبغى الحكم عليها من جهة انطباقها على العقل ، بل من حيث أثرها فى الناس

* * *

كثير من الخطأ السياسى صادر عن نظريات صحيحة عقلا

* * *

عدم الافكار الرئيسية فى السياسة ، أقل ضرراً من الافكار الباطلة

زوال الحكومات بخطأها ، أكثر من زوالها بفعل أعدائها

*
* *

لولا أن استبداد الأحياء محدود باستبداد أسلافهم فيهم ، لتجاوزوا فيه كل حد

٨

فن الحكم

الاجتماع بلا وازع متعذر ، كما أنه لا نهر إلا بضفاف تحصر تيار مياهه

*
* *

أنجع الوسائل فى هدم مبدإ السلطة ، إلفات الناس إلى مالهم من الحقوق ، واغفال تذكيرهم بما عليهم من الواجبات ، فكل على استعداد للاخذ بالاولى ، وقليل يأبه للثانية

*
* *

لا يكفى أن تهتم الحكومة بمنافع الامة المادية ، بل لابد من العناية أيضاً بآمالها

*
* *

السلطان الادبي لا يقاوم بالقوانين ولا بالجند

لا يسوس الناس إلا من عرف أنه لا تلازم بين تطور النفس الشاعرة وتطور النفس العاقلة ، وأن الواحـدة منهما لا تتأثر بالاخرى إلا قليلا

*
* *

من أسرار فن سياسة الأمم استخدام نزعات النفس الشاعرة والنزعات الدينية وتوجيهها فى طريق معقول

*
* *

يحتاج الفكر الجديد الى سند يتكئ عليه حتى ينتشر ، فاذا ما ثبت صار متكا

*
* *

ينبغى للوازع أن لا يشارك قومه فى شهواتهم ، لـكن يجب عليه أن يكون على علم بها

*
* *

سياسة الامة متعذرة على من جهل أن من المفتقدات الباطلة عقلا ، ما هو أفعل فى الناس من الحقائق الناصعة

*
* *

من الخطر معاداة الدين ، وكل حكومة تضطهد الامة فى معتقدها هالكة من يد هذا المعتقد

*
* *

ينبغى للحكومة أن تبتعد عن الاضطهاد ، ولو لم تقصد من عملها إلا المنفعة الحقة ، لان العنف يفيد المذاهب المضطهدة أكثر مما ينفع مضطهديها

* * *

وظيفة العالم قتل الاوهام ، ووظيفة السياسى استخدامها

* * *

إذا عمدت الحكومة إلى متابعة الرأى العام ولم توجهه ، بطلت سيادتها

* * *

سلطان غير موثوق به ، يوشك أن تزول حرمته

* * *

إذا تفرقت التبعة فهى الاباحة

* * *

استخدام السلطان لفائدة طائفة يزيد فى جشعها ، ولا تلبث أن تنقلب عدوة لصاحبه

* * *

من وسائل فن الحكم ، اجتذاب قواد الاغلبيات أو معارضتهم بأمثالهم .

* * *

لا يفل الزعماء إلا الزعماء

* * *

من السهل تمزيق روح الجماعة لانها عرضية ، لكن من المتعذر إماتة روح الامة لانها روح دائمة

* * *

الارجاء للاستعداد حكمة كما قال « ميكافيل » . لكن من الخطر أن يكون الغرض منه ترك تمهيد السبيل للزمن

* * *

عدم الرضا علة المجهود ، فما طمحت الى الرقى نفس راضية برزقها

* * *

ينبغى للحكومة أن تجعل من الاخلاق سدوداً ، قبل أن تصير هذه ضرورة حالة ، ولات حين بنائها

* * *

إذا لاح وجوب التسليم ، وجب أن لا ينتظر به حتى لا يكون مهرب منه

* * *

من عوامل التفريق بين الامم ، مذهب حب الانسانية والخوف

ولا عذر لمن تصدى للحكم فى الاخذ بهما

*
* *

التساهل دائماً أمام التهديد ، والطرق القهرية ، يولد فى النفوس اعتقاداً بأن المطالب تنال من طريق الوعيد أو التخريب

*
* *

التساهل لا يمنع حربا لزمت ، ولكنه يزيد فى نفقتها ويكثر من ضررها

*
* *

عقوبة صارمة مؤقتة ، أفضل من عقوبة هينة مستمرة

*
* *

إنما يفيد الارهاب فى زجر النفوس إذا لم يطل أمده

*
* *

حكومة تعودت التحالف مع الاضطراب ، مقتولة به

*
* *

إذا تعذر حكم الامة طبقاً لمبادىء صحيحة ، وجب التعويل على حكمها طبقاً لما اتفق على أنه صحيح

*
* *

من الخرق معارضة اندفاع الامة ، بل الحكمة تقضى بتحويله شيئاً فشيئاً

*
* *

الرجل الممتاز يعرف كيف يستخدم القدر ، كما يستخدم الربان الرياح من أى ناحية هبت

*
* *

لكل حادث ظهر أسباب خفية اقتضته ، من لم يستطع استكناهها جاهل بفن سياسة الامة

*
* *

السياسة التى لا تعنى إلا بالحاضر ، سياسة منحطة

*
* *

سلامة الذوق والخلق . أنفع غالباً للسياسى من حدة الذكاء

*
* *

لا دوام لمجتمع إن لم يكن له أفكار ثابتة ، ولا يترقى الفرد إلا بتطور أفكاره

*
* *

الحاضر مثقل بالماضى ، فمن أراد النظر إلى ماهو آت ، وجب عليه أن يذكر ما فات

*
* *

التبصر مفيد ، والتقية أفيد : ذاك يعصم من المفاجأة وهذه تعصم من آثارها

*
* *

سياسى لا بصر فيه ، محدث أقدار كبير ضررها

فهرست

الفصل الأول

الحياة الشاعرة

صفحة

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

صفحة

الفصل الثالث

الحياة القومية

صفحة

الفصل الرابع

الفكر والعمل

صفحة

من أمير الى سلطان

ترجمة الخطاب الذى رفعه المغفور له الأمير مصطفى فاضل باشا
الى صاحب الجلالة السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦

(نقله إلى اللغة العربية)

« المرحوم »

أحمد فتحي زغلول باشا

« عنى بتصحيحه ونشره »

توفيق الرافعي

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
[illegible]

«كلمة للناشر»

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين: وبعد فهذه رسالة إصلاح من رسول تجديد وصلاح تقدم بها أمير مصرى حر الفكر سرى النزعة نبيل الهوى هو المغفور له الامير مصطفى فاضل باشا الى أمير المؤمنين السلطان عبد العزيز

تقدم بها ذلك الامير المصرى إلى ذلك المقام العلي فكانت بالحكومة العثمانية صيحة حق على انها لها نصيحة صدق على حين كان العثمانى الحر يؤثر أن يئد كلمة الحق فى وجدانه على أن يبعثها على لسانه لقنوط من الاصلاح وانقطاع الوسيلة اليه إذ كانت الامة العثمانية تئن من عسف حكومتها وأولى الامر فيها ولا تجرؤ على الشكاة وكانت من الجهل والفقر تضرب فى ليلين ومن المظالم والمغارم تركب لجين وقد ضربت الفوضى فاثقلت

ونفض الاساة أيديهم يأساً أو كادوا حتى خيف على بناء ذلك الملك العريض أن يتداعى بعضه لبعض

ولكن ذلك الامير المصرى لم يمر بخلده طيف اليأس فارسل قامه على سجية كل قلم حر يتخطى الحواجز القائمة ويشق السجوف المرسلة حتى مر صريره بسمع أمير المؤمنين فابرأ بذلك ذمته وأرضى ضميره وقام بالنصح عن كل ناصح

ولا أصف هذه الرسالة التى اتقدم بها إلى القراء بغير ما تصف به نفسها فانها فى بلاغة الاصلاح أسلوب قائم بنفسه وهى تشبه فى طب السياسة أن تكون تشخيصاً لجمهرة أمراض متشابهة الظواهر والاغراض

إنى ألفت نظر قارئها الكريم إلى أن كاتبها قد نفى عن الدولة شبهة أغرم المتعصبون برمايتها بها وهى شبهة التعصب الدينى فقد أثبت فى سياق ذلك النفى أن العثمانيين جميعاً مسلمين وغير مسلمين كانوا فى تحمل الظلم سواء

وقد حفلت الرسالة بطائفة من عيون الحكم وكانت فى جملتها وتفصيلها آية اخلاص واصلاح وذلك من سر خلودها على الدهر؟

القاهرة فى يناير سنة ١٩٢٢ توفيق الرافعى

تمهيد

من أمير الى سلطان

لما اعتلت أحوال الدولة العثمانية وتداعى بناء الملك وخاف الناس على الخلافة أن تذهب بها يد الجور وظلم الرعية كتب المغفور له مصطفى فاضل باشا ابن المرحوم ابراهيم باشا ابن المرحوم محمد على باشا سنة ١٨٦٦ الى السلطان عبد العزيز هذا الخطاب يقول :

ياصاحب الجلالة

ما أصعب وصول كلمة الحق إلى حظيرة الملوك والامراء، البطانة تحجبها وتخفيها، والملوك سكارى، بخمرة الملك منصرفون عن الصواب بلذة السلطان

يظنون أن الأمم إذا تعبت فبما كسبت، وإذا ساءها حال فبما أهملت، وأن الدول إذا دالت، فذاك طوعاً لقضاء لامرد له

يحتاج المرء فى استقبال الواقع، وطرح الخيال، إلى إخلاص وإقدام، وهو أحوج إلى ذلك ليبلغ الامر وما فيه للسلطان

مولاى

ما برح عن قلبى ذلك الاخلاص، وجلالة الملك يشهد به، ولا يجهله أولئك الذين كانوا السبب فى اغترابى، نعم لم أجد من الزمان ما كنت أرجو حتى أبرهن بساطع الاعمال على تعلق بذاتكم السامية، ورغبتى فى خير أمتى وسعادتها، إن لم أقل مع الاسف فى بعثها، غير أنى أول من أزاح أمامكم الستار عن عيوب حكومتكم، وكشف ما ينتاب الوطن من المحن، ففكرى

موقوف على خدمة جلالتكم وخدمة الدولة العثمانية، وقد استمددت من ميلى نحو عرشكم واحترامى ، ومن حبى لوطنى وإعظامى ، قوة انظر بها غير هياب محنا تجتاحنا فى غسق الليل وضوء النهار ، ويقينى بكرم سجايا كم يجرئنى على بيانها فلا أخفى واحدة منها ، وأعود إلى وصف الدواء الذى يشفينا إذا لم يمض الزمان قبل عقد العزائم وشد الرحال

مولاى

إن ما يبدو من رعاياك المسيحيين من الخروج على السلطان عمل من أعمال أعدائنا الاجنبيين ، ولكنه أيضاً دليل على ما يصيب الرعية كلها من جانب حكومتكم ، فقد انتهجت معها مسلكا إذا عذرت لاجله فيما مضى فلا عذر لها فى البقاء عليه الآن ، لانه لن يثمر غير الظلم ، ولن ينشر إلا الجهل ، ولن يجلب إلا الفاقة والفساد

يظن الاوربيون أن المسيحيين هم الذين اختصوا فى الدولة العلية بالظلم والهوان ، وأنهم وحدهم يسامون العذاب ويستذلون ، إن بعض الظن إثم ، المسلمون ولا من ينصرهم من دول الغرب

أشد آلاما ، وأغرق فى الظلم ، وأتعس حالا ممن أنكر رسالة النبى ، وما صبروا على ما أصابهم إلى يومنا هذا إلا لأن قلوبهم أشربت حب الرضا بالقضاء مقرونا بأناة طويلة ونفس أبية مما لايدركه الغربى ، ثم هم سلالة أولئك الكرام الذين استووا على عرش السلطنة وقد امتزج فيهم إخلاصهم للدولة باعتقادهم بالقرآن ، لكن اسمح ياذا الجلالة لخادم أخلص لك الولاء أن يقول : لم يبق فى قوس صبر المسلمين منزع ، فقد بلغ بهم الضر نهايته ، وأكلت أجسامهم الآلام ، وأمسوا لاقدرة لهم على كتمان ما فاض عن نفوسهم من الضجر والرزايا ، ومن الخطر على أسرتك وعلى أمتك أن تترك اليأس يتولى الرعايا .

اشتد الظلم بالناس وما أنت إلا كاره إياه ، وما إخال عظماء أمتك إلا راغبين عنه ، ولكنه أثر لازم للحكومة بجملتها ، حتى إنك وحولك معروف وطولك باد قد لاتقدر على منعه ، إذ هو لايتصل بعلمك ، مع انه يضعف من رجولة هذه الامة ، وينقص من ذاتيتها ، ويحط من قدر فضائلها

مولاي

فى رعاياك قوم مخلصون تتولى الحسرات قلوبهم إذ ينظرون إلى هذه الامة التي هى مجدنا وبخارنا تنفل صفوفها لقلة النسل أو للهجرة ، على أن هذا لا يروعنى فقد يكون لنظام جيوشنا دخل فيه ، بل الذى أخشى وأراه يقترب منا اننا معشر العثمانيين أشبهنا الامم المغلوبة ففشا فينا منذ بضع سنين انحطاط فى الخلق يشتد يوماً بعد يوم، ويعم طبقات الامة شيئاً فشيئاً

مولاى

ما قضى آباؤنا منـذ أربعمائة عام على دولة الشرق ، وثبتوا أقدامهـم فى المدينه التى جعلها قسطنطين عاصمة الدنيا ، وأحرزوا ذلك الفتح العظيم الذى يعد من أكبر الاعمال مجداً فى التاريخ ، بمحض الاعتقاد بالدين والشجاعة فى القتال ، بل إن تلك النهضة وهذه الشجاعة أثر من آثار خلقهم الادبى ، كانوا يطيعون أولى الامر منهم عن رضا لا مكرهين ، فما ذلوا ، ولا استسلمت ألبابهم بل بأتوا على عزة النفس واستقلال الذات ، اقترن فيهم روح النظام

بروح الانفة قائمين على خلق متين ، قدروا الفضيلة قدرها فقهروا تلك الدولة الكبرى التي استوطنتها رذائل الاستبداد ، ونزلت بها مخازى الظلم والمغارم

نعم ، ليس الخلق الأدبي المتين كل القوة في هذا الوجود حيث نرى للجرائم جيوشاً وللآثام سلطاناً ، لكنه الابن القوى المكين ، لا تقوم دولة بدونه ، وإذا هو فارق الامة تداعى بناؤها ومن خواصه أنه يعظم ما عظمت فتوحاته ، أما غيره من الصفات فانه يتحلل فى آثاره ويفنى إن ظفر

مولاى

كل الذين يرجون فخاركم ومجد الوطن ينظرون ، والنفس مثقلة بالاحزان ، إلى ماحل بالامة من نقص فى شهامتها ، وتدل فى شرفها وعزتها ، وأنى لها البقاء على تلك الخلال مهما تأصلت فى نفوسها ، والمسلمون منهم يقاسمون النصارى صنوف الذل ، ويشربون معهم كأس الهوان ، وكلهم يستجير من عسف الولاة والحكام ، رجال ما خضعوا لسلطانك إلا بالاسم ، وإلا فانك لاتدرى أهم ينفذون إرادتك فى الامة ؟

خلت بلادك من رأى عام ، فأصبح عمالك غير مسئولين أمام رعيتك ، ومعناه أنهم أمسوا غير مسئولين أمام عرشك ، فلامن يقدر على أن يبث اليك شكوى ماتوافى الرعية ، واستباحوا كل منكر ، وصار الناس طائفتين ، حاكم يظلم ولا من يردع ومحكوم يظلم ولا من يشفع ، حاكم يدعى أن سلطانه من سلطانك لاحد ولا قيد ، ويتذرع بذلك إلى النقائص والمعاصى ، ومحكوم يهوى الى حضيض الذل بما يساء اليه ، حاكم سد دون الرعية أبواب الشكوى فاذا ما ارتفع بها صوت ملؤه التعظيم قالوا قوم ثائرون ، لهذا تولى اليأس الرعايا ، وأنوا تحت أحمال المظالم وهم صامتون ، وأخذهم الجور وأنتم تعلمون أن الجور يفسد الضمائر ويطمس العقول

الدم الذى يجرى في عروق الترك طاهر كريم ، لاريب أننا نحب الوطن حباً جما ، وحب الوطن يقوى عزائمنا ، ويسهل علينا أغلى الضحايا ، ولا نزال جنداً بواسل لانخاف الموت ، ولنا وقار ورثناه عن آبائنا الاولين ، ومن مميزاتنا إخلاص صريح يجعلنا نفضل المساواة على كل خير سواها ، ترى تدوم فينا هذى الصفات طويلا ، وهل نثبت أمام هذا الصدام ؟

مولای

إن يوماً تفارقنا فيه هـذه الاخلاق ليوم يحق فيه الهوان علينا ولن نجد لنا بعد ذلك منقذاً

ليت مصابنا محصور فى انحطاطنا الادبى ولم يمتد إلى مانحن فيه من الجهل السحيق بل من فساد قوتنا العاقلة

مولای

لما نزل آباؤنا باوروبا لم يكن لهم من سنا العلم شىء ، ولكنهم كانوا ذوى ذوق سليم فيه قوة ومضاء ، شأن النفوس الطاهرة العالية ، وكانوا ذوى عقل يحب الحركة وينفر من تافه الامر ، لا كما كان أولئك الذين تفرقوا يوم أطلت عليهم طلائعنا ، وا أسفاه إن العقول لتصاب بالشلل فى حكومة لا مجال لهمة الافراد فيها

مولای

الترك أشد رعاياك تأثراً بالاستبداد ؛ لانه لا يتفق مع مافطروا عليه من استقامة النفس وعزتها ، ولسنا معشر الاتراك على شىء من

تلك الكفاءة المخزية التي كانت لمترفي البيزنطيين ، تراهم من أهل الفطانة إلا أنهم لا يأبون الضيم ، ولا ينفرون من حكومة مطلقة القول في الرعايا ، خلقنا سذجاً يعجب البشر بتبسط أفكارنا ، فلما نبت أفكارنا عنا تبلهنا وصرنا ولا عقل فينا ، واذا ما دام هذا حالنا فقدنا من يصلح لحكمنا ، وعز من يحسن الادارة بيننا ، وليت المغلوب وقد امتاز من بعض الوجوه عنا كان أصلح حالا منا ، انا واياه من نكد الطالع سواء

مولاى

نحن في عصر لا سؤدد فيه الا لمن كبر عقله ، وكثر علمه ، ولما يئن زمان الحكم لمن هو أطهر نفساً وأشد اخلاصاً ، من أجل ذلك انصرفت الهمم في ارجاء أوروبا الى التعليم ، حتى أن أقل الحكومات رغبة فيه لا تجد للهرب من الاهتمام به سبيلا ، هذه سويسرا قد لا ترى فيها رجلا أميا ، وتلك بلاد الانكليز التي تحكمها طائفة من الشرفاء تتخلى رويداً رويداً عن امتيازاتها قد نهضت منذ خمسة وعشرين عاماً لنشر المعارف الاولى نهضة كبرى ، وكأني بالامة البروسيانية ما ظفرت بالامة النمساوية الا لان الغالب كان أعلم من المغلوب ،

أنرضى بالانحطاط العقلي ، ومن حولنا أوروبا تبذل كل نفيس فى سبيل رقيها ؟

انى أعيذ مولاى أن يظن الاكثار من المدارس كافياً لنشر التعليم وبث العلوم فماذا تنفع المنازل لاسكان فيها ، وما الذى يرجى من مدارس أولادها أبناء ذل خاملون ؟

ألحرية أول مرب للامم ، هى تخلق كل مرب عداها ، وما من مرب يسد مسدها ، والامة المستعبدة تحتقر العلم لانه لا يفيدها ، وانما ترغب الامم فى العلم اذا كان لها من الحقوق ماوثقت منه وأمنت عليه ، فتتعلم لتحسن الانتفاع بحقها ، وكل أمة جاهلة مستعبدة هى جبان أو خائنة

مولاى

مصابنا فى هذا الزمان دونه ضعفنا الادبى وفساد عقولنا ، انا نلتقى أينما سرنا بخصم عنيد جبار هو الفقر ، كم رأت جلالتكم خزائنكم خاوية ، كم حزنتم اذا أعوزكم المال لدفع رواتب العمال ، كم دخل الاسى قلبكم الرحيم ، اذ علمتم تفاهة ما يجرى من الرزق على خدام دولتكم ؟ ذلك بما علمتم من أن العامل فى الشرق ان قل راتبه أ كل

السحت ، وأخذ مما فى أيدى الرعية : الا أن فراغ خزائن الدولة لايحزننا كما نحزن لسوء الحال المدلول عليه بهـذا الفراغ ، ذلك خطر أشد

حكومتكم هى التى تعيش بين الحكومات من خراج قليل ، ومملكتكم متنائية الارجاء كثيرة السكان وعجيب أن يثقل كاهل أمة كبرى بمثل هذا الخوارج اليسير ، لـكن لا عجب إذ علمنا أن طريقة جبايته من أكبر الطرق عيوبا ، وأن الامة لا تعمل إلا قليلا وتجهل كل شىء ، بهـذا عضها الفقر ، وباتت تئن تحت مغارم الحكومة ، حين لا يشعر غيرنا بمثل مغارمنا

هوى كل شىء فى الدولة ، الزراعة ثم التجارة وأختمها الصناعة فـكانما ضللنا سبيل الانتاج ، وجهلنا وسائله ، وجمدنا فى مشاهدة فقرنا ، فلا يحرك مرأى الفاقة فينا همة ، ولا يدفعنا إلى عمل

مولاى

يدعى الاوربيون أن ضعفنا وانحطاطنا راجعان إلى شعبنا وديننا ، ويقولون لا نصلح لغير الجندية ، ومذهب القـدر يقعد بهمتنا ، ما شذت أمة الترك عن الامم الاخرى ، وإذا هى بكرت

بعمل الجندى فلكى تتخذلنفسها مكاناًتحت القبة الزرقاء ، فمافعلت إلا كما فعلت أمم خلت من فرنك وجرمان وعرب ، وسواء أبدت حركة الامة أولا فى الحرب أو الصناعة فالمصدر واحد ، هو قابلية الحركة مطلقاً ، وما من أمة كبرت شجاعتها إلا كان لها مع الزمن فى الصناعة القدح المعلى ، اللهم إلا محن تثنيها عن طريقها ، والامتان الفرنساوية والانكليزية أصدق برهاناً

أما ديننا فلا فرق بينه وبين الاديان الاخرى فى كونه خاضعاً لما أراد الله فيه ، وللنصارى معتقدات فوق جميع معتقداتنا ، فعندهم مذهب الجبر وقد علمهم رسولهم بولس أن العبد فى يد الرب كالطينة فى يد صانع الجرة ، وما كان هذا يامولاى بمانعهم من نيل الخيرات بجد لا جد بعده ، وإنا لنحسن صنعاً إذا كنا لآثارهم مقتفين

الحق أولى أن يقال : ما منعنا من أن نكون أمة جد مثلهم إلا طريقة حكمنا ، فحيثما يتاح للانسان أن يستثمر الانسان لا يستثمر عقله ، ولا يستغل أرضه ، وأنى ضرب الظلم مضاربه رغب الناس عن العمل ، إذ مامن يضمن لهم ثمرة أتعابهم ، ذلك حال الفرنساويين قبل سنة ١٧٨٩ ، تلك البلاد الجميلة التى تعجب

بها جلالتكم وأعجب بها ، كانت في خمول ، والحركة تمنطقها ، وقام فيها وزير بعد وزير جليل القدر يريدها على صناعة راقية ، فبذرت بذورها فى أرض مستعصية بيد حاذقة لكنها مستبدة ، فلم تجد البذور من ماء الحياة الصحيحه ما يغذيها ، فازورت تحت قدم الاستبداد ، وما زال بها حتى فنيت ، وكان الفلاح فى بعض الاقاليم لا يكاد يشبه الانسان ، يهيم فى الغابات ، لباسه جلد الوحش ، ويرى الخلق ثوباً قشيباً ، فى ثلاثين حجة تبدل يامولاى كل هذا بعد أن أعتقت الامة من رقها منذ سنة ١٧٨٩ ، وحل الفرنساويون مقاماً محموداً بين أغنى الدول وأكبرها همة فى القارتين ، إن فضل الحرية كان على الامة الفرنساوية فضلا كبيراً

مولاى

الحرية تحيي الامم حتى الحياة المادية ، وإذا ما تجرد المرء من الحقوق بات على الطوى ، وأصبح لا يجد رغيفاً

مولاى

إذا بلغ الحال بأمة ما قدمت ، ونال الزمان من فضيلتها ،

وزاد السبات رويداً رويداً مخاجر عقلها ، واشتد وقر الفقر فيها ففرغت خزائن الدولة ، وجب على من أشرب قلبه حب الوطن ، وملأ الاخلاص جوانحه أن لا يكتفى بطلب الاصلاح ، فما الاصلاح إلا كلمة لا معنى لها إذا لم يصاحبه العمل ، كم من قانون وعدنا به أو نشر فينا ، وكم لدينا من الوعود بالخيرات ، لهذا وجب علينا أن نتقدم خطوة إلى الامام لنبلغ هذا الملتمس الهام الى العرش محفوفا بالتجلة والاعظام .

مولاى

خذ بيد الدولة فجدد شبابها ، وامدد اليها يد الدستور تنشلها من الفوضى ، هب الامة دستوراً صحيح الجسم ، رحيب الصدر ، خصيب التربة وحفه بالامان وحطه بما يضمن الاخلاص فى انفاذه ، والامانة فى الجرى عليه ، وبما يصونه من العبث به مدى الايام ، دستوراً يتساوى أمامه المسلمون والنصارى فى الحقوق وفى الواجبات ، ليسود الوئام ، ويهبط على الكل السلام ، وترد حجة الذى يقول من أهل الغرب : ان التآلف بين الغالب والمغلوب محال

آه مولاى

أرى المنافقين أو الجاهلين من ذوى الرأى فينا يسارعون الى الاستفادة حتى من كلمة الدستور ، يقولون لجلالتكم : الدستور يصير الملك آلة لا روح فيها ، يسلبه اختيازه ، وينزع عنه شعاره ، وللامة : الدستور يريد المسلمين على ترك ماعز لديهم : دينهم ولباسهم وما ألفوا ، أولئك قوم ماكرون ، أوهم قوم جاهلون

مولاى

أنبذ مشورتهم ، أمتى خل عنك سعايتهم ، ما قيد الدستور غير الهوى ، وما انتزع من الملك الا حرية الخطأ فى سياسة الرعية ، والا اختيار السر فى حكمها ، وما فرض على الرعية فرضاً ينبوعنه مجدها ، أويذهب معه نعيمها ، ولكنه يكفل الدين ، ويصون الملك ، ويحفظ الاموال على أهلها ، وينزل السكينة فى قلوب الأمة ، ويصير المرء حراً كريماً .

الدستور يتيح لنا أن نبدل روابطنا الدولية الحاضرة بأحسن منها ، فمن بلادنا أوفى أوربا الغربية التى لا يعلم ما أصابنا من الضر

بتداخل معتمدى الدول فى أمورنا ؟ أجل كثر ما رفع أولئك السفراء صوتهم بطلب الاصلاح عندنا ، ولكن ما أكثر ما طلبوه إيثاراً لقوم على قوم ، أو خدمة لبعض الافراد وهو أقبح وأنكى ، والدستور يقيم لنا بناء حكومة قوية لا منفذ فيها لقول الاجنبى ويبسط الحماية الحقة على صنوف الرعية ، وينشر على الجميع راية عدل يستوى فيه كل امرء بأخيه

مولاي

أزفت الساعة ، نجم دولة الآباء ، ان ثمنها من المهج والدموع كان عظيما ، إن ماضيها كان عصراً مجيداً ، ان حاضرها ليحزننا حزناً شديداً ، ما أشق هذا الحاضر على نفس جلالتك كل ما حولنا يتهددنا ، وكل ما عندنا يتداعى ، وثاقب نظرك محيط بما يحيق بنا ، فما فى الامر محل للخيال ، لك الجند قادرة على إخماد كل ثورة تتأجج من وقود الاجنبى ، لكنهم ليس فى رواحلهم زاد يتبلغ به من يخضعون ، ولا فى ألسنتهم حكمة ينزلونها فى قلوب المغلوبين ولا فى وسعهم أن يحيطوهم بسور من الامان حيث يقيمون ، ولا أن يرفعوا عنهم ظلم الظالمين ، لكم أن تسوفوا يوم اللقاء بما تهبون

للطامعين فى ملككم من المزايا ، ولكن ماحظنا من هـذا العطاء وقد نكون بسببه يوم الحساب أضعف جانباً وأوهن رابطة وأقل مالا

مولاى

كل عام يمر ينصرم معـه حبل المعين الخارجى ، وتنطفىء روح من أرواح وجودنا الداخلى ، هذه انكلترا لم تعد كما كانت منذ اثنتى عشرة سنة شديدة الرغبة فى معونتنا ، وتلك الامـة النمساوية أصبحت بعد انكسارها فى ألمانيا دولة شرقية أكثر منها دولة غربية ، فيهمها أن تتقرب من العنصر السلافى المقيم بيننا ، والذى يدعو الى الحذر أكثر من هذا وذاك انقلاب الرأى الاوروبى العام علينا ، فبعد أن كان معناسنة ١٨٥٥ بدأ ينأى بجانبه عنا ، واذا تنازلت جلالتكم وألقيتم نظرة في جرائد باريس ولوندره وفلورنسا علمتم أن الامم ذوات المصلحة فى معونتنا مالت الى الظن بقرب سقوطنا ، فكثير من ساسة فرنسا وانكلترا وإيتاليا ينظرون إلى مايجرى كل يوم فى الدولة على يد حكامها ، وما تسام الرعية من العسف والمظالم ، ويكتبون فى تلك الجرائد أويقولون : تلك حكومة لن تقدر على إصلاح نفسها ، فزوالها محقق ،

فلندعها وشأنها ، ولا نحاولن منع سقوطها ، تلك مصيبة عظمى لامرد لها

مولاي

علينا أن تكذب تلك النبوات ، وأن نسترد اليناميل الرأى الاوروبى العام ، وما نسترده إلا بانقلاب فيه الخير إذ يكون بإرادتك ، وبأمر منك ، محفوفاً بسياج من حكمتك ، ولنقم البرهان لفرنسا وانكلترا وألمانيا وإيتاليا على أن شعبنا وديننا لا يمسكاننا فى الذى نحن فيه من ضعف وفساد ، وبما سمعنا لاجله مر السلام ، يقولون إنا مثنا ، فعلينا أن نعمل كما يعمل الاحياء ، وليس فى الذى أعرض على جلالتكم من خطر ، وما هو ببدعة لم يأتها أحد قبلنا ، والامة التركية بحمد الله لا تحب أن تطير على أجنحة الخيال ، بل اقتبس من ماضى الامم ، وأرجو أن تقوم حكومتكم بما قامت به الحكومات الاخرى يوم أحدقت بها الخطوب لننجو من سبيل نجاتها

مولاى

ما نحن أول أمة مال الزمان عليها فأفسد كل صالح فيها

وأوهن قواها ، ولن نكون آخر أمة يصيبها ما أصابنا ، بل إن أمماً أوروبية غيرنا أناخ عليها الدهر بصروفه ، وتركها مثلنا في حاجة إلى النهوض والتجدد السياسي والاجتماعي ، وقد عرضت على جلالتكم كيف اضمحلت الامة الفرنساوية في القرن الماضي ، وكيف عم الضعف صناعتها فكسدت ، وثروتها فأفلست مرة في كل عشر سنين ، وكيف ساد في طبقاتها حكم الاهواء حتى قال أحد ساسة ذاك الزمان للملك لويس الخامس عشر : « لم يبق في مملكتك من يفخر بقدره الرفيع فينجو من نقمة وزير ، ولا من يحمد الله على ضعته فلا ينال منه كويتب حقير » سقطت هيبة الحكومة في تلك البلاد فما درت أي باب تطرق ، ولا عرفت أي طريق تسلك ، وكان لها في كل يوم سيرة أخرى ، وسقطت فرنسا ولا سيما بعد حرب السنين السبع إلى صف دول الرتبة الثالثة ، فكيف استردت مقامها ، ورجعت اليها القوة في بضع سنين ، واستبسل جندها فصد غارة أوروبا بأجمعها ؟

استردت كل هذا لما غيرت نظاماتها ، وإذا كان ذلك التغيير المجيد المحفوف بالمخاوف قد أضاع مهجاً وأثكل الامهات ، فذلك لان الامة لم تفهم به إلا في الساعة الاخيرة ، ساعة ان بلغت

الروح التراقي ، ساعة تهب فيها الامم مسلمة ومسيحية صارخة ·
لقد فات الوقت ولات حين تقاعس

مولاى

خرجت أمة غير الامة الفرنساوية من مثل المحن التى نزلت بها ، فقامت من سقطة خيل أن لا نهوض منها ، وكان خلاصها بتغيير نظامها : أراد ملك (پييمونتى) الصغير أن يكون ملك أمة إيتاليه كبرى ، لكنه ماجمع الجيوش ولا حشد الكوكبات ، بل منح أمته دستوراً حراً فملك لساعته قلوب قومه ، واستولى على عقول التليان ، وهش الرأي العام لنزعته ، وساغ له وهو يلفظ النفس الاخير أن يتنبأ بأن ابنه فيكتور عمانويل يزيد ملكه ثلاثة أمثاله ، ويضع على رأسه تاجاً من أكبر التيجان الاوربية وأبهاها ، والفضل في هذا كله لكلمة واحدة لفظ بها فى حينها ، وتلك الكلمة هى « الحرية »

لدى أمثلة أفصح لساناً ، وأسطع برهاناً ، كلها جديرة بانعام نظر جلالتكم ، أأذكر الامة النمساوية تقتحم مفاوزَ الاخطار متكئة على الحرية الدستورية ، أم أمة البروسيا تخرج ظافرة فى الصيف الماضي بفضل حضارتها لا بفضل مكاحلها الجديدة ذات

الابرة كما قالوا ، أم غير هذى وتلك؟ ولكنى عرضت ما يكفى لاقناع جلالتكم بأن منح الامم حريتها فى هذا الزمان يشد بأس الحكومات ويزيد فى قوة الدول ، أفمن باعث يدعو إلى الظن بأن تركيا تشذ عن هذه السنه ، أم هى أمة ليست من بنى الانسان ، أم هو الدين ينبذنا من حظيرة المدنية ، ويحول بيننا وبين بواعث الرقى والرفاء؟ وجلالة مولانا أعلم منى بأن الدين سلطان الارواح ، يهدينا سبلنا إلى يوم المعاد ، ولكنه لا يقرر حقوق الامم ، وإنه إذا لم يمتنع فى معاقل الحقائق السرمدية ذهب وذهب معه كل شىء

مولاى

ليس فى هذا الوجود سياستان : مسلمة ومسيحية ، العدل واحد ، وما السياسة إلا العدل يجرى على يد السلطان

إن نظامنا القديم يفنينا : إنه أفسد طباع ساستنا ، وحط من نفوسهم ، فأفسدوا طباع الدولة وحطوا من مقامها ، فعلينا أن نخرج عن هذا النظام ، وأن لا نعود اليه أبداً ، نظام ترزح الامة تحت أثقاله ، ولا يرد صيحة المهاجم عنا ، فعلينا أن نخرج عنه إلى نظام كالذى نراه سائداً فى كل مكان ، ذاك الذى أتى نزل أنهض الامم وبنى للمجد صروحاً

أجدير بنا أن نرى الولايات التي انفصلت عن حكمنا مباشرة ، ولا فارق بيننا وبينها دماً وديناً ، تهلل للنظام الحر ونحن نقدم رجلا ونؤخر أخرى ؟ ألا تضم سلطنتك من صادقي الوطنية والمخلصين ولاءهم ، ومن الساسة المحنكين ، أكثر مما تضم مصر وتونس ومولداقيا والافلاق وصربيا ؟ بلى ، ادعهم يأتوك طائعين واجعل في كل بلد طائفة يختارها أهلها لا مكرهين ، تكشف لك الغطاء عن أمر رعيتك ، وتمهد لك سبيل العمل على مايميل اليك حنانك الابوى ، ثم اسمح للنواب تحشدهم ارادتك في عاصمة ملكك ، يشرحون لعرشك السامي حوائج الامة ، ويرفعون لمقامك العالي رغائبها.

كان أحد الاطباء يقول : « أعطني ذراعاً من النسيج أعطك رجلا شريفاً » ، وإنك لتستطيع يامولاي بما تمنح من الحقوق المكفولة برعايتك ، أن يكون لك رعايا أولو جد أولو عزم في صناعتهم ماهرون ، يشكرونك على نعمة الحرية التي أنعمت عليهم ويسبحون بحمدك يوم ترفع عنهم المغارم ، وترد المظالم ، ويتفانون في خدمتك ، ويعملون لخيرك وخيرهم ، وخير الدولة : يثقفون عقولهم ويهذبون نفوسهم ، ويستردون فضائل الاجداد ، ويبرزون

إذا أذن مؤذنهم كماة بواسل قد وطنوا النفس على أن يفوزوا أو يموتوا ، ملتفين حول عرشك لافتداء سلطانك ، إنه أمسي لما عز لديهم نعم الكفيل .

ليس من قصدى هنا أن أشرح نظام الحكومة الدستورية التى أرجو نيلها منطبقة على أحوال الامة ، موافقة لاخلاقها وتقاليدها ومرافقها ، فانى سأقدم لجلالتك الدستور الذى وضعناه أنا وصحبى .

فى علم جلالتكم أنى لست من ذوى الحاجات ألتمس مركزاً ، أو أستجدى ميزة أو عطاء ، إنما طمعى وأجهر به أن أبلغ جلالتكم رغبة السواد الاعظم من أهل سلطنتكم مسيحيين ومسلمين ، وغضاضة الاغتراب تخف عنى إذا استطعت عرض حقيقة الامر على مقامكم الرفيع .

يا جلالة السلطان :

ارجع إلى ضميرك قبل غيره ينبئك بما وجب عليك فى هذا الزمان ، حيث أخذت رعيتك الحيرة ، وحاق بها الاندحار فى كل معنى ، ذاك عمل ماجد ، لا يأتيه إلا من خصه الله بفضيلة الاقدام من فعله خلد التاريخ أثره وما بقى مخلوق إلا شكره .

مولاى

إذا كان الزمان لم يسعدك كما أسعد أحد أجدادك الاكرمين فلن تك أنت الذى أقمت صرح هذه الدولة العثمانية العظمى ، فانه ادخر لك مجداً باذخاً يوم ترد عليها مجدها ، ويوم تكون الناهض الكريم بها من رقدتها ، إن صوت الوطنيين الصادقين بل صوت الملايين من رعاياك ، نصارى ومسلمين ، يشاركني فى دعوتك إلى هـذا المقام الاسمى ، فأنت الجدير به وهو الجدير أن يرفع اسمك بين أسماء أولئك العظماء الذين تكبر الخلائق شأنهم وتشدو بفضلهم كل الامم ؟

باريس ١٨٦٦ مصطفى فاضل

سر تطور الأمم

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

بحث المؤلف فى هذا الكتاب عن أسباب الانقلابات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي غيرت من أحوال الأمم وردها الى مناشئها الفلسفية بدراسة أخلاق الشعوب وأحوالها النفسية مستشهداً بوقائع التاريخ لاثبات صدق نظرياته

وللدكتور جوستاف لوبون هذا شغف بدراسة الاحوال النفسية للشعوب والجمعيات وهو يعد الآن أول باحث فى هذا الموضوع الذى يؤذن بفن جديد فى الفلسفة والسياسة

وهذا الكتاب من خير ما كتب الكاتبون الاجتماعيون فى هذا العصر

سر تقدم الانكليز السكسونيين

تأليف — ادمون ديمولان

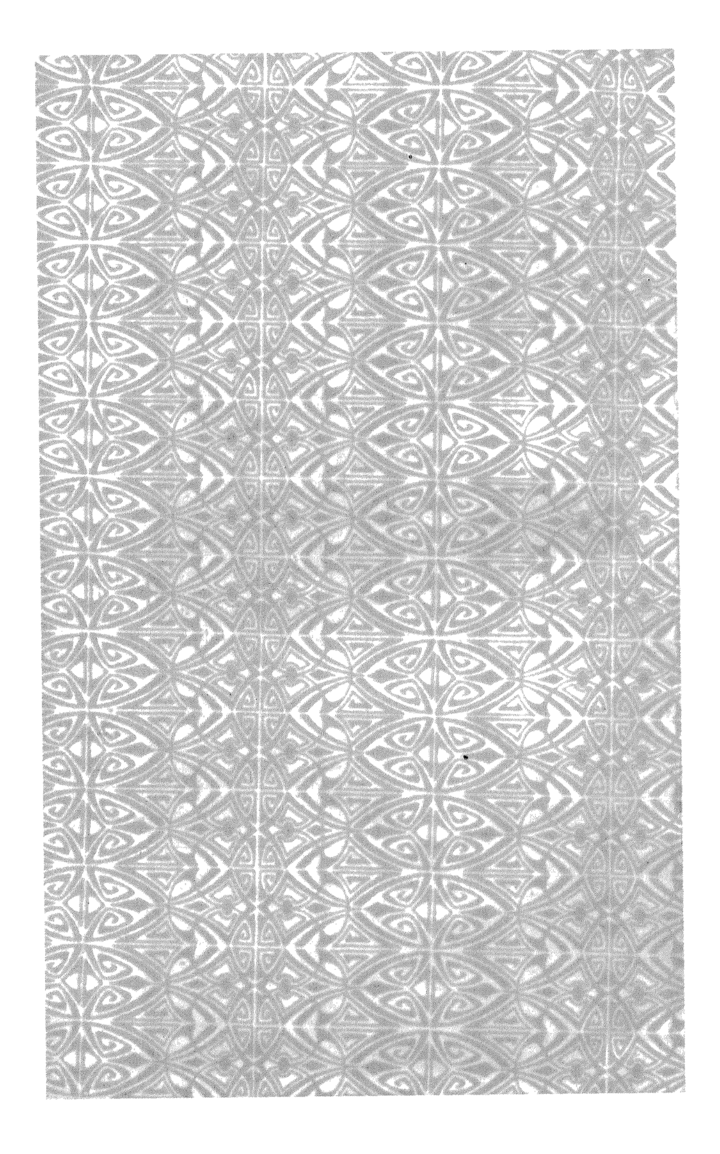
بهرت المدنية الانكليزية عيون الامم وألفتت اليها أنظار الحكماء فتصدى لبيان أسباب رقى هذه الدولة الكبيرة (ادمون ديمولان) فبحث عن أحوالها الخاصة والعامة مرشداً الى تأثير ذلك فى حياتها السياسية والاجتماعية ويعد هذا الكتاب من أهم العوامل التى أثرت فى تطور الافكار بمصر وثمنه ١٠ غروش

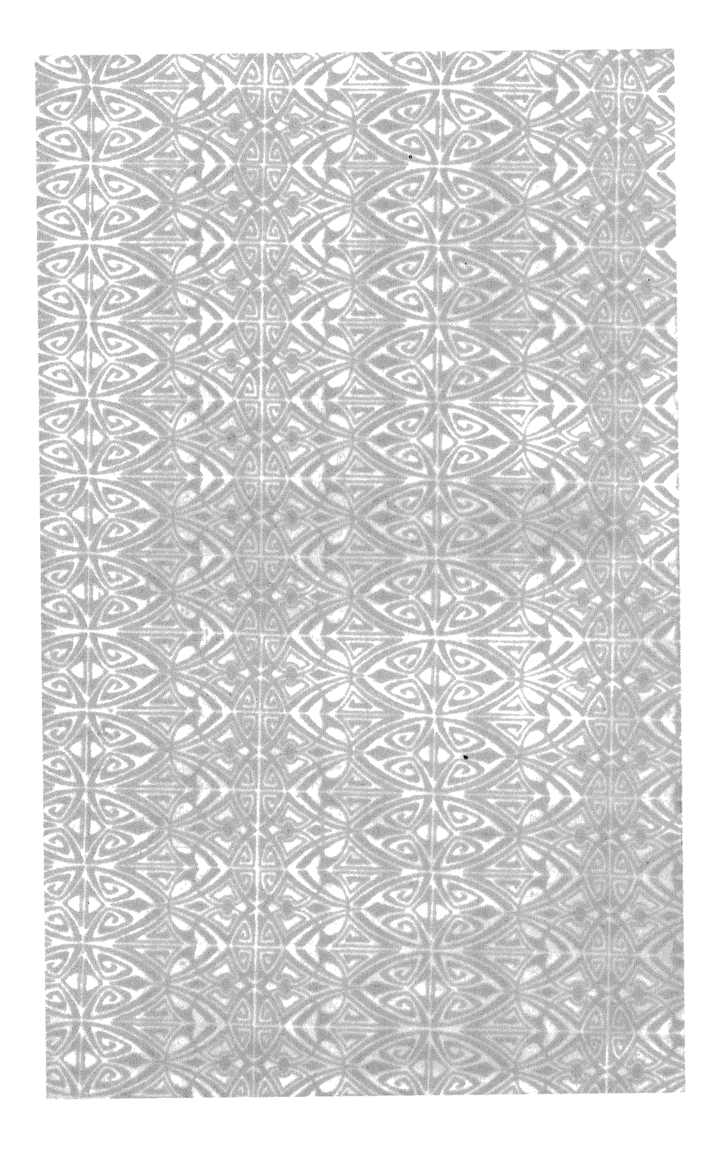


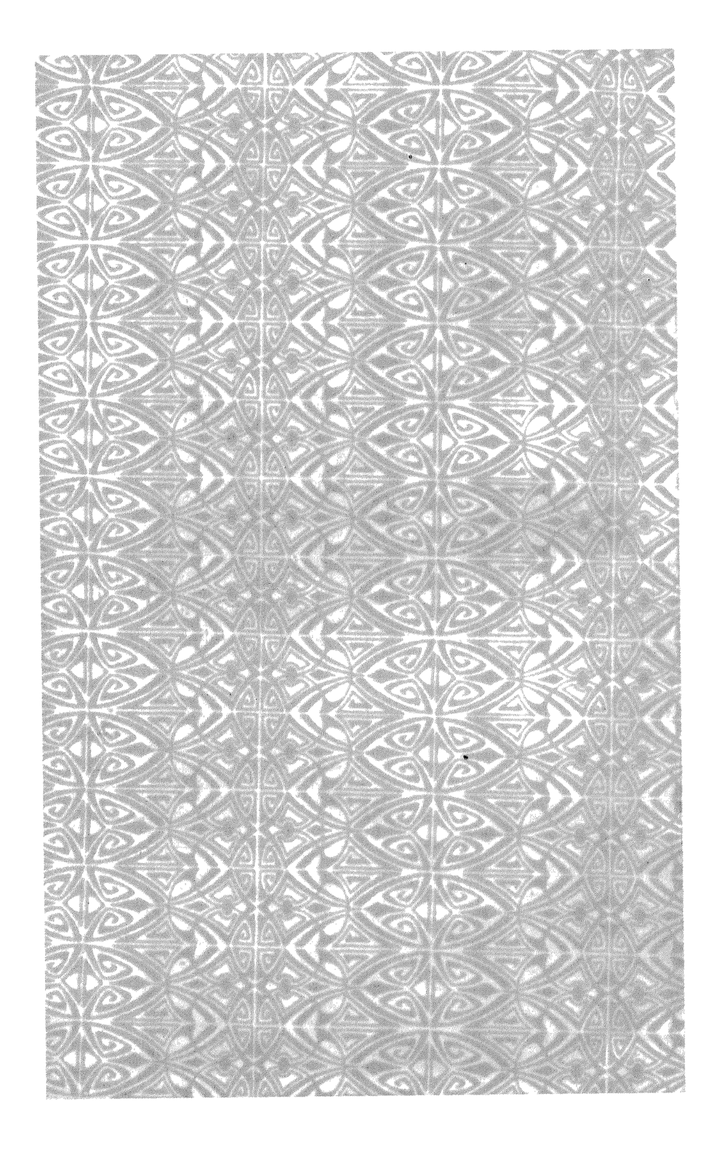
تأليف — الدكتور جوستاف لوبون.

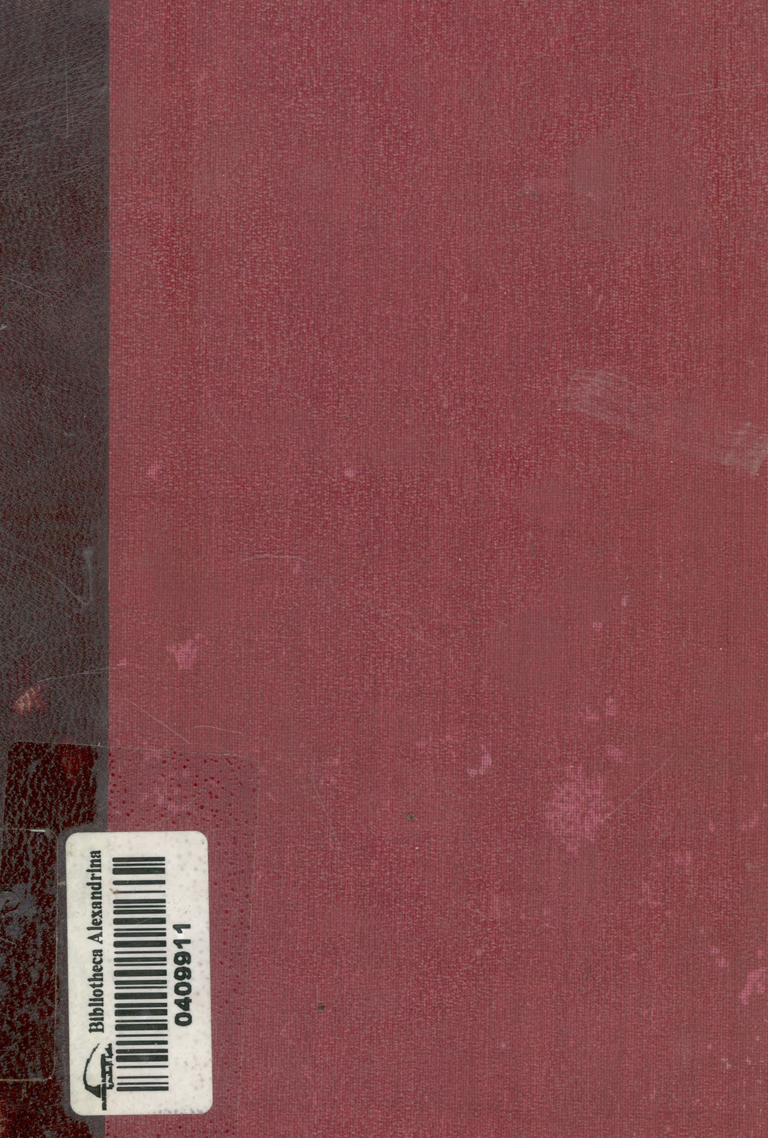
وحسبنا أن نقول فيه ماقاله مؤلفه فى مقدمته « الغرض من هذا الكتاب تلخيص بعض الأفكار المنثوره فى مؤلفاتى على اختلاف أنواعها وابرازها فى صورة قضايا جامعة لان الصيغ المختصرة تأخذ باللب وتبقى فى الذاكرة ولذلك شاعت جوامع الكلم فى عالم الادب »

القاهرة فى فبراير سنة ١٩٢٢ — توفيق الرافعى








Bibliotheca Alexandrina
04099911